

التَّسْهِيلُ لِتَأْوِيلِ التَّنْزِيلِ
تَفْسِيرٌ

الْعَنْكَبُوتُ - الرَّؤُومُ - لُتْمَانُ - السَّجْدَةُ

فِي سُؤَالٍ وَجَوَابٍ

تَأليفُ
أبي عبد الله مُصْطَفَى بْنِ الْعَدَوِيِّ

مَكْتَبَةُ مَكَّةَ

تفسير سورة العنكبوت

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾)

(الْم ﴿١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾)

[العنكبوت: ١-٧].

س: وضح معنى ما يلي:

﴿الْمَ - أَحْسِبَ - لَا يُفْتَنُونَ - فَتَنًا - يَسْئِفُونَا - سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ - يَرْجُوا - لَنُكَفِرَنَّ -

سَيِّئَاتِهِمْ﴾؟

ج:

الكلمة	معناها
﴿الْمَ﴾	أحرف مقطعة لا يعلم معناها إلا الله
﴿أَحْسِبَ﴾	أفطن
﴿لَا يُفْتَنُونَ﴾	لا يختبرون - لا يبتلون
﴿فَتَنًا﴾	اختبرنا
﴿يَسْئِفُونَا﴾	يفوتوننا ويهربون منا فنعجز عن إدراكهم ولا نؤاخذهم بأعمالهم
﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾	بئس ما يظنون - بئس ما حكموا به على الله ربهم إذ حكموا بأنه عاجز عن إدراك خلقه
﴿يَرْجُوا﴾	يأمل - يطمع - يخاف
﴿لَنُكَفِرَنَّ﴾	لنمحو - لنغفر
﴿سَيِّئَاتِهِمْ﴾	الأعمال السيئة التي عملوها



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿الْمَ ١﴾ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا

يُفْتَنُونَ ٢﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - : أفطن الناس أن يتركوا بلا ابتلاء ولا

اختبار ولا امتحان لمجرد قولهم آمنا، كلا بل ستختبرون وتمتحنون. أما قوله: (الَمْ) فهي أحرف مقطعة لا يعلم معناها إلا الله.

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

وأما قوله: (أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ) فإن معناه: أظنّ الذين خرجوا يا محمد من أصحابك من أذى المشركين إياهم أن نتركهم بغير اختبار ولا ابتلاء - امتحان -، بأن قالوا: آمنا بك يا محمد فصدّقناك فيما جئتنا به من عند الله، كلا لنختبرهم، ليتبين الصادق منهم من الكاذب.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

(وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ) يمتحنون أي أظن الذين جزعوا من أذى المشركين أن يقنع منهم أن يقولوا إنا مؤمنون ولا يمتحنون في إيمانهم وأنفسهم وأموالهم بما يتبين به حقيقة إيمانهم.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

وقوله: (أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ) استفهام إنكار، ومعناه: أن الله سبحانه وتعالى لا بد أن يبتلي عباده المؤمنين بحسب ما عندهم من الإيمان، كما جاء في الحديث الصحيح: «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في البلاء». وهذه الآية كقوله: (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الضَّالِّينَ) [آل عمران: ١٤٢].



حتمية الابتلاءات

س: اذكر بعض الأدلة على حتمية الابتلاءات وهل يقتصر الابتلاء على أهل الشر فقط؟

ج: من ذلك ما يلي:

* قال تعالى: (أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾) [العنكبوت: ٢-٣].

* وقال تعالى: (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾) [التوبة: ١٦].

* وقال تعالى: (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الضَّالِّينَ ﴿١٤٢﴾) [آل عمران: ١٤٢].

* وقال تعالى: (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٢﴾) [الملك: ٢].

* وقال تعالى: (إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ ﴿٢﴾) [الإنسان: ٢].

* وقال تعالى: (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾) [الكهف: ٧].

* وقال تعالى: (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾) [هود: ٧].

وهذه الابتلاءات - عافانا الله والمؤمنين من كل مكروهٍ وسوء - تعم الصالحين والظالمين على السواء:

* قال تعالى: (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَاءِ اتِّكُمُ ﴿٤٨﴾) [المائدة: ٤٨].

* وقال تعالى: (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ) ﴿[محمد: ٣١].

* وقال تعالى: (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ) ﴿[البقرة: ١٥٥].

* وقال تعالى: (وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ) ﴿[محمد: ٤].

* وقال تعالى: (﴿لَتَبْلُوكَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ آتَوْا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

* ثم إن أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل:

«يُبتلى الرجل على قدر دينه فإن كان في دينه صلابَةٌ زيد في البلاء» قاله النبي ﷺ (١).

* ولذا فلما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه لرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ لَتَوْعَكُ وَعَكًا شَدِيدًا، قَالَ: «أَجَلُ إِنِّي أُوْعَكُ كَمَا يُوْعَكُ رَجُلَانِ مِنْكُمْ». قُلْتُ: ذَلِكَ بَأَنَّ لَكَ أَجْرَيْنِ؟ قَالَ: «أَجَلُ، ذَلِكَ كَذَلِكَ مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى شَوْكَةٌ فَمَا فَوْقَهَا إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا سَيِّئَاتِهِ كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا» (٢).

ثُمَّ إِنَّ النَّازِرَ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﷻ، وَالْمَتَأَمِّلَ فِي سِيرَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَالْمَتَّبِعَ لَسِيرِ أَهْلِ الْفَضْلِ وَالصَّلَاحِ وَغَيْرِهِمْ يَرَى بوضوح وجلاء أنهم جميعاً قد ابْتُلُوا واختَبِرُوا وأن الابتلاءات والاختبارات قد تعددت وتنوعت وها نحن نسوق هنا - بمشيئة الله - أمثلة من الابتلاءات التي تعرَّض لها الأنبياء وأهل الفضل

(١) وسيأتي بلفظه إن شاء الله.

(٢) البخاري (حديث ٥٦٤٨)، ومسلم (٢٥٧١).

والصلاح لعلّ مذكراً أن يدّكر ومتعظاً أن يتّعظ فالذكرى تنفع المؤمنين والاشتراك في المصائب يهوئها على أهلها في الحياة الدنيا^(١).



معرفة النعمة من النعمة

س: كيف يعرف الشخص أن الذي حلّ به ابتلاء أو انتقام؟

ج: هذا في الغالب بالنظر إلى سيرته وعمله، فإن كانت سيرته حسنة وعمله صالحاً فالغالب أن الذي حلّ به ابتلاء لرفعة درجاته، وإن كان مسرفاً على نفسه متعدياً على الخلق ففي الغالب أن ما أصابه انتقام منه حتى يرجع عن شره وفساده والله أعلم.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾^(٢).

ج: المعنى - والله تعالى أعلم -: ولقد اخترنا وابتلينا الذين من قبل المؤمنين بك، الذين قالوا آمنا، اخترناهم وابتليناهم فمنهم من وجدناه صادقاً في قوله، ومنهم من لم يكن كذلك. بل كان كاذباً في دعواه.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ولقد اخترنا الذين من قبلهم من الأمم، ممن أرسلنا إليهم رسلنا، فقالوا مثل ما قالته أمتك يا محمد بأعدائهم، وتمكيننا إياهم من أذاهم، كموسى إذا أرسلناه إلى بني إسرائيل، فابتليناهم بفرعون وملئهم،

(١) أما في الآخرة فلا يهوئها، قال تعالى: (وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْكُرُ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ) [الزخرف: ٣٩] أي: لن ينفعكم اليوم اشتراككم في العذاب.

وكعيسى إذ أرسلناه إلى بني إسرائيل، فابتلينا من اتبعه بمن تولى عنه، فكَذَلِكَ ابْتَلَيْنَا أَتْبَاعَكَ بِمُخَالَفِكَ مِنْ أَعْدَائِكَ (فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا) ﴿٣﴾ مِنْهُمْ فِي قِيلِهِمْ آمَنَّا (وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَذِبِينَ) ﴿٤﴾ مِنْهُمْ فِي قِيلِهِمْ ذَلِكَ.



س: ندرك تمامًا أن الله يعلم الكاذب من الصادق، فكيف يوجّه قوله تعالى: (فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَذِبِينَ) ﴿٣﴾؟

ج: نعم، الله يعلم ما كان وما سيكون وما هو كائن ويعلم كل شيء. أما توجيه الآية الكريمة فمن العلماء من قال: إن قوله (فَلْيَعْلَمَنَّ) معناه فليُظهرن وليُبينن.

وقال آخرون: إن المراد بالعلم، هو العلم الذي يترتب عليه الثواب والعقاب، والله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

والله عالم بذلك منهم قبل الاختبار، وفي حال الاختبار، وبعد الاختبار، ولكن معنى ذلك: وَلْيُظْهِرَنَّ اللَّهُ صَدَقَ الصَّادِقُ مِنْهُمْ فِي قِيلِهِ آمَنَّا بِاللَّهِ مِنْ كَذِبِ الْكَاذِبِ مِنْهُمْ بِابْتِلَائِهِ إِيَّاهُ بَعْدَ وَهُوَ، لِيَعْلَمَ صَدَقَهُ مِنْ كَذِبِهِ أَوَّلِيَاؤُهُ، عَلَى نَحْوِ مَا قَدْ بَيَّنَّاهُ فِيمَا مَضَى قَبْلُ.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

والله سبحانه وتعالى يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون. وهذا مجمع عليه عند أئمة السنة والجماعة؛ ولهذا يقول ابن عباس وغيره في مثل: (إِلَّا لِنَعْلَمَ) ﴿البقرة: ١٤٣﴾: إلّا لنرى؛ وذلك أن الرؤية إنما تتعلق بالموجود، والعلم أعم من الرؤية، فإنه يتعلق بالمعدوم والموجود.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

قوله تعالى: (فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا) أي فليرين الله الذين صدقوا في إيمانهم وقد مضى هذا المعنى في (البقرة) وغيرها قال الزجاج: ليعلم صدق الصادق بوقوع صدقه منه وقد علم الصادق من الكاذب قبل أن يخلقهما ولكن القصد قصد وقوع العلم بما يجازى عليه وإنما يعلم صدق الصادق واقعاً كائناً وقوعه، وقد علم أنه سيقع. وقال النحاس: فيه قولان: أحدهما: أن يكون (صَدَقُوا) مشتقاً من الصدق و(الْكَاذِبِينَ) مشتقاً من الكذب الذي هو ضد الصدق ويكون المعنى فليبين الله الذين صدقوا فقالوا نحن مؤمنون واعتقدوا مثل ذلك والذين كذبوا حين اعتقدوا غير ذلك والقول الآخر: أن يكون صدقوا مشتقاً من الصدق وهو الصلب والكاذبين مشتقاً من كذب إذا انهزم فيكون المعنى فليعلمن الله الذي ثبتوا في الحرب والذين انهزموا.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْفُتُونَا سَاءَ مَا

يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾؟

ج: المعنى - والله أعلم -: أظن أهل الشرك الذين يشركون بالله فيسيئون إلى أنفسهم بذلك أشد الإساءة وأعظمها أنهم سيهربون منا ولا نستطيع إدراكهم ومن ثمَّ فلن نستطيع أن نحاسبهم ونعاقبهم، فإذا كان هذا هو حكمهم على الله بأنه يعجز عن إدراكهم فساء هذا الحكم الظالم الجائر الذي حكموا به على الله أنه عاجز، وساء هذا الظن الذي ظنوه بالله ربهم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

يقول تعالى ذكره: أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَشْرِكُونَ بِاللَّهِ فِي عِبَادَتِهِمْ أَنَّهُمْ

المعنيون بقوله: (الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْقُوا) يقول: أن يعجزونا فيفوتونا بأنفسهم، فلا نقدر عليهم فننتقم منهم لشركهم بالله.
وقوله: (سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) يقول تعالى ذكره: ساء حكمهم الذي يحكمون بأن هؤلاء الذين يعملون السيئات يسبقوننا بأنفسهم.

وقال القرطبي رحمه الله:

قوله تعالى: (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ) أي الشرك (أَنْ يَسْقُوا) أي يفوتونا ويعجزونا قبل أن نؤاخذهم بما يفعلون.

وقال:

(سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) أي بئس الحكم ما حكموا في صفات ربهم أنه مسبوق والله القادر على كل شيء و (مَا) في موضع نصب بمعنى ساء شيئاً أو حكماً يحكمون ويجوز أن تكون (مَا) في موضع رفع بمعنى ساء الشيء أو الحكم حكمهم وهذا قول الزجاج.

وقال ابن كثير رحمه الله:

وقوله: (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْقُوا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) أي: لا يحسن الذين لم يدخلوا في الإيمان أنهم يتخلصون من هذه الفتنة والامتحان، فإن من ورائهم من العقوبة والنكال ما هو أغلظ من هذا وأطم؛ ولهذا قال: (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْقُوا) أي: يفوتونا، (سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) أي: بئس ما يظنون.



س: وضح معنى قوله تعالى: (مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ

الْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾)؟

ج: المعنى - والله تعالى أعلم -: من كان يعمل عملاً صالحاً ويرجو بعمله يوماً يلقي فيه ربّه سبحانه وتعالى فيثيبه الله ويكافؤه على عمله (فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاتٍ) أي: فإن الأجل الذي أجّل الله العباد فيه للقاءه لَاتٍ لا محالة، وبإذن الله سيكافؤه ربّه ويثيبه فهو سبحانه السميع لأقواله، والسميع لكل شيء والعليم بأحواله وبأحوال الخلق كلهم.

ألا ويعلم أن من جاهد فإن ثواب جهاده عائدٌ عليه، وليس يعود على الله من جهاد عبده المجاهد شيء، فالله غني عن كل خلقه، وكما في الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنُّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتَقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا».

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: من كان يرجو الله يوم لقاءه، ويطمع في ثوابه، فإن أجل الله الذي أجله لبعث خلقه للجزاء والعقاب لَاتٍ قريباً، (وَهُوَ السَّمِيعُ) يقول: والله الذي يرجو هذا الراجي بلقاءه ثوابه، السميع لقوله: آمنا بالله، العليم بصدق قيله، إنه قد آمن من كذبه فيه، وقوله: (وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ) يقول: ومن يجاهد عدوّه من المشركين فإنما يجاهد لنفسه؛ لأنه يفعل ذلك ابتغاء الثواب من الله على جهاده، والهرب من العقاب، فليس بالله إلى فعله ذلك حاجة، وذلك أن الله غني عن جميع خلقه، له الملك والخلق والأمر.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى: (مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ) أي: في الدار الآخرة، وعمل الصالحات

رجاء ما عند الله من الثواب الجزيل، فإن الله سيحقق له رجاءه ويوفيه عمله كاملاً موفوراً، فإن ذلك كائن لا محالة؛ لأنه سميع الدعاء، بصير بكل الكائنات؛ ولهذا قال: (مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) .

وقوله: (وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ) ، كقوله: (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ) [فصلت]:

٤٦] أي: من عمل صالحاً فإنما يعود نفع عمله على نفسه، فإن الله غني عن أفعال العباد، ولو كانوا كلهم على أتقى قلب رجل [واحد] منهم، ما زاد ذلك في ملكه شيئاً؛ ولهذا قال: (وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ) إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ .

قال الحسن البصري: إن الرجل ليجاهد، وما ضرب يوماً من الدهر بسيف.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: (مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاتٍ) (يَرْجُوا) بمعنى يخاف من قول الهذلي في وصف عسال:

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها

وأجمع أهل التفسير على أن المعنى: من كان يخاف الموت فليعمل عملاً صالحاً فإنه لا بد أن يأتيه، ذكره النحاس.

قلت (مصطفى): وإنني لأعجب من نقل القرطبي لهذا الإجماع، هذا، وقد دلت الأدلة القواطع على أن أهل الإيمان يرون ربهم ﷻ يوم القيامة، ويلقونه ﷻ.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: (وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ) أي ومن جاهد في الدين وصبر على قتال الكفار وأعمال الطاعات فإنما يسعى لنفسه أي ثواب ذلك كله له

ولا يرجع إلى الله نفع من ذلك (إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) ❀ أي عن أعمالهم وقيل: المعنى من جاهد عدوه لنفسه لا يريد وجه الله فليس لله حاجة بجهاذه.



س: وضح معنى قوله تعالى: ❀ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ❀؟

ج: المعنى -والله أعلم-: إن الذين آمنوا بالله ورسله وآمنوا بما أوجب الله عليهم أن يؤمنوا به، وصاحبوا ذلك بصلاح الأعمال لنمحو عنهم سيئاتهم التي ارتكبوها وذلك؛ لأنهم ليسوا بمعصومين، فمن ثم تصدر منهم - وإن كانوا مؤمنين - أعمالاً تسوهم فيغفرها الله لهم، ويجازيهم على صالح أعمالهم أفضل الجزاء وخير الجزاء أضعافاً مضاعفة.

هذا، وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن المراد بقوله تعالى: (لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ) ❀ أي: تلك التي عملوها أثناء شركهم، وقت أن كانوا مشركين قبل أن يُسلموا، وأيضاً فقد حمل قوله تعالى: (وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ) ❀ أي: على العمل الصالح الذي عملوه وقت أن كانوا مشركين، وهذا اختيار الطبري رحمه الله، وأراه قد قصر في هذا الاختيار الذي ذهب إليه، وإنما تكفير السيئات عامٌّ، سواء التي ارتكبوها أثناء كفره أو التي فعلها بعد إسلامه، وأما عن الأعمال الصالحة التي عملها في شركه ^(١) فقد قال النبي ﷺ: «أسلمت على ما أسلفت من خير».

أما ما عمله من عمل صالح بعد إسلامه، وكان يتغني به وجه الله ﷻ فيجزيه عليه أحسن الجزاء وأفضله والله أعلم.

قال الطبري رحمه الله:

(١) ومعلوم أنه إذا مات مشركاً فقد حبط كل عمله.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

ثم أخبر أنه مع غناه عن الخلائق جميعهم من إحسانه وبرّه بهم يُجازي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أحسن الجزاء، وهو أنه يكفر عنهم أسوأ الذي عملوا، ويجزيهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون، فيقبل القليل من الحسنات، ويُثب عليها الواحدة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، ويجزي على السيئة بمثلها أو يعفو ويصفح، كما قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظِلُّمُ مَثَلًا دَرَّةً ۖ وَإِنْ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٩﴾ وَمَنِ النَّاسُ مِنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةً لِلنَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايِهِمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [العنكبوت: ٨-١٣]

س: وضح معنى ما يلي:

(وَوَصَّيْنَا - حُسْنًا - جَهْدَاكَ - أُوْذَى فِي اللَّهِ - فِتْنَةَ النَّاسِ - سَيِّلَنَا - وَلَنَحْمِلَ خَطَايَكُمْ - أَتَقَالَهُمْ -

يَفْتَرُونَ)؟

ج:

الكلمة	معناها
(وَوَصَّيْنَا) ﴿١﴾	أمرنا
(حُسْنًا) ﴿٢﴾	خيرًا - إحسانًا
(جَهْدَاكَ) ﴿٣﴾	اجتهدا عليك - حاربك
(أُوْذَى فِي اللَّهِ) ﴿٤﴾	عُذِّبَ لكونه قال لا إله إلا الله، أُوْذِيَ لكونه يرفع كلمة لا إله إلا الله
(فِتْنَةَ النَّاسِ) ﴿٥﴾	تعذيب الناس له لصرفه عن دينه
(سَيِّلَنَا) ﴿٦﴾	طريقنا في تديننا وتعبدنا - ديننا
(وَلَنَحْمِلَ خَطَايَكُمْ) ﴿٧﴾	لنحمل آثام ذنوبكم
(أَتَقَالَهُمْ) ﴿٨﴾	إثم ذنوبهم
(يَفْتَرُونَ) ﴿٩﴾	يكذبون - يختلقون



س: وضح معنى قوله تعالى: (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَهْدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ

لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَنْتُمْ كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾)؟

ج: المعنى - والله أعلم -: وأمرنا الإنسان ووصيناه أن يُحسن إلى والديه،

وأن يفعل بهما خيرًا ووصيناه أن يفعل معهما حسنًا أي خيرًا، وإن حاربك

واجتهدا عليك كي تجعل لي شريكًا، وأنت لا علم لك بأن لي شريكًا، بل تعلم أنني إلهٌ واحد فإن اجتهدا كي تجعل لي شريكًا وتعبداه معي فلا تطعهما وإليَّ يوم القيامة مرجعكم ومآبكم فأخبركم بما كنتم تعملون في دنياكم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ ﴿١﴾ فِيمَا أَنْزَلْنَا إِلَىٰ رَسُولِنَا ﴿يُولَدِي﴾ ﴿٢﴾ أَنْ يَفْعَلْ بِهِمَا (حُسْنًا) ﴿٣﴾).

واختلف أهل العربية في وجه نصب الحسن، فقال بعض نحويي البصرة: نُصِبَ ذلك على نية تكرير وصيئنا. وكأن معنى الكلام عنده: ووصينا الإنسان بوالديه، ووصيناه حسنًا. وقال: قد يقول الرجل وصيته خيرًا: أي بخير.

وقوله: (وَإِنْ جَاهِدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطَعُهُمَا) ﴿٢﴾ يقول: (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ) ﴿١﴾، فقلنا له: إن جاهدك والداك لتشرك بي ما ليس لك به علم أنه ليس لي شريك، فلا تطعهما فتشرك بي ما ليس لك به علم ابتغاء مرضاتهما، ولكن خالفهما في ذلك (إِلَىٰ مَرْجِعُكُمْ) ﴿٣﴾ يقول تعالى ذكره: إليَّ معادكم ومصيركم يوم القيامة (فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) ﴿٤﴾ يقول: فأخبركم بما كنتم تعملون في الدنيا من صالح الأعمال وسيئاتها، ثم أجازيكم عليها المحسن بالإحسان، والمسيء بما هو أهله.

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

يقول تعالى أمرًا عباده بالإحسان إلى الوالدين بعد الحث على التمسك بتوحيده، فإن الوالدين هما سبب وجود الإنسان، ولهما عليه غاية الإحسان، فالوالد بالإنفاق والوالدة بالإشفاق؛ ولهذا قال تعالى: (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا

نَهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤].

ومع هذه الوصية بالرفقة والرحمة والإحسان إليهما، في مقابلة إحسانهما المتقدم ، قال: (وإن جهداك لتُشركَ بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما) ﴿٢٣﴾ أي: وإن حرصا عليك أن تتابعهما على دينهما إذا كانا مشركين، فإياك وإياهما، لا تطعهما في ذلك، فإن مرجعكم إلي يوم القيامة، فأجزيك بإحسانك إليهما، وصبرك على دينك، وأحشرك مع الصالحين لا في زمرة والديك، وإن كنت أقرب الناس إليهما في الدنيا، فإن المرء إنما يحشر يوم القيامة مع من أحب، أي: حبا دينيا؛ ولهذا قال: (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنُدخلنهم في الصالحين) ﴿٢٤﴾.



س: اذكر سبب نزول هذه الآية الكريمة: (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حُسْنًا) ﴿٢٣﴾؟

ج: أخرج مسلم^(١) في صحيحه من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنه نزلت فيه آيات من القرآن قال: حلفت أم سعد أن لا تكلمه أبدا حتى يكفر بدينه. ولا تأكل ولا تشرب. قالت: زعمت أن الله وصاك بوالديك. وأنا أمك. وأنا أمرك بهذا.

قال: مكثت ثلاثا حتى غشي عليها من الجهد. فقام ابن لها يقال له: عمارة فسقاها. فجعلت تدعو على سعد. فأنزل الله ﷻ في القرآن هذه الآية: (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حُسْنًا) ﴿٢٣﴾ (وإن جهداك على أن تُشركَ بي) ﴿٢٤﴾ [لقمان: ١٥] وفيها: (وصاحبهما في الدنيا معروفا) ﴿٢٥﴾.



إنما الطاعة في المعروف

(١) مسلم حديث (١٧٤٨).

س: هل طاعة الوالدين مطلقة؟

ج: لا، بل هي في المعروف، أخرج البخاري ومسلم^(١) من حديث عليّ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ جَيْشًا وَأَمَرَ عَلَيْهِم رَجُلًا فَأَوْقَدَ نَارًا وَقَالَ: ادْخُلُوهَا فَارَادُوا أَنْ يَدْخُلُوهَا. وَقَالَ آخَرُونَ: إِنَّمَا فَرَرْنَا مِنْهَا فَذَكَّرُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ لِلَّذِينَ أَرَادُوا أَنْ يَدْخُلُوهَا: «لَوْ دَخَلُوهَا لَمْ يَزَالُوا فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» وَقَالَ لِآخَرِينَ: «لَا طَاعَةَ فِي مَعْصِيَةٍ إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ»^(٢).



س: وضح معنى قوله تعالى: (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ) ^(١).

ج: المعنى - والله أعلم - : والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلهم فيما أدخلنا فيه الصالحين، ألا وهي الجنة فالمعني لندخلهم مع الصالحين الجنة.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: (وَالَّذِينَ آمَنُوا) بالله ورسوله (وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) من الأعمال، وذلك أن يؤدّوا فرائض الله، ويجتنبوا محارمه (لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ) في مدخل الصالحين، وذلك الجنة.



(١) أخرجه البخاري مع «الفتح» (٢٣٣/١٣)، ومسلم (١٨٤٠).

(٢) وصح عن النبي ﷺ كما في البخاري (١٢١/١٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: «السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة»، وقال الله ﷻ: (وَلَا تَطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ، عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا) [الكهف: ٢٨].

س: وضح معنى قوله تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللّهِ جَعَلَ فِتْنَةً
النَّاسِ كَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ
الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾).

ج: المعنى - والله أعلم -: ومن الناس من يقول آمنا بالله وصدقنا رسل الله
فيُعلنون إيمانهم فإذا ابتلوا بسبب قولهم هذا - ابتلاهم أهل الكفر وعذبوهم
حتى يرجعوا عن إسلامهم - رجعوا عن الإسلام وتركوه وجعلوا فتنة الناس
(تعذيب الناس لهم) كعذاب الله يوم القيامة، فاستهانوا بالآخرة وكفروا فرارًا
من عذاب الدنيا، أما إذا نصر الله رسوله ﷺ ونصر أهل الإيمان، فإذا بهؤلاء
المنافقين الذين كفروا وارتدوا، إذا بهم يقولون لأهل الإيمان، رغبةً منهم في
مشاركتهم الغنائم، وفي النيل من خيراتهم، إنا كنا معكم نصركم على عدوكم
وندافع عنكم، فقال تعالى لهؤلاء ولغيرهم، أليس الله بأعلم منكم بما في
صدور الخلق كلهم، وهو أعلم بأهل النفاق ومرادهم، فإن كانوا يحاولون
غش المسلمين وخداعهم فالله يعلمهم ويعلم ما في قلوبهم وسيجازيهم على
ذلك.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ومن الناس من يقول: أقرنا بالله فوحدناه، فإذا آذاه
المشركون في إقراره بالله، جعل فتنة الناس إياه في الدنيا، كعذاب الله في
الآخرة، فارتدّ عن إيمانه بالله، راجعًا على الكفر به (وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ ﴿١٠﴾ يا
محمد؛ أهل الإيمان به (لَيَقُولُنَّ ﴿١٠﴾ هؤلاء المرتدّون عن إيمانهم، الجاعلون فتنة
الناس كعذاب الله (إِنَّا كُنَّا ﴿١٠﴾ أيها المؤمنون (مَعَكُمْ ﴿١٠﴾ نصركم على أعدائكم،
كذبًا وإفكًا، يقول الله: (أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ ﴿١٠﴾ أيها القوم من كلّ أحد (بِمَا فِي صُدُورِ

الْعَلَمِينَ ﴿١٠﴾ جميع خلقه، القائلين آمنا بالله وغيرهم، فإذا أُوذِيَ في الله ارتد عن دين الله فكيف يخادع من كان لا يخفى عليه خافية، ولا يستتر عنه سرًّا ولا علانية.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

يقول تعالى مخبراً عن صفات قوم من المكذبين الذين يدعون الإيمان بألسنتهم، ولم يثبت الإيمان في قلوبهم، بأنهم إذا جاءتهم فتنة ومحنة في الدنيا، اعتقدوا أن هذا من نقمة الله تعالى بهم، فارتدوا عن الإسلام؛ ولهذا قال: (وَمَنْ النَّاسُ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ).

قال ابن عباس: يعني فتنته أن يرتد عن دينه إذا أُوذِيَ في الله. وكذا قال غيره من علماء السلف. وهذه الآية كقوله تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾ [الحج: ١١]).

ثم قال: (وَلَيْنَ جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ﴿١٢﴾ أي: ولئن جاء نصر قريب من ربك - يا محمد - وفتح ومغانم، ليقولن هؤلاء لكم: إنا كنا معكم، أي إخوانكم في الدين، كما قال تعالى: (الَّذِينَ يَرَبُّونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْكُمْ وَنَمْنَعُكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ [النساء: ١٤١])، وقال تعالى: (فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَدِمِينَ ﴿١٤﴾ [المائدة: ٥٢]).

وقال تعالى مخبراً عنهم هاهنا: (وَلَيْنَ جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ﴿١٥﴾)، ثم قال تعالى: (أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أي: أليس الله بأعلم بما في قلوبهم، وما تكنه ضمائرهم، وإن أظهرها لكم الموافقة؟

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

قوله تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ ﴿١﴾ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي الْمُنَافِقِينَ كَانُوا يَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ ﴿٢﴾ فَإِذَا أُذِي فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ ﴿٣﴾ أَي أَذَاهُمْ ﴿٤﴾ كَعَذَابِ اللَّهِ ﴿٥﴾ فِي الْآخِرَةِ فَارْتَدَّ عَنْ إِيْمَانِهِ. وقيل: جَزَعٌ مِنْ ذَلِكَ كَمَا يَجْزَعُ مِنَ عَذَابِ اللَّهِ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى الْأَذِيَةِ فِي اللَّهِ ﴿٦﴾ وَلَئِنْ جَاءَ ﴿٧﴾ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ ﴿٩﴾ هَؤُلَاءِ الْمُرْتَدُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ﴿١١﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ فَقَالَ اللَّهُ لَهُمْ: ﴿١٢﴾ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٣﴾ يَعْنِي اللَّهُ أَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْهُمْ بِأَنْفُسِهِمْ.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ (أضواء البيان):

قوله تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُذِي فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ ﴿١﴾).

يعني أن من الناس من يقول: (آمَنَّا بِاللَّهِ ﴿١﴾ بلسانه، (فَإِذَا أُذِي فِي اللَّهِ ﴿٢﴾، أي: أَذَاهُ الْكُفَّارِ إِذْءَاهُمْ لِلْمُسْلِمِينَ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ صَارْفَةً لَهُ عَنِ الدِّينِ إِلَى الرَّدِّ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - كَعَذَابِ اللَّهِ فَإِنَّهُ صَارَفَ رَادِعَ عَنِ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي. ومعنى (فِتْنَةَ النَّاسِ ﴿٣﴾، الأذى الذي يصيبه من الكفار، وإيذاء الكفار للمؤمنين من أنواع الابتلاء الذي هو الفتنة، وهذا قال به غير واحد.

وعليه فمعنى الآية الكريمة؛ كقوله تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ﴿١﴾ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿٢﴾ [الحج: ١١]).

قوله تعالى: (وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ﴿١﴾).

ذكر جلَّ وعلا في هذه الآية الكريمة أن المنافقين الذين يقولون: آمَنَّا بِاللَّهِ وَلَمْ تَوْمِنْ قُلُوبُهُمْ، إِذَا حَصَلَ لِلْمُسْلِمِينَ مِنَ الْكُفَّارِ أَذَى، وَهُمْ مَعَهُمْ

جعلوا فتنة الناس، أي: أذاهم كعذاب الله، وأنه إن جاء نصر من الله لعباده المؤمنين فنصرهم على الكفار، وهزموهم وغنموا منهم الغنائم، قال أولئك المنافقون: ألم نكن معكم، يعنون: أنهم مع المؤمنين ومن جملتهم، يريدون أخذ نصيبهم من الغنائم.

وهذا المعنى جاء في آيات أخر من كتاب الله؛ كقوله تعالى: (الَّذِينَ يَرَبُّونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنْ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤١﴾ النساء: ١٤١)، وقوله تعالى: (وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَن لُّبُطٌ فَإِنْ أَصَبْتُمْ مَّصِيبَةً قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَبْتُمْ فُضِّلْتُمْ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾﴾ النساء: ٧٢، ٧٣)، وقد قدّمنا طرفاً من هذا في سورة «النساء».

وقد بين تعالى أنهم كاذبون في قولهم: (إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ﴿٧٢﴾)، وبين أنه عالم بما تخفى صدورهم من الكفر والنفاق، بقوله: (أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٣﴾).



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ

الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾﴾؟

ج: المعنى - والله أعلم - **: وليظهرن الله إيمان الذين آمنوا وصدقهم، وذلك بما يتليهم به من الأمور فيظهر صدقهم وكذا وليظهرن المنافقين، ليظهرن الله نفاقهم حتى يعلمه ما لم يكن يعلمه.**

هذا، ومن العلماء من قال: إن العلم هنا هو العلم الذي ينبنى عليه الثواب والعقاب، أي: ليظهرن الله من أفعال أهل الإيمان ما به يعظم أجورهم ويجزل لهم الثواب وليظهرن الله أمر أهل النفاق بما يوجب تعذيبهم، فالله أعلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: (وَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ) أولياء الله، وحزبه أهل الإيمان بالله منكم أيها القوم، وليعلمن المنافقين منكم حتى يميزوا كل فريق منكم من الفريق الآخر، بإظهار الله ذلك منكم بالمحن والابتلاء والاختبار وبمسارعة المسارع منكم إلى الهجرة من دار الشرك إلى دار الإسلام، وتثاقل المتثاقل منكم عنها.

وقال ابن كثير رحمه الله:

وقوله: (وَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ) أي: وليختبرن الله الناس بالضراء والسراء، ليميز هؤلاء من هؤلاء، ومن يطيع الله في الضراء والسراء، ومن إنما يطيعه في حظ نفسه، كما قال تعالى: (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ) [محمد: ٣١]، وقال تعالى بعد وقعة أحد، التي كان فيها ما كان من الاختبار والامتحان: (مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ) الآية [آل عمران: ١٧٩].



س: وضح معنى قوله تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) (١٣).

ج: المعنى -والله أعلم- أن أهل الكفر قالوا لأهل الإيمان: اتركوا ما أنتم عليه من الإيمان واسلكوا طريقنا طريق الزيف والضلال، وإن كان هناك تبعات وآثام وأوزار فإننا نتحملها عنكم، فكذبهم الله في قيلهم ذلك، إذ قال وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء، إنهم لكاذبون في أنهم يحملون خطاياهم ويتركونهم بلا خطايا.

هذا، وليس معنى قوله تعالى: (وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَهُمْ مِنْ شَيْءٍ) أنهم لن

يتحملوا إثم إغوائهم، بل سيتحملوا إثم إغوائهم بدليل الآية التي بعدها - وسيأتي شرحها - وإنما معنى قوله: (وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ) ﴿١٠﴾ هو الذي قدمناه من كونهم لن يحملوا خطاياهم ويتركونهم بلا خطايا، بل سيحملون خطايا إغوائهم، فضلاً عن كون الآخرين سيحملون خطايا أنفسهم هم الآخرون، والله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

يقول تعالى ذكره: وقال الذين كفروا بالله من قريش للذين آمنوا بالله منهم (اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا) يقول: قالوا: كونوا على مثل ما نحن عليه من التكذيب بالبعث بعد الممات وجحود الثواب والعقاب على الأعمال (وَلَنَحْمِلَ خَطَايَكُمْ) يقول: قالوا فإنكم إن اتبعتم سبيلنا في ذلك، فبعثتم من بعد الممات، وجوزيتهم على الأعمال، فإننا نتحمل آثام خطاياكم حينئذ.

وهذا - أعني قوله -: (اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلَنَحْمِلَ خَطَايَكُمْ) ﴿١٠﴾ وإن كان خرج مخرج الأمر، فإن فيه تأويل الجزاء، ومعناه ما قلت: إن اتبعتم سبيلنا حملنا خطاياكم، كما قال الشاعر:

فَقُلْتُ ادْعِي وَأَدْعُ فَإِنَّ أُنْدَى لَصَوْتٍ أَنْ يُنَادِيَ دَاعِيَانِ

يريد: ادعي ولأدع، ومعناه: إن دعوت دعوت.

وقوله: (وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) ﴿١١﴾ وهذا تكذيب من الله للمشركين القائلين للذين آمنوا (اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلَنَحْمِلَ خَطَايَكُمْ) يقول جل ثناؤه: وكذبوا في قيلهم ذلك لهم، ما هم بحاملين من آثام خطاياهم من شيء، إنهم لكاذبون فيما قالوا لهم ووعدوهم، من حمل خطاياهم إن هم اتبعوهم.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

يقول تعالى مخبراً عن كفار قريش: أنهم قالوا لِمَنْ آمَنَ منهم واتبع الهدى: ارجعوا عن دينكم إلى ديننا، واتبعوا سبيلنا، (وَلَنَحْمِلَ خَطِيئَتَكُمْ) ﴿١٠﴾ أي: وآثامكم - إن كانت لكم آثام في ذلك - علينا وفي رقابنا، كما يقول القائل: «أفعل هذا وخطيئتك في رقبتي». قال الله تكذيباً لهم: (وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطِيئَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) ﴿١١﴾ أي: فيما قالوه: إنهم يحملون عن أولئك خطاياهم، فإنه لا يحمل أحد وزر أحد، (وَأِنْ دَعُوتُكُمْ إِلَى حِمْلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ) ﴿١٢﴾ [فاطر: ١٨]، وقال تعالى: (وَلَا يَسْتَلْ حِمِيمٌ حِمِيمًا) ﴿١٣﴾ يُصْرُونَهُمْ ﴿١٤﴾ [المعارج: ١٠، ١١].



الداعي إلى ضلال يتحمل إثم من أغواه

س: وضح معنى قوله تعالى: (وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ) ﴿١٣﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم -: وليحملن أهل الكفر إثم كفرهم وضلالهم، وكذا وليحملن إثم إضلال من أضلوه وإغواء من أغووه وليسئلن يوم القيامة عن كذبهم في قيلهم: (اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلَنَحْمِلَ خَطِيئَتَكُمْ) ﴿١٠﴾ وكذا على افتراءهم على الله ودعواهم أن الله له شريك، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: وليحملن هؤلاء المشركون بالله القائلون للذين آمنوا به اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم أوزار أنفسهم وآثامها، وأوزار من أضلوا وصدّوا عن سبيل الله مع أوزارهم، وليسألن يوم القيامة عما كانوا يكذبونهم في الدنيا بوعدهم إياهم الأباطيل، وقيلهم لهم: اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم فيفترون الكذب بذلك.

وأورد بإسناد حسن عن قتادة: (وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ) ﴿١٠﴾ أي أوزارهم (وَأَثْقَالًا مَعَ

أَثْقَالِهِمْ ﴿٢٥﴾ يقول: أوزار من أضلوا.

وبإسناد صحيح عن ابن زيد، في قوله: (وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ ﴿٢٥﴾).
وقرأ قوله: (لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ
الْأَسَاءَ مَا يَزُرُونَ ﴿٢٥﴾) [النحل: ٢٥] قال: فهذا قوله: وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ ﴿٢٥﴾.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: (وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ ﴿٢٥﴾): إخبار عن الدعاة إلى الكفر
والضلالة، أنهم يوم القيامة يحملون أوزار أنفسهم، وأوزارًا آخر بسبب مَنْ
أضلوا مِنَ النَّاسِ، من غير أن ينقص من أوزار أولئك شيئًا، كما قال تعالى:
(لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ الْإِسَاءَ مَا
يَزُرُونَ ﴿٢٥﴾) [النحل: ٢٥].

وفي الصحيح: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجر من اتبعه إلى
يوم القيامة، من غير أن ينقص من أجورهم شيئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ
مِنْ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ اتَّبَعَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، من غير أن ينقص من آثامهم شيئًا».
وفي الصحيح: «ما قتلت نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من
دمها؛ لأنه أول من سنَّ القتل».

وقوله: (وَلْيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٢٦﴾) أي: يكذبون ويختلقون من
البهتان.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ ۚ أُولَٰئِكَ يَسُوءُ مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ ۚ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا

أَتَخَذْتُ مِنَ اللَّهِ آوْتُنَا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ
يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا
لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴿٢٦﴾ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ
هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ
وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٨﴾

[العنكبوت: ١٤-٢٧].

س: اذكر معنى ما يلي:

- ﴿فَلَيْتَ فِيهِمْ - الطُّوفَاتُ - آيَةً لِلْعَالَمِينَ - وَأَنْقَوْهُ - أَوْثَنَّا - وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ -
 ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ - أَلْبَلَعُ الْمُبِينُ - يُبْدِئُ - يُعِيدُهُ - النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ - تُقْلَبُونَ -
 بِمُعْجِزَاتٍ - وَلِيٍّ - نَصِيرٍ - يَسُوءُ مِنْ رَحْمَتِي - مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ - يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ -
 مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾؟

ج:

الكلمة	معناها
﴿فَلَيْتَ فِيهِمْ﴾	مكث فيهم - عاش بينهم
﴿الطُّوفَاتُ﴾	السيل الشديد والمطر الجارف والمياه المدمرة
﴿آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾	علامة للخلق على قدرتنا على إهلاك عدونا وإنجاء أوليائنا، وكذا على وحدانيتنا
﴿وَأَنْقَوْهُ﴾	اجعلوا بينكم وبين عذابه وقاية
﴿أَوْثَنَّا﴾	أصنامًا
﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾	تقولون كذبًا - تصنعون كذبًا - تصنعون أصنامًا تصرفون بها الناس عن عبادة الله ﷻ
﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾	اطلبوا الرزق من عند الله
﴿أَلْبَلَعُ الْمُبِينُ﴾	تبليغ ما أمره الله بتبليغه تبليغًا واضحًا ظاهرًا مظهرًا الحقائق
﴿يُبْدِئُ﴾	يخلق لأول مرة

يبعثه يوم القيامة	(يُعِيدُهُ) ﴿١٤﴾
البعث الآخر يوم القيامة	(النَّشْأَةُ الْآخِرَةُ) ﴿١٥﴾
ترجعون	(تَقْلُبُونَ) ﴿١٦﴾
بفائتين - بهارين	(بِمُعْجِزَاتٍ) ﴿١٧﴾
مَنْ يتولاكم ويرعاكم	(وَلِيٍّ) ﴿١٨﴾
من ينصركم	(نَصِيرٍ) ﴿١٩﴾
انقطع أملهم في حصول الرحمة بهم	(يَسْأَلُونَ مِنْ رَحْمَتِي) ﴿٢٠﴾
توادداً بينكم ومجاملةً من بعضكم لبعض تطلبون بذلك رضا بعضكم على بعض	(مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ) ﴿٢١﴾
يجحد بعضكم قدرة بعض على انقاذه، يجحد بعضكم عبادة بعض وطاعة بعض وصداقة بعض، تلك التي كانت بينهم في الدنيا	(يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ) ﴿٢٢﴾
تارك بلادي وذاهب إلى بلاد أخرى لعبادة ربي ﷻ	(مُهَاجِرٍ إِلَى رَبِّي) ﴿٢٣﴾



شيء من قصة نوح عليه السلام

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ ﴿١٤﴾ فَأَجْنَنَهُ وَأَصْحَبَ السَّيْفِينَةَ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾.

ج: هذا - والله أعلم - تبصير للنبي ﷺ على أذى قومه وتكذيبهم لله، وكذا فإنه تحذير لأهل الكفر من الشقاق والعناد.

وحاصل ذلك أننا أرسلنا نوحًا عليه السلام، وهو أول رسول إلى أهل الأرض أرسلناه إلى قومه الذين كانوا يعبدون الأوثان، كي يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له فلبث فيهم يدعوهم تسعمائة وخمسين عامًا، وأغلبهم يكذب ويجحذ ويسخر ويستهزئ، ويذهب منهم جيلٌ ويأتي آخر أشد ضللاً وأضل سبيلاً فكانت عاقبة أمرهم أن أرسل الله عليهم الطوفان وأغرقهم جميعاً، أما نوح عليه السلام، وكذا من معه من أهل الإيمان الذين حملهم معه في السفينة فقد أنجاهم الله وسلمهم وأبقى السفينة كدلالة للخلق من بعد نوح عليه السلام على قدرة الله على الانتقام من أهل الظلم وعلى الانتصار لأهل الإيمان، كما قال تعالى في شأن تلك السفينة (وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ ﴿١٥﴾).

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

وهذا وعيد من الله تعالى ذكره هؤلاء المشركين من قريش، القائلين للذين آمنوا: اتبعوا سبيلنا، ولنحمل خطاياكم، يقول لنبية محمد صلى الله عليه وسلم: لا يحزنك يا محمد ما تلقى من هؤلاء المشركين أنت وأصحابك من الأذى، فإني وإن أملت لهم فأطلت إملاءهم، فإن مصير أمرهم إلى البوار، ومصير أمرك وأمر أصحابك إلى العلوّ والظفر بهم، والنجاة مما يحلّ بهم من العقاب، كفعلنا ذلك بنوح، إذ أرسلناه إلى قومه، فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى التوحيد، وفراق الآلهة والأوثان، فلم يزدهم ذلك من دعائه إياهم إلى الله من الإقبال إليه، وقبول ما أتاهم به من النصيحة من عند الله إلا فراراً.

وأورد بإسناد حسن عن قتادة: (فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ) قال: هو الماء الذي

أرسل عليهم.

وقوله: (وَهُمْ ظَالِمُونَ) يقول: وهم ظالمون أنفسهم بكفرهم.
وقال: في تأويل قوله تعالى: (فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَبَ السَّفِينَةَ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً
لِّلْعَالَمِينَ).

يقول تعالى ذكره: فأنجينا نوحا وأصحاب سفينته، وهم الذين حملهم في
سفينته من ولده وأزواجهم.

(وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ) يقول: وجعلنا السفينة التي أنجيناها وأصحابه فيها
عبرة وعظة للعالمين، وحجة عليهم.

وأورد بإسناد حسن عن قتادة، قال: قوله: (فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَبَ السَّفِينَةَ...) ﴿
الآية. قال: أبقاها الله آية للناس بأعلى الجوديّ.

قال الطبري رحمه الله:

ولو قيل: معنى (وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ) وجعلنا عقوبتنا إياهم آية
للعالمين، وجعل الهاء والألف في قوله: (وَجَعَلْنَاهَا) كناية عن العقوبة أو
السخط، ونحو ذلك، إذ كان قد تقدم ذلك في قوله: (فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ
ظَالِمُونَ) كان وجهها من التأويل.

وقال ابن كثير رحمه الله:

هذه تسلية من الله تعالى لعبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه،
يخبره عن نوح عليه السلام: أنه مكث في قومه هذه المدة يدعوهم إلى الله ليلاً
ونهاراً، وسراً، وإجهاراً، ومع هذا ما زادهم ذلك إلا فرارا عن الحق، وإعراضا
عنه وتكديبا له، وما آمن معه منهم إلا قليل؛ ولهذا قال: (فَلَيْتَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا
خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ) أي: بعد هذه المدة الطويلة ما نجع
فيهم البلاغ والإنذار، فأنت -يا محمد- لا تأسف على مَنْ كفر بك من

قومك، ولا تحزن عليهم؛ فإن الله يهدي مَنْ يشاء ويضل مَنْ يشاء، وبيده الأمر وإليه ترجع الأمور، (إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]، واعلم أن الله سيظهرك وينصرك ويؤيدك، ويذل عدوك، ويكتبهم ويجعلهم أسفل السافلين.

وقوله: (فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَبَ السَّفِينَةَ ﴿٩٨﴾ أَي: الذين آمنوا بنوح عليه السلام. وقد تقدّم ذكر ذلك مفصلاً في سورة «هود»، وتقدّم تفسيره بما أغنى عن إعادته.

وقوله: (وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٩﴾ أَي: وجعلنا تلك السفينة باقية، إما عينها كما قال قتادة: إنها بقيت إلى أول الإسلام على جبل الجودي، أو نوعها جعله للناس تذكرة لنعمه على الخلق، كيف نجاهم زمن الطوفان، كما قال تعالى: (وَأَيُّهُمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ ﴿١٠٠﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿١٠١﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ ﴿١٠٢﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٠٣﴾ [يس: ٤١ - ٤٤]، وقال تعالى: (إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَا كُوفٍ مِّنَ الْجَارِيَةِ ﴿١٠٤﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِبْنَا أُنْذُرُوعِيَّةٌ ﴿١٠٥﴾ [الحاقة: ١١، ١٢]، وقال هاهنا: (فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَبَ السَّفِينَةَ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٦﴾)، وهذا من باب التدرّج من الشخص إلى الجنس، كقوله تعالى: (وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ﴿١٠٧﴾ [الملك: ٥] أَي: وجعلنا نوعها، فإن التي يرمى بها ليست هي التي زينة للسماء. وقال تعالى: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٠٨﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٠٩﴾ [المؤمنون: ١٢، ١٣]، ولهذا نظائر كثيرة.



شيء من قصة نبي الله وخليله إبراهيم عليه السلام

س: وضح معنى قوله تعالى: (وَإِذْ هَبْنَا دُخَانًا مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾) .

ج: المعنى - والله أعلم -: واذكر يا رسول الله نبي الله إبراهيم عليه السلام، وقوله لقومه (اعْبُدُوا اللَّهَ) أخلصوا له العبادة، ولا تشركوا معه شيئاً ولا تعبدوا إلهاً غيره، واجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية بتوحيدكم وصلاتكم وغير ذلك من الطاعات ذلكم التوحيد وعبادة الله وحده لا شريك له خيرٌ لكم من الشرك والكفر إن كنتم تعلمون.

قال الطبري رحمته الله:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: واذكر أيضاً يا محمد إبراهيم خليل الرحمن، إذ قال لقومه: اعبدوا الله أيها القوم دون غيره من الأوثان والأصنام، فإنه لا إله لكم غيره، (وَاتَّقُوهُ) يقول: واتقوا سخطه بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه (ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) ما هو خير لكم مما هو شر لكم.

وقال ابن كثير رحمته الله:

يخبر تعالى عن عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء: أنه دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والإخلاص له في التقوى، وطلب الرزق منه وحده لا شريك له، وتوحيده في الشكر، فإنه المشكور على النعم، لا مُسَدِّ لها غيره، فقال لقومه: (اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ) أي: أخلصوا له في العبادة والخوف، (ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) أي: إذا فعلتم ذلك حصل لكم الخير في الدنيا والآخرة، واندفع عنكم الشر في الدنيا والآخرة.

س: وضح معنى قوله تعالى: (إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾)؟

ج: المعنى - والله أعلم - أن إبراهيم عليه السلام قال لقومه موبخاً لهم ومذكراً، إن الذي تعبدونه من دون الله إنما هي أصنام لا تنفع ولا تضر، وإنكم تصنعون كذباً وتحتون أصناماً وتعبدونها وتختلقون الكذب أنها آلهة مع الله، ألا فاعلموا أن تلك الآلهة التي تعبدونها من دون الله لا تملك لكم رزقاً، فاطلبوا الرزق من الله فهو الرزاق ذو القوة المتين، وأخلصوا لله في عبادته، فاعبدوه وحده لا شريك له، وقدموا له شكراً على نعمه التي لا يحصيها إلا هو فإلى الله مرجعكم ومآبكم يوم القيامة وسيجازي كلًّا بعمله، والله أعلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره مخبراً عن قيل خليفه إبراهيم لقومه: إنما تعبدون أيها القوم من دون الله أوثاناً، يعني: مثلاً.

وأورد بإسناد حسن عن قتادة، قوله: (إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا) أصناماً.

ثم قال الطبري رحمه الله:

واختلف أهل التأويل في تأويل قوله: (وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا) فقال بعضهم: معناه: وتصنعون كذباً.

وقال آخرون: وتقولون كذباً.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: وتحتون إفكاً.

وأورد عن قتادة بسند حسن: (وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا) أي: تصنعون أصناماً.

وعن ابن زيد بسند صحيح: (وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا) الأوثان التي تعبدونها.

قال الطبري:

وأولى الأقوال بالصواب قول من قال: معناه: وتصنعون كذبًا.

قال الطبري أيضًا:

فتأويل الكلام إذن: إنما تعبدون من دون الله أوثانًا، وتصنعون كذبًا وباطلاً. وإنما في قوله: (إِفْكَاءٌ) مردود على إنما، كقول القائل: إنما تفعلون كذا، وإنما تفعلون كذا. وقرأ جميع قراء الأمصار: (وَتَخْلُقُونَ إِفْكَاءً) بتخفيف الخاء من قوله: (وَتَخْلُقُونَ) وَضَمَّ اللام: من الخلق. وذكر عن أبي عبد الرحمن السلمي أنه قرأ: (وَتَخْلُقُونَ إِفْكَاءً) بفتح الخاء وتشديد اللام، من التخليق.

والصواب من القراءة في ذلك عندنا ما عليه قراء الأمصار، لإجماع الحجة من القراء عليه.

وقوله: (إِنَّ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا) يقول جل ثناؤه: إن أوثانكم التي تعبدونها، لا تقدر أن ترزقكم شيئًا (فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ) يقول: فالتمسوا عند الله الرزق لا من عند أوثانكم، تدرخوا ما تبتغون من ذلك (وَأَعْبُدُوهُ) يقول: وذلو له (وَأَشْكُرُوا لَهُ) على رزقه إياكم، ونعمه التي أنعمها عليكم، يقال: شكرته وشكرتُ له، أفصح من شكرته. وقوله: (إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) يقول: إلى الله تُرَدُّونَ من بعد مماتكم، فيسألکم عما أنتم عليه من عبادتكم غيره وأنتم عباده وخلقه، وفي نعمه تتقلبون، ورزقه تأكلون.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

ثم أخبرهم أن الأصنام التي يعبدونها والأوثان، لا تضر ولا تنفع، وإنما اختلقتم أنتم لها أسماء، سميتموها آلهة، وإنما هي مخلوقة مثلکم. هكذا روى العوفي عن ابن عباس. وبه قال مجاهد، والسدي.

وروى الوالبي، عن ابن عباس: وتصنعون إفكًا، أي: تنحتونها أصنامًا. وبه قال مجاهد - في رواية - وعكرمة، والحسن، وقتادة وغيرهم، واختاره ابن جرير رحمته الله.

وهي لا تملك لهم رزقا، (فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ) وهذا أبلغ في الحصر، كقوله: (إِنَّكَ تَبْتَدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) **[الفاتحة: ٥]**، (رَبِّ آتِنِي فِي الْغَنَةِ) **[التحریم: ١١]**، ولهذا قال: (فَابْتَغُوا) أي: فاطلبوا (عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ) أي: لا تعبدوا غيره، فإن غيره لا يملك شيئا، (وَأَعْبُدُوهُ وَأَشْكُرُوا لَهُ) أي: كلوا من رزقه واعبدوه وحده، واشكروا له على ما أنعم به عليكم، (إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) أي: يوم القيامة، فيجازي كل عامل بعمله.



س: وضع معنى قوله تعالى: (وَلَا تُكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَانُ الْمِيثِ) **[١٨]**؟

ج: هذا - والله أعلم - قول إبراهيم عليه السلام لقومه بعد أن بين لهم بطلان ما هم عليه، فقال وإن تكذبوا فلستم بأول من كذب، ولكم عبرة بالذي حلّ بالمكذبين من قبلكم فقد أهلكناهم ودمرناهم كما صنعنا بقوم نوح وعاد وثمود، فانتظروا أن يحلّ بكم مثل ما حلّ بهم، أما رسولنا ﷺ فما عليه إلا أن يبلغكم ما أمر بتبليغه، يبلغكم إياه بلاغا واضحا لا لبس فيه ولا غموض، بلاغا يبين لكم أن ما أنتم عليه باطل، وأن الذي يدعوكم إليه هو الحق.

وبنحو هذا قال العلماء.

قال الطبري رحمته الله:

يقول تعالى ذكره: وإن تكذبوا أيها الناس رسولنا محمدا ﷺ فيما دعاكم

إليه من عبادة ربكم الذي خلقكم ورزقكم، والبراءة من الأوثان، فقد كَذَّبَتْ جماعات من قبلكم رسلها فيما دعتهم إليه الرسل من الحق، فحلَّ بها من الله سخطه، ونزل بها منه عاجل عقوبته، فسييلكم سبيلها فيما هو نازل بكم بتكذيبكم إياه (وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) * يقول: وما على محمد إلا أن يبلغكم عن الله رسالته، ويؤدي إليكم ما أمَّره بأدائه إليكم ربُّه. ويعني بالبلاغ المبين: الذي يُبين لمن سمعه ما يراد به، ويفهم به ما يعني به.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

وقوله: (وَلَنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ) * أي: فبلغكم ما حل بهم من العذاب والنكال في مخالفة الرسل، (وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) * يعني: إنما على الرسول أن يبلغكم ما أمَّره الله تعالى به من الرسالة، والله يضل مَنْ يشاء ويهدي مَنْ يشاء، فاحرصوا لأنفسكم أن تكونوا من السعداء.

وقال قتادة في قوله: (وَلَنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ) * قال: يُعزي نبيه ﷺ. وهذا من قتادة يقتضي أنه قد انقطع الكلام الأول، واعترض بهذا إلى قوله: (فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ) *. وهكذا نص على ذلك ابن جرير أيضاً. والظاهر من السياق أن كل هذا من كلام إبراهيم الخليل عليه السلام يحتاج عليهم لإثبات المعاد؛ لقوله بعد هذا كله: (فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ) *، والله أعلم.



س: وضح معنى قوله تعالى: (أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ

ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) *.

ج: المعنى - والله أعلم -: أولم ينظر هؤلاء المكذبون بالبعث المنكرون

للقيامة والثواب والعقاب، أولم ينظروا إلى أنفسهم وما حولهم من المخلوقات فيستدلوا بها على قدرة الله ﷻ على إحيائهم بعد إماتتهم وعلى بعثهم بعد فنائهم، أنهم يرون أمام أعينهم كيف يبدئ الله الخلق، إذ الله يخلقهم من نطفة من منيٍّ يُمنى ثم من علقة ثم من مضغة ثم يخرجهم طفلاً ثم يقوي أمرهم ثم يعودون ضُعفاء ثم يموتون ويصبحون تراباً، فالذي خلقهم وأماتهم قادر على بعثهم وإعادةهم، وكذا خلق سائر المخلوقات دجاجة تبيض بيضة ثم يخرج من البيضة فرخ صغير وينمو ويكبر ثم تموت تلك الدجاجة وتفنئ، وكذا سائر المخلوقات فالذي فعل بها ذلك قادرٌ على البعث بعد الموت فهو (أي البعث) أيسر عليه وأسهل.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: أولم يروا كيف يستأنف الله خلق الأشياء طفلاً صغيراً، ثم غلاماً يافعاً، ثم رجلاً مجتمعاً، ثم كهلاً يقال منه: أبدأ وأعاد وبدأ وعاد، لغتان بمعنى واحد. وقوله: (ثُمَّ يُعِيدُهُ) ﴿١٠﴾ يقول: ثم هو يعيده من بعد فنائه وبلاه، كما بدأه أول مرة خلقاً جديداً، لا يتعذر عليه ذلك (إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) ﴿١١﴾ سهل كما كان يسيراً عليه إبداءه.

وأورد بإسناد حسن عن قتادة: في قوله: (أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ) ﴿١٠﴾: بالبعث بعد الموت.

وقال ابن كثير رحمه الله:

يقول تعالى مخبراً عن الخليل عليه السلام، أنه أرشدهم إلى إثبات المعاد الذي ينكرونه، بما يشاهدونه في أنفسهم من خلق الله إياهم، بعد أن لم يكونوا شيئاً

مذكورًا، ثم وجدوا وصاروا أناسًا سامعين مبصرين، فالذي بدأ هذا قادر على إعادته؛ فإنه سهل عليه يسير لديه.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

وقيل: المعنى أولم يروا كيف يبدئ الله الثمار فتحيا ثم تفسى ثم يعيدها أبداً وكذلك يبدأ خلق الإنسان ثم يهلكه بعد أن خلق منه ولدًا وخلق من الولد ولدًا وكذلك سائر الحيوان أي فإذا رأيتم قدرته على الإبداء والإيجاد فهو القادر على الإعادة (إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) ﴿٤٠﴾ لأنه إذا أراد أمرًا قال له كن فيكون.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قَدْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿٤٠﴾؟

ج: هذا - والله أعلم - حثٌّ على النظر والتفكير والتدبر والاعتبار فيقول تعالى: ﴿قَدْ سِيرُوا﴾ أيها الناس ويا منكري القدرة على البعث ويا منكري الجزاء (سِيرُوا فِي الْأَرْضِ) وانظروا إلى قدرة الله ﷻ في مخلوقاته التي خلقها، انظروا كيف بدأ خلقها ولم تك شيئًا، انظروا إلى عموم ما خلق الله من دواب تدب على الأرض ومن أسماك وحياتان في البحر، وإلى تلك الطيور السارحة، والنباتات ذات الشكل البهيح، وكذا السموات والأرض والجبال وغير ذلك مما تستدلون به على قدرة الله، فإن الله خلقه ولم يك شيئًا، ثم إن الله ﷻ ينشئكم مرة أخرى يوم القيامة كما أنشأكم في الدنيا فهو ﷻ على كل شيء قدير.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

وقوله: ﴿قَدْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ يقول تعالى ذكره لمحمد ﷺ: قل يا محمد

للمنكرين للبعث بعد الممات، الجاحدين الثواب والعقاب: (سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ اللَّهُ الْأَشْيَاءَ وَكَيْفَ أَنْشَأَهَا وَأَحْدَثَهَا؛ وكما أوجدناها وأحدثها ابتداء فلم يتعذر عليه إحداثها مُبَدَأً، فكذا لا يتعذر عليه إنشاؤها مُعِيداً) ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ﴿٢٦﴾ يقول: ثم الله يبدئ تلك البداية الآخرة بعد الفناء.

وقوله: (إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) ﴿٢٧﴾ يقول تعالى ذكره: إن الله على إنشاء جميع خلقه بعد إفنائه كهيئته قبل فنائه، وعلى غير ذلك مما يشاء فعله قادر لا يعجزه شيء أرادته.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

ثم أرشدهم إلى الاعتبار بما في الآفاق من الآيات المشاهدة من خلق الله الأشياء: السموات وما فيها من الكواكب النيرة: الثوابت، والسيارات، والأرضين وما فيها من مهاد وجبال، وأودية وبرارٍ وقفار، وأشجار وأنهار، وثمار وبحار، كل ذلك دال على حدوثها في أنفسها، وعلى وجود صانعها الفاعل المختار، الذي يقول للشيء كن فيكون؛ ولهذا قال: (أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) ﴿٢٧﴾، كقوله: (وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ) ﴿٢٨﴾ [الرؤم: ٢٧].

ثم قال تعالى: (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ) ﴿٢٦﴾ أي: يوم القيامة، (إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) ﴿٢٧﴾. وهذا المقام شبيهه بقوله تعالى: (سَرَّيْهِمْ عَايَتَنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ) ﴿٥٣﴾ [فصلت: ٥٣]، وكقوله تعالى: (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخُلُقُونَ) ﴿٣٥﴾ (أَمْ خُلِقُوا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَلْ لَا يُوقِنُونَ) ﴿٣٦﴾ [الطور: ٣٥، ٣٦].

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ) ﴿٢٦﴾ أي قل لهم يا محمد سيروا في الأرض

(فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴿﴾ على كثرتهم وتفاوت هيئاتهم واختلاف ألسنتهم وألوانهم وطبائعهم وانظروا إلى مساكن القرون الماضية وديارهم وآثارهم كيف أهلكهم لتعلموا بذلك كمال قدرة الله (ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ﴿﴾).



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ ؟

ج: هناك - والله أعلم - تعلق للمعنى بما قبله فقوله تعالى: (ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ﴿﴾ أي يُعيد الناس أحياء بعد موتهم فيعذب من يشاء يوم القيامة ويرحم من يشاء، وإليه المرجع والمآب.

وذهب بعض أهل العلم أن المعنى مستقل هاهنا فقوله: يعذب من يشاء في الدنيا ويرحم من يشاء فيها وإليه مرجع الناس كلهم ومُنقلبهم جميعاً ثم يحاسبهم ويجازي المحسن ويُعاقب المسيء، والله أعلم.

وهذه بعض أقوال أهل العلم في الآية الكريمة:

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: (ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ﴿﴾ خلقه من بعد فنائهم، فـ) (يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ﴿﴾ منهم على ما أسلف من جرمه في أيام حياته، (وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ ﴿﴾ منهم ممن تاب وآمن وعمل صالحاً (وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿﴾ يقول: وإليه ترجعون وتردّون.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: (يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ ﴿﴾ أي: هو الحاكم المتصرف، الذي يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا معقب لحكمه، ولا يُسأل عما يفعل وهم يسألون، فله الخلق والأمر، مهما فعل فَعَدْلٌ؛ لأنه المالك الذي لا يظلم مثقال ذرة، كما جاء في الحديث الذي رواه أهل السنن: «إن الله لو عذب أهل

سماواته وأهل أرضه، لعذبهم وهو غير ظالم لهم^(١). ولهذا قال تعالى: (يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ) أي: ترجعون يوم القيامة.

وقال القرطبي رحمه الله:

(يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ) أي بعدله. (وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ) أي: بفضله. (وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ) ترجعون وتردون.



س: وضح معنى قوله تعالى: (وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ) ﴿٢٢﴾.

ج: المعنى - والله أعلم - : وما أنتم أيها البشر بفائتين من الله ﷻ، فلن تستطيعوا هرباً في الأرض ولا في السماء، وليس لكم من وليٍّ يتولاكم، ولا نصير ينصركم.

ويمكن أيضاً أن يقال: وما أنتم يا أهل الأرض بهارين من الله، وكذا أنتم يا أهل السماء لستم بهارين.

وأخرج الطبري بإسنادٍ صحيح عن ابن زيد، في قوله: (وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ) قال: لا يُعْجِزُهُ أَهْلُ الْأَرْضِينَ فِي الْأَرْضِينَ، وَلَا أَهْلُ السَّمَوَاتِ فِي السَّمَوَاتِ إِنْ عَصَوْهُ، وَقَرَأَ: ﴿مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾.

وقال الطبري رحمه الله:

وقوله: (وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ) ﴿٢٢﴾ يقول: وما كان لكم أيها الناس من دون الله من وليٍّ يلي أموركم، ولا نصير ينصركم من الله إن أراد

(١) وسنده صحيح.

بكم سوءًا ولا يمنعكم منه إن أحل بكم عقوبته.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

وقوله: (وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ) ❦ أي: لا يعجزه أحد من أهل سماواته وأرضه، بل هو القاهر فوق عباده، وكل شيء خائف منه، فقير إليه، وهو الغني عما سواه.

(وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ) (٢٢) ❦ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ ❦
أي: جحدوها وكفروا بالمعاد، (أُولَئِكَ يَسْأَوْنَ مِنْ رَحْمَتِي) ❦ أي: لا نصيب لهم فيها،
(وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) ❦ أي: موجه في الدنيا والآخرة.



س: وضح معنى قوله تعالى: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَسْأَوْنَ مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) ❦.

ج: المعنى - والله أعلم -: والذين جحدوا آيات الله وأنكروها وأنكروا البعث والثواب والعقاب أولئك سييئسون من رحمتي يوم القيامة ولهم آنذاك عذاب مؤلَّم موجه.

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

يقول تعالى ذكره: والذين كفروا حُجَجَ اللهُ، وأنكروا أدلته، وجحدوا لقاءه والورود عليه، يوم تقوم الساعة: (أُولَئِكَ يَسْأَوْنَ مِنْ رَحْمَتِي) ❦ يقول تعالى ذكره: أولئك يسئوا من رحمتي في الآخرة لما عاينوا ما أعد لهم من العذاب، وأولئك لهم عذاب مؤلَّم موجه.



س: وضح معنى قوله تعالى: (فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾).

ج: المعنى - والله أعلم - أن إبراهيم عليه السلام لما وعظ قومه بالمواعظ المتقدم ذكرها، وذكرهم بأنواع التذكير ما كان جوابهم له إلا أن قال بعضهم لبعض اقتلوا إبراهيم عليه السلام أو أوقدوا له ناراً فألقوه فيها فيحترق، ففعلوا ذلك به ولكن الله جعلها عليه برداً وسلاماً وأنجاه من النار إن في ذلك الإنجاء لإبراهيم عليه السلام لدلالات لقوم يصدقون بقدرتنا ونصرنا لأوليائنا.

وبنحو هذا قال أهل العلم بالتأويل.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: فلم يكن جواب قوم إبراهيم له إذ قال لهم: (اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) إلا أن قال بعضهم لبعض: (اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ) بالنار، ففعلوا، فأرادوا إحراقه بالنار، فأضرموا له النار، فألقوه فيها، فأنجاه الله منها، ولم يسلطها عليه، بل جعلها عليه برداً وسلاماً.

وقوله:

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) يقول تعالى ذكره: إن في إنجائنا لإبراهيم من النار، وقد ألقى فيها وهي تسعر، وتصيرها عليه برداً وسلاماً لأدلة وحججاً لقوم يصدقون بالأدلة والحجج إذا عاينوا ورأوا.

وقال ابن كثير رحمه الله:

يقول تعالى مخبراً عن قوم إبراهيم في كفرهم وعنادهم ومكابرتهم، ودفعهم الحق بالباطل: إنه ما كان لهم جواب بعد مقالة إبراهيم هذه المشتملة على الهدى والبيان، (إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ)، وذلك لأنهم قام عليهم

البرهان، وتوجهت عليهم الحجة، فعدلوا إلى استعمال جاههم وقوة ملكهم،
 (قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾) [الصفات: ٩٧،
 ٩٨]، وذلك أنهم حشدوا في جمع أحطاب عظيمة مدة طويلة، وحوطوا حولها،
 ثم أضرموا فيها النار، فارتفع لها لهب إلى عَنَان السماء: ولم توقد نار قط
 أعظم منها، ثم عمدوا إلى إبراهيم فكتفوه وألقوه في كَفَّة المنجنيق، ثم قذفوا به
 فيها، فجعلها الله عليه بردًا وسلامًا، وخرج منها سالمًا بعد ما مكث فيها أيامًا.
 ولهذا وأمثاله جعله الله للناس إمامًا. فإنه بذل نفسه للرحمن، وجسده للنيران،
 وسخا بولده للقربان، وجعل ماله للضيفان، ولهذا اجتمع على محبته جميع
 أهل الأديان.

وقوله: (فَأَنجَنَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ ﴿٩٩﴾ أَي: سَلَّمَهُ مِنْهَا، بَأَن جَعَلَهَا عَلَيْهِ بَرْدًا
 وسلامًا، (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾).



س: وضح وجوه القراءات في قوله تعالى: (مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ) مع ذكر معناها؟

ج: أشار الطبري رَحِمَهُ اللهُ إِلَى ثلاث وجوه للقراءات فيها:

أحدها: ﴿مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾ بفتح التاء المربوطة مع تنوينها وفتح النون من
 بينكم بغير إضافة.

الثاني: ﴿مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾ بفتح التاء المربوطة وكسر النون من قوله بَيْنِكُمْ.

الثالث: ﴿مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾ بضم التاء المربوطة وخفض النون.

أما عن المعاني فكلها متقاربة، وحاصلها أن أهل الكفر كان بعضهم يجامل
 بعضًا بعبادتهم الأصنام والتقرب إليها، أي أنهم يعبدون الأوثان ويتفانون في
 خدمتها مجاملة من بعضهم لبعض أما بشيء من التفصيل.

فالوجه الأول: حاصله - والله أعلم - : إن الأوثان التي اتخذتموها آلهة تعبدونها من دون الله إنما كان اتخاذكم لها (مودّة بينكم) أي: تواصلًا بينكم وصداقةً وترابطًا بينكم، فكنتم تتواصلون بذلك وتتواددون بذلك، يتودد بعضهم لبعض بذلك.

والثاني: قريب المعنى من الأول، وحاصله -والله أعلم- إنما اتخذتموها مودة بينكم تتحابون على عبادتها وتتواددون على خدمتها فالمقرب منكم من يخدمها ويوقرها.

أما الوجه الثالث: فصل فيه البعض بأن قالوا إن كلمة (إنما) مشتملة على حرفين (إن) و(ما) فيكون المعنى -والله أعلم- إن الذي اتخذتم من دون الله أوثانًا إنما هو مودتكم في الدنيا، وليست بنافعتكم شيئًا في الآخرة، والله أعلم. وكما أسلفت فالمعاني متقاربة.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

(وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوثَانًا مَّودَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) يقول لقومه مقررًا لهم وموبخًا على سوء صنيعهم، في عبادتهم الأوثان: إنما اتخذتم هذه لتجتمعوا على عبادتها في الدنيا، صداقة وألفة منكم، بعضكم لبعض في الحياة الدنيا. وهذا على قراءة من نصب (مودّة بينكم)، على أنه مفعول له، وأما على قراءة الرفع فمعناه: إنما اتخذكم هذا يُحْصِلَ لكم المودة في الدنيا فقط.

وقال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

يقول تعالى ذكره مخبرًا عن قيل إبراهيم لقومه: (وَقَالَ) إبراهيم لقومه: يا قوم (إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوثَانًا).

واختلفت القراء في قراءة قوله: (مَّودَّةَ بَيْنِكُمْ) فقرأته عامة قراء المدينة

والشَّام وبعض الكوفيين: (مَوَدَّةٌ) بنصب «مودّة» بغير إضافة (بَيْنَكُمْ) بنصبها. وقرأ ذلك بعض الكوفيين: (مَوَدَّةٌ بَيْنَكُمْ) بنصب «المودّة» وإضافتها إلى قوله: (بَيْنَكُمْ)، وخفض (بَيْنَكُمْ). وكأن هؤلاء الذين قرءوا قوله: (مَوَدَّةٌ) نصباً، وجَّهوا معنى الكلام إلى: (إِنَّمَا أَخَذْتُم مِّنْ أَيُّهَا الْقَوْمَ) (أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ)، فجعلوا إنما حرفاً واحداً، وأوقعوا قوله: (أَخَذْتُم) على الأوثان، فنصبوها بمعنى: اتخذتموها مودّة بينكم في الحياة الدنيا، تتحابُّون على عبادتها، وتتواذَّون على خدمتها، فتتواصلون عليها، وقرأ ذلك بعض قرّاء أهل مكة والبصرة: (مَوَدَّةٌ بَيْنَكُمْ) برفع المودة وإضافتها إلى البَيْنِ، وخفض البين، وكأن الذين قرءوا ذلك كذلك، جعلوا «إِنَّ مَا» حرفين، بتأويل: إن الذين اتخذتم من دون الله أوثاناً إنما هو مودّتكم للدنيا، فرفعوا «مَوَدَّةٌ» على خبر إن. وقد يجوز أن يكونوا على قراءتهم ذلك رفعاً بقوله: «إِنَّمَا» أن تكون حرفاً واحداً، ويكون الخبر متناهيّاً عند قوله: (إِنَّمَا أَخَذْتُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا) ثم يتدبّر الخبر فيقال: ما مودّتكم تلك الأوثان بنافعتكم، إنما مودّة بينكم في حياتكم الدنيا، ثم هي منقطعة، وإذا أريد هذا المعنى كانت المودّة مرفوعة بالصفة بقوله: (فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) وقد يجوز أن يكونوا أرادوا برفع المودّة، رفعها على ضمير هي.

وهذه القراءات الثلاث متقاربات المعاني؛ لأن الذين اتخذوا الأوثان آلهة يعبدونها، اتخذوها مودة بينهم، وكانت لهم في الحياة الدنيا مودة، ثم هي عنهم منقطعة، فبأيّ ذلك قرأ القارئ فمصيب، لتقارب معاني ذلك، وشهرة القراءة بكلّ واحدة منهنّ في قرّاء الأمصار.

وأورد بإسناد حسن عن قتادة: (وَقَالَ إِنَّمَا أَخَذْتُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ

فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا ﴿١٠﴾ قَالَ: صارت كلُّ خُلَّةٍ في الدنيا عداوة على أهلها يوم القيامة إلا خُلَّةَ المتقين.



س: وضح معنى قوله تعالى: (ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوِكُمُ النَّارُ وَمَالَكُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ) ﴿١٠﴾.

ج: المعنى - والله أعلم - : ثم إنكم يا من جامل بعضكم بعضًا باتخاذ الأصنام آلهة يتبرأ بعضكم من بعض يوم القيامة، ويجحد بعضكم بعضًا ويلعن بعضكم بعضًا، أي أن المجاملات التي كانت من بعضكم لبعض ليست بنافعة لكم يوم القيامة بل مصيركم الذي تصيرون إليه ومأواكم الذي تأوون إليه هو النار، وما لكم من نصير ينصركم ولا ولي يتولاكم.

قال الطبري رحمه الله:

وقوله: (ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا) ﴿١٠﴾ يقول تعالى ذكره: ثم يوم القيامة أيها المتوaddون على عبادة الأوثان والأصنام، والمتواصلون على خدماتها عند ورودكم على ربكم، ومعائنتكم ما أعد الله لكم على التواصل، والتوadd في الدنيا من أليم العذاب، (يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ) ﴿١٠﴾ يقول: يتبرأ بعضكم من بعض، ويلعن بعضكم بعضًا.

وقوله: (وَمَا وَدَّكُمُ النَّارُ) ﴿١١﴾ يقول جل ثناؤه: ومصير جميعكم أيها العابدون الأوثان وما تعبدون النار (وَمَا لَكُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ) ﴿١٢﴾ يقول: وما لكم أيها القوم المتخذو الآلهة، من دون الله (مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ) ﴿١٣﴾ من أنصار ينصرونكم من الله حين يصليكم نار جهنم، فينقذونكم من عذابه.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

(ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴿﴾ ينعكس هذا الحال، فتبقى هذه الصداقة والمودة بَغْضَةً وشنآنًا، ف) يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ ﴿﴾ أي: تتجادون ما كان بينكم، (وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ﴿﴾ أي: يلعن الأتباع المتبوعين، والمتبوعون الأتباع، (كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخَاهَا ﴿﴾ [الأعراف: ٣٨]، وقال تعالى: (الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿﴾ [الزخرف: ٦٧]، وقال هاهنا: (ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَهُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِّنْ نَّصِيرِينَ ﴿﴾ أي: ومصيركم ومرجعكم بعد عرصات القيامة إلى النار، وما لكم من ناصر ينصركم، ولا منقذ ينقذكم من عذاب الله. وهذا حال الكافرين، فأما المؤمنون فبخلاف ذلك.



س: وضح معنى قوله تعالى: (﴿﴾ فَأَمَّن لَّهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿﴾).

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - : فصدَّق لوطٌ ﷺ نبي الله إبراهيم ﷺ وأمن به وبما جاء به من عند الله، واتبعه، وقال إبراهيم ﷺ إني مهاجر من بلادي إلى بلاد أخرى أعبد فيها ربي ﷻ كما قال في آية أخرى: (إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ ﴿﴾ [الصافات: ٩٩].

أما قوله: (إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ ﴿﴾ فمعناه الذي لا يغلب. (الْحَكِيمُ ﴿﴾ في كل شيء وفيما يشرع ويقضي ويقدر. والله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

يقول تعالى ذكره: فصدَّق إبراهيم خليل الله لوط (وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي ﴿﴾

يقول: وقال إبراهيم: إني مهاجر دار قومي إلى ربي إلى الشام.
 وقوله: (إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) يقول: إن ربي هو العزيز الذي لا يذل من
 نصره، ولكنه يمنعه ممن أراده بسوء، وإليه هجرته، الحكيم في تدبيره خلقه،
 وتصريفه إياهم فيما صرفهم فيه.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم: أنه آمن له لوط، يقال: إنه ابن أخي
 إبراهيم، يقولون هو: لوط بن هاران بن أزر، يعني: ولم يؤمن به من قومه
 سواه، وسارة امرأة الخليل.

وقوله: (وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي) يحتمل عود الضمير في قوله: (وَقَالَ)، على
 لوط؛ لأنه أقرب المذكورين، ويحتمل عوده إلى إبراهيم - قال ابن عباس،
 والضحاك: وهو المكنى عنه بقوله: (فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ) أي: من قومه.

ثم أخبر عنه بأنه اختار المهاجرة من بين أظهرهم، ابتغاء إظهار الدين
 والتمكن من ذلك؛ ولهذا قال: (إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ) أي: له العزة ولرسوله
 وللمؤمنين به، (الْحَكِيمُ) في أقواله وأفعاله وأحكامه القدرية والشرعية.



س: كيف قال إبراهيم رَحِمَهُ اللهُ لسارة ث: (ليس على وجه الأرض مؤمن غيري
 وغيرك) وقد قال تعالى: (فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ)، وكذا قال تعالى: (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ
 فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ).

ج: قد يكون قال لسارة رَحِمَهُ اللهُ ما قال قبل أن يؤمن له لوط رَحِمَهُ اللهُ، وكذا قبل
 إيمان من آمن معه.

وأورد الحافظ ابن كثير قولاً آخر فقال:

لكن يقال: كيف الجمع بين هذه الآية، وبين الحديث الوارد في الصحيح:

«أن إبراهيم حين مرَّ على ذلك الجبار، فسأل إبراهيم عن سارة: ما هي منه؟ فقال: أختي، ثم جاء إليها فقال لها: إني قد قلت له: إنك: أختي، فلا تكذبيني، فإنه ليس على وجه الأرض مؤمن غيرك وغيري، فأنت أختي في الدين»^(١). وكأن المراد من هذا -والله أعلم- أنه ليس على وجه الأرض زوجان على الإسلام غيري وغيرك، فإن لوطاً عليه السلام، آمن به من قومه، وهاجر معه إلى بلاد الشام، ثم أرسل في حياة الخليل إلى أهل «سَدوم» وإقليمها، وكان من أمرهم ما تقدم وما سيأتي.



س: من أي بلدة هاجر إبراهيم عليه السلام وإلى أي بلدة؟

ج: قال بعض أهل العلم هاجر من بلاد الكوفة إلى الشام، وهذا قول قتادة فقد أخرج الطبري بسند حسن عن قتادة، قوله (فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ) أي: فصدقه لوط (وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي) قال: هاجرا جميعاً من كوثي، وهي من سواد الكوفة إلى الشام.

قلت: كذا قال قتادة رحمته الله، ولم أقف في الباب على خبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.



س: من القائل: (إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي)؟

ج: قائله إبراهيم عليه السلام وذلك لأمر:

أحدها: أن السياق كله قبل وبعد الآية في شأن إبراهيم عليه السلام.

ثانياً: قوله في آية أخرى (إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّدِينَ) [الصفافات: ٩٩].

ثالثاً: قوله بعد الآية الكريمة (وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ)، وهذا في إبراهيم

عليه السلام.

س: وضح معنى قوله تعالى: (وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٧﴾).

ج: المعنى - والله أعلم - : ومننا على إبراهيم عليه السلام بأن رزقناه بإسحاق عليه السلام، وذلك عند كبره إذ قد قال: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ) [إبراهيم: ٣٩] وكذا بشرناه بحفيده يعقوب ابن إسحاق عليه السلام، وهو نبي كريم أيضًا، وجعلنا كل الأنبياء من بعد إبراهيم من ذريته عليه الصلاة والسلام، إلى أن جاء عيسى عليه السلام، مبشرًا برسول الله محمد ﷺ الذي هو من نسل إسماعيل عليه السلام وكذا جعلنا الكتب التي أنزلناها من عندنا تنزل على ذرية إبراهيم عليه السلام، وأعطيناه في الدنيا حسنة، وأجرًا عظيمًا: منه صلاتنا عليه في كل صلاة نصليها، وتبريكنا عليه ومنها أن كل الفرق تحب إبراهيم عليه السلام وترغب في نسبته إليها، وجعلنا له ثناء حسنًا عليه في الناس من بعده، فقد أجبنا دعوته إذ دعانا قائلًا: (وَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ) [الشعراء: ٨٤].

ومع ذلك كله فأجره مدخرٌ عند الله كما قال تعالى: (وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ).

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ورزقناه من لدنا إسحاق ولدًا، ويعقوب من بعده ولدًا.

وقوله: (وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ) بمعنى الجمع، يراد به الكتب، ولكنه خُرج مخرج قولهم: كثر الدرهم والدينار عند فلان.
وقوله: (وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا) يقول تعالى ذكره: وأعطيناه ثواب بلائه

فينا في الدنيا (وَلِئِنَّهُ) ﴿١﴾ مع ذلك (فِي الْآخِرَةِ لِمَنِ الصَّالِحِينَ) ﴿٢﴾ فله هناك أيضا جزاء الصالحين، غير منتقص حظه بما أعطى في الدنيا من الأجر على بلائه في الله عما له عنده في الآخرة.

وقيل: إن الأجر الذي ذكره الله ٥ أنه آتاه إبراهيم في الدنيا هو الثناء الحسن، والولد الصالح.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

وقوله: (وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ) ﴿٣﴾، كقوله تعالى: (فَلَمَّا أَعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْزُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا) ﴿٤٩﴾ [مريم: ٤٩] أي: إنه لما فارق قومه أقر الله عينه بوجود ولد صالح نبي وولد له ولد صالح في حياة جده. وكذلك قال الله: (وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً) ﴿٧٢﴾ [الأنبياء: ٧٢].

أي: زيادة، كما قال: (فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ) ﴿٧١﴾ [هود: ٧١] أي: ويولد لهذا الولد ولد في حياتكما، تقر به أعينكما. وكون يعقوب ولد لإسحاق نص عليه القرآن، وثبتت به السنة النبوية، قال الله: (أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) ﴿١٣٣﴾ [البقرة: ١٣٣].

وفي الصحيحين^(١): «إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم».

فأما ما رواه العوفي عن ابن عباس في قوله: (وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ) ﴿٣﴾، قال: «هما ولدا إبراهيم». فمعناه: أن ولد الولد بمنزلة الولد؛ فإن هذا أمر لا يكاد يخفى على من هو دون ابن عباس.

(١) البخاري (٤٦٨٨).

وقوله: (وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ) ، هذه خِلعة سنية عظيمة، مع اتخاذ الله إياه خليلاً وجعله للناس إماماً، أن جعل في ذريته النبوة والكتاب، فلم يوجد نبي بعد إبراهيم عليه السلام، إلا وهو من سلالة، فجميع أنبياء بني إسرائيل من سُلالة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، حتى كان آخرهم عيسى ابن مريم، فقام في ملتهم مبشراً بالنبي العربي القرشي الهاشمي، خاتم الرسل على الإطلاق، وسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة، الذي اصطفاه الله من صميم العرب العرباء، من سلالة إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام، ولم يوجد نبي من سلالة إسماعيل سواه، عليه أفضل الصلاة والسلام.

وقوله: (وَأَتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ) أي: جمع الله له بين سعادة الدنيا الموصولة بسعادة الآخرة، فكان له في الدنيا الرزق الواسع الهنيئ والمنزل الرَّحْب، والمورد العذب، والزوجة الحسنة الصالحة، والثناء الجميل، والذكر الحسن، فكل أحد يحبه ويتولاه، كما قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم، مع القيام بطاعة الله من جميع الوجوه، كما قال تعالى: (وَابْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى) [النجم: ٣٧]، أي: قام بجميع ما أمر به، وكمل طاعة ربه؛ ولهذا قال تعالى: (وَأَتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ) ، كما قال تعالى: (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٠﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ أَجَبْتُهُ وَهَدَيْتُهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٣١﴾ وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ) .

[النحل: ١٢٠-١٢١]

وقال القرطبي رحمه الله:

قوله تعالى: (وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ) أي من الله عليه بالأولاد فوهب له إسحاق ولداً ويعقوب ولد ولد وإنما وهب له إسحاق من بعد إسماعيل ويعقوب من

إسحاق (وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ) فلم يبعث الله نبياً بعد إبراهيم إلا من صلبه، ووحد الكتاب لأنه أراد المصدر كالنبوة والمراد التوراة والإنجيل والفرقان فهو عبارة عن الجمع فالتوراة أنزلت على موسى من ولد إبراهيم والإنجيل على عيس من ولده والفرقان على محمد من ولده ﷺ وعليهم أجمعين (وَأَيَّتَنَّهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا) يعني اجتماع أهل الملل عليه قاله عكرمة، وروى سفيان عن حميد بن قيس قال: أمر سعيد بن جبير إنساناً أن يسأل عكرمة عن قوله جل ثناؤه: (وَأَيَّتَنَّهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا) فقال عكرمة: أهل الملل كلها تدعيه وتقول هو منا فقال سعيد بن جبير: صدق. وقال قتادة هو مثل قوله: (وَأَيَّتَنَّهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً) [النحل: ١٢٢] أي عاقبة وعملاً صالحاً وثناء حسناً وذلك أن أهل كل دين يتولونه وقيل: (وَأَيَّتَنَّهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا) أن أكثر الأنبياء من ولده (وَلِئِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ) ليس (فِي الْآخِرَةِ) داخلاً في الصلة وإنما هو تبين وقد مضى في (البقرة) بيانه وكل هذا حث على الاقتداء بإبراهيم في الصبر على الدين الحق.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ (أضواء البيان):

قوله تعالى: (وَأَيَّتَنَّهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَلِئِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ). ذكر جلَّ وعلا في هذه الآية الكريمة أنه أتى إبراهيم أجره، أي: جزاء عمله في الدنيا، وإنه في الآخرة أيضاً من الصالحين.

وقال بعض أهل العلم: المراد بأجره في الدنيا: الثناء الحسن عليه في دار الدنيا من جميع أهل الملل على اختلافهم إلى كفار ومؤمنين، والثناء الحسن المذكور هو لسان الصدق، في قوله: (وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ) [الشعراء: ٨٤]، وقوله تعالى: (وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا) [مريم: ٥٠]، وقوله: (وَلِئِنَّهُ فِي

الْآخِرَةَ لِمَنِ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٣﴾، لا يخفى أن الصلاح في الدنيا يظهر بالأعمال الحسنة، وسائر الطاعات، وأنه في الآخرة يظهر بالجزاء الحسن، وقد أثنى الله في هذه الآية الكريمة على نبيه إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، وقد أثنى على إبراهيم أيضًا في آيات أخر؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ﴾ [البقرة: ١٢٤]، وقوله تعالى: ﴿وإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾ [النجم: ٣٧]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١٣٠﴾ شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ أَجْبَنَهُ وَهَدَنَهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٣١﴾ وَءَاتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٢﴾ [النحل: ١٢٠-١٢٢].



شيء من ذكر نبي الله لوط عليه السلام

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأْتَأُونَنَا آلَ فَحِشَّةٍ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَيْنَكُمْ لَأَتَأْتِيَ الرِّجَالَ وَتَقَاطِعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانَُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّكَ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَاتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِمْءًا بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرَاتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنْزِلُونَكَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾

[العنكبوت: ٢٨-٣٥]

س: وضح معنى ما يلي:

﴿لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ - لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ - وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ - نَادِيَكُمْ - الْمُنْكَرَ -

بِالْبُشْرَى - الْغَيْرِيتَ - سِوَاءَ بِهِمْ - وَصَافَ بِهِمْ ذَرْعًا - رِجْزًا﴾؟

ج:

الكلمة	معناها
﴿لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾	لتفعلون الفعلة الفاحشة، وهي إتيان الذكران من العالمين، فكان الرجل يجامع الرجل
﴿لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾	لتجامعون الرجال
﴿وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ﴾	تقطعون الطريق على المارة (وتفعلون بهم الفواحش)
﴿نَادِيَكُمْ﴾	مجتمعكم الذي تجتمعون فيه – مكان الاجتماع
﴿الْمُنْكَرَ﴾	الفعل المستنكر الذي تستنكره الشرائع والعقول الصحيحة
﴿بِالْبُشْرَى﴾	بالأمر السار، وهو تبشيره بأنه سيرزق بإسحاق، وإن إسحاق سيرزق بيعقوب
﴿الْغَيْرِيتَ﴾	الباقيين في العذاب – الهالكين
﴿سِوَاءَ بِهِمْ﴾	سواء مجيئهم وأحزنه مجيئهم
﴿وَصَافَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾	حزن حزنًا شديدًا بسببهم ولم يجد حيلة أمامه لنصرهم والمحافظة عليهم- أهمه أمرهم همًّا شديدًا – تضايق تضايقًا شديدًا بسببهم
﴿رِجْزًا﴾	عذابًا

س: ما المراد بالفاحشة المذكورة في قوله تعالى: (وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾)؟

ج: هذه الفاحشة هي إتيان الذكران، فكان الرجل يستغني بالرجل عن المرأة، وهي موضحة في الآية التالية في قوله: (إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ... ﴿٢٩﴾) وفي الآية الأخرى: (إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ ﴿٣٠﴾ [الأعراف: ٨١]).

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: واذكر لو طًا إذ قال لقومه: (إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ﴿٢٩﴾ الذُّكْرَانَ ﴿٣٠﴾ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا) يعني بالفاحشة التي كانوا يأتونها، وهي إتيان الذكران (مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٣١﴾).

وقال ابن كثير رحمه الله:

يقول تعالى مخبراً عن نبيه لوط عليه السلام، إنه أنكر على قومه سوء صنيعهم، وما كانوا يفعلونه من قبيح الأعمال في إتيانهم الذكران من العالمين.



س: ما المراد بقوله: ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾؟

ج: المعنى - والله أعلم - أنه لم يسبق قوم لوطٍ أحدٌ من العالمين بفعل هذه الفاحشة، أي أن إتيان الذكور لم يفعله أحدٌ قبل قوم لوط.

قال الطبري بإسناد صحيح عن عمرو بن دينار في قوله: (إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾) قال: ما نزا ذكرٌ على ذكر حتى كان قوم لوط.



س: اذكر كيف كانوا يقطعون السبيل؟

ج: كانوا يقطعون الطريق على المارة والمسافرين، فيسلبونهم الأموال، ويأخذونهم يفعلون بهم الفواحش.
كذا قال عدد من أهل العلم.



س: ما المراد بالمنكر الذي كانوا يأتونه في ناديهم؟

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: أنهم كانوا يفعلون الفاحشة في مكان تجمعهم عياناً لا يستحيون من ذلك.

الثاني: أنهم كانوا يحذفون أهل الطريق ويسخرون منهم.

وقد ورد بذلك حديث ضعيف الإسناد أخرجه أحمد والترمذي والطبري^(١)

وغيرهم من طريق أبي صالح - مولى أم هانئ - عن أم هانئ، قالت: سألت رسول الله ﷺ عن قوله ﷺ: (وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمْ الْمُنْكَرَ) قال: «يحذفون أهل الطريق، ويسخرون منهم، وذلك المنكر الذي كانوا يأتونه». وهذا ضعيف.

الثالث: أنهم كانوا يفعلون المنكرات عموماً في مجالسهم بلا حياءٍ ولا

خجل ولا وجل، والتي منها أنهم كانوا يتطارطون في المجالس ويضحكون.

وأورد القرطبي رحمه الله أقوالاً عن بعض أهل العلم لا أعلم لها مستنداً من

كتاب الله ﷻ ولا من سنة رسول الله ﷺ إلا ما يتعلق بفعلهم الفاحشة.

^(١) ضعيف: أخرجه أحمد (٣٤١/٦)، والترمذي (٣١٩٠)، والطبري (١٢٧٧٤٣)، وغيرهم، وفي

سنده أبو صالح باذام مولى أم هانئ وهو ضعيف.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

قال مكحول^(١): في هذه الأمة عشرة من أخلاق قوم لوط: مضغ العلك وتطريف الأصابع بالحناء وحل الإزار وتنقيض الأصابع والعمامة التي تلف حول الرأس والتشابك ورمي الجلاهق والصفير والخذف واللوطية. وعن ابن عباس قال: إن قوم لوط كانت فيهم ذنوب غير الفاحشة منها أنهم يتظالمون فيما بينهم ويشتم بعضهم بعضاً ويتضارطون في مجالسهم ويخذفون ويلعبون بالنرد والشطرنج ويلبسون المصبغات ويتناقرون بالديكة ويتناطحون بالكباش ويضربون المكوس على كل عابر ومع هذا كله كانوا يشركون بالله وهم أول من ظهر على أيديهم اللوطية والسحاق.



س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: (أَيُّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقَاطِعُونَ السَّيْلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمْ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٩﴾ ❁).

ج: هذا استفهام استنكار وتوبيخ من لوط رَحِمَهُ اللهُ لقومه يقول لهم: أأنكم لتفعلون الفعلة القبيحة التي تنفر منها النفوس، تلك الفعلة البشعة المحرمة حيث يأتي بعضكم بعضاً، فعلاً للفاحشة وممارسة لها، وتؤذون المارة والمسافرين بكل أنواع الأذى فتسلبونهم أموالهم وترمونهم بالحجارة وتفعلون بهم كرهاً وظلماً تلك الفعلة الخبيثة ولا تستحيون في أماكن تجمعكم من ارتكاب المنكرات مجاهرين بها غير مسرين ولا مستترين، بل تفعلون

(١) ولم أقف على سند صحيح لقول مكحول وابن عباس.

ذلك جهاراً وأمام بعضكم البعض تفعلون كل أنواع المنكرات فما كان رد قومه عليه إلا أن استبعدوا وقوع العذاب عليهم ونزوله بهم فقالوا: على وجه التحدي والعناد ائتنا بعذاب الله الذي تعدنا به إن كنت صادقاً في دعواك أننا سنعذب.

وبنحو هذا قال أهل التأويل.

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

يقول تعالى ذكره مخبراً عن قيل لوط لقومه (أَيْنَكُمُ) أيها القوم، (لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ) في أديبارهم (وَتَقَطَّعُونَ السَّبِيلَ) يقول: وتقطعون المسافرين عليكم بفعلكم الخبيث، وذلك أنهم فيما ذُكر عَنْهُمْ كانوا يفعلون ذلك بمن مرّ عليهم من المسافرين، من ورد بلادهم من الغرباء.

وأورد بإسناد صحيح عن ابن زيد، في قوله: (وَتَقَطَّعُونَ السَّبِيلَ) قال: السبيل: الطريق. المسافر إذا مرّ بهم، وهو ابن السبيل قَطَعُوا به، وعملوا به ذلك العمل الخبيث.

وقوله: (وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ) اختلف أهل التأويل في المنكر الذي عناه الله، الذي كان هؤلاء القوم يأتونه في ناديهم، فقال بعضهم: كان ذلك أنهم كانوا يتضارطون في مجالسهم.

وقال آخرون: بل كان ذلك أنهم كانوا يحذفون من مرّ بهم.

وأورد حديثاً ضعيفاً في ذلك سبقت الإشارة إليه وقال بعضهم: بل كان ذلك إتيانهم الفاحشة في مجالسهم أي أن بعضهم يجامع بعضاً في المجالس.

وأورد الطبري عدة آثار بذلك تصح بمجموعها عن مجاهد وقتادة وابن

زيد وغيرهم.

ثم قال الطبري:

وقوله: (فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَأُتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصّٰدِقِينَ) يقول تعالى ذكره: فلم يكن جواب قوم لوط إذ نهاهم عما يكرهه الله من إتيان الفواحش التي حرمها الله إلا قيلهم: أئتنا بعذاب الله الذي تعدنا، إن كنت من الصادقين فيما تقول، والمنجزين لما تعد.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

ولم يسبقهم إلى هذه الفعلة أحد من بني آدم قبلهم. وكانوا مع هذا يكفرون بالله، ويكذبون رسوله ويخالفونه ويقطعون السبيل، أي: يقفون في طريق الناس يقتلونهم ويأخذون أموالهم، (وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمْ الْمُنْكَرَ) أي: يفعلون ما لا يليق من الأقوال والأفعال في مجالسهم التي يجتمعون فيها، لا ينكر بعضهم على بعض شيئاً من ذلك، فمن قائل: كانوا يأتون بعضهم بعضاً في الملا قاله مجاهد. ومن قائل: كانوا يتضارطون ويتضاحكون؛ قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، والقاسم. ومن قائل: كانوا يناطحون بين الكباش، ويناقرون بين الديوك، وكل ذلك كان يصدر عنهم، وكانوا شراً من ذلك.

وقال:

وقوله: (فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَأُتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصّٰدِقِينَ)، وهذا من كفرهم واستهزائهم وعنادهم؛ ولهذا استنصر عليهم نبي الله فقال: (رَبِّ أَنْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ).



س: وضح معنى قوله: (رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ) ﴿٣٠﴾؟

ج: هذا من لوط عليه السلام دعاءً على قومه بعد أن أصروا على جرائمهم وأصروا على كفرهم وأعلنوا عن تحديهم له وتكذيبهم لما يقوله، فقال: (رَبِّ) أي: يا رب انصُرني على القوم المفسدين في الأرض الذي يقطعون السبيل ويأتون الذكران من العالمين فضلاً عن شركهم بالله ﷻ، والله أعلم.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ ﴿٣١﴾؟

ج: المعنى - والله أعلم -: ولما جاءت ملائكتنا إبراهيم عليه السلام في صورة البشر تبشره بأنه سيرزق بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب أي أن إسحاق سيرزق يعقوب هو الآخر عليه السلام قالوا له إنا أرسلنا إلى قوم لوط عليه السلام لإهلاكهم ولتدمير قريتهم عليهم، فإن أهلها كانوا ظالمين لأنفسهم باخسين لها حقها لشركهم وفعلهم القبائح.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: (وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى) من الله بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب (قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ) يقول: قالت رسل الله لإبراهيم: إنا مهلكو أهل هذه القرية، قرية سدُوم، وهي قرية لوط (إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ) يقول: إن أهلها كانوا ظالمي أنفسهم؛ بمعصيتهم الله، وتكذيبهم رسول الله ﷺ.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّكَ فِيهَا لَوْطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنِ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرًا تُهْكَمُ كَانَتْ مِنَ الْغَيْرِيبِ﴾ (٣٣)؟

ج: المعنى - والله أعلم - أن إبراهيم عليه السلام لما أخبرته الملائكة عليهم السلام أنهم مهلكوا أهل قرية لوط عليه السلام قال لهم: إن فيها لوطاً عليه السلام، وهو مؤمن فأجابته الملائكة بقولهم نحن أعلم منك بمن في هذه القرية من المؤمنين وغير المؤمنين، وسننجي لوطاً عليه السلام وننجي أهله معه إلا امرأته فلم تكن بمؤمنه، وقد قضى الله أن تكون من الباقيين في العذاب، من الهالكين.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: قال إبراهيم للرسول من الملائكة إذ قالوا له: (إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ) فلم يستثنوا منهم أحداً، إذ وصفوهم بالظلم: (إِنَّكَ فِيهَا لَوْطٌ)، وليس من الظالمين، بل هو من رسل الله، وأهل الإيمان به، والطاعة له، فقالت الرسل له: (نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنِ فِيهَا) من الظالمين الكافرين بالله منك، وإن لوطاً ليس منهم، بل هو كما قلت من أولياء الله، (لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ) من الهلاك الذي هو نازل بأهل قريته (إِلَّا أَمْرًا تُهْكَمُ كَانَتْ مِنَ الْغَيْرِيبِ) الذين أبقتهم الدهور والأيام، وتطاولت أعمارهم وحياتهم، وإنها هالكة من بين أهل لوط مع قومها.

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

لما استنصر لوط عليه السلام الله عليهم، بعث الله لنصرته ملائكة فمروا على إبراهيم عليه السلام، في هيئة أضياف، فجاءهم بما ينبغي للضيف، فلما رأى أنه لا همّة لهم إلى الطعام نكّرهم، وأوجس منهم خيفة، فشرعوا يؤانسونه ويبشرونه بوجود ولد صالح من امرأته سارة - وكانت حاضرة - فتعجبت من

ذلك، كما تقدم بيانه في سورتي «هود» و«الحجر». فلما جاءت إبراهيم البشري، وأخبروه بأنهم أرسلوا لهلاك قوم لوط، أخذ يدافع عنهم يُنظرون، لعل الله أن يهديهم، ولما قالوا: (إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ ﴿٣٣﴾)، (قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنِ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَاتُهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٤﴾ أَي: من الهالكين؛ لأنها كانت تماثلهم على كفرهم وبغيهم ودبرهم. ثم ساروا من عنده فدخلوا على لوط في صورة شباب حسان.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيتَ بِهِمْ وَصَافَ بِهِمْ ذُرْعًا قَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرَاتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ ذَرَكْنَا مِّنْهَا آيَةً يُّنَسِّتُ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

ج: ولما أن جاءت ملائكتنا الذين أرسلناهم إلى قوم لوط لتدميرهم بإهلاكهم ساءه مجيئهم وتضايق بسببهم خوفاً عليهم من قومه الأشرار أن يأتوا إليهم ويفعلوا بهم الفاحشة، فطمأنوه وقالوا له: لا تخف علينا يا نبي الله من قومك الأشرار ولا تحزن على ما أصابك من هموم وغموم، ولا تحزن مما يحيط بك، ولا تخف فإننا منجوك وأهلك المؤمنين بك، إلا امرأتك فقد كانت خائنة في الدين، وقد كتب الله أن تكون من الهالكين الباقين مع الذين سيعذبون ويهلكون، وفي الآيات الأخر أن الله ﷻ أوحى إليه أن يخرج بعباد الله المؤمنين وكذا بأهله المؤمنين به، كما قال تعالى: (فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْفُتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانِكَ إِنَّهُ مُصِيبُهُمَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ هود: ٨١) وأخبرته الملائكة أنهم سينزلون على أهل هذه القرية

عذابًا من السماء بسبب جرمهم وفسقهم، وإيضاحه في قوله: (فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُورٍ ﴿٨٢﴾ هود: ٨٢) فأهلكها الله ﷻ وتركها آية وعبرة وعظة لقوم يعقلون سنة الله في الخلق ويعقلون كيف يُعذب الظالمون، ويُنجي الله المؤمنين.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: (وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا ﴿٨٢﴾ مِنَ الْمَلَائِكَةِ (سَيِّئَ بِهِمْ) يقول: ساءت الملائكة بمجيئهم إليه، وذلك أنهم تضيفوه، فسأوه بذلك، فقول: (سَيِّئَ بِهِمْ) ﴿٨٢﴾: فَعَلَّ بِهِمْ مِنْ سَاءٍ بِذَلِكَ.

وذكر عن قتادة أنه كان يقول: ساء ظنه بقومه، وضاق بضيفه ذرعًا. وأورد الطبري بإسناد حسن عن قتادة، قوله: (وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سَيِّئَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا) قال: بالضيافة مخافة عليهم مما يعلم من شر قومه.

قال الطبري: وقوله: (وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ) يقول تعالى ذكره: قالت الرسل للوط: لا تخف علينا أن يصل إلينا قومك، ولا تحزن مما أخبرناك من أننا مهلكوهم، وذلك أن الرسل قالت له: (يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسِرْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ) ﴿٨٢﴾، (إِنَّا مُنَجُّوكَ) ﴿٨٢﴾ من العذاب الذي هو نازل بقومك (وَأَهْلَكَ) ﴿٨٢﴾ يقول: ومنجو أهلِكَ معك (إِلَّا أَمْرَاتَكَ) ﴿٨٢﴾ فإنها هالكة فيمن يهلك من قومها، كانت من الباقيين الذين طالت أعمارهم.

يقول تعالى ذكره مخبرًا عن قيل الرسل للوط: (إِنَّا مُنَزِّلُونَكَ) ﴿٨٢﴾ يا لوط (عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ) ﴿٨٢﴾ سَدُومَ (رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ) ﴿٨٢﴾ يعني عذابًا.

وقوله: (بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ) ﴿٨٢﴾ يقول: بما كانوا يأتون من معصية الله، ويركبون من الفاحشة.

وقال في تأويل قوله تعالى: (وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

يقول تعالى ذكره: ولقد أبقينا من فعلتنا التي فعلنا بهم آية، يقول: عبرة بينة وعظة واعظة، (لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) عن الله حُجَجُه، ويتفكرون في مواعظه، وتلك الآية البينة هي عندي عُقُوقُ آثارهم، ودروس معالمهم.

وأورد بسند حسن عن قتادة: (وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) قال: هي الحجارة التي أمطرت عليهم.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

فلما رآهم كذلك ، (سَاءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا) أي: اهتمَّ بأمرهم، إن هو أضافهم خاف عليهم من قومه، وإن لم يضيفهم خشي عليهم منهم، ولم يعلم بأمرهم في الساعة الراهنة. (وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرًا تَكُ كَانَتْ مِنْكَ الْغَيْرُ) (٣٢) إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ، وذلك أن جبريل رَحِمَهُ اللهُ اقتلع قراهم من قرار الأرض، ثم رفعها إلى عَنَانِ السماء، ثم قلبها عليهم. وأرسل الله عليهم حجارة من سجيل منضود، مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد، وجعل مكانها بحيرة خبيثة متتنة، وجعلهم عبرة إلى يوم التناد، وهم من أشد الناس عذابًا يوم المعاد؛ ولهذا قال تعالى: (وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً) أي: واضحة، (لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) ، كَمَا قَالَ: (وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ) (١٣٧) وَبِالْأَيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ .

[الصفات: ١٣٧، ١٣٨]



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَالِى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَتَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ
الْآخِرَ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (٣٦) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّحْفَةُ
فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ
لَكُمْ مِّن مَّسْكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ
عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقُرُونِ وَفِرْعَوْنَ وَهَمَانَ
وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا
سَاقِيْنَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ
مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا
وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾

[العنكبوت: ٣٦-٤٠].

س: وضح معنى ما يلي:

﴿وَأَرْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ - وَلَا تَعْتَوْا - الرَّجْفَةُ - جَنِّمِيكَ - وَزَيْتَ - مُسْتَبْصِرِينَ - سَيِّفِيكَ - حَاصِبًا - الصَّيْحَةُ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿وَأَرْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾	اطلبوا ثواب الله في اليوم الآخر بأعمالكم الصالحة
﴿وَلَا تَعْتَوْا﴾	لا تكثرُوا من المعاصي - لا تكفروا
﴿الرَّجْفَةُ﴾	الزلزلة العظيمة
﴿جَنِّمِيكَ﴾	موتى بعضهم فوق بعض
﴿وَزَيْتَ﴾	حسن
﴿مُسْتَبْصِرِينَ﴾	مستبصرين في ضلالتهم مُعجبين بها عالمين بطريق الحق، ولكنهم سلكوا غيره
﴿سَيِّفِيكَ﴾	فائتين من عذابنا - هاربين منا
﴿حَاصِبًا﴾	الحجارة الشديدة الصغيرة القاسية التي تحملها الرياح
﴿الصَّيْحَةُ﴾	الصوت العظيم الذي أهلكهم



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَالِإِي مَدِينَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَقَوْمُ اعْبُدُوا اللَّهَ وَأَرْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِّمِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - ولقد أرسلنا إلى أهل مدين نينا شعيبًا

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، منهم من قبيلتهم وبلادهم فدعاهم إلى توحيد الله ﷻ وعدم الإشراك به فقال لهم: (اعْبُدُوا اللَّهَ ﴿﴾ وحده لا شريك له، اخضعوا له وأطيعوه ولا تجعلوا له شركاء، واطلبوا بذلك ثواب الله في اليوم الآخر، وأقلعوا عن هذا الفساد الكثير الذي أفسدتموه في الأرض، لا تسعوا في الأرض بالفساد، وكان من فسادهم تطفيف المكيال والميزان وبخس الناس حقوقهم، فما كان منهم إذ دعاهم نبيهم ﷺ إلى ذلك إلا أن كذبوه وخالفوه وعاندوه، فجاءتهم كغيرهم من المكذبين العقوبة، شديدة ومؤلمة فأخذتهم الرجفة، وهي الزلزلة العظيمة من تحت أرجلهم وكذا كان مما أصابهم عذاب يوم الظُّلَّة، إذ اعتراهم حرٌّ شديدٌ جدًّا أخرجهم من بيوتهم فرأوا سحابة سوداء فذهبوا يستظلون بها فتأججت عليهم نارًا، فنانرٌ من فوقهم ورجفة من تحتهم، وصيحة ألمت بهم، فأصبحوا ميتين مُلقى بعضهم على بعض.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: وأرسلت إلى مدين أخاهم شعيبًا، فقال لهم: (يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴿﴾ وحده، وذُلُّوا له بالطاعة، واخضعوا له بالعبادة (وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ ﴿﴾ يقول: وارجوا بعبادتكم إياي جزاء اليوم الآخر، وذلك يوم القيامة (وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿﴾ يقول: ولا تكثروا في الأرض معصية الله، ولا تقيموا عليها، ولكن توبوا إلى الله منها وأنبيوا.

وقد كان بعض أهل العلم بكلام العرب يتأول قوله: (وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ ﴿﴾ بمعنى: واخشوا اليوم الآخر، وكان غيره من أهل العلم بالعربية يُنكر ذلك ويقول: لم نجد الرجاء بمعنى الخوف في كلام العرب إلا إذا قارنه الجحْد.

يقول تعالى ذكره: فكذب أهل مدين شعيبًا فيما أتاهم به عن الله من الرسالة، فأخذتهم رجفة العذاب (فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِّمِينَ ﴿﴾ جُثُمًا،

بعضهم على بعض مَوْتَى.

وأورد بإسناد حسن عن قتادة: (فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَثِمِينَ ﴿٦﴾): أي ميتين.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

يخبر تعالى عن عبده ورسوله شعيب عليه السلام، أنه أنذر قومه أهل مدين، فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، وأن يخافوا بأس الله ونقمته وسطوته يوم القيامة، فقال: (يَنْقُومُ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ ﴿٦﴾).

قال ابن جرير: قال بعضهم: معناه: واخشوا اليوم الآخر، وهذا كقوله تعالى: (لَمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ﴿٦﴾) [الممتحنة: ٦].

ثم نهاهم عن العيث في الأرض بالفساد، وهو السعي فيها والبغي على أهلها، وذلك أنهم كانوا ينقصون المكيال والميزان، ويقطعون الطريق على الناس، هذا مع كفرهم بالله ورسوله، فأهلكهم الله برجفة عظيمة زلزلت عليهم بلادهم، وصيحة أخرجت القلوب من حناجرها. وعذاب يوم الظلة الذي أزهاق الأرواح من مستقرها، إنه كان عذاب يوم عظيم. وقد تقدمت قصتهم مبسوبة في سور «الأعراف، وهود، والشعراء».

وقوله: (فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَثِمِينَ ﴿٦﴾)، قال قتادة: ميتين. وقال غيره: قد ألقى بعضهم على بعض.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

قوله تعالى: (وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴿٦﴾): أي: وأرسلنا إلى مدين وقد تقدم ذكرهم وفسادهم في (الأعراف) و(هود) (وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ ﴿٦﴾) وقال يونس النحوي: أي: اخشوا الآخرة التي فيها الجزاء على الأعمال (وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦﴾): أي: لا تكفروا فإنه أصل كل فساد والعثو والعشي أشد الفساد عثي

يعثى وعثا يعثو بمعنى واحد وقد تقدم وقيل: (وَأَرْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ) أي: صدقوا به فإن القوم كانوا ينكرونه.



س: وضح معنى قوله تعالى: (وَعَادًا وَثُمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسْكِئِهِمْ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ) ﴿٢٨﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - : واذكر قوم عاد وقوم ثمود، وما حلَّ بهم من العقاب والنكال لتكذيبهم المرسلين ولشركهم بالله ﷻ وعنادهم وظلمهم وبغيهم، لقد حلَّ بهم أليم العقاب، فانظروا إلى مساكنهم يتبين لكم ويظهر كيف كان عقابنا لهم، فاحذروا؛ فقد زين لهم الشيطان أعمالهم حسناتها لهم وجملها في أعينهم، فاحذروا تزيينه لكم، لقد حسناتها لهم فصرفهم عن طريق الحق إلى طريق الباطل، وقد كانوا في دنياهم مستبصرين.

وقد قيل في قوله تعالى: (مُسْتَبْصِرِينَ) أنهم مستبصرين في ضلالتهم وكفرهم ومعجيين بذلك.

وقال آخرون من أهل العلم: كانوا مستبصرين عالمين الحق رأوه ولكنهم سلكوا سبيلاً آخر غير ذلك السبيل، كما قال تعالى: (وَأَمَّا ثُمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ) [فصلت: ١٧].

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: واذكروا أيها القوم عادًا وثمود، (وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسْكِئِهِمْ) خرابها وخلأؤها منهم بوقائعنا بهم، وحلول سَطُوتنا بجمعهم (وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ) يقول: وحسن لهم الشيطان كفرهم بالله،

وتكذيبهم رسله (فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ) يقول: فردَّهم بتزيينه لهم، ما زَيْنَ لهم من الكفر عن سبيل الله، التي هي الإيمان به ورسله، وما جاءوهم به من عند ربهم (وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ) يقول: وكانوا مستبصرين في ضلالتهم، مُعْجِبِينَ بها، يحسبون أنهم على هدى وصواب، وهم على الضلال.

وأورد بإسناد حسن عن قتادة: (وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ) في ضلالتهم مُعْجِبِينَ بها.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

قوله تعالى: (وَعَادًا وَثُمُودًا) قال الكسائي: قال بعضهم: هو راجع إلى أول السورة أي: ولقد فتننا الذين من قبلهم وفتنا عادًا وثمود قال: وأحب إلى أن يكون معطوفًا على (فَأَخَذْتَهُمُ الْخَفَّةَ) وأخذت عادًا وثمود وزعم الزجاج: أن التقدير وأهلكنا عادًا وثمود وقيل: المعنى واذكر عادًا إذ أرسلنا إليهم هودًا فكذبوه فأهلكناهم وثمود أيضًا أرسلنا إليهم صالحًا فكذبوه فأهلكناهم بالصيحة كما أهلكنا عادًا بالريح العقيم (وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ) يا معشر الكفار (مَنْ مَسَّكَ كِنَهُمْ) بالحجر والأحقاف آيات في إهلاكهم فحذف فاعل التبين (وَرَيَّكَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ) أي أعمالهم الخسيسة فحسبوها ربيعة (فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ) أي: عن طريق الحق (وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ) فيه قولان: أحدهما: وكانوا مستبصرين في الضلالة قاله مجاهد. والثاني: كانوا مستبصرين قد عرفوا الحق من الباطل بظهور البراهين وهذا القول أشبه لأنه إنما يقال فلان مستبصر إذا عرف الشيء على الحقيقة. قال الفراء: كانوا عقلاء ذوي بصائر فلم تنفعهم بصائرهم وقيل: أتوا ما أتوا وقد تبين لهم أن عاقبتهم العذاب.



س: وضح معنى قوله تعالى: (وَقُرْئُوكَ وَفِرْعَوْنَ وَهَمَانَ) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَاقِيْنَ ﴿٣٩﴾.

ج: المعنى - والله أعلم - واذكر قارون الطاغى الباغى الذي آتاه الله من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة، اذكره واذكر ما حلَّ به، وقد تقدم أمره في سورة القصص، وكذا فاذكر فرعون الذي عتا عتواً كبيراً، واستكبر في نفسه قائلاً: أنا ربكم الأعلى، وقائلاً: يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري، واذكر وزيره وزير السوء ذلكم الوزير المبطل، اذكر هؤلاء وما حلَّ بهم لقد جاءهم رسول الله موسى ﷺ بالآيات البينات والحجج الواضحات الدالة على صدقه فتعالوا عن ذلك واستكبروا وأبوا أشد الإباء أن يؤمنوا، ولكنهم ما فاتونا ولا أعجزونا ولا هربوا منا فإننا كنا عليهم مقتدرون.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: واذكر يا محمد، قارون وفرعون وهامان، ولقد جاء جميعهم موسى بالبينات، يعني: بالواضحات من الآيات، (فَأَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ) عن التصديق بالبينات من الآيات، وعن اتباع موسى صلوات الله عليه (وَمَا كَانُوا سَاقِيْنَ) يقول تعالى ذكره: وما كانوا سابقينا بأنفسهم، فيفوتونا، بل كنا مقتدرين عليهم.

وقال القرطبي رحمه الله:

قوله تعالى: (وَقُرْئُوكَ وَفِرْعَوْنَ وَهَمَانَ) قال الكسائي: إن شئت كان محمولاً على عاد وكان فيه ما فيه وإن شئت كان على (فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ) وصد قارون وفرعون وهامان وقيل: أي: وأهلكنا هؤلاء بعد أن جاءتهم الرسل (فَأَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ) عن الحق وعن عبادة الله (وَمَا كَانُوا سَاقِيْنَ)

أي: فائتين وقيل: سابقين في الكفر بل قد سبقهم للكفر قرون كثيرة فأهلكناهم.



س: وضح معنى قوله تعالى: (فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَن أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَن خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَن أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾).

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - أن كل هذه الأمم المكذبة التي قدمنا ذكرها، قد عاقبناها وأنزلنا عليها أليم العقاب بسبب ذنوبها فمنهم من أرسلنا عليه حاصبًا وهي الحجارة الشديدة القاسية، وأحيانًا تحملها الرياح، وهؤلاء الذين أرسل عليهم الحاصب قوم لوط وقوم عاد، فقوم لوط قال تعالى في شأنهم: (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُورٍ ﴿٨٢﴾) وقوم عاد، قال تعالى في شأنهم: (وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾) قال بعض العلماء: بما تحملها الرياح من الحصباء، أي: حصباء الأرض حملتها الرياح وعذبوا بها.

ومنهم من أخذته الصيحة، وهم ثمود، وأصحاب مدين، ومنهم من خسفنا به الأرض وهو قارون، ومنهم من أغرقنا وهم قوم نوح وقوم فرعون وهامان، ولم يكن الله ﷻ بظالمٍ لهم إذ أحلَّ بهم ما أحلَّ ولكنهم هم الذين بخسوا أنفسهم حقوقها ولم يجلبوا لها ما تستحق من أمان، وأمانها كان بتوحيدهم لله ﷻ وطاعة رسله والاستقامة على أمره، فلم يفعلوا ذلك بل أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا وعاندوا أشد العناد وكذبوا المرسلين وظلموا العباد فحلَّ بهم من النكد والبلاء ما حلَّ.

وبنحوما ذكر قال العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

يقول تعالى ذكره: فأخذنا جميع هذه الأمم التي ذكرناها لك يا محمد بعدابنا (فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا) وهم قوم لوط الذين أمطر الله عليهم حجارة من سجيل منضود، والعرب تسمي الريح العاصف التي فيها الحصى الصغار أو الثلج أو البرد والجليد: حاصبًا.

وأورد بإسناد حسن عن قتادة: (فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا) وهم قوم لوط. وأورد قولين في الذين أخذتهم الصيحة، قوم ثمود وقوم شعيب، وأورد عن قتادة بسند حسن أنه قال: قوم شعيب لكن الطبري عقب بقوله:

والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله قد أخبر عن ثمود وقوم شعيب من أهل مدين أنه أهلكهم بالصيحة في كتابه في غير هذا الموضع، ثم قال جل ثناؤه لنبيه ﷺ: فمن الأمم التي أهلكناها من أرسلنا عليهم حاصبًا، (وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ)، فلم يخصص الخبر بذلك عن بعض من أخذته الصيحة من الأمم دون بعض، وكلا الأمتين أعني ثمود ومدين قد أخذتهم الصيحة. وقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ يعني بذلك قارون.

وأورد وجهين في الذين أغرقهم الله ﷻ، وهم قوم نوح وفرعون وهامان.

وقال:

والصواب من القول في ذلك، أن يقال: عني به قوم نوح وفرعون وقومه؛ لأن الله لم يخصص بذلك إحدى الأمتين دون الأخرى، وقد كان أهلكهما قبل نزول هذا الخبر عنهما، فهما معنيتان به.

وقوله: (وَمَا كَانَتْ أَلْفٌ لِّیْظِلِّمُهُمْ وَلَکِنْ کَانُوا أَنْفُسَهُمْ یَظْلِمُونَ) يقول

تعالى ذكره: ولم يكن الله ليهلك هؤلاء الأمم الذين أهلكتهم، بذنوب غيرهم، فيظلمهم بإهلاكه إياهم بغير استحقاق، بل إنما أهلكتهم بذنوبهم، وكفرهم بربهم، وجحودهم نعمه عليهم، مع تتابع إحسانه عليهم، وكثرة أياديه عندهم، **(وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)** بتصرفهم في نعم ربهم، وتقلبهم في آلائه وعبادتهم غيره، ومعصيتهم من أنعم عليهم.

وقال القرطبي رحمه الله:

(فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ) قال الكسائي: **(فَكُلًّا)** منصوب بـ **(أَخَذْنَا)** أي: أخذنا كلًّا بذنبه **(فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا)** يعني: قوم لوط والحاصب ريح يأتي بالحصباء وهي الحصى الصغار وتستعمل في كل عذاب **(وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ)** يعني: ثمود وأهل مدين **(وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ)** يعني: قارون **(وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا)** قوم نوح وقوم فرعون **(وَمَا كَانَتْ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ)** لأنه أذرهم وأمهلهم وبعث إليهم الرسل وأزاح العذر.

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

يخبر تعالى عن هؤلاء الأمم المكذبة للرسل كيف أبادهم وتنوع في عذابهم، فأخذهم بالانتقام منهم، فعاد قوم هود، وكانوا يسكنون الأحقاف وهي قريبة من حضرموت ببلاد اليمن، وثمرود قوم صالح، وكانوا يسكنون الحجر قريباً من وادي القرى. وكانت العرب تعرف مساكنهما جيداً، وتمر عليها كثيراً. وقارون صاحب الأموال الجزيلة ومفاتيح الكنوز الثقيلة. وفرعون ملك مصر في زمان موسى ووزيره هامان القبطيان الكافران بالله ورسوله.

(فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ) أي: كانت عقوبته بما يناسبه، **(فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ)**

حَاصِبًا ﴿١٠٠﴾، وهم عاد، وذلك أنهم قالوا: مَنْ أَشَدُّ مَنَا قُوَّة؟ فجاءتهم ريح صرصر باردة شديدة البرد، عاتية شديدة الهبوب جدًّا، تحمل عليهم حصباء الأرض فتقلبها عليهم، وتقتلعهم من الأرض فترفع الرجل منهم إلى عَنَانِ السماء، ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخه فيبقى بدنًا بلا رأس، كأنهم أعجاز نخل منقعر. (وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ ﴿١٠١﴾، وهم ثمود، قامت عليهم الحجة وظهرت لهم الدلالة، من تلك الناقة التي انفلقت عنها الصخرة، مثل ما سألوا سواء بسواء، ومع هذا ما آمنوا بل استمروا على طغيانهم وكفرهم، وتهددوا نبي الله صالحًا وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ، وتوعَّدوهم بأن يخرجوهم ويرجموهم، فجاءتهم صيحة أخمدت الأصوات منهم والحركات. (وَمِنْهُمْ مَّنْ حَسَفَ بِهِنَّ الْأَرْضَ ﴿١٠٢﴾، وهو قارون الذي طغى وبغى وعتا، وعصى الرب الأعلى، ومشى في الأرض مرجًا، وفرح ومرح وتاه بنفسه، واعتقد أنه أفضل من غيره، واختال في مشيته، فحسف الله به وبداره الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة. (وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا ﴿١٠٣﴾، وهم فرعون ووزيره هامان، وجنوده عن آخرهم، أغرقوا في صبيحة واحدة، فلم ينج منهم مخبر، (وَمَا كَانَتْ أَلَلَةٌ لِّظُلْمِهِمْ ﴿١٠٤﴾ أي: فيما فعل بهم، (وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٠٥﴾ أي: إنما فعل ذلك بهم جزاءً وفاقًا بما كسبت أيديهم.

وهذا الذي ذكرناه ظاهر سياق الآية، وهو من باب اللف والنشر، وهو أنه ذكر الأمم المكذبة، ثم قال: (فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ ﴿١٠٦﴾، أي: من هؤلاء المذكورين، وإنما نبهت على هذا لأنه قد روي أن ابن جريج قال: قال ابن عباس في قوله: (فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ﴿١٠٧﴾، قال: قوم لوط. (وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا ﴿١٠٨﴾، قال: قوم نوح.

وهذا منقطع عن ابن عباس؛ فإن ابن جريج لم يدركه. ثم قد ذكر في هذه

السورة إهلاك قوم نوح بالطوفان، وقوم لوط بإنزال الرجز من السماء، وطال السياق والفصل بين ذلك وبين هذا السياق.

وقال قتادة: (فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ﴿١٠٦﴾ قال: قوم لوط، (وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ ﴿١٠٧﴾، قوم شعيب. وهذا بعيد أيضًا لما تقدم، والله أعلم.



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أُولِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنَكَبُوتِ
أَخَذَتْ بِتَنَانٍ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنَكَبُوتِ لَوْ كَانُوا
يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا
الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً
لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ أَتُلُ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ
الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا
تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾

[العنكبوت: ٤١-٤٥]

س: وضح معنى ما يلي:

﴿أُولِيَاءَ - أَوْهَنَ - نَضْرِبُهَا - الْعَالِمُونَ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
(أُولِيَاءَ) ﴿	أنصارًا
(أَوْهَنَ) ﴿	أضعف
(نَضْرِبُهَا) ﴿	نُبَيِّنُهَا
(الْعَالِمُونَ) ﴿	العلماء



ضعف المستند الذي يستند إليه أهل الشرك

س: وضح معنى قوله تعالى: (مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أُولِيَاءَ

كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾).

ج: هذا مثل ضرب لبيان بطلان ما عليه أهل الشرك من اعتقادهم بأن آلهتهم تنصرهم من دون الله أو تغني عنهم من عذاب الله من شيء، وحاصل المعنى - والله أعلم - مثل الذين اتخذوا أصنامًا وأوثانًا يعبدونها مع الله، ويجعلونها شريكة الله، وكذا يعبدونها ويتركون عبادة الله، يطلبون بذلك نصرتها لهم عند الشدائد كمثل العنكبوت التي اتخذت بيتًا يحميها ويكفئها فلما حلَّ بالعنكبوت ما حلَّ لم ينفعها بيتها ولم يحفظها من المطر ولا الريح، وذلك لأنه بيتٌ ضعيف فلم يغن عن العنكبوت شيء، وكذا الآلهة التي هي الأوثان والأصنام، وكل معبود عبد من دون الله لا يملك لعباديه شيئًا ولا يغني

عنه من عذاب الله من شيء، فالأصنام والأوثان والآلهة المعبودة من دون الله، شُبِّهَتْ ببيت العنكبوت في كونها لا تغني عن عابديها شيئاً.
ثم قال تعالى: (وَإِنَّ أَوَّهَكَ أَبْيُوتَ لَبِئْتَ الْعَنْكَبُوتُ) ﴿١﴾ لو كان هؤلاء يعلمون علماً ينتفعون به، والله أعلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: مثل الذين اتخذوا الآلهة والأوثان من دون الله أولياء يرجون نصرها ونفعها عند حاجتهم إليها في ضعف احتيالهم، وقبح رواياتهم، وسوء اختيارهم لأنفسهم، (كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ) ﴿١﴾ في ضعفها، وقلة احتيالها لنفسها، (اِتَّخَذَتْ بَيْتًا) ﴿٢﴾ لنفسها، كيما يُكْنَهَا، فلم يغن عنها شيئاً عند حاجتها إليه، فكَذَلِكَ هؤلاء المشركون لم يغن عنهم حين نزل بهم أمر الله، وحلّ بهم سخطه أولياؤهم الذين اتخذوهم من دون الله شيئاً، ولم يدفعوا عنهم ما أحلّ الله بهم من سخطه بعبادتهم إياهم.

وأورد بإسناد حسن عن قتادة: قوله: (مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ) ﴿١﴾ قال: هذا مثل ضربه الله للمشرك مثل إلهه الذي يدعوهم من دون الله كمثال بيت العنكبوت واهن ضعيف لا ينفعه.

وأورد بإسناد صحيح عن ابن زيد: في قوله: (مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اِتَّخَذَتْ بَيْتًا) ﴿١﴾ قال: هذا مثل ضربه الله، لا يغني أولياؤهم عنهم شيئاً، كما لا يغني العنكبوت بيتها هذا.

وقوله: (وَإِنَّ أَوَّهَكَ أَبْيُوتَ) ﴿٢﴾ يقول: إن أضعف البيوت (لَبِئْتَ الْعَنْكَبُوتُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) ﴿٣﴾ يقول تعالى ذكره: لو كان هؤلاء الذين اتخذوا من دون الله أولياء، يعلمون أن أولياءهم الذين اتخذوهم من دون الله في قلة غنائهم عنهم،

كغناء بيت العنكبوت عنها، ولكنهم يجهلون ذلك، فيحسبون أنهم ينفعونهم ويقربونهم إلى الله زلفى.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله، يرجون نصرهم ورزقهم، ويتمسكون بهم في الشدائد، فهم في ذلك كبيت العنكبوت في ضعفه ووهنه فليس في أيدي هؤلاء من آلهتهم إلا كمن يتمسك ببيت العنكبوت، فإنه لا يجدي عنه شيئاً، فلو علموا هذا الحال لما اتخذوا من دون الله أولياء، وهذا بخلاف المسلم المؤمن قلبه لله، وهو مع ذلك يحسن العمل في اتباع الشرع فإنه مستمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها، لقوتها وثباتها.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

(لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) ﴿لَوْ﴾ متعلقة ببيت العنكبوت أي: لو علموا أن عبادة الأوثان كاتخاذ بيت العنكبوت التي لا تغني عنهم شيئاً وأن هذا مثلهم لما عبدوها؛ لا أنهم يعلمون أن بيت العنكبوت ضعيف.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ (التفسير القيم):

قول الله تعالى ذكره:

(مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) ﴿١٠﴾.

فذكر سبحانه أنهم ضعفاء، وأن الذين اتخذوهم أولياء هم أضعف منهم. فهم في ضعفهم وما قصدوه من اتخاذ الأولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً. وهو أوهن البيوت وأضعفها.

وتحت هذا المثل أن هؤلاء المشركين أضعف ما كانوا حين اتخذوا من

دون الله أولياء. فلم يستفيدوا بمن اتخذوهم أولياء إلا ضعفاً كما قال تعالى: (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾) وقال تعالى: (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾) لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُنْحَضُونَ ﴿٧٥﴾ وقال بعد أن ذكر إهلاك الأمم المشركين: (وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْنِيبٍ ﴿١٠١﴾) فهذه أربعة مواضع في القرآن تدل على أن من اتخذ من دون الله ولياً يتعزز به، ويتكبر به، ويستقر به لم يحصل له به إلا ضد مقصوده.

وفي القرآن أكثر من ذلك، وهذا من أحسن الأمثال وأدلهها على بطلان الشرك وخسارة صاحبه وحصوله على ضد مقصوده.

فإن قيل: فهم يعلمون أن أوهن البيوت بيت العنكبوت فكيف نفى عنهم علم ذلك بقوله: (لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) ﴿١٠١﴾.

فالجواب: أنه سبحانه لم ينف عنهم علمهم بوهن بيت العنكبوت، وإنما نفى عنهم علمهم بأن اتخاذهم أولياء من دونه كالعنكبوت اتخذت بيتاً، فلو علموا ذلك ما فعلوه، ولكن ظنوا أن اتخاذهم الأولياء من دونه يفيدهم عزاً وقدرة. فكان الأمر بخلاف ما ظنوه.



س: في قوله تعالى: (مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ) ﴿١٠١﴾ قراءتان وضحهما.

ج: القراءة الأولى بالياء (يَدْعُونَ) ﴿١٠١﴾، والثانية بالتاء (تَدْعُونَ) ﴿١٠١﴾.



س: وضح معنى قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾).

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، إن الله يعلم الأشياء التي يعبدونها من دون الله، أي شيء كان، وأنه -أي: هذا الشيء المعبود- ضعيف لا يملك لنفسه فضلاً عن غيره شيئاً، والله هو العزيز الغالب الذي ينفذ حكمه ومراده في خلقه الحكيم فيما يشترع.

وبنحو هذا قال العلماء.

قال الطبري رحمه الله:

اختلف القراء في قراءة قوله: (إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَدْعُونَ) فقرأته عامة قراء الأمصار (تَدْعُونَ) بالتاء بمعنى الخطاب لمشركي قريش (إِنَّ اللَّهَ ﴿﴾ أيها الناس، (يَعْلَمُ مَا تَدْعُونَ) إِلَيْهِ (مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ). وقرأ ذلك أبو عمرو: (إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَدْعُونَ ﴿﴾ بالياء بمعنى الخبر عن الأمم، إن الله يعلم ما يدعو هؤلاء الذين أهلكناهم من الأمم (مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ) ﴿﴾.

والصواب من القراءة في ذلك عندنا، قراءة من قرأ بالتاء؛ لأن ذلك لو كان خبراً عن الأمم الذين ذكر الله أنه أهلكهم، لكان الكلام: إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا كَانُوا يدعون، لأن القوم في حال نزول هذا الخبر على نبي الله لم يكونوا موجودين، إذ كانوا قد هلكوا فبادوا، وإنما يقال: (إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَدْعُونَ) إذا أريد به الخبر عن موجودين، لا عمن قد هلك.

فتأويل الكلام إذ كان الأمر كما وصفنا: (إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ﴿﴾ أيها القوم، حال ما تعبدون (مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ) ﴿﴾، وأن ذلك لا ينفعكم ولا يضركم، إن أراد الله بكم سوءاً، ولا يغني عنكم شيئاً، وإن مثله في قلة غنائهم عنكم، مثل بيت العنكبوت في غنائها عنها.

وقوله: (وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) يقول: والله العزيز في انتقامه ممن كفر به، وأشرك في عبادته معه غيره فاتقوا أيها المشركون به، عقابه بالإيمان به قبل نزوله بكم، كما نزل بالأمم الذين قصَّ الله قصصهم في هذه السورة عليكم، فإنه إن نزل بكم عقابه لم تغن عنكم أولياؤكم الذين اتخذتموهم من دونه أولياء، كما لم يُغن عنهم من قبلكم أولياؤهم الذين اتخذوهم من دونه، الحكيم في تدبيره خلقه فمهلك من استوجب الهلاك في الحال التي هلاكه صلاح، والمؤخر من آخر هلاكه من كفره خلقه به إلى الحين الذي في هلاكه الصلاح.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

ثم قال تعالى متوعداً لِمَنْ عبد غيره وأشرك به: إنه تعالى يعلم ما هم عليه من الأعمال، ويعلم ما يشركون به من الأنداد، وسيجزئهم وصفهم إنه حكيم عليهم.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَكَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ) (مَا) بمعنى الذي (وَمِنْ) للتبويض ولو كانت زائدة للتوكيد لانقلب المعنى والمعنى: إن الله يعلم ضعف ما يعبدون من دونه.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا

الْعَالِمُونَ﴾ (٤٣)؟

ج: المعنى، وهذه الأمثال التي نسوقها في الكتاب العزيز نبينها ونظهرها ونمثلها ونشبهها ونحتج بها (لِلنَّاسِ)، وما يفهمها وما يتدبرها وما يعلم معناها

إلا الراسخون في العلم، العالمون بالله وآياته.

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

وقوله: (وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ) يقول تعالى ذكره: وهذه الأمثال، وهي الأشباه والنظائر (نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ) يقول: نمثلها ونشبهها ونحتجُّ بها للناس، كما قال الأعشى:

هَلْ تَذْكُرُ الْعَهْدَ مِنْ تَنْمَصْ إِذْ تَضْرِبُ لِي قَاعِدًا بِهَا مَثَلًا

(وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ) يقول تعالى ذكره: وما يعقل أنه أصيب بهذه الأمثال التي نضربها للناس منهم الصواب والحق فيما ضربت له مثلاً (إِلَّا الْعَالِمُونَ) بالله وآياته.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

قوله تعالى: (وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا) أي: هذا المثل وغيره مما ذكر في (البقرة) و(الحج) وغيرهما (نَضْرِبُهَا) نبينها (لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا) أي: يفهمها (إِلَّا الْعَالِمُونَ) أي: العالمون بالله.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

ثم قال تعالى: (وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ) أي: وما يفهمها ويتدبرها إلا الراسخون في العلم المتصلعون منه.



إيضاح معنى قوله تعالى: ﴿بِالْحَقِّ﴾

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ **لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ** في ذلك الآية للمؤمنين.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - أن الله ﷻ خلق السموات والأرض لإقامة الحق والعدل إن في ذلك لدلالة على وحدانيته وقدرته، لكن لا يتفطن لذلك إلا أهل الإيمان ولا يستدل بذلك على وحدانيته إلا هؤلاء المؤمنون. وإن كان من العلماء قد أورد معاني أخر لكلمة الحق:

منها: أنه سبحانه الذي خلقها وحده لا شريك له لم يشاركه أحد في خلقها فيكون المعنى حقاً إن الله ﷻ هو الذي خلق السموات والأرض وحده لا شريك له.

الثاني: أنه سبحانه وتعالى خلق السموات والأرض لإقامة الحق وتكون الباء في قوله بمعنى اللام فحروف الجر تتناوب ويأتي بعضها مكان بعض كقوله: ﴿فَسَلِّ بِهِ خَيْرًا﴾ [الفرقان: ٥٩] أي: فاسأل عنه خيراً، وكقوله: ﴿وَأَصْلَحْنَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ﴾ أي: على جذوع النخل.

فيكون المعنى خلق الله السموات والأرض لإقامة الحق، ومنه الاستدلال بخلقها على توحيده ومنه لتجزى كل نفس بما كسبت، فلم يخلقها عبثاً ولا لهُوا إنما خلقها لإقامة الحق والعدل.

الثالث: أنه سبحانه خلق السموات والأرض بكلمته التي هي الحق وبقدرته التي هي حق.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: خلق الله يا محمد، السموات والأرض

وحده منفرداً بخلقها، لا يشركه في خلقها شريك (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ﴿١٠﴾ يقول: إن في خلقه ذلك لحجة لمن صدق بالحجج إذا عاينها، والآيات إذا رآها.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

يقول تعالى مخبراً عن قدرته العظيمة: أنه خلق السموات والأرض بالحق، يعني: لا على وجه العبث واللعب، (لَتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا سَعَى ﴿١١﴾ طه: ١٥)، (لَتُجْزَى الَّذِينَ أَسْتَوْا بِمَا عَمِلُوا وَيُجْزَى الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴿١٢﴾ النجم: ٣١). وقوله: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ أي: لدلالة واضحة على أنه تعالى المتفرد بالخلق والتدبير والإلهية.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

قوله تعالى: (خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴿١٤﴾ أي: بالعدل والقسط وقيل: بكلامه وقدرته وذلك الحق (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ﴿١٥﴾ أي: علامة ودلالة لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦﴾ المصدقين.



س: وضح معنى قوله تعالى: (أَتْلُ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿١٧﴾)

ج: أما معنى قوله تعالى: (أَتْلُ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ ﴿١٨﴾)

ففيه وجهان:

أحدهما: اقرأ القرآن.

ثانيهما: اتبع القرآن.

*** أما قوله تعالى: (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ﴿١٩﴾ حافظ عليها وأدّها على وجهها الصحيح بفرائضها وشرائطها وواجباتها وفي أوقاتها.**

* أما قوله تعالى: (إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ) فحاصل معناه والله أعلم: إن الصلاة بالاستمرار عليها والمداومة عليها تنهى صاحبها عن الفحشاء، وهي كل ما فحش خطؤه من القول والعمل. والمنكر: كل ما يخالف أمر الله ﷻ وأمر رسوله ﷺ وتستنكره.

فحاصل الأمر أن الصلاة بما فيها من قرآن يتلى، وبما فيها من توقيفٍ لله ﷻ وتنزيهه وبما فيها من مراقبة الله ﷻ تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر وهذا في غالب الأحوال.

فغالب الحال أن المصلين أبعد الناس عن الفحشاء والمنكر، وإن كان قد يصدر من بعضهم ما يخلُ بذلك لكن الأمر أغلبي، والله أعلم. والوجه الثاني للعلماء في كون الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، أن المصلي أثناء صلاته يكون بعيداً عن الفحشاء والمنكر.

ووجه ثالث: أن الصلاة تُغسل بها ذنوب العبد وتزول فلا يتراكم ذنبٌ فوق ذنب بما يؤول إلى ارتكاب الفحشاء والمنكر، والله أعلم.

أما قوله: (وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ) فحاصل معناه: أن العبد إذا صلى فذكر الله ﷻ في صلاته، ذكره الله ذكراً أعظم وأكبر من ذكره الله في الصلاة فذكر الله لك يا عبد الله إذا أنت ذكرته في صلاتك أعظم من ذكرك له.

أما قوله تعالى: (وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ) فحاصل معناه: أن الله يراقبك يا عبد الله فأتقن صلاتك واتل ما أوحى إليك من كتاب ربك، وأكثر من ذكر الله فربك مطلع على كل هذا، ومجازيك به، والله أعلم، وبنحو ما ذكرت قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: (أَتْلُ) يعني: اقرأ (مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنْ

الْكُنْبِ ﴿١﴾ يعني: ما أنزل إليك من هذا القرآن (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ﴿٢﴾ يعني: وأد الصلاة التي فرضها الله عليك بحدودها (إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴿٣﴾ اختلف أهل التأويل في معنى الصلاة التي ذكرت في هذا الموضع، فقال بعضهم: عنى بها القرآن الذي يقرأ في موضع الصلاة، أو في الصلاة.

وقال رحمه الله:

وقال آخرون: بل عنى بها الصلاة.

وأورد الطبري آثارًا كثيرةً بذلك واختار الطبري أن المراد الصلاة نفسها.

وقال رحمه الله:

فإن قال قائل: وكيف تنهى الصلاة عن الفحشاء والمنكر إن لم يكن معنيًا بها ما يتلى فيها؟ قيل: تنهى من كان فيها، فتحول بينه وبين إتيان الفواحش، لأن شغله بها يقطعه عن الشغل بالمنكر، ولذلك قال ابن مسعود: من لم يطع صلاته لم يزد من الله إلا بعدًا. وذلك أن طاعته لها إقامته إياها بحدودها، وفي طاعته لها مزدجر عن الفحشاء والمنكر.

وأخرج الطبري بسندٍ صحيح من طريق محمد بن أبي موسى، قال: كنت قاعدًا عند ابن عباس، فجاءه رجل، فسأل ابن عباس عن ذكر الله أكبر، فقال ابن عباس: الصلاة والصوم، قال: ذاك ذكر الله، قال رجل: إني تركت رجلًا في رحلي يقول غير هذا، قال: (وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴿١﴾ قال: ذكر الله العباد أكبر من ذكر العباد إياه، فقال ابن عباس: صدق والله صاحبك.

وله طرق عن ابن عباس رضي الله عنهما مفادها ذكر الله لكم أكبر من ذكركم له.

وأورد الطبري أثر أبي الدرداء وهو صحيح موقوفًا عليه قال:

«ألا أخبركم بخير أعمالكم وأحبها إلى مليكم، وأرفعها في درجاتكم،

وخير من أن تغزوا عدوكم، فتضربوا أعناقهم، وخير من إعطاء الدنانير والدرهم؟ قالوا: ما هو؟ قال: ذكركم ربكم، وذكر الله أكبر».

وأورد الطبري قولاً آخر في معنى قوله تعالى: (وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ) حاصله ولذكركم الله أفضل من كل شيء.

وأورد أقوالاً آخر منها:

لذكر الله العبد في الصلاة أكبر من الصلاة وقول آخر: وللصلاة التي أتيت أنت بها وذكرك الله فيها أكبر مما نهتك الصلاة من الفحشاء والمنكر.

قال الطبري رحمه الله:

وأشبه هذه الأقوال بما دلّ عليه ظاهر التنزيل، قول من قال: ولذكر الله إياكم أفضل من ذكركم إياه.

وقوله: (وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ) يقول: والله يعلم ما تصنعون أيها الناس في صلاتكم، من إقامة حدودها، وترك ذلك وغيره من أموركم، وهو مجازيكم على ذلك، يقول: فاتقوا أن تضيعوا شيئاً من حدودها، والله أعلم.

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

ثم قال تعالى أمراً رسوله والمؤمنين بتلاوة القرآن، وهو قراءته وإبلاغه للناس: (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ) يعني: أن الصلاة تشتمل على شيئين: على ترك الفواحش والمنكرات، أي: إن مواظبتها تحمل على ترك ذلك. وقد جاء في الحديث من رواية عمران، وابن عباس مرفوعاً: «مَنْ لَمْ تَنْهَ صَلَاتُهُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، لَمْ تَزِدْهُ مِنَ اللَّهِ إِلَّا بَعْدًا».

قلت: وهذا الحديث ضعيف من الطرق التي وقفت عليها وقد أورده الحافظ ابن كثير.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

قوله تعالى: (إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ) يريد إن الصلوات الخمس هي التي تكفر ما بينها من الذنوب كما قال عليه السلام: «أرأيتم لو أن نهراً باب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء» قالوا: لا يبقى من درنه شيء. قال: «فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا» خرجه الترمذي من حديث أبي هريرة وقال فيه: حديث حسن صحيح. وقال ابن عمر: الصلاة هنا القرآن والمعنى: الذي يتلى في الصلاة ينهى عن الفحشاء والمنكر وعن الزنى والمعاصي.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ أيضاً:

ثم أخبر حكماً منه بأن الصلاة تنهى صاحبها وممثلها عن الفحشاء والمنكر وذلك لما فيها من تلاوة القرآن المشتمل على الموعظة والصلاة تشغل كل بدن المصلي فإذا دخل المصلي في محرابه وخشع وأخبت لربه وادكر أنه واقف بين يديه وأنه مطلع عليه ويراه صلحت لذلك نفسه وتذلت وخامرها ارتقاب الله تعالى وظهرت على جوارحه هيبتها ولم يكديفتر من ذلك حتى تظله صلاة أخرى يرجع بها إلى أفضل حالة فهذا معنى هذه الأخبار لأن صلاة المؤمن هكذا ينبغي أن تكون

قلت: لا سيما وإن أشعر نفسه أن هذا ربما يكون آخر عمله وهذا أبلغ في المقصود وأتم في المراد فإن الموت ليس له سن محدود ولا زمن مخصوص ولا مرض معلوم وهذا مما لا خلاف فيه وروي عن بعض السلف أنه كان إذا قام إلى الصلاة ارتعد واصفر لونه فكلم في ذلك فقال: إني واقف بين يدي الله تعالى وحق لي هذا مع ملوك الدنيا فكيف مع ملك الملوك، فهذه صلاة تنهى

ولا بد عن الفحشاء والمنكر ومن كانت صلاته دائرة حول الإجزاء لا خشوع فيها ولا تذكر ولا فضائل كصلاتنا - وليتها تجزي - فترك صاحبها من منزلته حيث كان فإن كان على طريقة معاصي تبعده من الله تعالى تركته الصلاة يتمادى على بعده وعلى هذا يخرج الحديث المروي عن ابن مسعود والحسن والأعمش قولهم: «من لم تنه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم تزده من الله إلا بعداً» وقد روي أن الحسن أرسله عن النبي ﷺ وذلك غير صحيح السند، قال ابن عطية: سمعت أبي رضي الله عنه يقول: فإذا قررنا ونظر معناه فغير جائز أن يقول إن نفس صلاة العاصي تبعده من الله حتى كأنها معصية وإنما يتخرج ذلك على أنها لا تؤثر في تقريبه من الله بل تتركه على حاله ومعاصيه من الفحشاء والمنكر والبعد فلن تزده الصلاة إلا تقرير ذلك البعد الذي كان سبيله فكأنها بعدته حين لم تكف بعده عن الله وقيل لابن مسعود: إن فلانا كثير الصلاة فقال: إنها لا تنفع إلا من أطاعها.

وقال القرطبي رحمته الله:

قوله تعالى: (وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ) أي: ذكر الله لكم بالثواب والثناء عليكم أكبر من ذكركم له في عبادتكم وصلواتكم.

وقال: وقيل: ذكركم الله في صلاتكم وفي قراءة القرآن أفضل من كل شيء، وقيل: المعنى إن ذكر الله أكبر مع المداومة من الصلاة في النهي عن الفحشاء والمنكر، وقال الضحاك: ولذكر الله عندما يحرم فيترك أجل الذكر وقيل: المعنى ولذكر الله للنهي عن الفحشاء المنكر أكبر أي كبير وأكبر يكون بمعنى كبير وقال ابن زيد وقتادة: ولذكر الله أكبر من كل شيء أي أفضل من العبادات كلها بغير ذكر وقيل: ذكر الله يمنع من المعصية فإن كان ذاكرًا له لا يخالفه

قال ابن عطية: وعندي أن المعنى ولذكر الله أكبر على الإطلاق أي: هو الذي ينهى عن الفحشاء والمنكر.



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (٤٦) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ ءَانَيْتَهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴾ (٤٧) وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِأَرْتَابِ الْمُبْطِلِينَ ﴾ (٤٨) بَلْ هُوَ آيَةٌ بَيِّنَةٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴾ (٤٩) وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ (٥٠) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٥١) قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٢﴾

[العنكبوت: ٤٦-٥٢]

س: وضح معنى ما يلي:

﴿يَجْحَدُ - لَازِتَابَ - الْمُبْطِلُونَ - يَنْتُ - بِالْبَاطِلِ - وَذَكَرَى﴾

ج:

الكلمة	معناها
﴿يَجْحَدُ﴾	يكفر - ينكر
﴿لَازِتَابَ﴾	لشكك
﴿الْمُبْطِلُونَ﴾	أهل الباطل، أهل الشرك - أتباع الشيطان
﴿يَنْتُ﴾	واضحات
﴿وَذَكَرَى﴾	موعظة
﴿بِالْبَاطِلِ﴾	بالشيطان، وما يدعو إليه من الشرك



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - : ولا تجادلوا يا أهل الإيمان أهل الكتاب، الذين هم اليهود والنصارى إلا بالطريقة الحسنة التي تؤتي أكلها باذن ربها بلين الخطاب وجميل الكلام وبيان الحجة أجمل بيان وأتم بيان، كما قال تعالى: (وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا) [البقرة: ٨٣] وكما قال: (وَحَدِّثْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) [النحل: ١٣٥] وكما قال: (وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا) [النساء: ٦٣].

وكما قال تعالى في شأن فرعون: (فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئَلَّا يَعْلَهُ. يَتَذَكَّرُ أَوْ يَحْشَى) [طه: ٤٤] ونحو ذلك من طيب الكلام ونافعه، لكن الذين ظلموا منهم وظهر منهم أنهم

لا يريدون التوصل إلى الحق بل يريدون تضليل العباد وغش العباد والمراوغة والمراد فهو لاء يُشتد عليهم كما قال تعالى: (جَهْدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ) [التحریم: ٩]، فهو لاء الذين منهم من يدعى الله الولد، ومن يقول إن الله فقير ونحن أغنياء ومن يقول يد الله مغلولة، ومن يجعل الله الولد والشريك، ومن يطعن في رسول الله، كلهم داخلون في قوله تعالى: (إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ) فهو لاء يُشتد عليهم، أما غيرهم فيخاطبوا بالحسنى وقلوا لهم يا أهل الإيمان عند مجادلتمكم لهم آمنا بالقرآن الذي أنزل إلينا على لسان نبينا محمد ﷺ وآمنا بالذي أنزل على أنبيائكم يا أهل الكتاب آمنا بالتوراة التي أنزلت على موسى ﷺ آمنا بالإنجيل الذي أنزل على عيسى ﷺ آمنا بكل الكتب وبكل الرسل التي أنزلها الله والتي أرسلها الله. وإلهنا الذي نعبد هو الله إله واحد هو ربنا وربكم هو إلهنا وإلهكم ونحن له مستسلمون خاضعون سامعون مطيعون.

هذا، ومن أهل العلم من كان يرى أن الآية الكريمة (وَلَا تُجَدِّلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) منسوخة بقوله تعالى: (فَذِلُّوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ) وقال فريق: إن قوله: (إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ) هم الذين لا يؤدون الجزية، وأرى الذي قدمته أولى من أنه لا نسخ، والله أعلم.

وهذه أقوال بعض العلماء في هذه الآية الكريمة.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: (وَلَا تُجَدِّلُوا) أيها المؤمنون بالله وبرسوله اليهود والنصارى، وهم (أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) يقول: إلا بالجميل من

القول، وهو الدعاء إلى الله بآياته، والتنبيه على حُججه.

وقوله: (إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ) ﴿١٠٥﴾ اختلف أهل التأويل في تأويله، فقال بعضهم: معناه: إلا الذين أبوا أن يقرّوا لكم بإعطاء الجزية، ونصبوا دون ذلك لكم حربًا، فإنهم ظلمة، فأولئك جادلوهم بالسيف حتى يسلموا، أو يعطوا الجزية.

قال الطبري:

وقال آخرون: معنى ذلك: (﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ الذين قد آمنوا به، واتبعوا رسوله فيما أخبروكم عنه مما في كتبهم (إِلَّا بِالتِّي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ) ﴿١٠٥﴾ فأقاموا على كفرهم، وقالوا: هذه الآية محكمة، وليست بمنسوخة.

وأورد بإسنادٍ صحيح عن ابن زيد: في قوله: (﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالتِّي هِيَ أَحْسَنُ﴾ قال: ليست بمنسوخة، لا ينبغي أن تجادل من آمن منهم، لعلهم يحسنون شيئًا في كتاب الله لا تعلمه أنت فلا تجادله، ولا ينبغي أن تجادل إلا الذين ظلموا، المقيم منهم على دينه. فقال: هو الذي يُجادل، ويقال له بالسيف، قال: وهؤلاء يهود. قال: ولم يكن بدار الهجرة من النصارى أحد، إنما كانوا يهودًا هم الذي كلّموا وحالفوا رسول الله ﷺ، وغدرت النضير يوم أحد، وغدرت قريظة يوم الأحزاب.

وقال آخرون: بل نزلت هذه الآية قبل أن يؤمر النبي ﷺ بالقتال، وقالوا: هي منسوخة، نسخها قوله: (﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة: ٢٩].

عن قتادة، قوله: (﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالتِّي هِيَ أَحْسَنُ﴾ ثم نسخ بعد ذلك، فأمر بقتالهم في سورة براءة، ولا مجادلة أشد من السيف، أن يقاتلوا حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله ﷺ، أو يقرّوا

بالخراج.

وأولى هذه الأقوال بالصواب، قول من قال: عني بقوله: (إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ) : إلا الذين امتنعوا من أداء الجزية، ونصبوا دونها الحرب.

فإن قال قائل: أو غير ظالم من أهل الكتاب إلا من لم يؤدّ الجزية؟ قيل: إن جميعهم، وإن كانوا لأنفسهم بكفرهم بالله، وتكذيبهم رسوله محمدا ﷺ، ظلمة، فإنه لم يعن بقوله: (إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ) . ظلم أنفسهم. وإنما عني به: إلا الذين ظلموا منهم أهل الإيمان بالله ورسوله محمد ﷺ، فإن أولئك جادلوهم بالقتال.

وإنما قلنا: ذلك أولى الأقوال فيه بالصواب؛ لأن الله تعالى ذكره أذن للمؤمنين بجدال ظلمة أهل الكتاب، بغير الذي هو أحسن بقوله: (إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ) . فمعلوم إذ كان قد أذن لهم في جدالهم أن الذين لم يؤذن لهم في جدالهم إلا بالتي هي أحسن غير الذين أذن لهم بذلك فيهم، وأنهم غير المؤمن؛ لأن المؤمن منهم غير جائز جداله إلا في غير الحق، لأنه إذا جاء بغير الحق، فقد صار في معنى الظلمة في الذي خالف فيه الحق، فإذا كان ذلك كذلك، تبين أن لا معنى لقول من قال: عني بقوله: (وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ) . أهل الإيمان منهم، وكذلك لا معنى لقول من قال: نزلت هذه الآية قبل الأمر بالقتال، وزعم أنها منسوخة؛ لأنه لا خبر بذلك يقطع العذر، ولا دلالة على صحته من فطرة عقل.

وقد بينا في غير موضع من كتابنا، أنه لا يجوز أن يحكم على حكم الله في كتابه بأنه منسوخ إلا بحجة يجب التسليم لها من خبر أو عقل.

وقوله: (وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ،

مُسْلِمُونَ ﴿١﴾ يقول تعالى ذكره للمؤمنين به وبرسوله، الذين نهاهم أن يجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن: إذا حدثكم أهل الكتاب أيها القوم عن كتبهم، وأخبروكم عنها بما يمكن ويجوز أن يكونوا فيه صادقين، وأن يكونوا فيه كاذبين، ولم تعلموا أمرهم وحالهم في ذلك، فقولوا لهم: (ءَأَمَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ ﴿٢﴾ مما في التوراة والإنجيل، (وَالْهَذَا وَالْهَذَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ ﴿٣﴾ يقول: ومعبودنا ومعبودكم واحد (وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٤﴾ يقول: ونحن له خاضعون متذللون بالطاعة فيما أمرنا ونهانا.

وأورد الطبري حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال ^(١): كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية، فيفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ، (وَقُولُوا ءَمَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَالْهَذَا وَالْهَذَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٥﴾».

وقال ابن كثير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

قال قتادة وغير واحد: هذه الآية منسوخة بآية السيف، ولم يبق معهم مجادلة، وإنما هو الإسلام أو الجزية أو السيف.

وقال آخرون: بل هي باقية أو محكمة لِمَنْ أراد الاستبصار منهم في الدين، فيجادل بالتي هي أحسن، ليكون أنجع فيه، كما قال تعالى: (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ [النحل: ١٢٥])، وقال تعالى لموسى وهارون حين بعثهما إلى فرعون: (فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴿١٤٤﴾ [طه: ١٤٤]). وهذا القول اختاره ابن جرير، وحكاه عن ابن زيد.

(١) البخاري (٤٤٨٥، ٧٣٦٢).

وقوله: **(إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ۖ)** أي: حادوا عن وجه الحق، وعموا عن واضح المحجة، وعاندوا وكابروا، فحينئذ ينتقل من الجدل إلى الجلال، ويقاثلون بما يردعهم ويمنعهم، قال الله تعالى: **(لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مِنْ نَصْرِهِ وَرُسُلُهُ بِالْغَيْبِ إِنْ اللَّهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٢٥)** [الحديد: ٢٥].

قال جابر: أمرنا من خالف كتاب الله أن نضربه بالسيف.
قال مجاهد: **(إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ۖ)** يعني: أهل الحرب، ومن امتنع منهم عن أداء الجزية.

وقوله: **(وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزِلَ إِلَيْكُمْ ۖ)**، يعني: إذا أخبروا بما لا يعلم صدقه ولا كذبه، فهذا لا تقدم على تكذيبه؛ لأنه قد يكون حقاً، ولا على تصديقه، فلعله أن يكون باطلاً ولكن نؤمن به إيماناً مجملًا معلقاً على شرط وهو أن يكون منزلاً لا مبدلاً ولا مؤولاً.

وأورد ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ حديث البخاري الذي قدمناه.

وأورد رَحِمَهُ اللَّهُ حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا^(١) وفيه: كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء، وكتابكم الذي أنزل إليكم على رسوله ﷺ أحدث تفرؤونه محضاً لم يُشَبَّ، وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدّلوا كتاب الله، وغيروه وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا: هو من عند الله، ليشتروا به ثمناً قليلاً؟ ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم؟ لا والله ما رأينا منهم رجلاً يسألكم عن الذي أنزل عليكم.

وكذا أورد ما أخرجه البخاري^(٢) من طريق حميد بن عبد الرحمن: أنه سمع

(١) البخاري (٧٣٦٣).

(٢) البخاري (٧٣٦١).

معاوية يحدث رهطاً من قريش بالمدينة - وذكر كعب الأحمار - فقال: إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب، وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب.

قال ابن كثير:

قلت: معناه أنه يقع منه الكذب لغة من غير قصد؛ لأنه يحدث عن صحف هو يحسن بها الظن، وفيها أشياء موضوعة ومكذوبة؛ لأنهم لم يكن في ملتهم حفاظ متقنون كهذه الأمة العظيمة، ومع ذلك وقرب العهد وضعت أحاديث كثيرة في هذه الأمة، لا يعلمها إلا الله ومن منحه الله علماً بذلك، كل بحسبه، والله الحمد والمنة.

وقال القرطبي رحمه الله:

اختلف العلماء في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ فقال مجاهد: هي محكمة فيجوز مجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن على معنى الدعاء لهم إلى الله ٥ والتنبية على حججه وآياته رجاء إجابتهم إلى الإيمان لا على طريق الإغلاظ والمخاشنة وقوله على هذا: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ معناه: ظلموكم وإلا فكلهم ظلمة على الإطلاق وقيل: المعنى لا تجادلوا من آمن بمحمد ﷺ من أهل الكتاب المؤمنين كعبد الله بن سلام ومن آمن معه (إلا بالتي هي أحسن) أي: بالموافقة فيما حدثوكم به من أخبار أوائلهم وغير ذلك وقوله على هذا التأويل: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ يريد به من بقي على كفره منهم كمن كفر وغدر من قريظة والنضير وغيرهم والآية على هذا أيضاً محكمة وقيل: هذه الآية منسوخة بآية القتال وقوله تعالى: ﴿فَنِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [التوبة: ٢٩] قاله قتادة. (إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا) أي: جعلوا لله ولداً وقالوا: (يد الله مغلولة) [المائدة: ٦٤] و (إن الله فقير) [آل عمران: ١٨١] فهؤلاء المشركون الذين

نصبوا الحرب ولم يؤدوا الجزية فانتصروا منهم، قال النحاس وغيره: من قال هي منسوخة احتج بأن الآية مكية ولم يكن في ذلك الوقت قتال مفروض ولا طلب جزية ولا غير ذلك وقول مجاهد حسن؛ لأن أحكام الله ﷻ لا يقال فيها إنها منسوخة إلا بخبر يقطع العذر أو حجة من معقول واختار هذا القول ابن العربي وقال مجاهد وسعيد بن جبير: وقوله: (إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا) معناه إلا الذين نصبوا، للمؤمنين الحرب فجداهم بالسيف حتى يؤمنوا أو يعطوا الجزية.



س: وضح معنى هذه الآيات: (وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴿١٧﴾).

ج: المعنى - والله أعلم -: وكما أنزلنا على من كان قبلك كتباً فإننا أنزلنا إليك القرآن كذلك فالذين آتيناهم الكتاب، يؤمنون به، والمراد بهم مؤمنوا أهل الكتاب الذين آمنوا بالكتب المنزلة على أنبيائهم، وكذا فإنهم آمنوا بالقرآن عند نزوله وقبل نزوله.

وقوله تعالى: (وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ) * للعلماء ففيه وجهان:

أحدهما: قول من قال: إن المراد بقوله: (فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ) * أن الذين آتيناهم الكتاب المعني بهم أهل الكتاب الذين كانوا على دينهم وبدينهم مستمسكين قبل مبعث النبي ﷺ، فهؤلاء كانوا مؤمنين بالقرآن قبل نزوله إذ قد أخبرت به إجمالاً كتبهم.

فعليه فقوله: (وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ) * المراد به ومن أهل الكتاب المعاصرين لرسول الله ﷺ كعبد الله بن سلام وغيره يؤمنون به عند نزوله على رسول الله ﷺ وبعد نزوله.

والقول الآخر: أن قوله: (فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ) * هم مؤمنوا أهل

الكتاب عمومًا و(وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ) المراد: ومن أهل مكة الذين كانوا أهل شرك من يؤمن به، وهم الذين أصبحوا بعد صحابة لرسول الله ﷺ.

أما قوله تعالى: (وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ) فحاصل معناه، وما ينكر آياتنا ويكذب بها إلا الكافرون - والله أعلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: كما أنزلنا الكتب على من قبلك يا محمد من الرسل (وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ) هذا (الْكِتَابَ فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ) من قبلك من بني إسرائيل (يُؤْمِنُونَ بِهِ) وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ يقول: ومن هؤلاء الذين هم بين ظهرانيك اليوم من يؤمن به، كعبد الله بن سلام ومن آمن برسوله من بني إسرائيل.

وقوله: (وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ) يقول تعالى ذكره: وما يجحد بأدلتنا وحججنا إلا الذي يجحد نعمنا عليه، وينكر توحيدنا وربوبيتنا على علم منه عنادًا لنا.

وأورد الطبري بإسناد حسن عن قتادة قال: إنما يكون الجحود بعد المعرفة.

قال ابن كثير رحمه الله:

وقوله: (فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ) أي: الذين أخذوه فتلوه حق تلاوته من أحبارهم العلماء الأذكياء، كعبد الله بن سلام، وسلمان الفارسي، وأشباههما.

وقوله: (وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ)، يعني العرب من قريش وغيرهم، (وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ)، أي: ما يكذب بها ويجحد حقها إلا من يستر الحق بالباطل، ويغطي ضوء الشمس بالوصائل، وهيئات.



الدليل على أن النبي ﷺ كان أمياً

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَازِتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - : وما كنت يا رسول الله تقرأ قبل نزول القرآن عليك أي كتب ولا تعرف الكتابة كذلك فقد كنت أمياً لا تقرأ ولا تكتب، وإذا كنت تقرأ وتكتب لتشكك في نبوتك أهل الباطل من أهل الكتاب وأهل الشرك فأهل الكتاب كانوا يعلمون عنك في كتبهم أنك أمي لا تقرأ ولا تكتب كما قال تعالى: (الَّذِينَ يَنْبَغُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ)، فإذا لم تكن أمياً عند مجيئ بعثتك لتشككوا في ذلك. وكذا أهل الشرك من أهل مكة وغيرهم لو كنت تقرأ أو تكتب لقالوا: إنك قرأت كتباً غيرك وتخبرنا بما فيها، مع كونهم أيضاً قد قالوا بذلك، ولكنهم كانوا يعلمون بطلان قولهم لكون الرسول كان أمياً.

وهذه بعض أقوال العلماء في ذلك.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: (وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا) يا محمد (تَتْلُوا) يعني: تقرأ (من قبله) يعني: من قبل هذا الكتاب الذي أنزلته إليك (مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ) يقول: ولم تكن تكتب بيمينك، ولكنك كنت أمياً (إِذَا لَازِتَابَ الْمُبْطِلُونَ) يقول: ولو كنت من قبل أن يُوحى إليك تقرأ الكتاب، أو تخطه بيمينك، (إِذَا لَازِتَابَ) يقول: إذن لشك - بسبب ذلك في أمرك وما جئتهم به من عند ربك من هذا الكتاب الذي تتلوه عليهم - المبطلون القائلون: إنه سجع وكهانة، وإنه أساطير الأولين.

وأورد بإسناد حسن عن قتادة: قوله: (وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ) قال: كان نبي الله لا يقرأ كتاباً قبله، ولا يخطه بيمينه، قال: كان أمياً، والأُمِّي: الذي لا يكتب.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

ثم قال تعالى: (وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ)، أي: قد لبثت في قومك - يا محمد - ومن قبل أن تأتي بهذا القرآن عُمرًا لا تقرأ كتابًا ولا تحسن الكتابة، بل كل أحد من قومك وغيرهم يعرف أنك رجل أمي لا تقرأ ولا تكتب. وهكذا صفته في الكتب المتقدمة، كما قال تعالى: (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ) الآية [الأعراف: ١٥٧]. وهكذا كان، صلوات الله وسلامه عليه إلى يوم القيامة، لا يحسن الكتابة ولا يخط سطرًا ولا حرفًا بيده، بل كان له كتاب يكتبون بين يديه الوحي والرسائل إلى الأقاليم. ومن زعم من متأخري الفقهاء - كالقاضي أبي الوليد الباجي ومن تابعه - أنه عليه السلام كتب يوم الحديبية: «هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله» فإنما حمله على ذلك رواية في صحيح البخاري: «ثم أخذ فكتب»: وهذه محمولة على الرواية الأخرى: «ثم أمر فكتب». ولهذا اشتد النكير بين فقهاء المغرب والمشرق على من قال بقول الباجي، وتبرؤوا منه، وأنشدوا في ذلك أقوالاً وخطبوا به في محافلهم: وإنما أراد الرجل - أعني الباجي، فيما يظهر عنه - أنه كتب ذلك على وجه المعجزة، لا أنه كان يحسن الكتابة، كما قال عليه الصلاة والسلام إخبارًا عن الدجال^(١): «مكتوب بين عينيه كافر» وفي رواية: «ك ف ر، يقرأها كل مؤمن».

(١) البخاري (٧١٣١).

وما أورده بعضهم من الحديث أنه لم يمت ﷺ حتى تعلم الكتابة، فضعيف لا أصل له؛ قال الله تعالى: (وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا) أي: تقرأ (مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ) لتأكيد النفي، (وَلَا تَخْطُهُ يَمِينُكَ) تأكيد أيضاً، وخرج مخرج الغالب، كقوله تعالى: (وَلَا طَيْرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ) [الأنعام: ٣٨].

وقوله: (إِذَا لَزَتَابَ الْمُبْطُلُونَ) أي: لو كنت تخطها لارتاب بعض الجهلة من الناس فيقول: إنما تعلم هذا من كتب قبله مأثورة عن الأنبياء، مع أنهم قالوا ذلك مع علمهم بأنه أُمي لا يحسن الكتابة: (وَقَالُوا أَسْطِثِرُ الْأَوَّلِينَ أَكْتَبَهَا فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا) [الفرقان: ٥]، قال الله تعالى: (قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا) [الفرقان: ٦].

قال القرطبي رحمه الله:

قوله تعالى: (وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ) الضمير في (قَبْلِهِ) عائد إلى الكتاب وهو القرآن المنزل على محمد ﷺ أي: وما كنت يا محمد تقرأ قبله ولا تختلف إلى أهل الكتاب بل أنزلناه إليك في غاية الإعجاز والتضمين للغيوب وغير ذلك فلو كنت ممن يقرأ كتاباً ويخط حروفاً (لَزَتَابَ الْمُبْطُلُونَ) أي: من أهل الكتاب وكان لهم في ارتيابهم متعلق وقالوا: الذي نجده في كتبنا أنه أُمي لا يكتب ولا يقرأ وليس به قال مجاهد: كان أهل الكتاب يجدون في كتبهم أن محمداً ﷺ لا يخط ولا يقرأ فنزلت هذه الآية وقال النحاس: دليلاً على نبوته لقريش لأنه لا يقرأ ولا يكتب ولا يخالط أهل الكتاب ولم يكن بمكة أهل الكتاب فجاءهم بأخبار الأنبياء والأمم وزالت الريبة والشك.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَةٌ بَيِّنَةٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَحْكُدُ بِأَيَّتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - بل هذا القرآن فيه دلالات واضحات وحجج باهرات دالة على وحدانية الله ﷻ وعلى قدرته وعلمه، محفوظة تلك الآيات في صدور أهل العلم من المؤمنين بالنبى محمد ﷺ يستدلون بها على وحدانية الله وصدق رسله، وما يجحد بآيات الله أي: وما ينكرها إلا أهل الظلم، وما يكفر بها إلا أهل الظلم، والمراد هنا أهل الكفر والعياذ بالله. هذا، وهناك وجه آخر ذكره الطبري واختاره؛ حاصله: أن قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَةٌ بَيِّنَةٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ معناه: بل رسول الله ﷺ وكونه سيكون أمياً آياتٌ مثبتات راسخات في صدور الذين أوتوا العلم من الذين أوتوا الكتاب، فإنه محفوظ في صدورهم أن النبى ﷺ سيكون أمياً وإلى هذا الأخير نحا الطبري في تفسيره.

وها هو قوله مع طائفة آخرين من أهل العلم.

قال رحمه الله:

اختلف أهل التأويل في المعنى بقوله: ﴿بَلْ هُوَ آيَةٌ بَيِّنَةٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ فقال بعضهم: عنى به نبى الله ﷻ، وقالوا: معنى الكلام: بل وجود أهل الكتاب في كتبهم أن محمداً ﷺ لا يكتب ولا يقرأ، وأنه أمى، آيات بينات في صدورهم.

وأورد الطبري بسندٍ ضعيف عن ابن عباس قوله: ﴿بَلْ هُوَ آيَةٌ بَيِّنَةٌ فِي صُدُورِ

الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ قال: كان الله تعالى أنزل شأن محمد ﷺ في التوراة والإنجيل لأهل العلم، وعلمه لهم، وجعله لهم آية، فقال لهم: إن آية نبوته أن يخرج

حين يخرج لا يعلم كتاباً، ولا يخطه بيمينه، وهي الآيات بينات.
وبإسناد حسن عن قتادة: (بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَنْتَ فِي صُورِ الذِّبْ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴿٥﴾ من
 أهل الكتاب، صدّقوا بمحمد ونعته ونبوته.

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

وقال آخرون: عنى بذلك القرآن، وقالوا: معنى الكلام: بل هذا القرآن
 آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم، من المؤمنين بمحمد ﷺ.

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

وأولى القولين في ذلك بالصواب، قول من قال: عنى بذلك: بل العلم
 بأنك ما كنت تتلو من قبل هذا الكتاب كتاباً، ولا تخطه بيمينك، آيات بينات في
 صدور الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب.

وإنما قلت ذلك أولى التأويلين بالآية؛ لأن قوله: (بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَنْتَ فِي صُورِ
 الذِّبْ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴿٥﴾ بين خبرين من أخبار الله عن رسوله محمد ﷺ، فهو بأن
 يكون خبراً عنه، أولى من أن يكون خبراً عن الكتاب الذي قد انقضى الخبر
 عنه قبل.

وقوله: (وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٥﴾ يقول تعالى ذكره: ما يجحد نبوة
 محمد ﷺ وأدلته، ويُنكر العلم الذي يعلم من كتب الله، التي أنزلها على
 أنبيائه، بيعث محمد ﷺ ونبوته ومبعثه إلا الظالمون، يعني: الذين ظلموا
 أنفسهم بكفرهم بالله ٥.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

(بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَنْتَ فِي صُورِ الذِّبْ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴿٥﴾ أي: القرآن آيات بينة
 واضحة في الدلالة على الحق، أمراً ونهيّاً وخبراً، يحفظه العلماء، يسره الله

عليهم حفظًا وتلاوةً وتفسيرًا، كما قال تعالى: (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١٧﴾ [القمر: ١٧])، وقال رسول الله ﷺ: «ما مِنْ نبي إلا وقد أعطي ما آمن على مثله البشر وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً»^(١).

وفي حديث عياض بن حمار، في صحيح مسلم^(٢): «يقول الله تعالى: إني مبتليك ومبتل بك، ومنزل عليك كتاباً لا يغسله الماء، تقرؤه نائماً ويقظان». أي: لو غسل الماء المحل المكتوب فيه لما احتيج إلى ذلك المحل. وقوله: (وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٩٦﴾) أي: ما يكذب بها ويبخس حقها ويردها إلا الظالمون، أي: المعتدون المكابرون، الذين يعلمون الحق ويحيدون عنه، كما قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]).

وقال القرطبي رحمه الله:

(في صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴿٩٦﴾) أي: ليس هذا القرآن كما يقوله المبطلون من أنه سحر أو شعر ولكنه علامات ودلائل يعرف بها دين الله وأحكامه وهي كذلك في صدور الذين أوتوا العلم وهم أصحاب محمد ﷺ والمؤمنون به يحفظونه ويقرؤونه ووصفهم بالعلم لأنهم ميزوا بأفهامهم بين كلام الله وكلام البشر والشياطين وقال قتادة وابن عباس: (بَلْ هُوَ ﴿٩٦﴾) يعني محمداً ﷺ (آيَاتُ يَنْتَ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴿٩٦﴾) من أهل الكتاب يجدونه مكتوباً عندهم في كتبهم بهذه الصفة أمياً لا يقرأ ولا يكتب ولكنهم ظلموا أنفسهم وكتموا، وهذا اختيار الطبري.

(١) البخاري (٧٢٧٤).

(٢) مسلم (٢٨٦٥).



س: وضح معنى هذه الآيات: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم -: وقال أهل الكفر من أهل مكة وغيرهم لولا أنزل على محمد ﷺ معجزة من ربه ﷻ كالتي أوتها صالح أو موسى أو داود أو سليمان أو عيسى ﷺ أو غير هؤلاء.

لولا أوتي ناقة كنانة صالح أو عصا كعصى موسى أو إلانة الحديد وتسبيح الجبال والطير كما حدث لداود ﷺ أو تسخير الريح والشياطين كما حدث لسليمان ﷺ أو كان يُبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله كعيسى ﷺ، أو غير ذلك.

فقل لهم يا رسول الله: إنما هذه المعجزات عند الله يُعطيها من يشاء وإنما أمري معكم أي لكم نذير أنذركم عذاب الله إن أنتم بقيتم على شرككم وضلالكم، قد أبنت لكم عن خطأ ما أنتم فيه وأبنت لكم عن كوني نذير أنذركم، والله أعلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: وقال المشركون من قريش: هلا أنزل على محمد آية من ربه، تكون حجة لله علينا، كما جعلت الناقة لصالح، والمائدة آية لعيسى؟! قل يا محمد: إنما الآيات عند الله، لا يقدر على الإتيان بها غيره (وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ) ﴿٥٠﴾ وإنما أنا نذير لكم، أنذركم بأس الله وعقابه على كفركم برسوله. وما جاءكم به من عند ربكم (مُبِينٌ) ﴿٥١﴾ يقول: قد أبان لكم إنذاره.

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

يقول تعالى مخبراً عن المشركين في تعنتهم وطلبهم آيات - يعنون - ترشدهم إلى أن محمداً رسول الله كما جاء صالح بناقته، قال الله تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد: (إِنَّمَا أَلَايْتُ عِنْدَ اللَّهِ) أي: إنما أمر ذلك إلى الله، فإنه لو علم أنكم تهتدون لأجابكم إلى سؤالكم؛ لأن ذلك سهل عليه، يسير لديه، ولكنه يعلم منكم أنما قصدكم التعنت والامتحان، فلا يجيبكم إلى ذلك، كما قال تعالى: (وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآفَيْنَا ثُمَّودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا) [الإسراء: ٥٩].

وقوله: (وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ) أي: إنما بعثت نذيراً لكم بين النذارة فعلي أن أبلغكم رسالة الله و(مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ يَحْدِلْ، وَلَيَأْتِ مَرْشِدًا) [الكهف: ١٧]، وقال تعالى: (لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) [البقرة: ٢٧٢].

وقال القرطبي رحمه الله:

قوله تعالى: (وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ) هذا قول المشركين لرسول الله ﷺ ومعناه: هلا أنزل عليه آية كآيات الأنبياء؟! وقيل: كما جاء صالح بالناقة وموسى بالعصا وعيسى بإحياء الموتى أي ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: (إِنَّمَا أَلَايْتُ عِنْدَ اللَّهِ) فهو يأتي بها كما يريد إذا شاء أرسلها وليست عندي (وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ).



س: هل صح للآية الكريمة (أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ.....) سبب نزول؟

ج: لم أقف لها على سبب نزولٍ صحيح.



كون القرآن أعظم معجزة

س: وضح معنى قوله تعالى: (أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾).

ج: المعنى - والله تعالى أعلم -: أولم يكف هؤلاء السائلين عن الآيات والمعجزات أننا أنزلنا عليك يا رسول الله أعظم آية وأعظم معجزة وهي هذا القرآن الذي تتلوه عليهم تدعوهم فيه لكل خير وتحذرهم من كل شر ويكون سبباً في نجاتهم من النار ووراثتهم أعالي الجنان، فيه نبأ ما قبلهم وحكم ما بينهم وخبر ما بعدهم، قد حمل أجمل تشريع وأحسن الأحكام وجميل البيان، ترق له القلوب وتصفو له الأفئدة، وتندرف منه الدموع لا يبلى عن كثرة القراءة والترداد، إنه كتاب الله لا يوفيه حقه إلا الله، أولم يكف هؤلاء المشركين أننا أنزلنا عليك الكتاب العظيم باقياً يتلى إنه حقاً أعظم معجزة وأوضح آية وأعظم بيان إن في ذلك القرآن لرحمة يرحم الله بها العباد إذا اهتدوا بهديه واستقاموا على أمره، و(وَذِكْرَىٰ) موعظة يتعظ بها أولوا الألباب أهل الإيمان.

وبنحو هذا قال أهل العلم بالتأويل.

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

يقول تعالى ذكره: أولم يكف هؤلاء المشركين يا محمد، القائلين: لولا أنزل على محمد ﷺ آية من ربه، من الآيات والحجج (أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ) هذا (الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ) يقول: يُقرأ عليهم، (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً) يقول: إن في هذا الكتاب الذي أنزلنا عليهم لرحمة للمؤمنين به وذكرى يتذكرون بما فيه من عبرة وعظة.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

ثم قال تعالى مينا كثره جهلهم، وسخافة عقلهم، حيث طلبوا آيات تدلهم على صدق محمد فيما جاءهم - وقد جاءهم بالكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، الذي هو أعظم من كل معجزة، إذ عجزت الفصحاء والبلغاء عن معارضته، بل عن معارضة عشر سور من مثله، بل عن معارضة سورة منه - فقال تعالى: (أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ) ﴿١﴾ أي: أولم يكفهم آية أنا أنزلنا عليك هذا الكتاب العظيم، الذي فيه خبر ما قبلهم، ونبا ما بعدهم، وحكم ما بينهم، وأنت رجل أُمي لا تقرأ ولا تكتب، ولا تخالط أحدًا من أهل الكتاب، فجئتهم بأخبار ما في الصحف الأولى، ببيان الصواب مما اختلفوا فيه، وبالحق الواضح البين الجلي، كما قال تعالى: (أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَوُا بَنِي إِسْرَءِيلَ) ﴿٢﴾ [الشعراء: ١٩٧]، وقال تعالى: (وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ ۖ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةٌ مَّا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ) ﴿٣﴾ [طه: ١٣٣].

وأورد ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ ما أخرجه أحمد والبخاري ومسلم من حديث^(١) أبي هريرة، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة». أخرجاه من حديث الليث.

وقال الله تعالى: (إِن فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) ﴿٤﴾ أي: إن في هذا القرآن: (الرَّحْمَةُ) ﴿٥﴾ أي: بياناً للحق، وإزاحة للباطل و(الذِّكْرَى) ﴿٦﴾ بما فيه حلول النقمات ونزول العقاب بالمكذبين والعاصين، (الرَّحْمَةُ وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) ﴿٧﴾.

(١) أحمد (٣٤١/٢)، والبخاري (٤٩٨١)، ومسلم (١٥٢).

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

قوله تعالى: (أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ) ﴿١﴾ هذا جواب لقولهم: (لَوْلَا أَنزَلَك عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ) ﴿٢﴾ أي أولم يكف المشركين من الآيات هذا الكتاب المعجز الذي قد تحديتهم بأن يأتوا بمثله أو بسورة منه فعجزوا ولو أتيتهم بآيات موسى وعيسى لقالوا: سحر ونحن لا نعرف السحر والكلام مقدور لهم ومع ذلك عجزوا عن المعارضة.

وقال رَحِمَهُ اللهُ:

(إِنِّ فِي ذَلِكَ) ﴿٣﴾ أي في القرآن (لِرَحْمَةٍ) ﴿٤﴾ في الدنيا والآخرة وقيل: رحمة في الدنيا باستنقاذهم من الضلالة (وَذِكْرٍ) ﴿٥﴾ في الدنيا يارشادهم به إلى الحق (لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) ﴿٦﴾.



س: وضح معنى قوله تعالى: (قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٢﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - : قل يا رسول الله لهؤلاء المكذبين بك الجاحدين نبوتك المشركين بالله ما لم يُنزل به سلطاناً، السائلين عن المعجزات، قل لهؤلاء رضيت بالله شهيداً يشهد عليّ وعليكم إن كنت كاذباً فهو يشهد عليّ وإن كنتم أنتم الكذبة، وهم كذلك فهو شهيد عليكم، كفى به شهيداً بيني وبينكم فهو خير الشاهدين، وهو الذي يعلم كل شيء في نفسي وفي نفوسكم، ويعلم ما في السموات والأرض، والذين آمنوا بالشیطان وصدقوه فيما دعاهم إليه من اتخاذ شريك لله ﷻ أولئك هم الذين خسروا أنفسهم

وضيعوها وتسببوا لها في وراثة الجحيم عيادًا بالله.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد، للقائلين لك: لولا أنزل عليك آية من ربك، الجاحدين بآياتنا من قومك: كفى الله يا هؤلاء بيني وبينكم، شاهدًا لي وعليّ؛ لأنه يعلم المحقّ منا من المبطل، ويعلم ما في السموات وما في الأرض، لا يخفى عليه شيء فيهما، وهو المجازي كل فريق منا بما هو أهله، المحقّ على ثباته على الحقّ، والمبطل على باطله بما هو أهله، (وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ) يقول: صدقوا بالشرك، فأقروا به وكفروا به، يقول: وجحدوا الله (أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) يقول: هم المغبونون في صفقتهم.

وأورد بإسناد حسن عن قتادة: (وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ) قال: الشرك.

قال الطبري رحمه الله:

قوله تعالى: (قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا) أي قل للمكذبين لك كفى بالله شهيدًا يشهد لي بالصدق فيما أدعيه من أني رسوله وأن هذا القرآن كتابه (يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) أي لا يخفى عليه شيء وهذا احتجاج عليهم في صحة شهادته عليهم لأنهم قد أقروا بعلمه فلزمهم أن يقرروا بشهادته (وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ) قال يحيى بن سلام: بإبليس وقيل: بعبادة الأوثان والأصنام قاله ابن شجرة (وَكَفَرُوا بِاللَّهِ) أي لتكذيبهم برسله وجحدهم لكتابه وقيل: بما أشركوا به من الأوثان وأضافوا إليه من الأولاد والأضداد (أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) أنفسهم وأعمالهم في الآخرة.

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

ثم قال تعالى: (قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ﴿٤٦﴾ أَي: هو أعلم بما تفيضون فيه من التكذيب، ويعلم ما أقول لكم من إخباري عنه، بأنه أرسلني، فلو كنت كاذبًا عليه لانتقم مني، كما قال تعالى: (وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾) **[الحاقصة: ٤٤-٤٧]**، وإنما أنا صادق عليه فيما أخبرتكم به، ولهذا أيدني بالمعجزات الواضحات، والدلائل القاطعات.

(يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿٤٨﴾): لا تخفى عليه خافية.
(وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٤٩﴾) أَي: يوم معادهم سيجزيهم على ما فعلوا، ويقابلهم على ما صنعوا، من تكذبيهم بالحق واتباعهم الباطل، كذبوا برسل الله مع قيام الأدلة على صدقهم، وآمنوا بالطواغيت والأوثان بلا دليل، سيجازيهم على ذلك، إنه حكيم عليم.



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

(وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْةٌ
وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ
﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ يَلْعَبُدِي الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَسِعَةٌ فَإِنِّي فَأَعْبُدُونَ ﴿٥٦﴾ كُلُّ
نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
لَنُبَوِّتَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ
﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا
اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ ﷻ

[العنكبوت: ٥٣-٦٠]

س: وضح معنى ما يلي:

﴿أَجَلٌ مُّسَمًّى - بَغْتَةً - لِّمُحِيطَةٍ بِالْكَافِرِينَ - يَغْشَاهُمْ - فَإِنِّي فَأَعْبُدُونَ - لَنُبَوِّتَنَّهُمْ يَنْوَكُّونَ - وَكَأَنِّ - لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ ؟

ج:

الكلمة	معناها
(أَجَلٌ مُّسَمًّى) ﴿	وقت أجله الله وحدده
(بَغْتَةً) ﴿	فجأة
(لِّمُحِيطَةٍ بِالْكَافِرِينَ) ﴿	سيحيط بهم من كل جانب - محيطه بهم من كل جانب
(يَغْشَاهُمْ) ﴿	يعلوهم - يغطيهم
(فَأِنِّي فَأَعْبُدُونَ) ﴿	لا تعبدوا غيري
(لَنُبَوِّتَنَّهُمْ) ﴿	لننزلهم - لنسكنهم
(يَنْوَكُّونَ) ﴿	يعتمدون
(وَكَأَنِّ) ﴿	كم
(لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا) ﴿	لا تدخر رزقها لغد



استعجال أهل الكفر نزول العذاب عليهم

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَسَتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لِّجَاءِ هُمُ الْعَذَابِ وَلِيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٥٣).

ج: المعنى - والله أعلم -: ويستعجلونك بنزول العذاب عليهم لكونهم يكذبونك وينكرون وقوع العذاب فيقولون على سبيل التحدي (رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قَطْنَا

قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿[ص: ١٦] أَي: نصيبنا من العذاب، ويقول: (مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)﴾ ويقول: (اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذَاهُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)﴾ [الأنفال: ٣٢] إلى غير ذلك من تمنيه العذاب، فقال تعالى: (وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ)﴾ أي: ولولا أننا كتبنا عليهم أن يعيشوا زمناً لنزل عليهم العذاب في الحال ولأهلكناهم، وليأتينهم هذا العذاب فجأة من حيث لا يشعرون.

وبنحو هذا قال العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ويستعجلك يا محمد هؤلاء القائلون من قومك: لولا أنزل عليه آية من ربه بالعذاب ويقولون: (اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذَاهُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ)﴾ [الأنفال: ٣٢] ولولا أجل سميته لهم فلا أهلكهم حتى يستوفوه ويبلغوه، لجاءهم العذاب عاجلاً. وقوله: (وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)﴾ يقول: وليأتينهم العذاب فجأة، وهم لا يشعرون بوقت مجيئه قبل مجيئه.

وأورد بسند حسن عن قتادة: قوله: (وَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ)﴾ قال: قال ناس من جهلة هذه الأمة (اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذَاهُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)﴾ [الأنفال: ٣٢] الآية.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى مخبراً عن جهل المشركين في استعجالهم عذاب الله أن يقع بهم، وبأس الله أن يحل عليهم، كما قال تعالى: (وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذَاهُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)﴾ [الأنفال: ٣٢]، وقال هاهنا: (وَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ)﴾ أي: لولا ما

حَتَّمَ اللهُ مِنْ تَأْخِيرِ الْعَذَابِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ قَرِيبًا سَرِيعًا كَمَا اسْتَعْجَلُوهُ.

ثم قال: (وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً) أي: فجأة، (وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) ﴿٥٢﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَئِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٣﴾ أي: يستعجلون بالعذاب، وهو واقع بهم لا محالة.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

قوله تعالى: (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ) ﴿٥٢﴾ لما أنذرهم بالعذاب قالوا لفرط الإنكار: عجل لنا هذا العذاب وقيل: إن قائل ذلك النضر بن الحارث وأبو جهل حين قالوا: (اللَّهُمَّ إِن كَانَتْ هَذَاهُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حَجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ) ﴿٣٢﴾ [الأنفال: ٣٢] وقولهم: (رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ) ﴿١٦﴾ [ص: ١٦] وقوله: (وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى) ﴿٥٣﴾ في نزول العذاب قال ابن عباس: يعني هو ما وعدتك ألا أعذب قومك وأؤخرهم إلى يوم القيامة بيانه: (بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ) ﴿١٦﴾ [القمر: ٤٦] وقال الضحاك: هو مدة أعمارهم في الدنيا. وقيل: المراد بالأجل المسمى النفخة الأولى، قال يحيى بن سلام: وقيل: الوقت الذي قدره الله لهلاكهم وعذابهم قاله ابن شجرة وقيل: هو القتل يوم بدر وعلى الجملة فلكل عذاب أجل لا يتقدم ولا يتأخر ودليله قوله: (لِكُلِّ نَبَأٍ مُّسْتَقَرٌّ) ﴿٦٧﴾ [الأنعام: ٦٧] (لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ) يعني الذي استعجلوه (وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً) ﴿٥٣﴾ أي فجأة (وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) ﴿٥٢﴾ أي لا يعلمون بنزوله عليهم.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَئِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ ﴿٥٣﴾.

ج: المعنى - والله أعلم - : يستعجل أهل الكفر نزول العذاب عليهم وإنه

آتيهم لا محالة وسيدخلون جهنم وتحيط بهم من كل الجوانب كما قال تعالى: (إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا) ﴿الكهف: ٢٩﴾ ويقويه قوله بعدها: (مَتَى يَوْمَ يَعْشَهُمُ الْعَذَابُ... ﴿أي: وإن جهنم لميحطة بهم يوم يغشاهم العذاب. هذا، وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن ذلك في الدنيا، وذهب أن البحر تحت النار فقد أورد الطبري بسند صحيح عن عكرمة في هذه الآية (وإن جهنم لميحطة بالكافرين) قال: البحر.

وقال الطبري قبلها.

يقول تعالى ذكره: يستعجلك يا محمد هؤلاء المشركون بمجيء العذاب ونزوله بهم، والنار بهم محيطة، لم يبق إلا أن يدخلوها. وقيل: إن ذلك هو البحر.

وقال القرطبي رحمه الله:

(يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ) ﴿أي: يستعجلونك وقد أعد لهم جهنم وأنها ستحيط بهم لا محالة فما معنى الاستعجال وقيل: نزلت في عبد الله بن أبي أمية^(١) وأصحابه من المشركين حين قالوا: (أَوْ تَسْقُطُ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا) ﴿الإسراء: ٩٢﴾.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَعْشَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٥٥﴾.

ج: هنا - والله أعلم - وجهان:

أحدهما: أن الآية متعلقة بما قبلها، فيكون المعنى وإن جهنم لمحيطة

(١) وذلك يفتقر إلى صحة الإسناد.

بالكافرين يوم يغشاهم العذاب...

والثاني: أن المعنى واذكر يوم يغشاهم العذاب...

أما عن معنى الآية إجمالاً يوم يغطيهم العذاب من كل الجوانب من تحتهم ومن فوقهم كما قال تعالى: (لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ) [الأعراف: ٤١] عند ذلك نقول للظالمين الكافرين الجاحدين: ذوقوا جزاء تكذيبكم وجزاء شرككم وكفركم وسيئ أعمالكم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: (وَلِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ) يوم يغشى الكافرين العذاب، من فوقهم في جهنم، ومن تحت أرجلهم. **وأورد بإسناد حسن عن قتادة:** (يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ) أي في النار.

وقوله: (وَيَقُولُ دُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) يقول جل ثناؤه: ويقول الله لهم: ذوقوا ما كنتم تعملون في الدنيا من معاصي الله، وما يسخطه فيها. وبالياء في (وَيَقُولُ دُوقُوا) قرأت عامة قرآء الأمصار خلا أبي جعفر، وأبي عمرو، فإنهما قرآ ذلك بالنون: (وَنَقُولُ). والقراءة التي هي القراءة عندنا بالياء، لإجماع الحجة من القرآء عليها.

وقال ابن كثير رحمه الله:

ثم قال تعالى: (يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ)، كقوله تعالى: (لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ) [الأعراف: ٤١]، وقال: (لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ) [الزمر: ١٦]، وقال: (لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُوتُ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارُ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ) [الأنبياء: ٣٩]، فالنار تغشاهم من سائر جهاتهم،

وهذا أبلغ في العذاب الحسي.

وقوله: (وَيَقُولُ دُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) ، تهديد وتقريع وتوبيخ ، وهذا عذاب معنوي على النفوس ، كقوله: (يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ دُوقُوا مَسَّ سَقَرَ) ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿[القمر: ٤٨، ٤٩]﴾ ، وقال: (يَوْمَ يَدْعُوتُ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً) ﴿١٣﴾ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرُ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصِرُوا سَوَاءً عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْرَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿[الطور: ١٣-١٦]﴾ (دُوقُوا فَتَنَّاكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ سَتَعْمَلُونَ) ﴿الذاريات: ١٤﴾.

وقال القرطبي رحمه الله:

قوله تعالى: (يَوْمَ يَعْصِيهِمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ) ﴿١٥﴾ قيل: هو متصل بما هو قبله أي يوم يصيبهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم فإذا غشيهم العذاب أحاطت بهم جهنم وإنما قال: (وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ) ﴿١٥﴾ للمقاربة وإلا فالغشيان من فوق أعم كما قال الشاعر:

علفتها تبناء وماء باردا



حث المؤمن على إقامة دين في أي مكان

س: وضح معنى قوله تعالى: (يَعْبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَسِعَةٌ فَإِنِّي فَأَعْبُدُونَ) ﴿٦١﴾ كل نفس ذائقة الموت ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٦٢﴾ ؟

ج: حاصل المعنى - والله أعلم - : أن الله ﷻ ينادي عباده ويأمرهم إذا تعذرت عليهم طاعته في مكان من الأماكن فليتركوه وليذهبوا إلى مكان آخر أكثر أماناً يعبدون الله ﷻ فيه ولا يعصونه، فيقول تعالى: (يَعْبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا) ﴿٦١﴾ يا أهل الإيمان والتصديق (إِنَّ أَرْضِي وَسِعَةٌ فَإِنِّي فَأَعْبُدُونَ) ﴿٦٢﴾ فأخلصوا في عبادتي وانتقلوا في أرضي حيث تستطيعوا الإخلاص في عبادتي، ثم هوّن عليه أمر

الدنيا بقوله: (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ) أي: أنكم ستموتون حتمًا إما في بلادكم أو في أي أرض كنتم ثم إن مرجعكم إلى الله ﷻ فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته أو يعفو.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره للمؤمنين به من عباده: يا عبادي الذين وَّحدوني، وآمنوا بي، وبرسولي محمد ﷺ (إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ).

واختلف أهل التأويل في المعنى الذي أريد من الخبر عن سعة الأرض، فقال بعضهم: أريد بذلك أنها لم تضق عليكم فتقيموا بموضع منها لا يحلّ لكم المَقام فيه، ولكن إذا عمل بمكان منها بمعاصي الله، فلم تقدروا على تغييره، فاهربوا منه.

وأورد الطبري آثارًا كثيرةً بذلك.

وقال: وقال آخرون: معنى ذلك: إن ما أخرج من أرضي لكم من الرزق واسع لكم. ثم قال:

وأولى القولين بتأويل الآية، قول من قال: معنى ذلك: إن أرضي واسعة، فاهربوا ممن منعكم من العمل بطاعتي؛ لدلالة قوله: (فَإِنِّي فَأَعْبُدُونَ) على ذلك، وأن ذلك هو أظهر معنيه، وذلك أن الأرض إذا وصفها بسعة، فالغالب من وصفه إياها بذلك لا تضيق جميعها على من ضاق عليه منها موضع، لا أنه وصفها بكثرة الخير والخصب.

وقوله: (فَإِنِّي فَأَعْبُدُونَ) يقول: فأخلصوا لي عبادتكم وطاعتكم، ولا تطيعوا في معصيتي أحدًا من خلقي.

وقال في تأويل قوله تعالى: (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) ﴿١٠٠﴾.

يقول تعالى ذكره للمؤمنين به من أصحاب نبه: هاجروا من أرض الشرك، من مكة إلى أرض الإسلام المدينة، فإن أرضي واسعة، فاصبروا على عبادتي، وأخلصوا طاعتي، فإنكم ميتون وصائرون إليّ؛ لأن كل نفس حية ذائقة الموت، ثم إلينا بعد الموت تُردّون.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

هذا أمر من الله لعباده المؤمنين بالهجرة من البلد الذي لا يقدرّون فيه على إقامة الدين، إلى أرض الله الواسعة، حيث يمكن إقامة الدين، بأن يوحّدوا الله ويعبدوه كما أمرهم؛ ولهذا قال: (يَعْبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَسِعَةٌ فَإِنِّي فَأَعْبُدُونَ) ﴿١٠١﴾.

ثم قال: (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) ﴿١٠٢﴾ أي: أينما كنتم يدرككم الموت، فكونوا في طاعة الله وحيث أمركم الله، فهو خير لكم، فإن الموت لا بد منه، ولا محيد عنه، ثم إلى الله المرجع، فَمَنْ كَانَ مُطِيعًا لَهُ جَازَاهُ أَفْضَلَ الْجِزَاءِ، ووفاه تمام الثواب.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

فأخبرهم الله تعالى بسعة أرضه وأن البقاء في بقعة على أذى الكفار ليس بصواب، بل الصواب أن يتلمس عبادة الله في أرضه مع صالحه عباده؛ أي: إن كنتم في ضيق من إظهار الإيمان بها فهاجروا إلى المدينة فإنها واسعة؛ لإظهار التوحيد بها.

وقال:

وقيل: المعنى: إن أرضي التي هي أرض الجنة واسعة (فَأَعْبُدُونِ) ﴿١٠٣﴾ حتى أورثكموها (فَإِنِّي فَأَعْبُدُونَ) ﴿١٠٤﴾ (إيائي) منصوب بفعل مضمر أي فاعبدوا إيائي

فاعبدون فاستغنى بأحد الفعلين عن الثاني والفاء في قوله: (فَإِنِّي) بمعنى الشرط أي إن ضاق بكم موضع إياي فاعبدوني في غيره لأن أرضي واسعة.

قوله تعالى: (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) تقدم في (آل عمران) وإنما ذكره هاهنا تحقيراً لأمر الدنيا ومخاوفها كأن بعض المؤمنين نظر في عاقبة تلحقه في خروجه من وطنه من مكة أنه يموت أو يجوع أو نحو هذا فحقّر الله شأن الدنيا أي أنتم لا محالة ميتون ومحشرون إلينا فالبدار إلى طاعة الله والهجرة إليه وإلى ما يمثل. ثم وعد المؤمنين العاملين بسكنى الجنة تحريضاً منه تعالى وذكر الجزاء الذي ينالونه.

وقال الشنقيطي رحمه الله:

قوله تعالى: (يَعْبُدُونَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ).

نادى الله جلّ وعلا عباده المؤمنين، وأكد لهم أن أرضه واسعة، وأمرهم أن يعبدوه وحده دون غيره، كما دلّ عليه تقديم المعمول الذي هو إياي؛ كما بيّنه في الكلام على قوله تعالى: (إِلَّاكَ تَعَبُّدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ).

والمعنى: أنهم إن كانوا في أرض لا يقدرّون فيها على إقامة دينهم، أو يصيبهم فيها أذى الكفار، فإن أرض ربهم واسعة فليهاجروا إلى موضع منها يقدرّون فيه على إقامة دينهم، ويسلمون فيه من أذى الكفار، كما فعل رسول الله ﷺ والمسلمون.

وهذا المعنى الذي دلّت عليه هذه الآية الكريمة جاء في آيات أخر؛ كقوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْكَلْبَ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا) [النساء: ٩٧]، وقوله تعالى: (وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) [الزمر: ١٠].



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ (٥٨) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم -: والذين آمنوا بالله ﷻ وصدقوا رسله وأتبعوا ذلك بعمل الصالحات طائعين لله في كل ما أمرهم به منتهين عن كل ما نهى عنه لنسكنهم من الجنة غرفاً عوالي تجري من تحت أشجارها الأنهار ماكثين فيها أبداً لا يحولون عنها ولا يرغبون في التحول عنها، نعم الأجر الذي أعدّه الله لعاملي الصالحات، الذين صبروا على طاعة الله ﷻ وصبروا على أقداره، واعتمدوا على الله في كل شؤونهم ولقضاء كل حوائجهم.

وبنحو هذا قال العلماء.

قال الطبري رحمه الله:

ثم أخبرهم جلّ ثناؤه عما أعدّ للصابرين منهم على طاعته من كرامته عنده، فقال: (وَالَّذِينَ آمَنُوا) ، يعني: صدقوا الله ورسوله فيما جاء به من عند الله، (وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) يقول: وعملوا بما أمرهم الله فأطاعوه فيه، وانتهوا عما نهاهم عنه (لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا) يقول: لننزلهم من الجنة علالاً.

وقال رحمه الله:

وقوله: (تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) يقول: تجري من تحت أشجارها الأنهار (خَالِدِينَ فِيهَا) يقول: ماكثين فيها إلى غير نهاية، (نِعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ) يقول: نعم جزاء العاملين بطاعة الله هذه الغرف التي يُثَوِّبُهُمُوهَا الله في جناته، تجري من تحتها الأنهار، الذين صبروا على أذى المشركين في الدنيا، وما كانوا يلقون منهم، وعلى العمل بطاعة الله وما يرضيه، وجهاد أعدائه (وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) في

أرزاقهم وجهاد أعدائهم، فلا يَنْكُلُون عنهم، ثقة منهم بأن الله مُعَلِّي كلمته، ومُوْهِن كيد الكافرين، وأن ما قُسِمَ لهم من الرزق فلن يَفُوتَهُمْ.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

ولهذا قال: (وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) أي: لنسكنهم منازل عالية في الجنة تجري من تحتها الأنهار، على اختلاف أصنافها، من ماء وخمر، وعسل ولبن، يصرفونها ويجرونها حيث شاؤوا، (خَالِدِينَ فِيهَا) أي: ماكثين فيها أبدًا لا ييغون عنها حَوْلًا (نِعَمَ أَجْرُ الْعَمَلِينَ): نعمت هذه الغرفُ أجرًا على أعمال المؤمنين.

(الَّذِينَ صَبَرُوا) أي: على دينهم، وهاجروا إلى الله، ونابذوا الأعداء، وفارقوا الأهل والأقرباء ابتغاء وجه الله، ورجاء ما عنده وتصديق موعوده.

قال ابن أبي حاتم رَحِمَهُ اللهُ: حدثني أبي، حدثنا صفوان المؤذن، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا معاوية بن سلام، عن أخيه زيد بن سلام، عن جده أبي سلام الأسود، حدثني أبو معاذ الأشعري، أن أبا مالك الأشعري حدثه أن رسول الله ﷺ حدثه: «أن في الجنة غُرَفًا يُرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، أعدّها الله لِمَنْ أَطْعَمَ الطعام، وأطاب الكلام، وأباح الصيام، وأقام الصلاة والناس نيام»^(١).

(وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) ، في أحوالهم كلها، في دينهم ودنياهم. ثم أخبرهم تعالى أن الرزق لا يختص ببقعة، بل رزقه تعالى عام لخلقه حيث كانوا وأين كانوا، بل كانت أرزاق المهاجرين حيث هاجروا أكثر وأوسع وأطيب، فإنهم بعد قليل صاروا حكام البلاد في سائر الأقطار والأمصار.

الرزق من عند الله

(١) أحمد (٣٤٣/٥).

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (١٠).

ج: المعنى - والله تعالى أعلم-: وكم من دابة تمشي على الأرض لا تستطيع أن تدخر رزقها لغد، ولا تحمله على ظهرها لغد يرزقها الله ﷻ يوماً بيوم ووقتاً بوقت كلما جاعت وجدت طعامها بإذن الله وهو سبحانه السميع للأقوال، ولكل شيء العليم بأحوال عباده، وفي هذا تهيج على الهجرة في سبيل الله وقذف الطمأنينة في النفوس أن الله يتولى أمر العباد. والله أعلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره للمؤمنين به وبرسوله، من أصحاب محمد ﷺ: هاجروا وجاهدوا في الله أيها المؤمنون أعداءه، ولا تخافوا عيلة ولا إقتاراً، فكم من دابة ذات حاجة إلى غذاء ومطعم ومشرب (لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا) ، يعني: غذاءها لا تحمله، فترفعه في يومها لغدها لعجزها عن ذلك (اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ) يوماً بيوم (وَهُوَ السَّمِيعُ) لأقوالكم: نخشى بفرقنا أوطاننا العيلة (الْعَلِيمُ) ما في أنفسكم، وما إليه صائر أمركم، وأمر عدوكم، من إذلال الله إياهم، ونصرتكم عليهم، وغير ذلك من أموركم، لا يخفى عليه شيء من أمور خلقه.

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

ولهذا قال: (وَكَايْنٍ مِّنْ دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا) أي: لا تطيق جمعه وتحصيله ولا تؤخر شيئاً لغد، (اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ) أي: الله يقيض لها رزقها على ضعفها، ويسره عليها، فيبعث إلى كل مخلوق من الرزق ما يصلحه، حتى الذر في قرار الأرض، والطير في الهواء والحيتان في الماء، قال الله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦].

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

(اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ) ﴿ يسوي بين الحريص والمتوكل في رزقه وبين الراغب والقانع وبين الحيول والعاجز حتى لا يغتر الجلد أنه مرزوق بجَلَدِهِ ولا يتصور العاجز أنه ممنوع بعجزه وفي الصحيح عن النبي ﷺ: «لو أنكم توكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطانًا» (وَهُوَ السَّمِيعُ) ﴿ لدعائكم وقولكم لا نجد ما ننفق بالمدينة (الْعَلِيمُ) ﴿ بما في قلوبكم.



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

(وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ فَاَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنَ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولَنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّيْنَاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَنَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُخَاطَفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾)

[العنكبوت: ٦١-٦٩].

س: وضع معنى ما يلي:

﴿يُؤْفَكُونَ - يَبْسُطُ - وَيَقْدِرُ لَهُ - لَهُوَ - الْحَيَوَانُ - الْفُلُكُ - مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ - حَرَمًا ءَامِنًا - وَيَنْخَطِفُ النَّاسُ - أَفْيَا بَاطِلٍ - مَتَوًى - جَاهِدُوا فِيْنَا - لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿يُؤْفَكُونَ﴾	يصرفون عن الحق - يكذبون
﴿يَبْسُطُ﴾	يوسع
﴿وَيَقْدِرُ لَهُ﴾	يضيق
﴿لَهُوَ﴾	ما يُلتهى به
﴿الْحَيَوَانُ﴾	الحياة الباقية
﴿الْفُلُكُ﴾	السفن العظيمة
﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾	مفردين ربكم بالدعاء والعبادة
﴿حَرَمًا ءَامِنًا﴾	مكة جعلناها مؤمنة لا يحمل فيها سلاح ولا يعضد فيها شوك... إلى غير ذلك
﴿وَيَنْخَطِفُ النَّاسُ﴾	يقتل الناس وتسلب أموالهم ويعتدى عليهم ويؤسرون
﴿أَفْيَا بَاطِلٍ﴾	أفبوعد الشيطان - أفبالشرك
﴿مَتَوًى﴾	مقام ومنزل
﴿جَاهِدُوا فِيْنَا﴾	جاهدوا لنصرة ديننا
﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾	لنوفقنهم ولنذلنهم على طرق الخير الموصلة لمرضاتنا وجناتنا

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَن خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ فَإِنِّي يُؤَفِّكُونَ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم -: ولئن سألت هؤلاء المشركين من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر يجريان هذا يعقب ذاك؟ ليقولن الله الذي فعل ذلك كله.
فمن أي وجه إذن يصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره ويعدلون عن عبادته إلى عبادة غيره.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ولئن سألت يا محمد هؤلاء المشركين بالله، من خلق السموات والأرض فسوّاهن، وسخر الشمس والقمر لعباده، يجريان دائبين لمصالح خلق الله، ليقولن: الذي خلق ذلك وفعله الله. (فَأَنِّي يُؤَفِّكُونَ يقول جل ثناؤه: فأني يُصرفون عمن صنع ذلك، فيعدلون عن إخلاص العبادة له.



س: وضح معنى قوله تعالى: (اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنْ أَرَادَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمٌ) .

ج: المعنى - والله تعالى أعلم -: إن الله ﷻ يوسع على من يشاء من عباده في أرزاقهم ويضيق عليهم إن شاء، وهو عليم بكل ما يصلح عباده، وكما قال سبحانه: (وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ) [الشورى: ٢٧].

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: الله يوسع من رزقه لمن يشاء من خلقه، ويضيق فيقتّر

لمن يشاء منهم، يقول: فأرزاقكم وقسمتها بينكم أيها الناس بيدي، دون كل أحد سواي، أبسط لمن شئت منها، وأقتر على من شئت، فلا يخلفنكم عن الهجرة وجهاد عدوكم خوف العيلة (إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) يقول: إن الله عليم بمصالحكم، ومن لا يصلح له إلا البسط في الرزق، ومن لا يصلح له إلا التقدير عليه، وهو عالم بذلك.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: (وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ) الآية لما عير المشركون المسلمين بالفقر وقالوا: لو كنتم على حق لم تكونوا فقراء وكان هذا تمويهاً وكان في الكفار فقراء أيضاً أزال الله هذه الشبهة وكذا قول من قال إن هاجرنا لم نجد ما ننفق أي: فإذا اعترفتم بأن الله خالق هذه الأشياء فكيف تشكون في الرزق فمن بيده تكوين الكائنات لا يعجز عن رزق العبد ولهذا وصله قوله تعالى: (اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ) (فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ) أي كيف يكفرون بتوحيدي وينقلبون عن عبادتي (اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ) أي لا يختلف أمر الرزق بالإيمان والكفر، فالتوسيع والتقدير منه فلا تعيير بالفقر فكل شيء بقضاء وقدر (إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) من أحوالكم وأموركم وقيل: عليم بما يصلحكم من إقتار أو توسيع.



س: وضح معنى قوله تعالى: (وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لِيَقُولَنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) ﴿١٣﴾.

ج: المعنى - والله أعلم -: ولئن سألت هؤلاء الكفار من أنزل من السماء مطر فأنبث به الأرض بعد أن كانت ميتة لا حياة فيها ليقولن الله الذي فعل

ذلك، فقل لهم الحمد لله على إقراركم أن الله فعل ذلك، وقل في نفسك الحمد لله الذي فعل ذلك، واعجب من أمرهم، وكون أكثرهم يقرون بذلك ويتجهون إلى عبادة غيره، فحقاً إن أكثرهم لا يعقلون.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ولئن سألت يا محمد هؤلاء المشركين بالله من قومك من نزل من السماء ماء، وهو المطر الذي ينزله الله من السحاب (فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ) يقول: فأحيا بالماء الذي نزل من السماء الأرض، وإحيائها: إنباته النبات فيها (مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا) من بعد جدوبها وقحوطها.

وقوله: (لَيَقُولَنَّ اللَّهُ) يقول: ليقولنّ الذي فعل ذلك الله، الذي له عبادة كل شيء.

وقوله: (قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ) يقول: وإذا قالوا ذلك، فقل: الحمد لله (بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) يقول: بل أكثر هؤلاء المشركين بالله لا يعقلون ما لهم فيه النفع من أمر دينهم، وما فيه الضرر، فهم لجهلهم يحسبون أنهم لعبادتهم الآلهة دون الله، ينالون بها عند الله زُلفَةً وقربة، ولا يعلمون أنهم هالكون، مستوجبون الخلود في النار.

وقال ابن كثير رحمه الله:

يقول تعالى مقررًا أنه لا إله إلا هو؛ لأن المشركين -الذين يعبدون معه غيره- معترفون أنه المستقل بخلق السموات والأرض والشمس والقمر، وتسخير الليل والنهار، وأنه الخالق الرازق لعباده، ومقدر آجالهم، واختلافها واختلاف أرزاقهم ففاوت بينهم، فمنهم الغني والفقير، وهو العليم بما يصلح كُلًّا منهم، ومن يستحق الغنى ممن يستحق الفقر، فذكر أنه المستبدُّ بخلق

الأشياء المتفرد بتدبيرها، فإذا كان الأمر كذلك فلم يُعبد غيره؟ ولم يتوكل على غيره؟ فكما أنه الواحد في ملكه فليكن الواحد في عبادته، وكثيراً ما يقرر تعالى مقام الإلهية بالاعتراف بتوحيد الربوبية. وقد كان المشركون يعترفون بذلك، كما كانوا يقولون في تليبتهم: «لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك».

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

قوله تعالى: (وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴿١﴾ أَيُّ مِنَ السَّحَابِ مَطَرًا ﴿٢﴾ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا ﴿٣﴾ أَيُّ: جذبها وقحط أهلها (لَيَقُولَنَّ اللَّهُ ﴿٤﴾ أَيُّ فَإِذَا أَقْرَرْتُمْ بِذَلِكَ فَلَمْ تَشْرُكُوا بِهِ وَتَنْكُرُونَ الْإِعَادَةَ وَإِذَا قَدَّرَ عَلَى ذَلِكَ فَهُوَ الْقَادِرُ عَلَى إِغْنَاءِ الْمُؤْمِنِينَ فَكُرَّرَ تَأْكِيدًا (قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴿٥﴾ أَيُّ عَلَى مَا أَوْضَحَ مِنَ الْحُجَجِ وَالْبَرَاهِينِ عَلَى قُدْرَتِهِ (بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦﴾ أَيُّ لَا يَتَدَبَّرُونَ هَذِهِ الْحُجَجَ وَقِيلَ: (الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴿٧﴾ عَلَى إِقْرَارِهِمْ بِذَلِكَ وَقِيلَ: عَلَى إِنْزَالِ الْمَاءِ وَإِحْيَاءِ الْأَرْضِ).



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِیَ الْحَيَاةُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾﴾.

ج: المعنى - والله أعلم - : وما هذه الحياة الدنيا بما فيها من ملاذٍ ومطاعم ومشارب ومساكن ومناكح وغير ذلك من المتاع الفاني الزائل إلا لهوٌ يلتهى به أهلها ولعب يلعبون به ثم يزولون عن ذلك كله ويزول كل ذلك عنهم إلا ما ابتغى به وجه الله ﷻ من صالح الأقوال والأعمال والنيات فهذا الذي يبقى كما قال تعالى: (وَالْبَقِيَّةُ الصَّلَاحُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ [الكهف: ٤٦]،

وقال: (وَحَيْرٌ مَرَدًّا) ﴿٧٦﴾ [مريم: ٧٦] أما سائر ما في الدنيا فزائل وفان، وإن الدار الآخرة (جنتها ونارها) لهي الحياة الباقية التي لا تفتنى ولا تزول فاحرصوا على جنتها وابتعدوا عن نارها.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: (وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا) ﴿٧٦﴾ التي يتمتع منها هؤلاء المشركون (إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ) ﴿٧٧﴾ يقول: إلا تعليل النفوس بما تلتذ به، ثم هو مُنْقَضٌ عن قريب، لا بقاء له ولا دوام (وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِیَ الْحَيَوانُ) ﴿٧٨﴾ يقول: وإن الدار الآخرة لفيها الحياة الدائمة التي لا زوال لها ولا انقطاع ولا موت معها.

وأورد بإسناد حسن عن قتادة: قوله: (وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِیَ الْحَيَوانُ) ﴿٧٨﴾ كَأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٩﴾ حياة لا موت فيها.

قال الطبري:

وقوله: (لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) ﴿٧٩﴾ يقول: لو كان هؤلاء المشركون يعلمون أن ذلك كذلك، لَقَصَّروا عن تكذيبهم بالله، وإشراكهم غيره في عبادته، ولكنهم لا يعلمون ذلك.

وقال ابن كثير رحمه الله:

يقول تعالى مخبراً عن حقارة الدنيا وزوالها وانقضائها، وأنها لا دوام لها، وغاية ما فيها لهو ولعب: (وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِیَ الْحَيَوانُ) ﴿٧٨﴾ أي: الحياة الدائمة الحق الذي لا زوال لها ولا انقضاء، بل هي مستمرة أبد الآباد. وقوله: (لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) ﴿٧٩﴾ أي: لَأَثَرُوا ما يبقى على ما يفنى.

وقال القرطبي رحمه الله:

قوله تعالى: (وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ) ﴿٧٨﴾ أي: شيء يلهى به ويلعب أي

ليس ما أعطاه الله الأغنياء من الدنيا إلا وهو يضمحل ويزول كاللعب الذي لا حقيقة له ولا ثبات قال بعضهم: الدنيا إن بقيت لك لم تبق لها وأنشد:

تروح لنا الدنيا بغير الذي غدت وتحديث من بعد الأمور أمور
وتجري الليالي باجتماع وفرقة وتطلع فيها أنجم وتغور
فمن ظن أن الدهر باقٍ سروره فذاك محال لا يدوم سرور
عفا الله عمن صير الهم واحدا وأيقن أن الدوائر تدور

قلت: وهذا كله في أمور الدنيا من المال والجاه والملبس الزائد على الضروري الذي به قوام العيش والقوة على الطعات وأما ما كان منها لله فهو من الآخرة وهو الذي يبقى كما قال: (وَبَغَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾) أي ما ابتغى به ثوابه ورضاه (وَلَيْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ لَهِیَ الْحَيَوانُ ﴿٢٨﴾) أي دار الحياة الباقية التي لا تزول ولا موت فيها وزعم أبو عبيدة: أن الحيوان والحياة والحي بكسر الحاء واحد كما قال:

وقد ترى إذ الحياة حيٌ

وغیره يقول: إن الحي جمع على فعول مثل عصي والحيوان يقع على كل شيء حي وحيوان عين في الجنة وقيل: أصل حيوان حييان فأبدلت إحداهما واوًا لاجتماع المثلين (لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾) أنها كذلك



س: وضح معنى قوله تعالى: (فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِ دَعَاُ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٠﴾) يَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَهُمْ وَلِيَسْتَمْنَعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣١﴾ .

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - : أن هؤلاء المشركين الذين يدعون مع الله إلهاً آخر إذا سافروا وركبوا السفن العظيمة في البحار فلعبت بهم الأمواج

وهاجت بهم الرياح توجهوا إلى الله ﷻ وحده لا شريك له بالدعاء سائلين راجين ولم يدعوا حيثئذ صنماً ولا وثناً ولا شجراً ولا حجراً ولا غير ذلك، إنما دعوا الله ﷻ مفردين إياه بالدعاء فإذا سلمهم الله وهدأت الرياح والأمواج ونجاهم الله إلى البر إذا هم يعودون إلى شركهم بالله وينسون إنجاء الله ﷻ لهم فيكفروا بصنيعهم هذا، فتهدهم الله ﷻ وتوعدهم بقوله: (فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) ❦ أي: سوف يعلمون عاقبة تكذيبهم وشركهم وكفرهم وعنادهم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: فإذا ركب هؤلاء المشركون السفينة في البحر، فخافوا الغرق والهلاك فيه (دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) ❦ يقول: أخلصوا الله - عند الشدة التي نزلت بهم - التوحيد، وأفردوا له الطاعة، وأذعنوا له بالعبودية، ولم يستغيثوا بآلهتهم وأندادهم، ولكن بالله الذي خلقهم (فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ) ❦ يقول: فلما خلصهم مما كانوا فيه وسلمهم، فصاروا إلى البر، إذا هم يجعلون مع الله شريكا في عبادتهم، ويدعون الآلهة والأوثان معه أرباباً.

وأورد بسند حسن عن قتادة، قوله: (فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ) ❦ فالخلق كلهم يقرّون لله أنه ربهم، ثم يشركون بعد ذلك.

وقال رحمه الله:

ويقول تعالى ذكره: فلما نجى الله هؤلاء المشركين مما كانوا فيه في البحر، من الخوف والحذر من الغرق إلى البر، إذا هم بعد أن صاروا إلى البر يشركون بالله الآلهة والأنداد. (لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ) ❦ يقول: ليحمدوا نعمة الله التي أنعمها عليهم في أنفسهم وأموالهم.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

ثم أخبر تعالى عن المشركين أنهم عند الاضطراب يدعونه وحده لا شريك له، فهلا يكون هذا منهم دائماً (فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكَ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴿٦٧﴾) بقوله: (وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا نَجَّيْكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ﴿٦٨﴾) وقال هاهنا: (فَلَمَّا نَجَّيْهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٩﴾). [الإسراء: ٦٧].

وقوله: (يَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَهُمْ وَلِيَتَمَنَّوْا) ﴿٦٩﴾: هذه اللام يسميها كثير من أهل العربية والتفسير وعلماء الأصول لام العاقبة؛ لأنهم لا يقصدون ذلك، ولا شك أنها كذلك بالنسبة إليهم، وأما بالنسبة إلى تقدير الله عليهم ذلك وتقيضه إياهم لذلك فهي لام التعليل. وقد قدّمنا تقرير ذلك في قوله: (لِيَكُونَ لَهُمْ عَذَابٌ وَخِزَانًا) ﴿٧٠﴾ [القصص: ٨].

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

قوله تعالى: (فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكَ ﴿٦٧﴾) يعني: السفن وخافوا الغرق (دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴿٦٧﴾) أي: صادقين في نياتهم وتركوا عبادة الأصنام ودعاءها (فَلَمَّا نَجَّيْهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾) أي: يدعون معه غيره وما لم ينزل به سلطانا وقيل: إشراكهم أن يقول قائلهم لولا الله والرئيس أو الملاح لغرقنا فيجعلون ما فعل الله لهم من النجاة قسمة بين الله وبين خلقه.

قوله تعالى: (يَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَهُمْ وَلِيَتَمَنَّوْا) ﴿٦٩﴾ قيل: هما لام كي أي: لكي يكفروا ولكي يتمتعوا وقيل: (إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ) ﴿٦٨﴾ ليكون ثمرة شركهم أن يجحدوا نعم الله ويتمتعوا بالدنيا وقيل: هما لام أمر معناه التهديد والوعيد أي: اكفروا بما أعطيناكم من النعمة والنجاة من البحر وتمتعوا.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَفَتِ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ (١٧).

ج: المعنى - والله أعلم -: أولم ير هؤلاء الكفار الجاحدون نعم الله المتخذون معه إلهًا آخر، أولم يروا نعمة الله ﷻ عليهم فيشكروها أولم يروا أننا جعلنا بلادهم آمنة مطمئنة والناس من حولهم يتخطفون قتلاً وسلباً ونهباً، غيرهم يقتل ويُسلب وينهب وهم هنا في بلادهم آمنين مطمئنين لكوننا جعلنا بلادهم حرمًا آمناً.

وهذا كقوله تعالى: (فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿٢﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴿٣﴾ [قریش: ٣-٤]).

وكقوله تعالى: (أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ [القصص: ٥٧]).

أما قوله تعالى: (أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾) فحاصل معناه أفبوعد الشيطان الباطل، وكذب الشيطان ودعواه بأن الله له شريك، أيصدقون الشيطان بأن الله له شريك، ويعبدونه من دون الله ويجحدون نعم الله عليهم ويجحدون وحدانية الله ﷻ.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

وقوله: (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا ﴿٥٨﴾) يقول تعالى ذكره، مذكراً هؤلاء المشركين من قريش، القائلين: لولا أنزل عليه آية من ربه، نِعْمَتَه عليهم التي خصهم بها دون سائر الناس غيرهم، مع كفرهم بنعمته وإشراكهم في عبادته الآلهة والأنداد: أولم ير هؤلاء المشركون من قريش، ما خصصناهم به من

نعمتنا عليهم، دون سائر عبادنا، فيشكروننا على ذلك، وينزجروا عن كفرهم بنا، وإشراكهم ما لا ينفعنا، ولا يضرهم في عبادتنا أنا جعلنا بلدهم حرماً، حرّماً على الناس أن يدخلوه بغارة أو حرب، آمناً يأمن فيه من سكنه، فأوى إليه من السباء، والخوف، والحرام الذي لا يأمنه غيرهم من الناس، (وَيُخَافُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ) يقول: وتُسَلِّبُ الناس من حولهم قتلاً وسباء.

وأورد بإسناد حسن عن قتادة: في قوله: (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُخَافُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ) قال: كان لهم في ذلك آية، أن الناس يُغزَوْنَ وَيُخَافُونَ وهم آمنون.

وقوله: (أَفِإِلْبَاطٍ يُؤْمِنُونَ) يقول: أقبالشرك بالله يقرّون بألوهة الأوثان بأن يصدّقوا، وبنعمة الله التي خصهم بها من أن جعل بلدهم حرماً آمناً يكفرون، يعني بقوله: (يَكْفُرُونَ): يجحدون.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

يقول تعالى ممتناً على قريش فيما أحلهم من حرمة، الذي جعله للناس سواء العاكف فيه والبادي، ومن دخله كان آمناً، فهم في أمن عظيم، والأعراب حوله ينهب بعضهم بعضاً ويقتل بعضهم بعضاً، كما قال تعالى: (لَا يَلْفِ قُرَيْشٌ ١) إِيْلَهُمْ رِحْلَةَ الْشَتَاءِ وَالصَّيْفِ ٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ٣) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴿[قريش: ١-٤].

وقوله: (أَفِإِلْبَاطٍ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ) أي: أفكان شكرهم على هذه النعمة العظيمة أن أشركوا به، وعبدوا معه الأصنام والأنداد، و(بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ) ﴿إبراهيم: ٢٨﴾، وكفروا بنبي الله وعبدوا ورسوله، فكان اللائق بهم إخلاص العباداة لله، وألا يشركوا به، وتصديق الرسول وتعظيمه وتوقيره، فكذبوه وقتلوه وأخرجوه من بين أظهرهم؛ ولهذا سلبهم

الله ما كان أنعم به عليهم، وقتل من قتل منهم بيد، وصارت الدولة لله ولرسوله وللمؤمنين، ففتح الله على رسوله مكة، وأرغم آنافهم وأذل رقابهم.

بعض صور الكذب والافتراء على الله ﷻ

س: وضح معنى: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾)

ج: المعنى - والله أعلم - : ليس هناك أحد من المفترين الكاذبين أظلم من شخص افترى على الله كذبًا أو كذب بالقرآن لما جاءه به رسول الله ﷺ وكذب بتوحيد الله ﷻ، أليس في إخبارنا أن جهنم مقامٌ للكافرين مُذكر ومتعظ ومزدجر لمن قال هذا حتى يُقلع عنه؟!!!

هذا، وللكذب على الله صور، منها: ادعاء الشريك له وكذا ادعاء الصاحبة والولد له - تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا - ومن ذلك قولهم إذا فعلوا فاحشة: (وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا) [الأعراف: ٢٨] وكذلك تحريمهم ما أحل الله كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام، ونسبة ذلك إلى الله، ومن ذلك أيضًا ادعاء بعضهم أنه أوحى إليه ولم يوح إليه شيء، إلى غير ذلك من صور الكذب والافتراء على الله.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ومن أظلم أيها الناس ممن اختلق على الله كذبًا، فقالوا إذا فعلوا فاحشة: وجدنا عليها آباءنا، والله أمرنا بها، والله لا يأمر بالفحشاء (أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ) يقول: أو كذب بما بعث الله به رسوله محمدا ﷺ من توحيده، والبراءة من الآلهة والأنداد لما جاءه هذا الحق من عند الله (أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ) يقول: أليس في النار مَثْوًى وَمَسْكَنَ لمن كفر بالله،

وجحد توحيديه وكذب رسوله ﷺ، وهذا تقرير، وليس باستفهام، إنما هو كقول جرير:

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكَبَ الْمَطَايَا وَأُنْدَى الْعَالَمِينَ بَطُونَ رَاحٍ

إنما أخبر أن للكافرين بالله مَسْكَنًا في النار، ومنزلاً يَثْوُونَ فيه.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

ثم قال تعالى: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ) ❦ أي: لا أحد أشد عقوبة ممن كذب على الله فقال: إن الله أوحى إليه، ولم يوح إليه شيء. ومن قال: سأنزل مثل ما أنزل الله. وهكذا لا أحد أشد عقوبة ممن كذب بالحق لما جاءه، فالأول مفتر، والثاني مكذب؛ ولهذا قال: (أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ) ❦.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

قوله تعالى: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا) ❦ أبى لا أحد أظلم ممن جعل مع الله شريكا وولدا وإذا فعل فاحشة قال: (وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا) ❦ [الأعراف: ٢٨] (أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ) ❦ قال يحيى بن سلام: بالقرآن وقال السدي: بالتوحيد وقال ابن شجرة: بمحمد ﷺ وكل قول يتناول القولين (أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ) ❦ أي: مستقر وهو استفهام تقرير.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ❦؟

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - **: والذين بذلوا من أموالهم وأنفسهم وأوقاتهم جهداً لنصرة ديننا ولإعلاء كلمتنا لنوفقنهم لإصابة الحق ولطريق**

الرشاد ولسبيل الجنة، وإن الله ﷻ لمع أهل الإحسان يوفقهم ويسددهم ويهديهم ويحفظهم ويرعاهم ويتولاهم.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: والذين قاتلوا هؤلاء المفترين على الله كذباً من كفر قريش، المكذبين بالحق لما جاءهم فينا، مُبتغين بقتالهم علوّ كلمتنا، ونُصرة ديننا (لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا) يقول: لنوفقنهم لإصابة الطرق المستقيمة، وذلك إصابة دين الله الذي هو الإسلام الذي بعث الله به محمداً ﷺ (وإن الله لمع المحسنين) يقول: وإن الله لمع من أحسن من خلقه، فجاهد فيه أهل الشرك، مُصدّقاً رسوله فيما جاء به من عند الله بالعون له، والنصرة على من جاهد من أعدائه.

وأورد بإسناد صحيح عن ابن زيد في قوله: (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا) فقلت له: قاتلوا فينا، قال: نعم.

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا) يعني: الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين (لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا)، أي: لنُبصرنهم سبلنا، أي: طرقنا في الدنيا والآخرة.

وقال القرطبي رحمه الله:

قوله تعالى: (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا) أي: جاهدوا الكفار فينا أي: في طلب مرضاتنا.

وأورد رحمه الله أقوالاً منها قول ابن عطية: فهي قبل الجهاد العُرفي، وإنما هو جهاد عام في دين الله وطلب مرضاته، وقولاً ثانياً، أراه قاصراً، وهو أنه في

العباد، وقولاً ثالثاً: مؤداه أنها في الذين يعملون بما يعلمون فيورثهم الله علم ما لم يكونوا يعلمون.

وقولاً رابعاً أعم شيئاً ما، وهو قول أبي سليمان الداراني:

ليس الجهاد في الآية قتال الكفار فقط بل هو نصر الدين والرد على المبطلين وقمع الظالمين وعُظمه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومنه مجاهدة النفوس في طاعة الله وهو الجهاد الأكبر وقال سفيان بن عيينة لابن المبارك: إذا رأيت الناس قد اختلفوا فعليك بالمجاهدين وأهل الثغور فإن الله تعالى يقول: (لَنَهْدِيَنَّهُمْ) ﴿١﴾.

وأورد قول ابن عباس وفيه: والذين جاهدوا في طاعتنا لنهدينهم سبل ثوابنا.

وقال القرطبي أيضاً: (لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا) ﴿٢﴾ أي: طريق الجنة، وقال: وهو سبحانه معهم بالنصر والمعونة والحفظ والهداية ومع الجميع بالإحاطة والقدرة. والله أعلم.



من سلك طريق الهداية يسرها الله عليه

س: اذكر بعض الأدلة على أن من سلك طريق الهداية يسر الله له أسبابها وسهلها عليه؟

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قوله تعالى: (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ) ﴿٣﴾.

وقوله تعالى: (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ) ﴿٤﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وقوله تعالى: (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى) ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ﴿٧﴾.

[الليل: ٥-٧]

وقوله تعالى: (وَهُوَ تَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾ [الأعراف: ١٩٦].

وقوله تعالى في الحديث القدسي: «إِذَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي شَبْرًا، تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا، وَإِذَا تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً...». والله أعلم.



تفسير سورة الروم

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾)

﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَذَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ
سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ
وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ
الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ، وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا
يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ ﴿٧﴾
أُولَئِكَ يَنْفَكِرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ
وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾ أُولَئِكَ يَسِيرُوا
فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً
وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ
فَمَا كَانُوا لِيُظْلَمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ
الَّذِينَ اسْتَوَى السَّوَاءُ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾

[الروم: ١-١٠].

س: وَضَّحْ معنى ما يلي:

﴿أَدْنَى الْأَرْضِ - عَلَيْهِمْ - يَضَعُ سِنِينَ - ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا - غَفِلُونَ - بِالْحَقِّ -
وَأَجَلٍ مُّسَمًّى - يَلْقَايَ رَبَّهُمْ - لَكَفِرُونَ - عَقِبَةٌ - وَأَنَارُوا الْأَرْضَ - وَعَمَرُوهَا -
بِالْبَيِّنَاتِ - اسْتَوُوا - السُّوَاءِ﴾؟

ج:

معناها	الكلمة
أقرب الأرض (قيل إلى العرب، وقيل إلى الفرس)	﴿أَدْنَى الْأَرْضِ﴾
هزيمتهم	﴿عَلَيْهِمْ﴾
البضع ما بين الثلاثة إلى العشرة، وقيل إلى التسع	﴿يَضَعُ سِنِينَ﴾
أمور الدنيا الظاهرة	﴿ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾
تاركون - ساهون	﴿غَفِلُونَ﴾
للحق - لمجازاة المحسن وعقاب المسيء - لعبادته وحده لا شريك له	﴿بِالْحَقِّ﴾
أجل محدّد تنتهي عنده السموات والأرض	﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾
بلقاء الله يوم القيامة	﴿يَلْقَايَ رَبَّهُمْ﴾
لجاحدون - منكرون	﴿لَكَفِرُونَ﴾
آخر أمرهم	﴿عَقِبَةٌ﴾
إشارة الأرض تقلبيها للزراعة وكذا حفرها وتغيير هيئتها عمومًا	﴿وَأَنَارُوا الْأَرْضَ﴾

﴿وَعَمْرُوهَا﴾	أنشأوا فيها المساكن والبيوت
﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾	بالحجج القاطعات الدالة على صدق الرسل
﴿أَسْتَوُوا﴾	فعلوا ما يسيء إليهم، وذلك بشركهم بالله
﴿السَّوَاءِ﴾	الجزاء الأسوأ وهو النار والعياذ بالله



س: هل صح لقوله تعالى: ﴿الْم ١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ... الآية سبب نزول؟

ج: كسبب نزول صحيح صريح لم أقف لكن انظر ما سيرد في السؤال الآتي إن شاء الله.



س: اذكر بعض الوارد من الآثار في تفسير قوله تعالى: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ٢﴾ في

أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ٢﴾ في بضع سنين؟

ج: من ذلك ما ورد عند الإمام أحمد وغيره من طريق حبيب بن أبي عمرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿الْم ١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ٢﴾ في أدنى الأرض قال: غُلِبَتْ وَغَلَبْتُ. قَالَ: كَانَ الْمُشْرِكُونَ يُحِبُّونَ أَنْ يَظْهَرَ أَهْلُ فَارِسَ عَلَى الرُّومِ؛ لِأَنَّهُمْ أَصْحَابُ أَوْثَانٍ، وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يُحِبُّونَ أَنْ تَظْهَرَ الرُّومُ عَلَى فَارِسَ؛ لِأَنَّهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِأَبِي بَكْرٍ فَذَكَرَهُ أَبُو بَكْرٍ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَمَّا إِنَّهُمْ سَيَغْلِبُونَ». فَذَكَرَهُ أَبُو بَكْرٍ لَهُمْ فَقَالُوا: اجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ أَجَلًا، فَإِنْ ظَهَرْنَا كَانَ لَنَا كَذَا وَكَذَا، وَإِنْ ظَهَرْتُمْ كَانَ لَكُمْ كَذَا وَكَذَا. فَجَعَلَ أَجَلًا خَمْسَ سِنِينَ، فَلَمْ يَظْهَرُوا، فَذَكَرَ ذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «أَلَا جَعَلْتُهُ إِلَى دُونَ -أَرَاهُ قَالَ- الْعَشْرِ» قَالَ سَعِيدُ بْنُ جَبْرِ: الْبُضْعُ مَا دُونَ الْعَشْرِ. ثُمَّ ظَهَرَتِ الرُّومُ بَعْدُ، قَالَ: فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿الْم ١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ٢﴾ في

أَذَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١﴾.

وهذا الأثر في الجملة صحيح وله طرق كثيرة تشهد لكثير من معناه، أوردتها الطبري وابن كثير وغيرهما.

أورد منها ما يلي:

ما أورده الطبري^(٢) من طريق عبيد الله، عن ابن عباس، قال: لما نزلت ﴿الْمَ غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ ﴿٢﴾ فِي أَذَى الْأَرْضِ ... ﴿٣﴾ الآية، ناحب أبو بكر قريشاً، ثم أتى النبي ﷺ، فقال له: إني قد ناحبتهم، فقال له النبي ﷺ: «هَلَا اخْتَطَّتْ، فَإِنَّ الْبِضْعَ مَا بَيْنَ الثَّلَاثِ إِلَى التَّسْعِ». قال الجمحي: المناجبة: المراهنة، وذلك قبل أن يكون تحريم ذلك.

وأخرج البخاري ومسلم^(٣) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خمسٌ قد مضين: الدخان، واللزام، والبطشة، والقمر، والروم.

وعند الطبري^(٤) أيضاً من حديث ابن مسعود، قال: قد مضى ﴿الْمَ غُلِبَتِ الرُّومُ﴾.

وأخرج الطبري بما هو صحيح لشواهد^(٥) من حديث ابن مسعود قال: كانت فارس ظاهرة على الروم، وكان المشركون يحبون أن تظهر فارس على

(١) أحمد (٢٧٦/١)، والترمذي (٣١٩٣)، والنسائي (١١٣٨٩)، والطبري (٢٧٨٦٥) وغيرهم - وهو صحيح وله شواهد كثيرة.

(٢) الطبري (٢٧٨٦٦)، وهو شاهد لما قبله.

(٣) البخاري (٤٧٦٧)، ومسلم (٢٧٩٨).

(٤) هو صحيح، عند الطبري (٢٧٨٧٠).

(٥) السند به بعض الضعف لكن لأصله شواهد يصح بها.

الروم، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس؛ لأنهم أهل كتاب، وهم أقرب إلى دينهم، فلما نزلت: ﴿الْم ۝ غَلِبَتِ الرُّومُ...﴾ إلى ﴿فِي بَضْعِ سِنِينَ﴾ قالوا: يا أبا بكر، إن صاحبك يقول: إن الروم تظهر على فارس في بضع سنين، قال: صدق. قالوا: هل لك أن نقامر؟ فبايعوه على أربع قلائص إلى سبع سنين، فمضت السبع ولم يكن شيء، ففرح المشركون بذلك، وشقّ على المسلمين، فذكروا ذلك للنبي ﷺ: فقال: «مَا بَضْعُ سِنِينَ عِنْدَكُمْ؟» قالوا: دون العشر. قال: «أَذْهَبْ، فزَايِدُهُمْ وَازْدَدْ سَتَيْنِ» قال: فما مضت الستتان حتى جاءت الركبان بظهور الروم على فارس، ففرح المسلمون بذلك، فأنزل الله: ﴿الْم ۝ غَلِبَتِ الرُّومُ...﴾ إلى قوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾.

ومن الشواهد لأصل المعنى ما أورده ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ وعزاه لابن أبي حاتم من حديث البراء قال: لما نزلت: ﴿الْم ۝ غَلِبَتِ الرُّومُ ۝ فِي آدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾، قال المشركون لأبي بكر: ألا ترى إلى ما يقول صاحبك؟ يزعم أن الروم تغلب فارس. قال: «صدق صاحبي». قالوا: هل لك أن نخاطرك؟ فجعل بينه وبينهم أجلاً فحلّ الأجل قبل أن تغلب الروم فارس، فبلغ ذلك النبي ﷺ فساءه ذلك وكرهه، وقال لأبي بكر: «ما دعاك إلى هذا؟» قال: تصديقاً لله ولرسوله. فقال: «تَعَرَّضَ لَهُمْ وَأَعْظَمَ الْخَطَرَ وَاجْعَلْهُ إِلَى بَضْعِ سِنِينَ». فأتاهم أبو بكر فقال لهم: هل لكم في العود، فإن العود أحمد؟ قالوا: نعم. فلم تمض تلك السنون حتى غلبت الروم فارس، وربطوا خيولهم بالمدائن، وبنوا الرومية، فجاء به أبو بكر إلى النبي ﷺ فقال: هذا السحت، قال: «تصدق به».

وما أورده الترمذي^(١) من حديث نيار بن مكرم الأسلمي قال: لَمَّا نَزَلَتْ:

﴿الْم ١ غُلِبَتِ الرُّومُ ٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾
 فِي بَضْعِ سِنِينَ ۖ وَكَانَتْ فَارِسُ يَوْمَ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ قَاهِرِينَ لِلرُّومِ، وَكَانَ
 الْمُسْلِمُونَ يُحِبُّونَ ظُهُورَ الرُّومِ عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ وَإِيَّاهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ، وَفِي ذَلِكَ
 قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ٤﴾ يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ
 وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۖ وَكَانَتْ قُرَيْشٌ تُحِبُّ ظُهُورَ فَارِسَ؛ لِأَنَّهُمْ وَإِيَّاهُمْ لَيْسُوا
 بِأَهْلِ كِتَابٍ وَلَا إِيْمَانٍ بِبَعْثٍ، فَلَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ؛ خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ
 الصَّدِيقُ يَصِيحُ فِي نَوَاحِي مَكَّةَ ﴿الْم ١ غُلِبَتِ الرُّومُ ٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ
 بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بَضْعِ سِنِينَ ۖ قَالَ: نَاسٌ مِنْ قُرَيْشٍ لِأَبِي بَكْرٍ:
 فَذَلِكَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ، زَعَمَ صَاحِبُكَ أَنَّ الرُّومَ سَتَغْلِبُ فَارِسَ فِي بَضْعِ سِنِينَ أَفَلَا
 نَرَاهُنْكَ عَلَى ذَلِكَ؟ قَالَ: بَلَى - وَذَلِكَ قَبْلَ تَحْرِيمِ الرَّهَانِ - فَارْتَهَنَ أَبُو بَكْرٍ
 وَالْمُشْرِكُونَ وَتَوَاضَعُوا الرَّهَانِ، وَقَالُوا لِأَبِي بَكْرٍ: كَمْ تَجْعَلُ الْبَضْعُ؟ ثَلَاثُ
 سِنِينَ إِلَى تِسْعِ سِنِينَ فَسَمَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ وَسَطًا تَنْتَهِي إِلَيْهِ. قَالَ: فَسَمَّوْا بَيْنَهُمْ سِتَّ
 سِنِينَ. قَالَ: فَمَضَتْ السَّتُّ سِنِينَ قَبْلَ أَنْ يَظْهَرُوا فَأَخَذَ الْمُشْرِكُونَ رَهْنَ أَبِي
 بَكْرٍ، فَلَمَّا دَخَلَتِ السَّنَةُ السَّابِعَةُ ظَهَرَتِ الرُّومُ عَلَى فَارِسَ، فَعَابَ الْمُسْلِمُونَ
 عَلَى أَبِي بَكْرٍ تَسْمِيَةَ سِتِّ سِنِينَ. قَالَ: لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿فِي بَضْعِ سِنِينَ ۖ﴾.
 قَالَ: وَأَسْلَمَ عِنْدَ ذَلِكَ نَاسٌ كَثِيرٌ.

وتمَّ طرق مرسله، منها ما أخرجه الطبري بسند حسن عن قتادة، ولكنه

مرسل كما هو معلوم، مراسيل قتادة ضعيفة، لكن هنا في الشواهد، قال قتادة:

﴿الْم ١ غُلِبَتِ الرُّومُ ٢﴾ قَالَ: غَلِبَتْهُمْ فَارِسَ عَلَى أَدْنَى الشَّامِ ۖ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ

(١) الترمذي (٣١٩٤)، وفي سنده عبد الرحمن بن أبي الزناد متكلم فيه، لكنني أورده في الشواهد.

غَلِبَهُمْ سَيَغْلِبُونَ... ﴿١﴾ الآية، قال: لما أنزل الله هؤلاء الآيات صدّق المسلمون ربهم، وعلموا أن الروم سيظهرون على فارس، فاقتمروا هم والمشركون خمس قلائص خمس قلائص، وأجلوا بينهم خمس سنين، فولي قمار المسلمين أبو بكر رضي الله عنه، وولي قمار المشركين أبي بن خلف، وذلك قبل أن ينهى عن القمار، فحل الأجل، ولم يظهر الروم على فارس، وسأل المشركون قمارهم، فذكر ذلك أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لَمْ تَكُونُوا أَحِقَّاءَ أَنْ تُوجَلُّوا دُونَ الْعَشْرِ، فَإِنَّ الْبِضْعَ مَا بَيْنَ الثَّلَاثِ إِلَى الْعَشْرِ، وَزَايِدُوهُمْ فِي الْقِمَارِ، وَمَادُّوهُمْ فِي الْأَجْلِ»، ففعلوا ذلك، فأظهر الله الروم على فارس عند رأس البِضْعِ سنين من قمارهم الأول، وكان ذلك مرجعه من الحديبية ^(١)، ففرح المسلمون بصلحهم الذي كان، وبظهور أهل الكتاب على المجوس، وكان ذلك مما شدد الله به الإسلام وهو قوله: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ^(٢) بِنَصْرِ اللَّهِ... ﴿٤﴾ الآية.

وأخرج الطبري بسند صحيح ^(٢) عن الشعبي في قوله: ﴿الْمَ ۝١﴾ غَلِبَتِ الرُّومُ... ﴿٤﴾ إلى قوله: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم أخبر الناس بمكة أن الروم ستغلب، قال: فنزل القرآن بذلك، قال: وكان المسلمون يحبون ظهور الروم على فارس؛ لأنهم أهل الكتاب.

وأورد الطبري بسند صحيح إلى ابن زيد (ولكنه مرسل ضعيف) قال ابن

زيد:

في قوله: ﴿الْمَ ۝١﴾ غَلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي آدَى الْأَرْضِ ﴿٣﴾ قال: أدنى الأرض: الشام، ﴿وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ قال: كانت فارس قد غلبت الروم،

(١) في ذلك ضعف ونظر.

(٢) لكنه مرسل أيضًا.

ثم أدبيل الروم على فارس، وذكر أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الرُّومَ سَتَغْلِبُ فَارِسًا»، فقال المشركون: هذا مما يتخرّص محمد، فقال أبو بكر: تناحبوني؟ - والمناحبة: المجاعلة - قالوا: نعم. فناحبهم أبو بكر، فجعل السنين أربعاً أو خمساً، ثم جاء إلى النبي ﷺ، فقال رسول ﷺ: «إِنَّ الْبُضْعَ فِيمَا بَيْنَ الثَّلَاثِ إِلَى السَّعِ، فَارْجِعْ إِلَى الْقَوْمِ، فَرِذْ فِي الْمُنَاحِبَةِ»، فرجع إليهم. قالوا: فناحبهم فزاد. قال: فغلبت الروم فارساً، فذلك قول الله: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَقَرُّحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ٤ ينصّر الله ينصّر من يشاء ﴿يوم أدبيلت الروم على فارس.

وهناك آثار أخرى وأحاديث أخرى، ولا يكاد يخلو منها سند من مقال لكن القدر المشترك في هذه المتون يصح بلا شك وسياق الآية تقتضي تصحيح كثير منها، والله أعلم.



س: ما المراد بقوله تعالى: ﴿أَدْنَى الْأَرْضِ﴾؟

ج: أما قوله تعالى: ﴿أَدْنَى﴾ فمعناه أقرب فقل: إن المراد أقرب أرض الروم من بلاد فارس، وهي بلاد الشام، وقيل: أدنى الأرض أقرب الأرض أرض الروم إلى بلاد العرب، وهي بلاد الشام أيضاً.



س: قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ قبل ماذا وبعد ماذا؟

ج: قال فريق من أهل العلم من قبل نصر فارس على الروم، ومن بعد نصر الروم على فارس، وقيل: المراد لله الأمر في كل وقت وحين وهو الذي يدبر الأمر سبحانه ويفعل ما يريد، وينصر من يشاء، ويخذل من أراد. والله أعلم.



س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿الْم ١﴾ غَلَبَتِ الرُّومُ ٢ ﴿فِي آدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ٣﴾ فِي بَضْعِ سِنِينَ ٤ ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ٥﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ٥ ﴿.

ج: يخبر الله سبحانه وتعالى أن الروم قد غلبت، غلبتها فارس، وذلك في أقرب بلاد الروم إلى العرب، وقيل: إلى بلاد الفرس، وكانت هذه البلاد تحت إمرة ملك الروم، وهي بلاد الشام فأخبر الله أن الروم غلبت هنالك، وأخبر الله ﷻ أن الروم، وإن غلبت الآن، لكنها ستغلب فيما بعد في بضع سنين، وهو من الثلاث إلى العشر ففي خلال هذه السنوات ستغلب الروم فارس والله سبحانه الأمر من قبل ومن بعد من قبل هزيمة الروم ونصر الفرس، ومن بعد ذلك أيضًا، فهو سبحانه يفعل ما يريد، ويوم أن ينتصر الروم على فارس يفرح أهل الإيمان لأن الروم أهل كتاب أما الفرس فهم أهل شرك ووثنية وعبادة النيران، وإن كانوا كلهم على ضلال آنذاك لكن ثم ضلال أخف من ضلال، فعلى كل يفرح المؤمنون بمن هو منهم أقرب، وهم الروم، فالروم أقرب لأهل الإسلام من المجوس، وليعلم أن الله هو الذي ينصر من يشاء ويخذل من يشاء وهو العزيز الذي لا يُغلب، بل يُمض أمره في خلقه، ومع ذلك فهو رحيم بالعباد وبنحو هذا قال عدد من أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

﴿الْم ١﴾ غَلَبَتِ الرُّومُ ٢ ﴿بضم الغين؛ لإجماع الحجة من القراء عليه. فإذا كان ذلك كذلك، فتأويل الكلام: غلبت فارس الروم ﴿فِي آدْنَى الْأَرْضِ ٣﴾ من أرض الشام إلى أرض فارس ﴿وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ ٤﴾ يقول: والروم من بعد

غلبة فارس إياهم ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾ فارس ﴿فِي بَضْعِ سِنِينَ﴾ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ ﴿غَلِبَتْهُمْ فَارِسٌ﴾ وَمِنْ بَعْدُ ﴿غَلِبَتْهُمْ إِيَّاهَا، يَقْضِي فِي خَلْقِهِ مَا يَشَاءُ، وَيَحْكُمُ مَا يَرِيدُ، وَيُظْهِرُ مَنْ شَاءَ مِنْهُمْ عَلَى مَنْ أَحَبَّ إِيَّاهُ عَلَيْهِ﴾ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ ﴿يَقُولُ: وَيَوْمَ يَغْلِبُ الرُّومَ فَارِسَ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ إِيَّاهُمْ عَلَى الْمُشْرِكِينَ، وَنُصْرَةَ الرُّومِ عَلَى فَارِسَ ﴿بِنَصْرِ﴾ اللَّهُ تَعَالَى ذَكَرَهُ ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ مِنْ خَلْقِهِ، عَلَى مَنْ يَشَاءُ، وَهُوَ نُصْرَةُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ بِيَدِهِ، ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ يَقُولُ: وَاللَّهُ الشَّدِيدُ فِي انتِقَامِهِ مِنْ أَعْدَائِهِ، لَا يَمْنَعُهُ مِنْ ذَلِكَ مَانِعٌ، وَلَا يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ حَائِلٌ، ﴿الرَّحِيمُ﴾ بِمَنْ تَابَ مِنْ خَلْقِهِ، وَرَاجِعَ طَاعَتَهُ أَنْ يَعَذِّبَهُ.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ أَي: مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ وَمِنْ بَعْدِهِ، فَبَنِي عَلَى الزَّمَنِ لَمَّا قُطِعَ الْمُضَافُ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿قَبْلُ﴾ عَنِ الْإِضَافَةِ، وَنُوتِ. ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ ﴿أَي: لِلرُّومِ أَصْحَابُ قَيْصَرَ مَلِكِ الشَّامِ، عَلَى فَارِسِ أَصْحَابِ كَسْرَى، وَهُمْ الْمَجُوسُ.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

لَمَّا انتصرت فارس على الروم ساء ذلك المؤمنين، فلما انتصرت الروم على فارس فرح المؤمنون بذلك؛ لأن الروم أهل كتاب في الجملة، فهم أقرب إلى المؤمنين من المجوس، كما قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُكَ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَسِيصَتِ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا

فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٢﴾ [المائدة: ٨٢، ٨٣]، وقال تعالى ها هنا: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾.

وقوله: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أي: في انتصاره وانتقامه من أعدائه، ﴿الرَّحِيمُ﴾ بعباده المؤمنين.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ أخبر تعالى بانفراده بالقدر وأن ما في العالم من غلبة وغيرها إنما هي منه وإرادته وقدرته فقال: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ﴾ أي إنفاذ الأحكام.

﴿مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ أي: من قبل هذه الغلبة ومن بعدها وقيل: من قبل كل شيء ومن بعد كل شيء.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ج: قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وعد الله جل ثناؤه، وعد أن الروم ستغلب فارس من بعد غلبة فارس لهم، ونصب ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ على المصدر من قوله: ﴿وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ لأن ذلك وعد من الله لهم أنهم سيغلبون، فكأنه قال: وعد الله ذلك المؤمنين وعداء، ﴿لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ يقول تعالى ذكره: إن الله يفي بوعده للمؤمنين أن الروم سيغلبون فارس، لا يخلفهم وعده ذلك؛ لأنه ليس

في مواعيده خلف ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يقول: ولكن أكثر قريش الذين يكذبون بأن الله منجز وعده المؤمنين، من أن الروم تغلب فارس، لا يعلمون أن ذلك كذلك، وأنه لا يجوز أن يكون في وعد الله إخلاف.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

وقوله: ﴿وَعَدَ اللهُ لَا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ﴾ أي: هذا الذي أخبرناك به -يا محمد - من أنا سننصر الروم على فارس، وعد من الله حق، وخبر صدق لا يخلف، ولا بد من كونه ووقوعه؛ لأن الله قد جرت سنته أن ينصر أقرب الطائفتين المقتلتين إلى الحق، ويجعل لها العاقبة، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: بحكم الله في كونه وأفعاله المحكمة الجارية على وفق العدل.



أهل الكفر و علمهم بالدنيا

س: **وضح معنى قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ﴾.**

ج: **المعنى -** والله أعلم - أن أهل الكفر علمهم بالحياة الدنيا وما تصلح به معاشهم، أمرٌ معروف عندهم فهم متقنون المعرفة لدنياهم، أمور الدنيا هم فيها بارعون، أما الآخرة فهم منها في غفلة لا يدرون شيئاً عنها، ولا يوقنون ولا يعملون لها ولا يلتفتون إليها.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: يعلم هؤلاء المكذبون بحقيقة خبر الله أن الروم ستغلب فارس، ظاهرًا من حياتهم الدنيا، وتدبير معاشهم فيها، وما يصلحهم، وهم عن أمر آخرتهم، وما لهم فيه النجاة من عقاب الله هنالك، غافلون، لا يفكرون فيه.

وأورد الطبري من طريقين عن ابن عباس قال: العليمون ظاهرًا من الحياة الدنيا، قال: متى يزرعون ومتى يغرسون.

وأورد الطبري بإسناد صحيح عن إبراهيم قال: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قال: معاشهم وما يصلحهم.

وقال ابن كثير رحمه الله:

وقوله: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ﴾ أي: أكثر الناس ليس لهم علم إلا بالدنيا وأكسابها وشؤونها وما فيها، فهم حذاق أذكاء في تحصيلها ووجوه مكاسبها، وهم غافلون عما ينفعهم في الدار الآخرة، كأن أحدهم مُغفَّل لا ذهن له ولا فكرة.

قال الحسن البصري: والله لَبَلَغَ من أحدهم بدنياء أنه يقلب الدرهم على

ظفره، فيخبرك بوزنه، وما يحسن أن يصلي.

وقال ابن عباس في قوله: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ﴾

يعني: الكفار، يعرفون عمران الدنيا، وهم في أمر الدين جهال.

قلت: ويدخل في معنى الآية الكريمة والفارق بين الكافر والمسلم، والله أعلم، ما صار إليه حال الكثيرين ممن حملوا عظيم الشهادات الدنيوية كالدكتوراة وغيرها، ومن ذلك هم من أجهل الناس بالدين، فثم قوم حريصون على الدنيا وحطامها الفاني الزائل، وهم بعيدون أشد البعد عن الاستقامة وعن معرفة شيء عن الشريعة، عياداً بالله من الزيغ والعمى.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ:

تنبيه

اعلم أنه يجب على كل مسلم في هذا الزمان أن يتدبر آية «الروم» هذه تدبراً كثيراً، ويبيّن ما دلّت عليه لكل من استطاع بيانه له من الناس.

وإيضاح ذلك أن من أعظم فتن آخر الزمان التي ابتلى الله بها ضعاف العقول من المسلمين، شدة إتقان الإفرنج لأعمال الحياة الدنيا، ومهارتهم فيها على كثرتها، واختلاف أنواعها مع عجز المسلمين عن ذلك، فظنوا أن من قدر على تلك الأعمال أنه على الحق، وأن من عجز عنها متخلف وليس على الحق، وهذا جهل فاحش، وغلط فادح. وفي هذه الآية الكريمة إيضاح لهذه الفتنة، وتخفيف لشأنها أنزله الله في كتابه قبل وقوعها بأزمان كثيرة، فسبحان الحكيم الخبير ما أعلمه، وما أعظمه، وما أحسن تعليمه.

فقد أوضح جلّ وعلا في هذه الآية الكريمة أن ﴿أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾،

ويدخل فيهم أصحاب هذه العلوم الدنيوية دخولاً أولاً، فقد نفى عنهم جلّ وعلا اسم العلم بمعناه الصحيح الكامل، لأنهم لا يعلمون شيئاً عمّن خلقهم،

فأبرزهم من العدم إلى الوجود، ورزقهم، وسوف يميتهم، ثم يحييهم، ثم يجازيهم على أعمالهم، ولم يعلموا شيئاً عن مصيرهم الأخير الذي يقيمون فيه إقامة أبدية في عذاب فظيع دائم، ومن غفل عن جميع هذا فليس معدوداً من جنس من يعلم؛ كما دلّت عليه الآيات القرآنية المذكورة، ثم لما نفى عنهم جلّ وعلا اسم العلم بمعناه الصحيح الكامل، أثبت لهم نوعاً من العلم في غاية الحقارة بالنسبة إلى غيره.

وعاب ذلك النوع المذكور من العلم، بعيين عظيمين:

أحدهما: قلّته وضيق مجاله، لأنه لا يجاوز ﴿ظَهَرَ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، والعلم المقصور على ظاهر من الحياة الدنيا في غاية الحقارة، وضيق المجال بالنسبة إلى العلم بخالق السماوات والأرض جلّ وعلا، والعلم بأوامره ونواهيه، وبما يقرب عبده منه، وما يبعده عنه، وما يخلد في النعيم الأبدي والعذاب الأبدي، من أعمال الخير والشر.

والثاني منهما: هو دناءة هدف ذلك العلم، وعدم نبل غايته، لأنه لا يتجاوز الحياة الدنيا، وهي سريعة الانقطاع والزوال، وكيفيك من تحقير هذا العلم الدنيوي أن أجود أوجه الإعراب في قوله: ﴿يَعْلَمُونَ ظَهْرًا﴾، أنه بدل من قوله قبله ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾، فهذا العلم كلا علم لحقارته.

قال الزمخشري في «الكشاف»: «وقوله: ﴿يَعْلَمُونَ﴾ بدل من قوله: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾، وفي هذا الإبدال من النكتة أنه أبدله منه وجعله بحيث يقوم مقامه، ويسد مسدّه ليعلمك أنه لا فرق بين عدم العلم الذي هو الجهل، وبين وجود العلم الذي لا يتجاوز الدنيا.

وقوله: ﴿ظَهَرَ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يفيد أن للدنيا ظاهراً وباطناً فظاهرها ما

يعرفه الجهال من التمتع بزخارفها، والتنعم بملاذها، وباطنها وحقيتها أنها مجاز إلى الآخرة، يتزود منها إليها بالطاعة والأعمال الصالحة، وفي تنكير الظاهر أنهم لا يعلمون إلا ظاهراً واحداً من ظواهرها. ﴿هُمُ﴾ الثانية يجوز أن يكون مبتدأ، و﴿غَفِلُونَ﴾ خبره، والجملة خبر ﴿هُمُ﴾ الأولى، وأن يكون تكريراً للأولى، و﴿غَفِلُونَ﴾ خبر الأولى، وأية كانت فذكرها مناد على أنهم معدن الغفلة عن الآخرة، ومقرّها، ومحلّها وأنها منهم تنبع وإليهم ترجع، انتهى كلام صاحب «الكشاف».

وقال غيره: وفي تنكير قوله: ﴿ظَاهِرًا﴾ تقليل لمعلومهم، وتقليله يقربه من النفي، حتى يطابق المبدل منه، اهـ، ووجهه ظاهر.

واعلم أن المسلمين يجب عليهم تعلّم هذه العلوم الدنيوية، كما أوضحنا ذلك غاية الإيضاح في سورة «مريم»، في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَطْلَعَ الْغَيْبَ أَمْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ٧٨]، وهذه العلوم الدنيوية التي بينا حقارتها بالنسبة إلى ما غفل عنه أصحابها الكفار، إذا تعلّمها المسلمون، وكان كل من تعليمها واستعمالها مطابقاً لما أمر الله به على لسان نبيّه ﷺ، كانت من أشرف العلوم وأنفعها؛ لأنها يستعان بها على إعلاء كلمة الله ومرضاته جلّ وعلا، وإصلاح الدنيا والآخرة، فلا عيب فيها إذن؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، فالعمل في إعداد المستطاع من القوة امتثالاً لأمر الله تعالى وسعيّاً في مرضاته، وإعلاء كلمته ليس من جنس علم الكفار الغافلين عن الآخرة كما ترى، والآيات بمثل ذلك كثيرة، والعلم عند الله تعالى.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم - أولم يتفكر هؤلاء المكذبون بالبعث الجاحدون وحدانية الله ﷻ، المقيمون على شركهم، أولم يتفكر هؤلاء وغيرهم في أنفسهم، وما فيها من العبر والآيات والدلالات على وحدانية الله ﷻ، وذلك أنهم خلقوا من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة ثم أخرجوا من بطون الأمهات أطفالاً ثم قوى عودهم واشتد ساعدتهم، ثم بعد ذلك تسربت إليهم الشيخوخة ثم الموت؟! وكذا أولم يتفكروا فيما يحل بهم من الأمراض والأحزان لا يملكون لها دفعاً.

كذا أولم يتفكروا في طوارق الليل والنهار وضحكهم وبكائهم وحزنهم وهمهم وغمهم!!

وكذا أولم يتفكروا في أنفسهم فهذا طويل وهذا قصير وهذا غبيّ وقليل الفهم، وهذا في غاية من الذكاء، وهذا بين هؤلاء وأولئك.

وكذا فهذا ماكرٌ، وذاك ساذج وهذا وسيءٌ ووضيءٌ، وذاك دميم شديد الدمامة، ثم كل ذلك ينتهي إلى غير ذلك من الآيات التي هي في الأنفس إذ الله قال: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ أولم يتفكر هؤلاء في خلق السموات والأرض وما بينهما فإن الله ما خلقهما إلا بالحق، للثواب والعقاب لإثابة المطيع على طاعته والعاصي على عصيانه إلا أن يعفو الله ويصفح، وكذا ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا للاستدلال على وحدانية الله، لم نخلقهما

عبثاً بل خلقناهما لحكمة ولغاية، ثم إنهما يتتهيان ويزولان عند الوقت الذي حدّده الله لزوالمهما، ولكن مع ذلك كله فكثيرٌ من الناس منكرون لقاء الله يوم القيامة جاحدون ليوم القيامة أصلاً.

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

يقول تعالى ذكره: أولم يتفكّر هؤلاء المكذّبون بالبعث يا محمد من قومك في خلق الله إياهم، وأنه خلقهم ولم يكونوا شيئاً، ثم صرفهم أحوالاً وتارات حتى صاروا رجالاً فيعلموا أن الذي فعل ذلك قادر أن يعيدهم بعد فنائهم خلقاً جديداً، ثم يجازي المحسن منهم بإحسانه، والمسيء بإساءته لا يظلم أحداً منهم، فيعاقبه بجرم غيره، ولا يحرم أحداً منهم جزاء عمله، لأنه العدل الذي لا يجور ﴿مَا خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ إلا بالعدل، وإقامة الحق، ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يقول: وبأجل مؤقت مسمى، إذا بلغت ذلك الوقت أفنى ذلك كله، وبَدَّلَ الأرض غير الأرض والسموات، وبرزوا لله الواحد القهَّار، وإن كثيراً من الناس بقاء ربهم جاحدون منكرون؛ جهلاً منهم بأن معادهم إلى الله بعد فنائهم، وغفلة منهم عن الآخرة.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

يقول تعالى منبهاً على التفكر في مخلوقاته، الدالة على وجوده وانفراده بخلقها، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ يعني به: النظر والتدبر والتأمل لخلق الله الأشياء من العالم العلوي والسفلي، وما بينهما من المخلوقات المتنوعة، والأجناس المختلفة، فيعلموا أنها ما خلقت سُدىً ولا باطلاً بل بالحق، وأنها مؤجلة إلى أجل مسمى، وهو يوم القيامة؛ ولهذا قال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَفِرُونَ﴾.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ قال الفراء : معناه إلا للحق يعني الثواب والعقاب وقيل : إلا لإقامة الحق وقيل : بالحق بالعدل وقيل : بالحكمة والمعنى متقارب وقيل : بالحق أي أنه هو الحق وللحق خلقها وهو الدلالة على توحيده وقدرته ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي للسموات والأرض أجل ينتهيان إليه وهو يوم القيامة وفي هذا تنبيه على الفناء وعلى أن لكل مخلوق أجلا وعلى ثواب المحسن وعقاب المسيء وقيل : وأجل مسمى أي خلق ما خلق في وقت سماه لأن يخلق ذلك الشيء فيه ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ اللام للتوكيد والتقدير : لكافرون بقاء ربهم على التقديم والتأخير أي لكافرون بالبعث بعد الموت وتقول : إن زيدا في الدار لجالس ولو قلت : إن زيدا لفي الدار لجالس جاز فإن قلت : إن زيدا جالس لفي الدار لم يجز لأن اللام إنما يؤتى بها توكيدا لاسم إن وخبرها وإذا جئت بهما لم يجز أن يأتي بها وكذا قلت : إن زيدا لجالس لفي الدار لم يجز.



س : وضح معنى قوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُظِلِّمَهُمُ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ١.

ج : المعنى - والله أعلم - أو لم يسافر هؤلاء المكذبون بالبعث والمشركون بالله أسفارًا فيرون مصائر من تقدمهم من البشر، وقد أهلكتناهم وأفنيانهم، فما هي ديار قوم لوط التي يمرون عليها مصبحين، وبالليل أفلا يعقلون، وما هي ديار ثمود يرونها ويشاهدونها في أسفارهم، وغيرهم،

وغيرهم كعاد وفرعون، والقرى التي أهلك الله أهلها وشتت شملهم، فقد كانوا أقوى منهم بدنًا وصحة وعافية، وكانوا يثيرون الأرض يقلبونها للحرارة، والمعنى كما في الآية في شأن البقرة: ﴿تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٧١]، وكما في قوله في الخيل: ﴿فَأَثَرُنَا بِهِ نَقَعًا﴾ [العاديات: ٤] والمراد أن القوم كانوا يقلبون الأرض ويثيرونها كي يزرعوها، وكذا لاستخراج ما فيها من المعادن، ولعمارتها كذلك وإنشاء المباني والقصور فيها فعمروها أكثر مما عمرها هؤلاء، وزرعوها زراعة أحسن من زراعة هؤلاء، وشيدوا فيها القصور وجاءتهم رسلهم تأمرهم بطاعة الله وتوحيده وامتثال أمره، جاءتهم الرسل ومعهم البينات والحجج والأدلة القواطع على وحدانية الله، فلم يُجِدْ ذلك بشيء مع القوم ولم ينتفعوا بالآيات ولم يهتدوا لها فأنزل الله بهم بأسه كما قال: ﴿فَإِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ وما كان الله لبيخسهم من حقوقهم شيئًا ولا ينزل بهم شيئًا لا يستحقونه، بل هم الذين ظلموا أنفسهم فاستحقوا ما نالهم وأصابهم.

وهذه بعض أقوال أهل العلم:

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: أولم يسر هؤلاء المكذبون بالله، الغافلون عن الآخرة من قريش في البلاد التي يسلكونها تجرا، فينظروا إلى آثار الله فيمن كان قبلهم من الأمم المكذبة، كيف كان عاقبة أمرها في تكذيبها رسلها، فقد كانوا أشدّ منهم قوة، ﴿وَأَثَرُوا الْأَرْضَ﴾: يقول: واستخرجوا الأرض، وحرثوها وعمروها أكثر مما عمر هؤلاء، فأهلكهم الله بكفرهم وتكذيبهم رسلهم، فلم يقدرُوا على الامتناع، مع شدة قواهم مما نزل بهم من عقاب الله، ولا نفعتهم عمارتهم

ما عمروا من الأرض، إذ ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ من الآيات، فكذبوهم، فأحل الله بهم بأسه، ﴿فَمَا كَانُوا يَظْلِمُوهُمْ﴾ بعقابه إياهم على تكذيبهم رسله، وجحودهم آياته، ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بمعصيتهم ربه.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا﴾ ببصائرهم وقلوبهم ﴿كَيْفَ كَانَ عِقَابُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ﴾ أي: قلبوها للزراعة لأن أهل مكة لم يكونوا أهل حرث قال الله تعالى: ﴿تَثِيرُ الْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٧١] ﴿وَعَمَرُوهَا أَكْثَرُ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ أي: عمروها أولئك أكثر مما عمروها هؤلاء فلم تنفعهم عمارتهم ولا طول مدتهم ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالمعجزات وقيل: بالأحكام فكفروا ولم يؤمنوا ﴿فَمَا كَانُوا يَظْلِمُوهُمْ﴾ بأن أهلكهم بغير ذنب ولا رسل ولا حجة ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالشرك والعصيان.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

ثم نبههم على صدق رسله فيما جاءوا به عنه، بما أيدهم به من المعجزات، والدلالات الواضحات، من إهلاك مَنْ كفر بهم، ونجاة مَنْ صدقهم، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: بأفهامهم وعقولهم ونظرهم وسماعهم أخبار الماضين؛ ولهذا قال: ﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عِقَابُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أي: كانت الأمم الماضية والقرون السالفة أشد منكم - أيها المبعوث إليهم محمد ﷺ وأكثر أموالاً وأولاداً، وما أوتيتم معشار ما أوتوا، ومكنوا في الدنيا تمكينا لم تبلغوا إليه، وعمروا فيها أعماراً طوالاً فعمروها أكثر منكم. واستغلوها أكثر من استغلالكم، ومع هذا لما جاءتهم

رسلهم بالبينات وفرحوا بما أوتوا، أخذهم الله بذنوبهم، وما كان لهم من الله من واق، ولا حالت أموالهم ولا أولادهم بينهم وبين بأس الله، ولا دفعوا عنهم مثقال ذرة، وما كان الله ليظلمهم فيما أحل بهم من العذاب والنكال ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي: وإنما أوتوا من أنفسهم حيث كذبوا بآيات الله، واستهزؤوا بها، وما ذاك إلا بسبب ذنوبهم السالفة في تكذيبهم المتقدم.



س: وضع معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسْأَأُوا السُّوْءَ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - : ثم كان آخر أمر هؤلاء الذين أساءوا بشركهم بالله واستهزأهم وتكذبيهم بآيات الله، كان آخر أمرهم أن جازاهم الله أسوأ الجزاء، وذلك بإدخالهم النار يوم القيامة

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ثم كان آخر أمر من كفر من هؤلاء الذين أثاروا الأرض وعمروها، وجاءتهم رسلهم بالبينات بالله، وكذبوا رسلهم، فأساءوا بذلك من فعلهم.

﴿السُّوْءَ﴾: يعني الخُلَّة التي هي أسوأ من فعلهم؛ أما في الدنيا، فالبوار والهلاك، وأما في الآخرة فالنار لا يخرجون منها، ولا هم يستعتبون.

وأورد بإسناد حسن عن قتادة: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسْأَأُوا السُّوْءَ﴾: الذين أشركوا السوءى: أي النار.

وقال رحمه الله:

وقوله: ﴿أَنْ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ يقول: كانت لهم السوئى، لأنهم كذبوا في الدنيا بآيات الله، ﴿وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾. يقول: وكانوا بحجج الله وهم أنبياءه ورسله يسخرون.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

ولهذا قال: ﴿ثُمَّ كَانَ عِقَابَ الَّذِينَ اسْتَوُوا السُّوْأَى أَنْ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَنَقَلِبُ أَقْدَارَهُمْ وَابْصُرْهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وقال: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمَ أَنَّهُ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة: ٤٩].

وعلى هذا تكون السوءى منصوبة مفعولاً لأساءوا. وقيل: بل المعنى في ذلك: ﴿ثُمَّ كَانَ عِقَابَ الَّذِينَ اسْتَوُوا السُّوْأَى﴾ أي: كانت السوءى عاقبتهم؛ لأنهم كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون. فعلى هذا تكون السوءى منصوبة خبر كان.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عِقَابَ الَّذِينَ اسْتَوُوا السُّوْأَى﴾ السوءى فعلى من السوء تأنيث الأسوأ وهو الأقبح كما أن الحسنى تأنيث الأحسن وقيل: يعني بها هاهنا النار قاله ابن عباس ومعنى أساءوا أشركوا دل عليه أن كذبوا بآيات الله السوءى: اسم جهنم كما أن الحسنى اسم الجنة ﴿أَنْ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: لأن كذبوا قاله الكسائي.



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ١١ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُعْلِسُ
الْمُجْرِمُونَ ١٢ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِّنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ
كَافِرِينَ ١٣ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومَذِّ يَفْرَقُونَ ١٤ فَأَمَّا الَّذِينَ
ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ١٥ وَأَمَّا الَّذِينَ
كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ١٦
فَسَبِّحْنَا اللَّهَ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ١٧ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ١٨ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ
الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ١٩ ﴿

[الروم: ١١-١٩]

س: وَضَّحْ معنى ما يلي:

﴿يَبْدُوا-تُرْجَعُونَ-يُبْلِسُ-كَافِرِينَ-رَوْضَةٍ-يُحْبَرُونَ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿يَبْدُوا﴾	يُنشئ لأول مرة
﴿تُرْجَعُونَ﴾	ترجعون أحياء يوم القيامة وتلقون ربكم
﴿يُبْلِسُ﴾	يئأس - يسكت وتنقطع حجته
﴿كَافِرِينَ﴾	جاحدين
﴿رَوْضَةٍ﴾	بساتين فيها نباتات بهيجة حسنة ورياحين
﴿يُحْبَرُونَ﴾	ينعمون - يكرمون - يُسرون - يتلذذون - حاضرون في العذاب يوم القيامة - قد أُحضروا



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يَعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾؟

ج: المعنى - والله أعلم - : الله بدأ وأنشأ الخلق أول مرة، وهو سبحانه قادر على إعادتهم بعد موتهم أحياء، وسيفعل ذلك بهم وسيرجع إليه العباد يوم القيامة أحياء.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: الله تعالى يبدأ إنشاء جميع الخلق منفرداً بإنشائه من غير شريك ولا ظهير، فيحدثه من غير شيء، بل بقدرته عَلَّامٌ، ثم يعيد خلقاً جديداً بعد إفنائه وإعدامه، كما بدأه خلقاً سوياً، ولم يك شيئاً ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

يقول: ثم إليه من بعد إعادتهم خلقًا جديدًا يردّون، فيحشرون لفصل القضاء بينهم ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

يقول تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أي: كما هو قادر على بداءته فهو قادر على إعادته، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، أي: يوم القيامة فيجازي كل عامل بعمله.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (١٢) وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِّنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءٌ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ .

ج: المعنى - والله أعلم - **ويوم القيامة** ييأس المجرمون المشركون من رحمة الله، وتنقطع محبتهم ويفتضحون ويكتتبون، ثم إن هذه الآلهة التي عبدوها في الدنيا تخلّت عنهم ولم تشفع لهم، فكفروا بهؤلاء الآلهة يوم القيامة، وتبرءوا منهم وقالوا ما هذه بآلهة تستحق العبادة.

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

يقول تعالى ذكره: ويوم تجيء الساعة التي فيها يفصل الله بين خلقه، وينشر فيها الموتى من قبورهم، فيحشرهم إلى موقف الحساب ﴿يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ يقول: ييأس الذين أشركوا بالله، واكتسبوا في الدنيا مساوئ الأعمال من كل شرٍّ، ويكتتبون ويتندمون.

وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِّنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءٌ﴾ يقول تعالى ذكره: ﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ﴾ لم يكن لهؤلاء المجرمين الذين وصف جلّ ثناؤه صفتهم ﴿مِّنْ شُرَكَائِهِمْ﴾ الذين كانوا يتبعونهم، على ما دعواهم إليه من الضلالة، فيشاركونهم

في الكفر بالله، والمعاونة على أذى رسله، ﴿شَفَعُوا﴾ يشفعون لهم عند الله، فيستنقذوهم من عذابه، ﴿وَكَانُوا شُرَكَائِهِمْ كُفْرِينَ﴾ يقول: وكانوا شركائهم في الضلالة والمعاونة في الدنيا على أولياء الله ﴿كُفْرِينَ﴾، يجحدون ولايتهم، ويتبرءون منهم، كما قال جل ثناؤه: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ (٣٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأُ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا ﴿[البقرة: ١٦٦-١٦٧].

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

﴿وَيَوْمَ يَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ قال ابن عباس: يئأس المجرمون.
وقال مجاهد: يفتضح المجرمون. وفي رواية: يكتسب المجرمون.
﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِّنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ﴾ أي: ما شفعت فيهم الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله، وكفروا بهم وخانوهم أحوج ما كانوا إليهم.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

قال الزجاج: المبلِس الساکت المنقطع في حجته اليأس من أن يهتدي إليها ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِّنْ شُرَكَائِهِمْ﴾ أي ما عبدوه من دون الله ﴿شَفَعُوا﴾ وكانوا شُرَكَائِهِمْ كُفْرِينَ ﴿قالوا: ليسوا بآلهة فتبرؤوا منها وتبرأت منهم حسبما تقدم في غير موضع.



انقسام الخلق يوم القيامة وتميزهم

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفَرُونَ﴾ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾.

ج: هذا - والله أعلم - : إخبار بما يكون من أحوال الناس يوم القيامة فإنهم يتفرقون، أهل الإيمان جماعة، وأهل الكفر منعزلون عنهم، كما قال تعالى: ﴿وَأَمْتَرُوا أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩]، وكما قال تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً...﴾ [الواقعة: ٧] ثم ذكر الله مصير كل فريق فقال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ﴾ أي في جنة عظيمة وبستان بهيج لينعمون ويكرمون.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ويوم تجيء الساعة التي يحشر فيها الخلق إلى الله يومئذٍ، يقول في ذلك اليوم ﴿يُنْفَرُونَ﴾ يعني: يتفرق أهل الإيمان بالله، وأهل الكفر به، فأما أهل الإيمان، فيؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة، وأما أهل الكفر فيؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار، فهناك يميز الله الخبيث من الطيب.

وأورد بإسناد حسن عن قتادة في قوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفَرُونَ﴾ قال: فرقة والله، لا اجتماع بعدها.

ثم قال الطبري رحمه الله:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالله ورسوله ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يقول: وعملوا بما أمرهم الله به، وانتهوا عما نهاهم عنه ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ يقول: فهم في الرياحين والنباتات الملتفة، وبين أنواع الزهر في الجنان يسرون، ويلذذون بالسماع وطيب العيش الهنيئ، وإنما خصّ جلّ ثناؤه ذكر الروضة في

هذا الموضع؛ لأنه لم يكن عند الطرفين أحسن منظرا، ولا أطيّب نشرا من الرياض، ويدل على أن ذلك كذلك قول أعشي بني ثعلبة:

مَا رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْحُسْنِ مُعْشِبَةٌ خَضِرَاءُ جَادَ عَلَيْهَا مُسْبِلٌ هَاطِلٌ
يُضَاحِكُ الشَّمْسُ مِنْهَا كَوَكَبٌ شَرْقٌ مُؤَزَّرٌ بِعَمِيمِ النَّبْتِ مُكْتَهِلٌ
يَوْمًا بِأَطْيَبِ مِنْهَا نَشْرَ رَائِحَةٍ وَلَا بِأَحْسَنَ مِنْهَا إِذْ دَنَا الْأَصْلُ

فأعلمهم بذلك تعالى، أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات من المنظر الأنيق، واللذيد من الأرايح، والعيش الهنيّ فيما يحبون، ويسرّون به، ويغبطون عليه. و(الحبرة) عند العرب: السرور والغبطة، قال العجاج:

فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَعْطَى الْحَبَرَ مَوَالِيَّ الْحَقِّ إِنَّ الْمَوْلَى شَكْرٌ

واختلف أهل التأويل في معنى ذلك، فقال بعضهم: معنى ذلك: فهم في روضة يكرمون.

وقال آخرون: معناه: ينعمون.

وقال آخرون: يلذذون بالسماع والغناء.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ (١١).

ج: هذا بيان لحال الفريق الثاني وهم أهل الكفر فأخبر الله تعالى أن هؤلاء أهل الكفر والتكذيب بآيات الله والتكذيب بالبعث بعد الموت أنهم محضرون في العذاب يوم القيامة.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: وأما الذين جحدوا توحيد الله، وكذبوا رسله، وأنكروا البعث بعد الممات والنشور للدار الآخرة، فأولئك في عذاب الله محضرون، وقد أحضرهم الله إياها، فجمعهم فيها ليدوقوا العذاب الذي كانوا في الدنيا يكذبون .



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَسُبِّحْنَ اللَّهَ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ (١٨).

ج: ذهب بعض أهل العلم إلى أن معنى الآية الكريمة فسبحوا الله في صلاتكم التي تصلونها حين تمسون، وهي صلاة المغرب (وأضاف بعضهم العشاء إليها)، وسبحوه كذلك في صلاة الصبح، واحمدوه في هاتين الصلاتين فله ﷻ الحمد في السموات والأرض، يُحمد في السموات والأرض.

أما قوله تعالى: ﴿وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ أي: وسبحوه وصلوا لله ﷻ وعشيًّا قبل صلاة العصر، وحين تظهرون وقت الظهر.

ومن العلماء من ذهب إلى أن التسبيح على ظاهره، وليس المراد الصلاة قال: والمراد قولوا سبحان الله.

وذهب بعض العلماء إلى أن الله ﷻ يسبح نفسه، وهذه بعض أقوال أهل العلم في ذلك.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: فسبحوا الله أيها الناس: أي صلوا له ﷻ حِينَ تُمْسُونَ، وذلك صلاة المغرب، ﷻ وَحِينَ تُصْبِحُونَ، وذلك صلاة الصبح ﷻ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يقول: وله الحمد من جميع خلقه دون غيره ﷻ في

السَّمَوَاتِ ﴿ من سكانها من الملائكة، ﴿وَالْأَرْضِ﴾ من أهلها، من جميع أصناف خلقه فيها، ﴿وَعَشِيًّا﴾ يقول: وسَبَّحُوهُ أيضًا عشيًّا، وذلك صلاة العصر ﴿وَحِينَ تَظْهَرُونَ﴾ يقول: وحين تَدْخُلُونَ في وقت الظهر.

وأورد الطبري بسند صحيح عن عاصم، عن أبي رزين، قال: سأل نافع بن الأزرق ابن عباس: هل نجد ميقات الصلوات الخمس في كتاب الله؟ قال: نعم ﴿فَسُبِّحْنَ اللَّهَ حِينَ تُمَسُّوْنَ﴾ المغرب ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ الفجر ﴿وَعَشِيًّا﴾ العصر ﴿وَحِينَ تَظْهَرُونَ﴾ الظهر، قال: ﴿وَمِنْ بَعْدِ صَلَوةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ﴾.

[النور: ٥٨]

وبسند فيه ليث، وهو ابن أبي سليم متكلم فيه عن ابن عباس في قوله: ﴿فَسُبِّحْنَ اللَّهَ حِينَ تُمَسُّوْنَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ...﴾ إلى قوله: ﴿وَحِينَ تَظْهَرُونَ﴾ قال: جمعت الصلوات ﴿فَسُبِّحْنَ اللَّهَ حِينَ تُمَسُّوْنَ﴾ المغرب والعشاء ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ صلاة الصبح ﴿وَعَشِيًّا﴾ صلاة العصر ﴿وَحِينَ تَظْهَرُونَ﴾ صلاة الظهر. **وبسند حسن عن قتادة** ﴿فَسُبِّحْنَ اللَّهَ حِينَ تُمَسُّوْنَ﴾ لصلاة المغرب ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ لصلاة الصبح ﴿وَعَشِيًّا﴾ لصلاة العصر ﴿وَحِينَ تَظْهَرُونَ﴾ صلاة الظهر أربع صلوات.

وبسند صحيح عن ابن زيد، في قول الله: ﴿فَسُبِّحْنَ اللَّهَ حِينَ تُمَسُّوْنَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تَظْهَرُونَ ﴿ قال: ﴿حِينَ تُمَسُّوْنَ﴾: صلاة المغرب، ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾: صلاة الصبح، وعشيا: صلاة العصر، وحين تظهرون: صلاة الظهر.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

هذا تسبيح منه تعالى لنفسه المقدسة، وإرشاد لعباده إلى تسبيحه

وتحميده، في هذه الأوقات المتعاقبة الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه: عند المساء، وهو إقبال الليل بظلامه، وعند الصباح، وهو إسفار النهار عن ضيائه.

ثم اعترض بحمده مناسبة للتسبيح وهو التحميد، فقال: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: هو المحمود على ما خلق في السموات والأرض.

ثم قال: ﴿وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ فالعشاء هو: شدة الظلام، والإظهار: قوة الضياء. فسبحان خالق هذا وهذا، فالق الإصباح وجاعل الليل سكنا، كما قال: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۖ (٢) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۖ (٣)﴾ [الشمس: ٣، ٤]، وقال: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۖ (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۖ (٢)﴾ [الليل: ١، ٢]، وقال: ﴿وَالضُّحَىٰ ۖ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۖ (٢)﴾ [الضحى: ١، ٢]، والآيات في هذا كثيرة.

وقال القرطبي رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ اعترض بين الكلام بدؤوب الحمد على نعمه وآلائه وقيل: معنى وله الحمد أي الصلاة له لاختصاصها بقراءة الحمد والأول أظهر فإن الحمد لله من نوع تعظيم الله تعالى والحض على عبادته ودوام نعمته فيكون نوعاً آخر خلاف الصلاة والله أعلم وبدأ بصلاة المغرب لأن الليل يتقدم النهار وفي سورة سبحان بدأ بصلاة الظهر إذ هي أول صلاة صلاها جبريل بالنبي ﷺ. الماوردي: وخص صلاة الليل باسم التسبيح وصلاة النهار باسم الحمد لأن للإنسان في النهار متقلباً في أحوال توجب حمد الله تعالى عليها وفي الليل على خلوة توجب تنزيه الله من الأسواء فيها فلذلك صار الحمد بالنهار أخص فسميت به صلاة النهار والتسبيح بالليل أخفى فسميت به صلاة الليل.



س: ما مدى صحة هذا الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد في مسنده بسنده إلى سهل بن معاذ بن أنس الجهني، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «ألا أخبركم لم سمى الله إبراهيم خليله الذي وفي؟ لأنه كان يقول كلما أصبح وأمسى: سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون، وله الحمد في السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون»؟

ج: هذا حديث ضعيف جداً في سنده ابن لهيعة، وزبان بن فائد وسهل بن معاذ، وكلهم ضعفاء.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ (١٩).

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال: أحدها: يخرج المؤمن من صلب الكافر، والكافر من صلب المؤمن، وقيل: يخرج الدجاجة من البيضة والبيضة من الدجاجة، وقيل: يخرج الرجل من المني، ويخرج المني من الرجل وقيل غير ذلك.

أما قوله تعالى: ﴿وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ فكما أنه سبحانه يحيي الأرض بعد موتها بالغيث الذي ينزله عليها، فكذلك يخرجكم يوم القيامة أحياء من قبوركم. والله أعلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: صَلُّوا فِي هَذِهِ الْأَوْقَاتِ الَّتِي أَمَرَكُم بِالصَّلَاةِ فِيهَا أَيُّهَا النَّاسُ، اللَّهُ الَّذِي يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ، وَهُوَ الْإِنْسَانُ الْحَيُّ مِنَ الْمَاءِ الْمَيِّتِ، وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْإِنْسَانِ الْحَيِّ ﴿وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ فَيَنْبَتْهَا،

ويخرج زرعها بعد خرابها وجدوبها ﴿وَكَذَلِكَ نُخْرِجُوكَ﴾ يقول: كما يحيي الأرض بعد موتها، فيخرج نباتها وزرعها، كذلك يحييكم من بعد مماتكم، فيخرجكم أحياء من قبوركم إلى موقف الحساب.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

وقوله: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ هو ما نحن فيه من قدرته على خلق الأشياء المتقابلة. وهذه الآيات المتتابعة الكريمة كلها من هذا النمط، فإنه يذكر فيها خلقه الأشياء وأضدادها، ليدل خلقه على كمال قدرته، فمن ذلك إخراج النبات من الحب، والحب من النبات، والبيض من الدجاج، والدجاج من البيض، والإنسان من النطفة، والنطفة من الإنسان، والمؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن.

وقوله: ﴿وَيُخَيِّ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ كقوله: ﴿وَأَيُّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَحِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجْرْنَا فِيهَا مِنْ الْعُيُونِ ﴿[يس: ٣٣، ٣٤]، وقال: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ (٥) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتِ وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿[الحج: ٥-٧]، وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿وَكَذَلِكَ نُخْرِجُوكَ﴾.



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴾ (٢٠) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٢١) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَفَ الْأَسْنِينَكُمْ وَاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنْبَغَاؤَكُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ (٢٢) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ (٢٣) وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْجِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٢٤) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ (٢٥) وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَانُونٌ ﴾ (٢٦) وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٢٧)

س: وضح معنى ما يلي:

﴿ءَايَاتِهِ﴾ - تَنْشُرُونَ - أَزْوَاجًا - لَتَسْكُنُوا إِلَيْهَا - مَوَدَّةٌ - وَرَحْمَةً - يَنْفَكُونَ -
لِلْعَالَمِينَ - وَأَبْنِغَاؤُكُمْ مِّنْ فَضْلِهِ - قَلْنُونَ - يَبْدُوا الْخَلْقَ - يُعِيدُهُ - أَهْوَتْ عَلَيْهِ -
الْمَثَلُ الْأَعْلَى .

ج:

معناها	الكلمة
أدلته وحججه عليكم لبيان وحدانيته وقدرته	﴿ءَايَاتِهِ﴾
تتصرفون – تنتقلون من مكانٍ إلى مكانٍ	﴿تَنْشُرُونَ﴾
إناثًا أزواجًا	﴿أَزْوَاجًا﴾
لتطمئنون إليها وتأتسون بها وتأوون إليها	﴿لَتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾
المحبة (التي تكون بين الزوجين) والتوادم والتواصل الذي يكون بينهما	﴿مَوَدَّةٌ﴾
الشفقة (شفقة الرجل على امرأته وحرصه على أن لا تصاب بسوء)	﴿وَرَحْمَةً﴾
يتعظون ويعتبرون	﴿يَنْفَكُونَ﴾
جمع عالم، وهو الذي يخشى الله ويتقيه ويعلم أمر الله ونهيه، وقيل للعالمين أي الخلق كلهم برهم وفاجرهم	﴿لِلْعَالَمِينَ﴾
بحثكم عن الرزق والتماسكم له	﴿وَأَبْنِغَاؤُكُمْ مِّنْ فَضْلِهِ﴾
تبقى ولا تسقط ولا تميل الأرض وكل ذلك بإذنه	﴿تَقُومُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾

خاضعون - مطيعون	﴿قَنِينَ﴾
ينشؤه لأول مرة	﴿يَبْدُوا الْخَلْقَ﴾
يعيده حيًّا بعد الموت	﴿يُعِيدُهُ﴾
هينٌ عليه - أمر يسيرٌ عليه وقيل أيسر عليه	﴿أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾
أحسن الأمثال وأفضلها وأجلها وهو كونه لا إله إلا هو، واحدٌ لا شريك له، وليس كمثله شيء وهو السميع البصير، والله أعلم	﴿الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾



بعض الآيات الدالة على قدرة الله سبحانه و وحدانيته

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم - ومن آياته الدالة على وحدانيته وقدرته على كل شيء، وعلى البعث بعد الموت أنه ﷻ خلق أباكم آدم ﷺ من تراب ثم خلق ذريته مما هو معلوم لديهم، من ماء مهين (ماء المنى) ثم تحول نطفة المنى إلى علقة ثم إلى مضغة ثم أخرج طفلاً ضعيفاً ثم شبّ وقوي وترعرع، وانتشر في الأرض يتصرف فيها ويتنقل فيها من مكانٍ إلى مكان.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ومن حُججه على أنه القادر على ما يشاء أيها الناس من إنشاء وإفناء، وإيجاد وإعدام، وأن كل موجود فخلقه خلقة أبيضكم من تراب، يعني بذلك خلق آدم من تراب، فوصفهم بأنه خلقهم من تراب، إذ كان ذلك فعله بأبيهم آدم كنحو الذي قد بينّا فيما مضى من خطاب العرب من خاطبت بما فعلت بسلفه من قولهم: فعلنا بكم وفعلنا.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ يقول: ثم إذا أنتم معشر ذرية من خلقناه من تراب ﴿بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾، يقول: تتصرفون.

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

يقول تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على عظمته وكمال قدرته أنه خلق أباكم آدم من تراب، ﴿ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾، فأصلكم من تراب، ثم من ماء مهين، ثم تصوّر فكان علقة، ثم مضغة، ثم صار عظاماً، مُشَكَّلَةً على شكل الإنسان، ثم كسا الله تلك العظام لحماً، ثم نفخ فيه الروح، فإذا هو سميع

بصير. ثم خرج من بطن أمه صغيراً ضعيف القوى والحركة، ثم كلما طال عمره تكاملت قواه وحركاته حتى آل به الحال إلى أن صار بيني المدائن والحصون، ويسافر في أقطار الأقاليم، ويركب متن البحور، ويدور أقطار الأرض ويتكسب ويجمع الأموال، وله فكرة وغور، ودهاء ومكر، ورأي وعلم، واتساع في أمور الدنيا والآخرة كل بحسبه. فسبحان مَنْ أَقْدَرَهُمْ وَسَيَّرَهُمْ وَسَخَّرَهُمْ وَصَرَفَهُمْ فِي فُنُونِ الْمَعَاشِ وَالْمَكَاسِبِ، وَفَاوَتْ بَيْنَهُمْ فِي الْعُلُومِ وَالْفِكْرَةِ، وَالْحَسَنِ وَالْقُبْحِ، وَالْغِنَى وَالْفَقْرَ، وَالسَّعَادَةَ وَالشَّقَاوَةَ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ أي من علامات ربوبيته ووحدانيته أن خلقكم من تراب أي خلق أباكم منه والفرع كالأصل.

وقال رَحِمَهُ اللهُ:

﴿ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ ثم أنتم عقلاء ناطقون تتصرفون فيما هو قوام معاشكم فلم يكن ليخلقكم عبثاً ومن قدر على هذا فهو أهل للعبادة والتسبيح.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾؟

ج: المعنى - والله أعلم - ومن أدلته وحججه على خلقه، تلك الآيات الدالة على وحدانيته وقدرته أن خلق لكم من جنسكم ومن نوعكم إناثاً وجعلهن لكم أزواجاً كي تأووا إليها وتطمئنوا بها وتقضوا معهن حاجتكم،

وتذهب معهن حرارتكم ويذهب ما بكم من هياج، وجعل بينكم أيها الزوجان مودة، ومحبة تتواددون بها وتتواصلون ورحمة تتراحمون بها فيما بينكم، تلك التي من آثارها خشية الرجل على امرأته أن تصاب بأدنى سوء أو أدنى مكروه، إن في ذلك لدلالات وعبر لقوم يتعظون ويعتبرون ويستدلون بذلك على قدرة الله على كل شيء وعلى وحدانيته.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ومن حججه وأدلته على ذلك أيضا خلقه لأبيكم آدم من نفسه زوجة ليسكن إليها، وذلك أنه خلق حواء من ضلع من أضلاع آدم. **وأورد بإسناد حسن عن قتادة:** ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ خلقها لكم من ضلع من أضلاعه.

وقوله: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ يقول: جعل بينكم بالمصاهرة والختونة مودة تتوادون بها، وتتواصلون من أجلها، ﴿وَرَحْمَةً﴾ رحمكم بها، فعطف بعضكم بذلك على بعض ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: إن في فعله ذلك لعبراً وعظات لقوم يتذكرون في حجج الله وأدلته، فيعلمون أنه الإله الذي لا يُعجزه شيء أراده، ولا يتعذر عليه فعل شيء شاءه.

وقال ابن كثير رحمه الله:

وقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي: خلق لكم من جنسكم إناثا يَكُنَّ لكم أزواجا، ﴿لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩] يعني بذلك: حواء، خلقها الله من آدم من ضلعه الأقصر الأيسر. ولو أنه جعل بني آدم كلهم ذكورا وجعل إناثهم من جنس آخر إما من جان أو حيوان، لما حصل

هذا الائتلاف بينهم وبين الأزواج، بل كانت تحصل نفرة لو كانت الأزواج من غير الجنس. ثم من تمام رحمته ببني آدم أن جعل أزواجهم من جنسهم، وجعل بينهم وبينهن مودة: وهي المحبة، ورحمة: وهي الرأفة، فإن الرجل يمسك المرأة إما لمحبتة لها، أو لرحمة بها، بأن يكون لها منه ولد، أو محتاجة إليه في الإنفاق، أو للألفة بينهما، وغير ذلك، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.



س: اذكر بعض الوارد في الحث على التوادد والتراحم بين الزوجين.

ج: أقول وبالله التوفيق، وقد تقدم شيء كثير من هذا في سورتي البقرة والنساء، ومن ذلك أيضًا ما يلي:

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾. وقوله ﷺ: «أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا وخياركم خياركم لنسائهم»^(١)، وقوله ﷺ: «عليكم بالرفق»^(٢). وقوله ﷺ: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه»^(٣)، وقوله ﷺ: «إن الله يحب الرفق في الأمر كله»^(٤)، وقوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وقوله ﷺ: «فاستوصوا بالنساء خيرًا»^(٥).



(١) أخرجه أحمد (بسند صحيح لشواهده) (٤٧٢/٢).

(٢) مسلم (٢٥٩٤).

(٣) مسلم (٢٥٩٤).

(٤) البخاري (٦٠٢٤).

(٥) البخاري (٢٥٢/٩)، ومسلم (١٠٩١).

بعض الوارد في الحث على التوادد والتراحم بين المؤمنين

س: اذكر بعض الوارد في الحث على التوادد والتراحم بين المؤمنين.

ج: من ذلك ما يلي:

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الحشر: ١٠].

وقال عليه الصلاة والسلام: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»^(١).

* وقال ﷺ: «وكونوا عباد الله إخواناً»^(٢).

* وقال ﷺ: «المسلم أخو المسلم»^(٣).

* وقال عليه الصلاة والسلام: «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث»^(٤).

* وقال عليه الصلاة والسلام: «تبسمك في وجه أخيك لك صدقة»^(٥).

* وقال ﷺ: «والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه»^(٦).

(١) البخاري (حديث ١٣)، مسلم (حديث ٤٥) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً.

(٢) أخرجه البخاري (حديث ٦٠٦٤)، ومسلم (حديث ٢٥٦٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تحسسوا، ولا تجسسوا ولا تنافسوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً».

(٣) أخرجه البخاري (حديث ٢٤٤٢)، ومسلم (حديث ٢٥٨٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسلمه ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة».

(٤) أخرجه البخاري (٦٠٦٥)، ومسلم (حديث ٢٥٥٩) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً.

(٥) أخرجه الترمذي (١٩٥٦) بإسناد فيه ضعف، ولكن له شاهد عند مسلم (مع النووي ٤٨٣/٥) بلفظ: «لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق».

(٦) أخرجه مسلم (حديث ٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من نفس

* وقال ﷺ في شأن الغيبة: «ذكرك أخاك بما يكره»^(١).

* وقال عليه الصلاة والسلام في شأن الضرائر: «لا يحل لامرأة تسأل طلاق أختها لتستفرغ صحتها»^(٢).



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَيْدِيهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَفُ السِّنِينَ كُمْ وَالْوَنُكُزْ إِن فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٣).

ج: المعنى - والله تعالى أعلم -: ومن دلائله وحججه على خلقه وأنه واحد لا شريك له، وأنه قادر على بعث الناس بعد إمامتهم خلقه ﷺ للسموات والأرض، تلك التي هي أكبر من خلق الناس، فخلقها لها دالٌّ على قدرته على خلق ما هو أقل منها، وقد قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، وكذا خلقه لهم دالٌّ على قدرته على بعثهم بعد موتهم.

وكذا من دلائل قدرته ووحدانيته خلقه ﷺ للخلق مختلفين في لغاتهم ولهجاتهم، فهذا يتحدث بلسان عربي مبين، وهذا دون ذلك وهذا عجمي، وهذا هندي، وهذا فرنسي، وهذا إنجليزي، وهذا باكستاني، وهذا زنجي، وهذا أمريكياني، و... لغات لا يعلمها إلا الله.

بل أهل اللغة الواحدة يختلفون في فصاحتهم ومنطقهم فهذا بليغ، وهذا لا

ع=ن

= مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب الآخرة، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه».

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما الغيبة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «ذكرك أخاك بما يكره» قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته».

(٢) البخاري (٥١٥٢)، ومسلم (مع النووي ٣/ ٥٦٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً.

يكاد يبين.

وكذا ما اكتشف مؤخرًا من أنه لكل شخص بصمة صوتٍ تختلف عن بصمة صوت الآخر فسبحان من خلق الخلق وأودع فيهم ما أودع. ففي خلقه الذي خلق دلالات (للعالمين)، قرأت (للعالمين) بفتح اللام، والمراد الإنس والجن برهم وفاجرهم، وقرأت (للعالمين) والمراد العلماء الذين يعقلون عن الله ﷻ قوله.

فهم المستفيدون من هذا التذكير، المتفهمون للمراد بإذن الله وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ومن حججه وأدلته أيضًا على أنه لا يُعجزه شيء، وأنه إذا شاء أمات من كان حيًا من خلقه، ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ﴾ [عبس: ٢٢] وأعاده كما كان قبل إماتته إياه خلقه السموات والأرض من غير شيء أحدث ذلك منه، بل بقدرته التي لا يمتنع معها عليه شيء أرادته ﴿وَأَخْلَفَ اللَّيْلَ نَجْمَكُمْ﴾ يقول: واختلاف منطق ألسنتكم ولغاتها ﴿وَالْوَنُكْرَ﴾ يقول: واختلاف ألوان أجسامكم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ يقول: إن في فعله ذلك كذلك لعبراً وأدلة لخلقته الذين يعقلون أنه لا يعييه إعادتهم لهيئتهم التي كانوا بها قبل مماتهم من بعد فنائهم، وقد بينا معنى (العالمين) فيما مضى قبل.

وقال ابن كثير رحمه الله:

يقول تعالى: ومن آيات قدرته العظيمة ﴿خَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: خلق السموات في ارتفاعها واتساعها، وشفوف أجرامها وزهارة كواكبها ونجومها الثوابت والسيارات، والأرض في انخفاضها وكثافتها وما فيها من جبال

وأودية، وبحار وقفار، وحيوان وأشجار.

وقوله: ﴿وَأَخْلَفُ السِّنِّكُمْ﴾ يعني: اللغات، فهؤلاء بلغه العرب، وهؤلاء تتر لهم لغة أخرى، وهؤلاء كرج، وهؤلاء روم، وهؤلاء إفرنج، وهؤلاء بربر، وهؤلاء تكرر، وهؤلاء حبشة، وهؤلاء هنود، وهؤلاء عجم، وهؤلاء صقالبة، وهؤلاء خزر، وهؤلاء أرمن، وهؤلاء أكراد، إلى غير ذلك مما لا يعلمه إلا الله من اختلاف لغات بني آدم، واختلاف ألوانهم وهي حُلَاهُم، فجميع أهل الأرض - بل أهل الدنيا - منذ خلق الله آدم إلى قيام الساعة: كل له عينان وحاجبان، وأنف وجبين، وفم وخدان. وليس يشبه واحد منهم الآخر، بل لا بد أن يفارقه بشيء من السمات أو الهيئة أو الكلام، ظاهراً كان أو خفياً، يظهر عند التأمل، كل وجه منهم أسلوب بذاته وهيئة لا تشبه الأخرى. ولو توافق جماعة في صفة من جمال أو قبح، لا بد من فارق بين كل واحد منهم وبين الآخر، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تقدم في البقرة وكانوا يعترفون بأن الله تعالى هو الخالق ﴿وَأَخْلَفُ السِّنِّكُمْ وَالْوَنُكُمُ﴾ اللسان الفم وفيه اختلاف اللغات: من العربية إلى العجمية والتركية والرومية واختلف الألوان في الصور: من البياض والسواد والحمرة فلا تكاد ترى أحداً إلا وأنت تفرق بينه وبين الآخر وليس هذه الأشياء من فعل النطفة ولا من فعل الأبوين فلا بد من فاعل فعلم أن الفاعل هو الله تعالى فهذا من أدل دليل على المدبر البارئ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ أي للبر والفاجر وقرأ حفص: ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾ بكسر اللام جمع عالم.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ (٣٢).

ج: المعنى - والله أعلم - ومن حججه على خلقه وأدلته على وحدانيته تقدير الليل والنهار على النحو الذي يتناسب معكم، فقد جعل الليل لكم سكناً ولباساً تهدءون فيه وتستريحون كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ [النبا: ٩].

وجعل النهار للمعاش كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبا: ١١].

وهنا في الآية الكريمة نوع تقديم وتأخير، والمعنى، ومن آياته منامكم بالليل، وابتغاءكم من فضله بالنهار، وهذا غالب أحوال الناس، وقد قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَمْ لَا تَسْمَعُونَ﴾ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَمْ لَا تُبْصِرُونَ. أما قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ فمعناه - والله أعلم - إن في ذلك الاختلاف بين الليل والنهار من الصفات لدلالات على وحدانية الله لقوم يسمعون سماع الانتفاع، يسمعون المواعظ فينتفعون بها، لا كالذين قال الله في شأنهم ﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١].

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ومن حججه عليكم أيها القوم، تقديره الساعات والأوقات، ومخالفته بين الليل والنهار، فجعل الليل لكم سكناً تسكنون فيه، وتنامون فيه، وجعل النهار مضيئاً لتصرفكم في معاشكم والتماسكم فيه من

رزق ربكم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: إن في فعل الله ذلك كذلك، لعبرا وذكرى وأدلة على أن فاعل ذلك لا يُعجزه شيء أرادته ﴿لَقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ مواعظ الله، فيتعظون بها، ويعتبرون فيفهمون حجج الله عليهم.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ قيل: في هذه الآية تقديم وتأخير والمعنى: ومن آياته منامكم بالليل وابتغاؤكم من فضله بالنهار فحذف حرف الجر لاتصاله بالليل وعطفه عليه والواو تقوم مقام حرف الجر إذا اتصلت بالمعطوف عليه في الاسم الظاهر خاصة فجعل النوم بالليل دليلاً على الموت والتصرف بالنهار دليلاً على البعث ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ يريد سماع تفهم وتدبر وقيل: يسمعون الحق فيتبعونه وقيل: يسمعون الوعظ فيخافونه وقيل: يسمعون القرآن فيصدقونه والمعنى متقارب وقيل: كان منهم من إذا تلى القرآن وهو حاضر سدَّ أذنيه حتى لا يسمع.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَبْغَاؤُكُمْ مِّنْ فَضْلِهِ﴾ أي: ومن الآيات ما جعل لكم من صفة النوم في الليل والنهار، فيه تحصل الراحة وسكون الحركة، وذهاب الكلال والتعب، وجعل لكم الانتشار والسعي في الأسباب والأسفار في النهار، وهذا ضد النوم، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي: يعون.



س: **وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٢٤).**

ج: المعنى - والله تعالى أعلم -: ومن آياته الدالة على قدرته ووحدانيته أنه سبحانه وتعالى يريكم البرق، وهو الذي يصاحب الأمطار وقبلها أيضًا، يريكم إياه فتخافون من ضرره، في سفركم تخافون منه خشية أن تتأذوا في سفركم، وكذا تطمعون عند رؤيته وأنتم في بلادكم، تطمعون في فضل الله أن ينزل عليكم الغيث فتحيا به البلاد والعباد.

وكذا تخافون منه في حضركم أيضًا أن تلتف زروعكم بسبب شدة البرد، أو أن يصبكم الصواعق، وكذا من آياته إنزال الماء من السماء فيحيي الله به الأرض بعد موتها وتصبح مخضرة إذ ينبت فيها بإذن الله من كل زوج بهيج إن في ذلك لدلالات يستدل بها على وحدانيتنا وقدرتنا على كل شيء وقدرتنا على البعث بعد الموت قومٌ يعقلون عن الله أمره.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ومن حججه ﴿يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا﴾ لكم إذا كنتم سفراً، أن تمطروا فتتأذوا به ﴿وَطَمَعًا﴾ لكم، إذا كنتم في إقامة، أن تمطروا، فتحيوا وتخصبوا ﴿وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ يقول: وينزل من السماء مطراً، فيحيي بذلك الماء الأرض الميتة؛ فتنبت ويخرج زرعها بعد موتها، يعني جدوبها ودروسها ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ يقول: إن في فعله ذلك كذلك لعبراً وأدلة ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ عن الله حججه وأدله.

وأورد بإسناد حسن عن قتادة: في قوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ قال: خوفاً للمسافر، وطمعاً للمقيم.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

يقول تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على عظمته أنه ﴿يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي: تارة تخافون مما يحدث بعده من أمطار مزعجة، أو صواعق متلفة، وتارة ترجون وَمِيْضُهُ وما يأتي بعده من المطر المحتاج إليه؛ ولهذا قال: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْئِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: بعدما كانت هامدة لا نبات فيها ولا شيء، فلما جاءها الماء ﴿أَهْزَزَتْ وَبَتَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥]. وفي ذلك عبرة ودلالة واضحة على المعاد وقيام الساعة؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ قيل: المعنى أن يريكم فحذف أن لدلالة الكلام عليه؛ قال طرفة:

ألا أيهذا اللائمي أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي

وقيل: هو على التقديم والتأخير أي: ويريكُم البرق من آياته وقيل: أي ومن آياته آية يريكم بها البرق كما قال الشاعر:

وما الدهر إلا تارتان فمنهما أموت وأخرى أبتغي العيش أكدح

وقيل: أي من آياته أنه يريكم البرق خوفاً وطمعا من آياته قاله الزجاج فيكون عطف جملة على جملة خوفاً أي للمسافر وطمعا للمقيم قاله قتادة الضحاك: خوفاً من الصواعق، وطمعا في الغيث. يحيى بن سلام: خوفاً من البرد أن يهلك الزرع وطمعا في المطر أن يحيي الزرع. ابن بحر: خوفاً أن يكون البرق برقاً خلباً لا يمطر وطمعا أن يكون ممطراً وأنشد قول الشاعر:

لا يكن برقك برقاً خلباً إن خير البرق ما الغيث معه

وقال آخر :

فقد أورد المياه بغير زاد سوى عدى لها برق الغمام

والبرق الخلب: الذي لا غيث فيه كأنه خادع ومنه قيل لمن يعد ولا ينجز: إنما أنت كبرق خلب. والخلب أيضًا: السحاب الذي لا مطر فيه ويقال: برق خلب بالإضافة ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ (٢٥).

ج: المعنى - والله أعلم - **ومن أدلته على وحدانيته وحججه على خلقه** وبيان أنه على كل شيء قدير قيام السموات والأرض بأمره وبإذنه، فالسماء لا تسقط على الأرض، وقد قال تعالى: ﴿رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢]، وقال: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج: ٦٥]، وكذا فالأرض لا تميد بأهلها كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [لقمان: ١٠]. ولكل من السموات والأرض أجل تنتهي عنده كما قال تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الأحقاف: ٣].

أما قوله: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ﴾ أي: يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نَّكُرٍ﴾ [القمر: ٦]، والداعي تكون دعوته بإذن الله وأمره.

وكما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْجُدُونَ لِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٥٢].

أما قوله: ﴿إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ أي: من قبوركم مجبيين الداعي، وذلك

للشواب والعقاب.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم بالتأويل.

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

يقول تعالى ذكره: ومن حججه أيها القوم على قدرته على ما يشاء، قيام السماء والأرض بأمره خضوعاً له بالطاعة بغير عمد ترى ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ يقول: إذا أنتم تخرجون من الأرض، إذا دعاكم دعوة مستجيبين لدعوته إياكم.

وأورد بإسناد حسن عن قتادة: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ قائمتا بأمره بغير عمد ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ قال: دعاهم فخرجوا من الأرض.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

ثم قال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ كقوله: ﴿وَيُمَسِّكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج: ٦٥]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ [فاطر: ٤١]. وكان عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إذا اجتهد في اليمين يقول: لا والذي تقوم السماء والأرض بأمره، أي: هي قائمة ثابتة بأمره لها وتسخيرها إياها، ثم إذا كان يوم القيامة بدلت الأرض غير الأرض والسموات، وخرجت الأموات من قبورها أحياء بأمره تعالى ودعائه إياهم؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْجُدُونَ لِحَمْدِهِ وَتَقْتُلُونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٢].

وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣، ١٤]،

وقال: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣].

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ أن في محل رفع كما تقدم أي قيامها واستمسакها بقدرته بلا عمد وقيل: بتدبيره وحكمته أي يمسكها بغير عمد لمنافع الخلق وقيل: بأمره بإذنه والمعنى واحد ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ أي الذي فعل هذه الأشياء قادر على أن يبعثكم من قبوركم والمراد سرعة وجود ذلك من غير توقف ولا تلبث كما يجيب الداعي المطاع مدعوه كما قال القائل:

دعوت كليبا باسمه فكأنما دعوت برأس الطود أو هو أسرع

يريد برأس الطود: الصدى أو الحجر إذا تدهده وإنما عطف هذا على قيام السماوات والأرض بـ«ثم» لعظم ما يكون من ذلك الأمر واقتداره على مثله وهو أن يقول: يا أهل القبور قوموا فلا تبقى نسمة من الأولين والآخرين إلا قامت تنظر كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ نَفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨] وإذا الأولى في قوله تعالى: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ للشرط والثانية في قوله تعالى: ﴿إِذَا أَنْتُمْ﴾ للمفاجأة وهي تنوب مناب الفاء في جواب الشرط.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قٰنِیْنٌ﴾.

ج: المعنى -والله تعالى أعلم-: والله كل من في السموات والأرض، كلهم له خاضع ذليل تجري على أقدار الله لا يستطيع أن يمتنع منها، فتصيبه الأمراض ولا يمتنع، وتصيبه الخسائر ولا يمتنع ويصيبه الموت والأحداث ولا يمتنع، بل هو لله في ذلك كله خاضع وذليل.

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

يقول تعالى ذكره: وله من في السموات والأرض من ملك وجن وإنس عبيد وملك ﴿كُلُّ لَهُ قَنْيُونٌ﴾ ﴿٣٦﴾ يقول: كل له مطيعون.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

يقول تعالى: ﴿وَلَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: ملكه وعبيده، ﴿كُلُّ لَهُ قَنْيُونٌ﴾ ﴿٣٦﴾ أي: خاضعون خاشعون طوعاً وكرهاً.



س: ذهب بعض أهل العلم إلى أن القنوت هنا بمعنى الطاعة فقالوا معنى قوله تعالى: ﴿كُلُّ لَهُ قَنْيُونٌ﴾ ﴿٣٦﴾ أي: مطيعون، وأوردوا على أنفسهم سؤالاً حاصله كيف قيل ﴿كُلُّ لَهُ قَنْيُونٌ﴾ ﴿٣٦﴾ أي: مطيعون، ومن الخلق من يعصي، فما جواب ذلك؟

ج: إذا حملنا القنوت هنا على الطاعة فلا إشكال أيضاً فمطيعون فيما يجري عليهم من أقدار الله لا يستطيعون الامتناع عنها.

وبنحو ذلك قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

فيقول قائل: وكيف قيل ﴿كُلُّ لَهُ قَنْيُونٌ﴾ ﴿٣٦﴾ وقد علم أن أكثر الإنس والجن له عاصون؟ فنقول: اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، فنذكر اختلافهم، ثم نبين الصواب عندنا في ذلك من القول، فقال بعضهم: ذلك كلام مخرجه مخرج العموم، والمراد به الخصوص، ومعناه: ﴿كُلُّ لَهُ قَنْيُونٌ﴾ في الحياة والبقاء والموت، والفناء والبعث والنشور، لا يمتنع عليه شيء من ذلك، وإن عصاه بعضهم في غير ذلك.

وأورد الطبري بسندٍ ضعيف عن ابن عباس نحواً من ذلك.

وقال الطبري: وقال آخرون: بل معنى ذلك: ﴿كُلُّ لَّهُ قَنِينٌ﴾ ﴿٦٦﴾ بإقرارهم بأنه ربهم وخالقهم.

وأورد بإسناد حسن عن قتادة قال: ﴿كُلُّ لَّهُ قَنِينٌ﴾ ﴿٦٦﴾ أي: مطيع مقرر بأن الله ربه وخالقه.

قال الطبري: وقال آخرون: هو على الخصوص، والمعنى: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من ملك وعبد مؤمن لله مطيع دون غيرهم.

واختار الطبري القول الأول الذي هو: أن كل من في السماوات والأرض من خلق لله مطيع في تصرفه فيما أراد تعالى ذكره، من حياة وموت، وما أشبه ذلك، وإن عصاه فيما يكسبه بقوله، وفيما له السبيل إلى اختياره وإيثاره على خلافه.

وإنما قلت: ذلك أولى بالصواب في تأويل ذلك؛ لأن العصاة من خلقه فيما لهم السبيل إلى اكتسابه كثير عددهم، وقد أخبر تعالى ذكره عن جميعهم أنهم له قانتون، فغير جائز أن يخبر عمن هو عاص أنه له قانت فيما هو له عاص. وإذا كان ذلك كذلك، فالذي فيه عاص هو ما وصفت، والذي هو له قانت ما بينت.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿١٧﴾.

ج: المعنى -والله أعلم-: وهو الذي يُنشئ الخلق لأول مرة، وذلك من المني الذي يتدفق إلى رحم المرأة، فتلك النطفة تتعلق بالرحم وتصبح علقة ثم مضغة إلى أن يخرج الطفل من بطن أمه ثم يحييه ما شاء الله أن يحييه ثم

يُميته عند استيفاء الأجل، ثم يُعيده حيًّا يوم القيامة بعد إماتته التي كانت في الدنيا، وهذا البعث، وتلك الإعادة (أهون عليه) أيسر عليه من ابتداء الخلق، وإن كان الكلُّ على الله يسيرٌ وسهلاً، وقيل لأهون بمعنى هين، أي سهل ويسير.

*** أما قوله تعالى:** ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فقد قال عددٌ من العلماء: إن المراد بذلك المثل الأعلى وحدانيته ﷻ أي: أنه لا إله إلا هو، ولا شريك له ولا ند ولا مثيل، وليس كمثله شيء.

أما قوله: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يُمنع من شيء يريد.

وكذا فهو الغالب، وما دونه مغلوب ومقهور بإذن الله الحكيم في تدبير شؤون الخلق، وفي كل أمر يأمر به، وفي كل نهي ينهى عنه. وبنحو ذلك قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ يقول تعالى ذكره: والذي له هذه الصفات تبارك وتعالى، هو الذي يبدأ الخلق من غير أصل فينشئه ويوجده، بعد أن لم يكن شيئاً، ثم يفنيه بعد ذلك، ثم يعيده، كما بدأه بعد فناءه، وهو أهون عليه.

اختلف أهل التأويل في معنى قوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ فقال بعضهم: معناه: وهو هين عليه.

وقال آخرون: معناه: وإعادة الخلق بعد فنائهم أهون عليه من ابتداء خلقهم.

وأورد أقوالاً آخر، وقال:

وقوله: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ يقول: والله المثل الأعلى في السماوات والأرض، وهو أنه لا إله إلا هو وحده لا شريك له، ليس كمثله شيء، فذلك المثل الأعلى، تعالى ربنا وتقدس.

وأورد بإسناد حسن عن قتادة قوله: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مثله أنه لا إله إلا هو، ولا ربّ غيره.

وقوله: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ يقول تعالى ذكره: وهو العزيز في انتقامه من أعدائه، الحكيم في تدبيره خلقه، وتصريفهم فيما أراد من إحياء وإماتة، وبعث ونشر، وما شاء.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني: أيسر عليه.

وقال مجاهد: الإعادة أهون عليه من البدأة، والبداءة عليه هيئ. وكذا قال عكرمة وغيره.

وأورد ما أخرجه البخاري^(١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال:

«قال الله: كَذَبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي، وَلَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ. وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا، وَأَنَا الْأَحَدُ الصَّمَدُ، الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ».

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن

(١) انظر البخاري (٤٩٧٤، ٤٩٧٥).

ابن عباس كقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

وقال قتادة: مثله أنه لا إله إلا هو، ولا رب غيره

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغالب ولا يمانع، بل قد غلب كل شيء، وقهر كل شيء بقدرته وسلطانه، ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أفعاله وأقواله، شرعاً وقدرًا.

وعن مالك في تفسيره المروي عنه، عن محمد بن المنكدر، في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾، قال: لا إله إلا الله.

وقال القرطبي رحمه الله: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ أي ما أَرادَه جل وعز كان وقال الخليل: المثل الصفة أي وله الوصف الأعلى: (فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) كما قال: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ﴾ [الرعد: ٣٥] أي صفتها وقد مضى الكلام في ذلك وعن مجاهد: المثل الأعلى قول لا إله إلا الله ومعناه: أي الذي له الوصف الأعلى أي الأرفع الذي هو الوصف بالوحدانية وكذا قال قتادة: إن المثل الأعلى شهادة أن لا إله إلا الله ويعضده قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [الروم: ٢٨] على ما نبينه آنفاً إن شاء الله تعالى وقال الزجاج: وله المثل الأعلى في السماوات والأرض أي قوله: وهو أهون عليه قد ضربه لكم مثلاً فما يصعب ويسهل يريد التفسير الأول وقال ابن عباس: أي ليس كمثله شيء.



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الروم: ٢٨-٣٢].

س: اذكر معنى ما يلي:

﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ - فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ - نَفَصِلُ الْآيَاتِ - فَأَقِمَّ وَجْهَكَ - حَنِيفًا -
فَظَرَّتْ اللَّهُ - لَا بُدَّيْلَ - لِيَخْلُقِ اللَّهُ - مُنِيبِينَ إِلَيْهِ - فَرَّقُوا دِينَهُمْ - شَيْعًا ؟

ج:

معناها	الكلمة
العبيد والإماء الذين تملكونهم	﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾
فأنتم وعبيدكم في الأمور والأموال مستوون	﴿فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾
نوضحها ونبينها	﴿نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾
أحسن القصد وأخلص النية واجتهد في العمل الصالح، واتبع هذا الدين الحنيف	﴿فَأَقِمَّ وَجْهَكَ﴾
مائلًا عن الشرك إلى التوحيد موحدًا	﴿حَنِيفًا﴾
خلق الله وصنعة الله، وقيل المراد الإسلام	﴿فَظَرَّتْ اللَّهُ﴾
لا تغيير	﴿لَا بُدَّيْلَ﴾
لدين الله	﴿لِيَخْلُقِ اللَّهُ﴾
رجّاعين مطيعين	﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾
تفرقوا في دينهم واختلفوا واختلفوا	﴿فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾
فرقًا وأحزابًا	﴿شَيْعًا﴾



مثل مضروب لنفي الشريك عن الله ﷻ

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾؟

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - : ضرب الله ﷻ وساق لكم مثلاً من أنفسكم تدركونه بعقولكم وتبصرونه في دنياكم، مثلاً على كونه إلهًا واحدًا لا شريك له، تستدلون بهذا المثل على وحدانيته ﷻ، حاصل هذا المثل أن أحدكم إذا كان له عبدٌ يملكه أو أمة يملكها فهذا المراد بقوله ملكت أيمانكم فهل يرضى أن يشاركه عبده في ماله أو تشاركه أمته في ماله، وهل يرضى أحدكم أن يشاركه عبده في سائر حقوقه، وهل يرضى أحدكم أن يشاركه عبده في ميراثه من والديه أو من غيرهما، هل يرضى أحدكم أن يشاركه عبده في أموره وشؤونه ثم هو يخشى عبده ويرهبه ويخشى أن يكون للعبد رأيٌ وقولٌ وميراث في شؤونه فقطعاً لا يرضى أحدكم أن يشاركه عبده في ماله ولا في قراره ولا في شؤونه الخاصة ولا في ميراثه ولا في غير ذلك، فكيف لا ترضون بأن يشارككم عبيدكم الذين هم بشرٌ أمثالكم، وتستنكفون من ذلك أشد الاستنكاف وترفضونه أشد الرفض، ثم أنتم تجعلون لله الذي ليس كمثله شيء، الذي لا إله غيره ولا معبود سواه تجعلون له شريكاً تعبدونه كما تعبدون الله، وتتقربون إليه كما تتقربون لله، فهذا حقاً شيء عجيب دال على قلة العقول والأفهام، فهكذا يفصل الله الآيات ويبين الحجج ويضرب الأمثال لقوم يعقلون، فالمستفيدون من تلك الأمثال أصحاب العقول النيرة الرشيدة المؤمنة الموحدة.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: مثل لكم أيها القوم ربكم مثلاً من أنفسكم، ﴿هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ يقول: من ممالئكم من شركاء، فيما رزقناكم من مال، فأنتم فيه سواء وهم. يقول: فإذا لم ترضوا بذلك لأنفسكم فكيف رضيتم أن تكون آلهتكم التي تعبدونها لي شركاء في عبادتكم إياي، وأنتم وهم عبيدي وممالئكي، وأنا مالك جميعكم.

وأورد بإسناد حسن عن قتادة قوله: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ قال: مثل ضربه الله لمن عدل به شيئاً من خلقه، يقول: أكان أحدكم مشاركاً مملوكه في فراشه وزوجته؟! فكذاكم الله لا يرضى أن يعدل به أحد من خلقه.

وبإسناد صحيح عن ابن زيد في قوله: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ قال: هل تجد أحداً يجعل عبده هكذا في ماله، فكيف تعمد أنت وأنت تشهد أنهم عبيدي وخلقني، وتجعل لهم نصيباً في عبادتي، كيف يكون هذا؟ قال: وهذا مثل ضربه الله لهم، وقرأ: ﴿كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

قال الطبري: واختلف أهل التأويل في تأويل قوله: (تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ) فقال بعضهم: معنى ذلك: تخافون هؤلاء الشركاء، مما ملكت أيمانكم، أن يرثوكم أموالكم من بعد وفاتكم، كما يرث بعضكم بعضاً. وقال آخرون: بل معنى ذلك: تخافون هؤلاء الشركاء مما ملكت أيمانكم أن يقاسموكم أموالكم، كما يقاسم بعضكم بعضاً.

وأورد بسند صحيح عن أبي مجلز قال: إن مملوكك لا تخاف أن يقاسمك

مالك، وليس له ذلك، كذلك الله لا شريك له.

قال الطبري: وأولى القولين بالصواب في تأويل ذلك، القول الثاني؛ لأنه أشبههما بما دلّ عليه ظاهر الكلام، وذلك أن الله جلّ ثناؤه وبخ هؤلاء المشركين، الذين يجعلون له من خلقه آلهة يعبدونها، وأشركوهم في عبادتهم إياه، وهم مع ذلك يقرّون بأنها خلقه وهم عبيده، وعيرهم بفعلهم ذلك، فقال لهم: هل لكم من عبيدكم شركاء فيما خوّلناكم من نعمنا، فهم سواء، وأنتم في ذلك تخافون أن يقاسموكم ذلك المال الذي هو بينكم وبينهم، كخيفة بعضكم بعضاً أن يقاسمه ما بينه وبينه من المال شركة، فالخيفة التي ذكرها تعالى ذكره بأن تكون خيفة مما يخاف الشريك من مقاسمة شريكه المال الذي بينهما إياه، أشبه من أن تكون خيفة منه بأن يرثه؛ لأن ذكر الشركة لا يدلّ على خيفة الوراثة، وقد يدلّ على خيفة الفراق والمقاسمة.

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

وقوله: ﴿كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: كما بيّنا لكم أيها القوم حججنا في هذه الآيات من هذه السورة على قدرتنا على ما نشاء من إنشاء ما نشاء، وإفناء ما نحبّ، وإعادة ما نريد إعادته بعد فنائه، ودللنا على أنه لا تصلح العبادة إلا للواحد القهار، الذي بيده ملكوت كلّ شيء كذلك نبين حججنا في كلّ حقّ لقوم يعقلون، فيتدبرونها إذا سمعوها، ويعتبرون فيتعظون بها.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

قال بعض العلماء: هذه الآية أصل في الشركة بين الخلقين لافتقار بعضهم إلى بعض ونفيها عن الله سبحانه وذلك انه لما قال جل وعز: ﴿ضَرَبَ

لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴿١﴾ الآية فيجب أن يقولوا : ليس عبيدنا شركاءنا فيما رزقنا ! فيقال لهم : فكيف يتصور أن تنزهوا نفوسكم عن مشاركة عبيدكم وتجعلوا عبيدي شركائي في خلقي فهذا حكم فاسد وقلة نظر وعمى قلب ! فإذا بطلت الشركة بين العبيد وساداتهم فيما يملكه السادة والخلق كلهم عبيد لله تعالى فيبطل أن يكون شيء من العالم شريكاً لله تعالى في شيء من أفعاله فلم يبق إلا أنه واحد يستحيل أن يكون له شريك إذ الشركة تقتضي المعاونة ونحن مفتقرون إلى معاونة بعضنا بعضاً بالمال والعمل والقديم الأزلي منزّه عن ذلك جل وعز .

وهذه المسألة أفضل للطالب من حفظ ديوان كامل في الفقه؛ لأن جميع العبادات البدنية لا تصح إلا بتصحیح هذه المسألة في القلب فافهم ذلك.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين به، العابدين معه غيره، الجاعلين له شركاء وهم مع ذلك معترفون أن شركاءه من الأصنام والأنداد عبيد له، ملك له، كما كانوا في تلبيتهم يقولون: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك. فقال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: تشهدونه وتفهّمونه من أنفسكم؛ ﴿هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَّا رَزَقْنَكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ أي: لا يرتضي أحد منكم أن يكون عبده شريكاً له في ماله، فهو وهو فيه على السواء ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: تخافون أن يقاسموكم الأموال.

وقال رَحِمَهُ اللهُ:

والمعنى: أن أحداكم يأنف من ذلك، فكيف تجعلون لله الأنداد من خلقه.

وهذا كقوله تعالى: (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ) [النحل: ٦٢] أي: من البنات، حيث جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً، وجعلوها بنات الله، وقد كان أحدهم إذا بُشر بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به، أي مسكه على هون أم يدسه في التراب، فهم يأنفون من البنات. وجعلوا الملائكة بنات الله، فنسبوا إليه ما لا يرتضونه لأنفسهم، فهذا أغلظ الكفر. وهكذا في هذا المقام جعلوا له شركاء من عبيده وخلقه، وأحدهم يأبى غاية الإباء ويأنف غاية الأنفة من ذلك، أن يكون عبده شريكه في ماله، يساويه فيه. ولو شاء لقاسمه عليه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وقال ابن القيم رحمه الله (التفسير القيم):

قول الله تعالى ذكره:

﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتَكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٢٨).

هذا دليل قياس. احتج الله سبحانه به على المشركين، حيث جعلوا له من عبيده وملكه شركاء فأقام عليهم حجة يعرفون صحتها من نفوسهم، لا يحتاجون فيها إلى غيرهم.

ومن أبلغ الحجاج أن يأخذ الإنسان من نفسه، ويحتج عليه بما هو في نفسه مقرر عندها، معلوم لها. فقال: ﴿ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ من عبيدكم وإمائكم شركاء في المال والأهل؟ أي: هل يشارككم عبيدكم في أموالكم وأهلكم فأنتم وهم في ذلك سواء؟ تخافون أن يقاسموكم أموالكم، ويشاطروكم إياها، ويستأثرون ببعضها عليكم، كما يخاف الشريك شريكه.

وقال ابن عباس: تخافونهم أن يرثوكم كما يرث بعضكم بعضاً.
والمعنى: هل يرضى أحد منكم أن يكون عبده شريكه في ماله وأهله، حتى يساويه في التصرف في ذلك؟ فهو يخاف أن ينفرد في ماله بأمر يتصرف فيه، كما يخاف غيره من الشركاء والأحرار؟ فإذا لم ترضوا ذلك لأنفسكم، فلم عدلتم بي من خلقي من هو مملوك لي؟ فإن كان هذا الحكم باطلاً في فطركم وعقولكم، مع أنه جائز عليكم، ممكن في حقكم، إذ ليس عبيدكم ملكاً لكم حقيقة، وإنما هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم، وأنتم وهم عباد لي، فكيف تستجيزون مثل هذا الحكم في حقي مع أن من جعلتموهم لي شركاء عبيدي وملكي وخالقي، فهكذا يكون تفصيل الآيات لأولي العقول.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ (٢١).

ج: المعنى - والله أعلم -: أن أهل الشرك لما ضرب الله لهم المثل ما وجدوا حجة يجيبون بها، فحيثُ ما كان لهم من حجة يحتجون بها إلا اتباع الهوى بجهل وغباء وقلة علم وفهم، فماذا تصنع لهؤلاء يا رسول الله؟ ماذا تصنع لهؤلاء الذين أضلهم الله سبحانه وتعالى وأغواهم، وليس لهم يوم القيامة من نصير ينصرهم ولا من مغيث يغيثهم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ما ذلك كذلك، ولا أشرك هؤلاء المشركون في عبادة الله الآلهة والأوثان؛ لأن لهم شركاء فيما رزقهم الله من ملك أيماهم، فهم وعبيدهم فيه سواء يخافون أن يقاسموهم ما هم شركاؤهم فيه، فرضوا الله من

أجل ذلك بما رضوا به لأنفسهم، فأشركوهم في عبادته، ولكن الذين ظلموا أنفسهم فكفروا بالله، اتبعوا أهواءهم جهلاً منهم لحق الله عليهم، فأشركوا الآلهة والأوثان في عبادته، ﴿فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ يقول: فمن يسدّ للصواب من الطرق، يعني بذلك من يوفق للإسلام مَنْ أَضَلَّ الله عن الاستقامة والرشاد ﴿وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّصِيرِينَ﴾ يقول: وما لمن أضل الله من ناصرين ينصرونه، فينقذونه من الضلال الذي يتلوه به تعالى ذكره.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

قوله تعالى: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ لما قامت عليهم الحجة ذكر أنهم يعبدون الأصنام باتباع أهوائهم في عبادتها وتقليد الأسلاف في ذلك ﴿فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ أي لا هادي لمن أضله الله تعالى وفي هذا رد على القدرية ﴿وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّصِيرِينَ﴾.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

ثم قال تعالى: مبينا أن المشركين إنما عبدوا غيره سَفَهًا من أنفسهم وجهلاً ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: المشركون ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي: في عبادتهم الأنداد بغير علم، ﴿فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ أي: فلا أحد يهديهم إذا كتب الله إضلالهم، ﴿وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّصِيرِينَ﴾ أي: ليس لهم من قدرة الله منقذ ولا مجير، ولا محيد لهم عنه؛ لأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بُدَّ لَهُ لِيَخْلُقَ اللَّهُ ذَلِكَ الْدِّينَ الْقَيِّمَ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٠).

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - : فأخلص نيتك وسدد وجهتك واجتهد

في القيام بأعمال هذا الدين وإقامة فرائضه وواجباته وسننه مؤمناً بالله مُوحِداً مائلاً عن الشرك إلى التوحيد، قتلِكَ الحنيفة، ملة إبراهيم ﷺ التوحيد وترك الشرك، وتلك هي الفطرة التي فطر الله الناس عليها وهي إسلام الوجه لله ﷻ وتوحيده فلا تبدلوا دين الله ولا تغيروه، فإسلام الوجه لله وتوحيده هو الدين المستقيم الذي لا قيام للناس إلا به ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: فسَدَّ وجهك نحو الوجه الذي وجهك إليه ربك يا محمد لطاعته، وهي الدين، ﴿حَنِيفًا﴾ يقول: مستقيماً لدينه وطاعته ﴿فَطَرَتْ﴾ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴿يَقُولُ﴾: صنعة الله التي خلق الناس عليها، ونصبت «فطرة» على المصدر من معنى قوله: (فَأَقَمَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا) وذلك أن معنى ذلك: فطر الله الناس على ذلك فطرة.

وأورد بإسناد صحيح عن ابن زيد في قوله: ﴿فَطَرَتْ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ قال: الإسلام مُدَّ خلقهم الله من آدم جميعاً، يقرّون بذلك، وقرأ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ [الأعراف: ١٧٢]، قال: فهذا قول الله: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ﴾ [البقرة: ٢١٣] بعد.

وقال:

وقوله: (لَا بُدَّيْلَ لِخَلْقِ اللَّهِ) يقول: لا تغيير لدين الله؛ أي لا يصلح ذلك، ولا ينبغي أن يفعل.

وأورد الطبري قولاً آخر فقال:

وقال آخرون: بل معنى ذلك: لا تغيير لخلق الله من البهائم، بأن يخصى

الفحول منها.

وقال:

وقوله: ﴿ذَلِكَ الَّذِي أَلْقَيْتُمْ﴾ يقول تعالى ذكره: إن إقامتك وجهك للدين حنيفا، غير مغير ولا مبدل، هو الدين القيم، يعني: المستقيم الذي لا عوج فيه عن الاستقامة من الحنيفية إلى اليهودية والنصرانية، وغير ذلك من الضلالات والبدع المحدثه.

وقد وجه بعضهم معنى الدين في هذا الموضع إلى الحساب.

وقال:

﴿وَلَنَكْرِبَ أَكْثَرَ النَّكَاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن الدين الذي أمرتك يا محمد به بقولي ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ هو الدين الحقّ دون سائر الأديان غيره.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

يقول تعالى: فسدد وجهك واستمر على الدين الذي شرعه الله لك، من الحنيفية ملة إبراهيم، الذي هداك الله لها، وكملها لك غاية الكمال، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة، التي فطر الله الخلق عليها، فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده، وأنه لا إله غيره، كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، وفي الحديث: «إني خلقت عبادي حنفاء، فاجتالهم الشياطين عن دينهم». وسنذكر في الأحاديث أن الله تعالى فطر خلقه على الإسلام، ثم طرأ على بعضهم الأديان الفاسدة كاليهودية أو النصرانية أو المجوسية.

وقوله: ﴿لَا يَبْدِيلُ لِحَلْقِ اللَّهِ﴾ قال بعضهم: معناه لا تبدلوا خلق الله، فتغيروا

الناس عن فطرتهم التي فطرهم الله عليها. فيكون خبراً بمعنى الطلب، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، وهذا معنى حسن صحيح.

وقال آخرون: هو خبر على بابه، ومعناه: أنه تعالى ساوى بين خلقه كلهم في الفطرة على الجبلة المستقيمة، لا يولد أحد إلا على ذلك، ولا تفاوت بين الناس في ذلك؛ ولهذا قال ابن عباس، وإبراهيم النخعي، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، والضحاك، وابن زيد في قوله: ﴿لَا بُدَّيْلَ لِحَلْقِ اللَّهِ﴾ أي: لدين الله.

وقال البخاري: قوله: ﴿لَا بُدَّيْلَ لِحَلْقِ اللَّهِ﴾: لدين الله، خُلِقَ الأولين: دين الأولين، والدين والفطرة: الإسلام.

حدثنا عبدان، أخبرنا عبد الله، أخبرنا يونس، عن الزهري، أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن أن أبا هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود يولد إلا على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟» ثم يقول: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ أَلَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بُدَّيْلَ لِحَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ أَلَدِيثُ الْقَيِّمُ﴾.

وأورد الحافظ ابن كثير حديث عياض بن حمار:

أن رسول الله ﷺ خطب ذات يوم فقال في خطبته: «إن ربي ﷻ أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني في يومي هذا، كل مال نحلته عبادي حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فآفصلتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً».

وقال القرطبي:

والخطاب بـ أقم وجهك للنبي ﷺ أمره بإقامة وجهه للدين المستقيم

كما قال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ [الروم: ٤٣] وهو دين الإسلام وإقامة الوجه هو تقويم المقصد والقوة على الجد في أعمال الدين وخص الوجه بالذكر لأنه جامع حواس الإنسان وأشرفه ودخل في هذا الخطاب أمته باتفاق من أهل التأويل، وحنيفاً معناه معتدلاً، مائلاً عن جميع الأديان المحرفة المنسوخة.

وقال رحمه الله:

واختلف العلماء في معنى الفطرة المذكورة في الكتاب والسنة على أقوال متعددة منها الإسلام قاله أبو هريرة وابن شهاب وغيرهما قالوا: وهو المعروف عند عامة السلف من أهل التأويل واحتجوا بالآية وحديث أبي هريرة وعضدوا ذلك بحديث عياض بن حمار المجاشعي.

وأورد استدالات آخر.

ثم قال القرطبي:

وقال آخرون: الفطرة هي البداءة التي ابتدأهم الله عليها أي على ما فطر الله عليه خلقه من أنه ابتدأهم للحياة والموت والسعادة والشقاء وإلى ما يصيرون إليه عند البلوغ، قالوا: والفطرة في كلام العرب البداءة والفاطر: المبتدئ واحتجوا بما روي عن ابن عباس أنه قال: لم أكن أدري ما فاطر السماوات والأرض حتى أتى أعرابيان يختصمان في بئر فقال أحدهما: أنا فطرتها أي ابتدأتها قال المروزي: كان أحمد بن حنبل يذهب إلى هذا القول ثم تركه.

ثم قال القرطبي:

وقالت فرقة: ليس المراد بقوله تعالى: ﴿فَطَرَا النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ ولا قوله ﷻ:

«كل مولود يولد على الفطرة» العموم وإنما المراد بالناس المؤمنون إذ لو فطر الجميع على الإسلام لما كفر أحد وقد ثبت أنه خلق أقوامًا للنار كما قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ [الأعراف : ١٧٩].

وقالت طائفة من أهل الفقه والنظر : الفطرة هي الخلقة التي خلق عليها المولود في المعرفة بربه فكأنه قال : كل مولود يولد على خلقة يعرف بها ربه إذا بلغ مبلغ المعرفة يريد خلقة مخالفة لخلقة البهائم التي لا تصل بخلقتها إلى معرفته واحتجوا على أن الفطرة الخلقة والفاطر الخالق؛ لقول الله ﷻ : (الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) [فاطر : ١]، يعني خالقهن وبقوله : ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس : ٢٤] يعني خلقني. وبقوله : ﴿الَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾ [الأنبياء : ٥٦] يعني خلقهن قالوا : فالفطرة الخلقة والفاطر الخالق وأنكروا أن يكون المولود يفطر على كفر أو إيمان أو معرفة أو إنكار قالوا : وإنما المولود على السلامة في الأغلب خلقة وطبعاً وبنية ليس معها إيمان ولا كفر ولا إنكار ولا معرفة ثم يعتقدون الكفر والإيمان بعد البلوغ إذا ميزوا واحتجوا بقوله في الحديث : «كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء - يعني سالمة - هل تحسون فيها من جدعاء» يعني مقطوعة الأذن فمثل قلوب بني آدم بالبهائم لأنها تولد كاملة الخلق ليس فيها نقصان ثم تقطع آذانها بعد وأنوفها فيقال : هذه بحائر وهذه سوائب يقول : فكذلك قلوب الأطفال في حين ولادتهم ليس لهم كفر ولا إيمان ولا معرفة ولا إنكار كالبهائم السائمة فلما بلغوا استهوتهم الشياطين فكفر أكثرهم وعصم الله أقلهم، قالوا : ولو كان الأطفال قد فطروا على شيء من الكفر والإيمان في أولية أمورهم ما انتقلوا عنه أبداً وقد نجدهم يؤمنون ثم يكفرون قالوا : ويستحيل في المعقول أن يكون الطفل في حين ولادته يعقل

كفراً أو إيماناً؛ لأن الله أخرجهم في حال لا يفقهون معها شيئاً؛ قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً﴾ [النحل: ٧٨] فمن لا يعلم شيئاً استحالة منه كفر أو إيمان أو معرفة أو إنكار قال أبو عمر بن عبد البر: هذا أصح ما قيل في معنى الفطرة التي يولد الناس عليها.

وأورد أقوالاً آخر رَحِمَهُ اللَّهُ وقال:

قوله تعالى: ﴿لَا بُدَّ لِلَّهِ لِيَخْلُقَ اللَّهُ﴾ أي هذه الفطرة لا تبديل لها من جهة الخالق ولا يجبيئ الأمر على خلاف هذا بوجه أي لا يشقى من خلقه سعيداً ولا يسعد من خلقه شقيّاً وقال مجاهد: المعنى: لا تبديل لدين الله.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٣١) **مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ** (٣٢).

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - : فأقيموا وجوهكم يا أهل الإسلام للدين القيم (مُنِيبِينَ إِلَيْهِ) رجاعين إلى الله، توابين مطيعين له، واجعلوا بينكم وبين عذابه وقاية بتوحيده وعدم الشرك به وحافظوا على الصلاة واحذروا الشرك بالله ولا تدخلوا في عداد أهل الشرك، ولا تكونوا من الذين فرقوا دينهم وكانوا فرقاً وأحزاباً وشيعاً وهم اليهود والنصارى الذين افترقوا فرقاً كما جاء الخبر عن رسول الله ﷺ: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة».

أما قوله: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ فحاصل معناه أن كل طائفة وكل فرقة من هذه الفرق التي تفرق إليها اليهود والنصارى فرحون بباطلهم وبدعهم وضلالهم.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

يعني تعالى ذكره بقوله: (مُنِيبِينَ إِلَيْهِ) تائبين راجعين إلى الله مقبلين.

وأورد بإسناد صحيح عن ابن زيد في قوله: (مُنِيبِينَ إِلَيْهِ) قال: المنيب إلى الله: المطيع لله، الذي أناب إلى طاعة الله وأمره، ورجع عن الأمور التي كان عليها قبل ذلك، كان القوم كفارًا، فنزعوا ورجعوا إلى الإسلام.

ثم قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

وتأويل الكلام: فأقم وجهك يا محمد للدين حنيفًا، منيبين إليه إلى الله، فالمنيبون حال من الكاف التي في وجهك.

فإن قال قائل: وكيف يكون حالًا منها، والكاف كناية عن واحد، والمنيبون صفة لجماعة؟ قيل: لأن الأمر من الكاف كناية اسمه من الله في هذا الموضع أمر منه له ولأتمته، فكأنه قيل له: فأقم وجهك أنت وأمتك للدين حنيفًا لله، منيبين إليه.

وقوله: ﴿وَاتَّقُوهُ﴾ يقول جل ثناؤه: وخافوا الله وراقبوه، أن تفرطوا في طاعته، وتركبوا معصيته ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ يقول: ولا تكونوا من أهل الشرك بالله بتضييعكم فرائضه، وركوبكم معاصيه، وخلافكم الدين الذي دعاكم إليه.

وقوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا﴾ يقول: ولا تكونوا من المشركين الذين بدلوا دينهم، وخالفوه ففارقوه ﴿وَكَانُوا شِيعًا﴾ يقول: وكانوا أحزابًا فرقًا كاليهود والنصارى.

وأورد بإسناد حسن عن قتادة: ﴿الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا﴾: وهم

اليهود والنصارى.

وبإسناد صحيح عن ابن زيد قال: هؤلاء يهود.

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

فلو وجّه قوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ إلى أنه خبر مستأنف منقطع عن قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، وأن معناه: ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا﴾ أحزابًا، ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ كان وجهًا يحتمله الكلام. **وقوله:** ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ يقول: كل طائفة وفرقة من هؤلاء الذين فارقوا دينهم الحق، فأحدثوا البدع التي أحدثوا ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ يقول: بما هم به متمسكون من المذهب، فرحون مسرورون، يحسبون أن الصواب معهم دون غيرهم.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

وقوله: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ قال ابن زيد، وابن جرير: أي راجعين إليه، (وَأَتَقَوْهُ) أي: خافوه وراقبوه، ﴿وَأَقِمْوْا الصَّلَاةَ﴾ وهي الطاعة العظيمة، ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: بل من الموحدين المخلصين له العبادة، لا يريدون بها سواه.

وقوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أي: لا تكونوا من المشركين الذين قد فرقوا دينهم أي: بدلوه وغيروه وآمنوا ببعض وكفروا ببعض.

وقرأ بعضهم: (فارقوا دينهم) أي: تركوه وراء ظهورهم، وهؤلاء كاليهود والنصارى والمجوس وعبداء الأوثان، وسائر أهل الأديان الباطلة، مما عدا أهل الإسلام، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا

أَمَرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ [الأنعام: ١٥٩]، فأهل الأديان قبلنا اختلفوا فيما بينهم على آراء وملل باطلة، وكل فرقة منهم تزعم أنهم على شيء، وهذه الأمة أيضًا اختلفوا فيما بينهم على نحل كلها ضلالة إلا واحدة، وهم أهل السنة والجماعة، المتمسكون بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، وبما كان عليه الصدر الأول من الصحابة والتابعين، وأئمة المسلمين في قديم الدهر وحديثه.



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسُ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَآتَتْ ذَا الْقُرْنَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا ءَاتَيْتُم مِّن رَّبًّا لِّتَرْبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا ءَاتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُمْ مَن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾

[الروم: ٣٣-٤١]

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا آذَاهُمْ مِنْهُ رَحْمَةٌ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ (٣٣)؟

ج: المعنى - والله أعلم - : وإذا أصاب الناس ضررٌ في أبدانهم أو في أموالهم أو غشيهم موج وهم في البحر فخافوا على أنفسهم الغرق دعوا ربهم ﷻ رجّاعين إليه مطيعين له يسألونه وحده ويتركون سؤال من سواه ثم إذا آذاهم منه رحمة؛ عافية، سعة في الرزق نجاة من الكرب، إذا جماعة منهم يرجعون إلى الشرك الذي كانوا فيه وينسون نعم الله عليهم ويجحدونها.

وقال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: وإذا مس هؤلاء المشركين الذين يجعلون مع الله إلهًا آخر ضررٌ، فأصابتهم شدة وجدوب وقحوط ﴿دَعَوْا رَبَّهُمْ﴾ يقول: أخلصوا لربهم التوحيد، وأفردوه بالدعاء والتضرع إليه، واستغاثوا به ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾، تائبين إليه من شركهم وكفرهم ﴿ثُمَّ إِذَا آذَاهُمْ مِنْهُ رَحْمَةٌ﴾ يقول: ثم إذا كشف ربهم تعالى ذكره عنهم ذلك الضرر، وفرّجه عنهم، وأصابهم برحاء وخصب وسعة، ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ يقول: إذا جماعة منهم ﴿بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ يقول: يعبدون معه الآلهة والأوثان.

وقال ابن كثير رحمه الله:

يقول تعالى مخبراً عن الناس أنهم في حال الاضطراب يدعون الله وحده لا شريك له، وأنه إذا أسبغ عليهم النعم، إذا فريق منهم في حالة الاختبار يشركون بالله، ويعبدون معه غيره.

وقال القرطبي رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ﴾ أي قحط وشدة ﴿دَعَوْا رَبَّهُمْ﴾ أن يرفع

ذلك عنهم ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ قال ابن عباس : مقبلين عليه بكل قلوبهم لا يشركون ومعنى هذا الكلام التعجب عجب نبيه من المشركين في ترك الإنابة إلى الله تعالى مع تتابع الحجج عليهم أي إذا مس هؤلاء الكفار ضر من مرض وشدة دعوا ربهم أي استغاثوا به في كشف ما نزل بهم مقبلين عليه وحده دون الأصنام لعلمهم بأنه لا فرج عندها ﴿ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً﴾ أي عافية ونعمة ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ أي يشركون به في العبادة.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آءَانَيْنَاهُمْ فَتَمْتَعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾

(٣٤)؟

ج: المعنى - والله أعلم - أن أهل الشرك لما مسهم الضر وسألوا الله وحده لا شريك له أن يكشفه عنهم فكشفه عنهم كان شكرهم للنعم هو شركهم بالله وجحودهم لنعم الله، فكانت عاقبة كشف الضر عنهم كفرٌ منهم بالله ﷻ، فقل لهؤلاء تمتعوا بدنياكم الفانية الزائلة وارتكبوا ما شئتم من الكفر والشرك والكبائر والمعاصي فسوف تعلمون مغبة أمركم فسوف تنزلون شر المنازل - النار والعياذ بالله - وعندها ستعلمون أنكم كنتم على ضلالٍ وتتمنون أن لو رجعتم إلى الدنيا لعمل الصالحات ولكن ولات حين مندم ولات حين مناص.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره متوعداً لهؤلاء المشركين الذين أخبر عنهم أنه إذا كشف الضر عنهم كفروا به: ليكفروا بما أعطيناهم، يقول: إذا هم برهم يشركون، كي يكفروا: أي يجحدوا النعمة التي أنعمتها عليهم، بكشفي عنهم الضر الذي

كانوا فيه، وإبدالي ذلك لهم بالرخاء والخصب والعافية، وذلك الرخاء والسعة هو الذي آتاهم تعالى ذكره: الذي قال: ﴿بِمَاءٍ آتَيْنَهُمْ﴾ وقوله: ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ يقول: فتمتعوا أيها القوم، بالذي آتيناكم من الرخاء والسعة في هذه الدنيا (فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ) إذا وردتم على ربكم ما تلقون من عذابه، وعظيم عقابه على كفركم به في الدنيا.

وقد قرأ بعضهم: (فسوف يعلمون) بالياء، بمعنى: ليكفروا بما آتيناهم، فقد تمتعوا، على وجه الخبر، فسوف يعلمون.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

وقوله: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَهُمْ﴾، هي لام العاقبة عند بعضهم، ولام التعليل عند آخرين، ولكنها تعليل لتقييض الله لهم ذلك.

ثم توعدهم بقوله: (فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)، قال بعضهم: والله لو توعدني حارس دَرْبٍ لخفت منه، فكيف والمتوعد هاهنا الذي يقول للشيء كن فيكون.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

قوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَهُمْ﴾ قيل: هي لام كي وقيل: هي لام أمر فيه معنى التهديد كما قال جل وعز: (فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ) [الكهف: ٢٩] ﴿فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تهديد ووعيد وفي مصحف عبد الله (وليتمتعوا) أي مكناهم من ذلك لكي يتمتعوا فهو إخبار عن غائب مثل: ليكفروا وهو على خط المصحف خطاب بعد الإخبار عن غائب أي تمتعوا أيها الفاعلون لهذا.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾؟

ج: المعنى - والله أعلم -: أفأنزلنا على هؤلاء المشركين كتاباً فيه الحجة والبرهان لما هم عليه من الشرك فمن ثم فهم مستمسكون بشركهم وضلالهم لكون هذا الكتاب يؤيدهم في شركهم ويقرهم على شركهم ويأمر بشركهم. كلا، ما أنزلنا كتاباً أبداً من عندنا على أي أحدٍ فيه الإقرار للمشركين على شركهم، ولا فيه الأمر باتخاذ إلهاً مع الله ﷻ.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: أم أنزلنا على هؤلاء الذين يشركون في عبادتنا الآلهة والأوثان كتاباً بتصديق ما يقولون، وبحقيقة ما يفعلون ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ يقول: فذلك الكتاب ينطق بصحة شركهم، وإنما يعني جل ثناؤه بذلك أنه لم ينزل بما يقولون ويفعلون كتاباً، ولا أرسل به رسولاً وإنما هو شيء افتعلوه واختلقوه؛ اتباعاً منهم لأهوائهم.

وأورد الطبري بإسناد حسن عن قتادة: قوله: ﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ يقول: أم أنزلنا عليهم كتاباً فهو ينطق بشركهم.

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

ثم قال منكرًا على المشركين فيما اختلقوه من عبادة الأوثان بلا دليل ولا حجة ولا برهان. ﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾ أي: حجة ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾ أي: ينطق (بما كانوا به يشركون) وهذا استفهام إنكار، أي: لم يكن لهم شيء من ذلك.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ (٣٦).

ج: هذا- والله أعلم :- بيان لحال كثيرين من الناس، وهم البعيدون عن طريق الله الذين تركوا الإيمان وأقبلوا على الكفر -والعياذ بالله- شأنهم أنهم إذا أنعم الله عليهم بنعمة من المال أو عافية في البدن، أو كثرة في الولد، أو الغيث من السماء إلى غير ذلك من صنوف النعم فرحوا بذلك أشد الفرح، وإذا حلت بهم مصيبة في أبدانهم أو في أموالهم أو في عزيز عليهم، وحلول تلك المصيبة بهم إنما هو بذنوبهم، فعندها يقنطون من رحمة الله ويأسون منها ويظنون أن لا مخرج من ذلك فيصيبهم الهلع والقنوط واليأس لكن، الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليسوا كذلك.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: وإذا أصاب الناس منا خصب ورخاء وعافية في الأبدان والأموال، فرحوا بذلك، وإن تصيبهم منا شدة من جذب وقحط وبلاء في الأموال والأبدان ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ يقول: بما أسلفوا من سيئ الأعمال بينهم وبين الله، وركبوا من المعاصي ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ يقول: إذا هم ييأسون من الفرج، والقنوط: هو الإيأس.

وقال ابن كثير رحمه الله:

ثم قال: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾، هذا إنكار على الإنسان من حيث هو، إلا مَنْ عَصَمَهُ الله ووفقه؛ فإن الإنسان إذا أصابته نعمة بطر وقال: ﴿ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ﴾ [هود: ١٠]، أي: يفرح في نفسه ويفخر على غيره، وإذا أصابته شدة قنط وأيس أن يحصل له

بعد ذلك خير بالكلية؛ قال الله: ﴿لَا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [هود: ١١]، أي: صبروا في الضراء، وعملوا الصالحات في الرخاء، كما ثبت في الصحيح: «عجباً للمؤمن، لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»^(١).

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا﴾ يعني الخصب والسعة والعافية؛ قال يحيى بن سلام النقاش: النعمة والمطر وقيل: الأمن والدعة والمعنى متقارب (فَرِحُوا بِهَا) أي بالرحمة ﴿وَلِنْ تُصِبَّهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أي بلاء وعقوبة قاله مجاهد. السدي: قحط المطر ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي بما عملوا من المعاصي (إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ) أي ييأسون من الرحمة والفرج قاله الجمهور وقال الحسن: إن القنوط ترك فرائض الله سبحانه وتعالى في السر قنط يقنط وهي قراءة العامة وقنط يقنط وهي قراءة أبي عمر والكسائي ويعقوب وقرأ الأعمش: قنط يقنط بالكسر فيهما مثل حسب يحسب والآية صفة للكافر يقنط عند الشدة ويبطر عند النعمة كما قيل:

كحمار السوء إن أعلفته رمح الناس وإن جاع نهق

وكثير ممن لم يرسخ الإيمان في قلبه بهذه المثابة وقد مضى في غير موضع فأما المؤمن فيشكر ربه عند النعمة ويرجوه عند الشدة.



(١) مسلم (٢٩٩٩).

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٣٧).

ج: المعنى - والله أعلم -: أولم ير هؤلاء القانطون من رحمة الله الآيسون من روح الله أن الله عَلَيْهِ يوسع في الرزق على من يشاء ويضيّق على من يشاء فمن ثم لا يقنطوا من رحمة الله ولا يطغيهم الفرح بنعمة الله. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ التصريف من التوسعة أحياناً إلى التضيق ومن التضيق إلى التوسعة ﴿لَآيَاتٍ﴾ لدلالات على قدرة الله ووحدانيته ولكنها ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي يصدقون بالله وأنه الرزاق وأنه القادر، وأنه يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، والله أعلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: أولم ير هؤلاء الذين يفرحون عند الرخاء يصيهم والخصب، ويأسون من الفرج عند شدة تنالهم، بعيون قلوبهم، فيعلموا أن الشدة والرخاء بيد الله، وأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده فيوسعه عليه، ويقدر على من أراد فيضيقه عليه ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يقول: إن في بسطه ذلك على من بسطه عليه، وقدره على من قدره عليه، ومخالفته بين من خالف بينه من عباده في الغنى والفقر، لدلالة واضحة لمن صدّق حجج الله وأقرّها إذا عاينها ورآها.

وقال القرطبي رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي يوسع الخير في الدنيا لمن يشاء أو يضيق فلا يجب أن يدعوهم الفقر إلى القنوط ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

الحث على إكرام القربات والمساكين وأبناء السبيل

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَاتِ ذَا الْقُرْنَيْنِ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٣٨).

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - : فأعط القرايات - يعني: أقرباءك - حقوقهم فلذوي القربى حق، وكذا أعط المساكين حقوقهم، وكذا أبناء السبيل المسافرين الذين انقطعت عنهم النقة وليس لهم من المال ما يرجعون به إلى بلادهم، فذلك الإيتاء خيرٌ للذين يريدون وجه الله ويرجون ثوابه وأولئك الفائزون بمطلوبهم وهو رضوان الله عليهم وجنته التي أعدها لهم، والناجون من المرهوب، وأعظمه سخط الله والنار - عيادًا بالله من النار ومن سخط الله.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: فأعط يا محمد ذا القربة منك حقه عليك من الصلة والبر، والمسكين وابن السبيل ما فرض الله لهما في ذلك. وقوله: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ يقول تعالى ذكره: إيتاء هؤلاء حقوقهم التي ألزمها الله عباده، خير للذين يريدون الله بإيتائهم ذلك ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ يقول: ومن يفعل ذلك مبتغيًا وجه الله به، فأولئك هم المنجحون المدركون طلباتهم عند الله، الفائزون بما ابتغوا والتمسوا بإيتائهم إياهم ما آتوا.

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

يقول تعالى أمرًا بإعطاء ذي ﴿الْقُرْنَيْنِ حَقَّهُ﴾ أي: من البر والصلة، (وَالْمَسْكِينِ) وهو: الذي لا شيء له ينفق عليه، أو له شيء لا يقوم بكفايته، (وَابْنَ السَّبِيلِ) وهو المسافر المحتاج إلى نفقة وما يحتاج إليه في سفره، ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ أي: النظر إليه يوم القيامة، وهو الغاية القصوى،

(وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٤٠﴾ أي: في الدنيا وفي الآخرة.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

لما تقدم أنه سبحانه يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر أمر من وسع عليه الرزق أن يوصل إلى الفقير كفايته ليمتحن شكر الغني والخطاب للنبي عليه السلام والمراد هو وأمته؛ لأنه قال: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ وأمر بإيتاء ذي القربى لقرب رحمه وخير الصدقة ما كان على القريب وفيها صلة الرحم وقد فضل رسول الله ﷺ الصدقة على الأقارب على عتق الرقاب فقال لميمونة وقد أعتقت وليدة: «أما إنك لو أعطيتها أخوالك كان أعظم لأجرك».

وقال: واختلف في هذه الآية ف قيل : إنها منسوخة بآية المواريث وقيل : لا نسخ بل للقريب حق لازم في البر على كل حال وهو الصحيح. قال مجاهد و قتادة: صلة الرحم فرض من الله ﷻ حتى قال مجاهد: لا تقبل صدقة من أحد و رحمه محتاجة وقيل : المراد بالقربى أقرباء النبي ﷺ والأول أصح فإن حقهم مبين في كتاب الله ﷻ في قوله: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الأنفال: ٤١] وقيل: إن الأمر بالإيتاء لذي القربى على جهة النذب؛ قال الحسن: حقه المواساة في اليسر وقول ميسور في العسر (وَالْمُسْكِينِ) قال ابن عباس: أي أطعم السائل الطواف وابن السبيل: الضيف فجعل الضيافة فرضاً وقد مضى جميع هذا مبسوطاً مبيناً في مواضعه والحمد لله.

وقال: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ أي إعطاء الحق أفضل من الإمساك إذا أريد بذلك وجه الله والتقرب إليه (وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) أي الفائزون بمطلوبهم من الثواب في الآخرة وقد تقدم في البقرة القول فيه.

من أهدى هدية يريد أكثر منها

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبِّالْيَرَبُّوْا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرَبُّوْا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ (٣١).

ج: المعنى - والله تعالى أعلم -: وما أعطيتم أيها الناس أناسًا آخرين من عطايا وأحوال تبتغون بها منهم أكثر من الذي أعطيتموهم فذلك لا يربوا، لا يزداد عند الله، ولا يضاعفه الله أما الذي يضاعفه الله فهو المال الذي تزكو به النفس ويبتغى به وجه الله، فهو لاء المبتغون وجه الله هم الذين يضاعف الله لهم الأجور. فعلى ذلك فقوله: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا...﴾ هذا في المال والهدايا التي يعطيها شخص لشخص حتى يُعطيه أكثر منها أي الهدية التي يُرجى من ورائها أعظم منها.

وبنحو هذا قال العلماء.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: وما أعطيتم أيها الناس، بعضكم بعضًا من عطية؛ لتزداد في أموال الناس برجوع ثوابها إليه، ممن أعطاه ذلك، ﴿فَلَا يَرَبُّوْا عِنْدَ اللَّهِ﴾، يقول: فلا يزداد ذلك عند الله؛ لأن صاحبه لم يعطه من أعطاه مبتغيًا به وجهه ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ﴾ يقول: وما أعطيتم من صدقة تريدون بها وجه الله، ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ يعني الذين يتصدقون بأموالهم ملتمسين بذلك وجه الله ﴿هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ يقول: هم الذين لهم الضعف من الأجر والثواب. من قول العرب: أصبح القوم مسمين معطين، إذا سمت إبلهم وعطشت.

وأورد بسندٍ ضعيف عن ابن عباس قوله: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبِّالْيَرَبُّوْا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرَبُّوْا عِنْدَ اللَّهِ﴾ قال: هو ما يعطي الناس بينهم بعضهم بعضًا، يعطي الرجل الرجل العطية، يريد أن يعطى أكثر منها.

وأورد بسندٍ صحيح عن سعيد بن جبيرة: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبِّالْيَرَبُّوْا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ﴾

قال: هو الرجل يعطي الرجل العطية ليشبهه.

وبسند حسن عن قتادة: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبَّالْيَرْبُؤُا۟ فِي۟ أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرِي۟وُا۟ عِن۟دَ اللَّهِ﴾

قال: ما أعطيت من شيء تريد مثابة الدنيا، ومجازاة الناس ذاك الربا الذي لا يقبله الله، ولا يجزي به.

وقال الطبري:

وأما قوله: ﴿وَلَا تَمَنَّ۟نَّ تَتَذَكَّرُ﴾ [المدثر: ٦] فهذا للنبي خاصة، لم يكن له أن يعطي إلا الله، ولم يكن يعطي ليعطي أكثر منه.

وقال آخرون: إنما عنى بهذا الرجل: يعطي ماله الرجل ليعينه بنفسه، ويخدمه، ويعود عليه نفعه، لا لطلب أجر من الله.

وقال آخرون: هو إعطاء الرجل ماله ليكثر به مال من أعطاه ذلك، لا طلب ثواب الله.

وقال آخرون: ذلك للنبي □ خاصة، وأما لغيره فحلال.

وأما قوله: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ فإن أهل التأويل قالوا في تأويله نحو الذي قلنا.

وقال:

قوله: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ قال: هذا الذي يقبله الله ويضعفه لهم عشر أمثالها وأكثر من ذلك.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

ثم قال: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبَّالْيَرْبُؤُا۟ فِي۟ أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرِي۟وُا۟ عِن۟دَ اللَّهِ﴾ أي: من أعطى عطية يريد أن يرد الناس عليه أكثر مما أهدى لهم، فهذا لا ثواب له عند الله - بهذا فسرهم ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقاتادة، وعكرمة، ومحمد بن

كعب، والشعبي - وهذا الصنيع مباح وإن كان لا ثواب فيه إلا أنه قد نهى عنه رسول الله ﷺ خاصة، قاله الضحاك، واستدل بقوله: ﴿وَلَا تَمَنَّيَنَّ تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدر: ٦] أي: لا تعط العطاء تريد أكثر منه.

وقال ابن عباس: الربا رباءان، فربا لا يصح يعني: ربا البيع؟ وربا لا بأس به، وهو هدية الرجل يريد فضلها وأضعافها. ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَاءَ آيَتُمْ مِّن رَّبِّ الْيَزِيدُ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَزِيدُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾.

وإنما الثواب عند الله في الزكاة؛ ولهذا قال: ﴿وَمَاءَ آيَتُمْ مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْغِفُونَ﴾ أي: الذين يضاعف الله لهم الثواب والجزاء، كما جاء في الصحيح: «وما تصدق أحد بعُذْل تمرّة من كسب طيب إلا أخذها الرحمن بيمينه، فَيُرِيَّهَا لِمَا حَبَّهَا كَمَا يُرِيِّي أَحَدَكُمْ قُلُوبَهُ أَوْ فَصِيلَهُ، حتى تصير التمرّة أعظم من أحد».



س: اذكر بعض أقوال أهل العلم في تأويل قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُمْ مَن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُمْ مِّن شَيْءٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٤٠).

ج: من تلك الأقوال ما يلي:

قول الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره للمشرّكين به معرّفهم قبح فعلهم، وخبث صنيعهم: الله أيها القوم الذي لا تصلح العبادة إلا له، ولا ينبغي أن تكون لغيره، هو الذي خلقكم ولم تكونوا شيئاً، ثم رزقكم وخولكم، ولم تكونوا تملكون قبل ذلك، ثم هو يميّتكم من بعد أن خلقكم أحياء، ثم يحييكم من بعد مماتكم لبعث

القيامة.

وأورد بإسناد حسن عن قتادة قوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ للبعث بعد الموت.

وقوله: ﴿هَذِهِ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِنْ شَيْءٍ﴾ يقول تعالى ذكره: هل من آلهتكم وأوثانكم التي تجعلونهم الله في عبادتكم إياه شركاء من يفعل من ذلكم من شيء، فيخلق، أو يرزق، أو يميت، أو ينشر، وهذا من الله تقريع لهؤلاء المشركين. وإنما معنى الكلام أن شركاءهم لا تفعل شيئاً من ذلك، فكيف يعبد من دون الله من لا يفعل شيئاً من ذلك، ثم برأ نفسه تعالى ذكره عن الفرية التي افترها هؤلاء المشركون عليه بزعمهم أن آلهتهم له شركاء، فقال جل ثناؤه: ﴿سُبْحَنَهُ﴾ أي تنزيهاً لله وتبرئة ﴿وَتَعَالَى﴾ يقول: وعلواً له ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يقول: عن شرك هؤلاء المشركين به.

وأورد بإسناد حسن عن قتادة قوله: ﴿هَذِهِ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِنْ شَيْءٍ﴾ لا والله ﴿سُبْحَنَهُ، وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يسبح نفسه إذ قيل عليه البهتان.

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

وقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ أي: هو الخالق الرازق يخرج الإنسان من بطن أمه عرياناً لا علم له ولا سمع ولا بصر ولا قوًى، ثم يرزقه جميع ذلك بعد ذلك والرياش واللباس والمال والأملأك والمكاسب.

وقوله: ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾، أي: بعد هذه الحياة ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ أي: يوم القيامة.

وقوله: ﴿هَذِهِ مِنْ شُرَكَائِكُمْ﴾ أي: الذين تعبدونهم من دون الله. ﴿مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: لا يقدر أحد منهم على فعل شيء من ذلك، بل الله سبحانه

وتعالى هو المستقل بالخلق والرزق، والإحياء والإماتة، ثم يبعث الخلائق يوم القيامة؛ ولهذا قال بعد هذا كله: ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تعالى وتقدس وتنزه وتعظيم وجل وعزّ عن أن يكون له شريك أو نظير أو مساوٍ، أو ولد أو والد، بل هو الأحد الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ ابتداء وخبر وعاد الكلام إلى الاحتجاج على المشركين وأنه الخالق الرازق المميت المحيي ثم قال على جهة الاستفهام: (هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِمَّنْ شَيْءٍ) لا يفعل ثم نزه نفسه عن الأنداد والأضداد والصاحبة والأولاد بقوله الحق: ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وأضاف الشركاء إليهم لأنهم كانوا يسمونهم بالآلهة والشركاء ويجعلون لهم من أموالهم.



حلول البليات والمصائب بسبب المعاصي

س: ما المراد بالبر وما المراد بالبحر؟

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أظهرها وأولاها بالقبول عندي، والله أعلم، قول من قال إن البر هو الأرض اليابسة التي يسكن عليها ويقيم عليها البشر، ويمشون عليها ويغدون ويروحون ويزرعون ويعملون.

والبحر العذب والمالح، فيدخل فيه بالاصطلاحات المعاصرة البحار والمحيطات والأنهار والبحيرات.

والقول الثاني: أن المراد بالبر البلاد البعيدة عن السواحل والبحر المراد به

القرى الساحلية.

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

واختلف أهل التأويل في المراد من قوله: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ فقال بعضهم: عنى بالبرّ، الفلوات، وبالبحر: الأمصار والقرى التي على المياه والأنهار.

وقال:

قوله: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أما البرّ فأهل العمود، وأما البحر فأهل القرى والريف.

وقال آخرون: بل عنى بالبرّ: ظهر الأرض، الأمصار وغيرها، وبالبحر: البحر المعروف.

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب: أن الله تعالى ذكره، أخبر أن الفساد قد ظهر في البرّ والبحر عند العرب في الأرض القفار، والبحر بحران: بحر ملح، وبحر عذب، فهما جميعًا عندهم بحر، ولم يخصص جلّ ثناؤه الخبر عن ظهور ذلك في بحر دون بحر، فذلك على ما وقع عليه اسم بحر عذبًا كان أو ملحًا وإذا كان ذلك كذلك، دخل القرى التي على الأنهار والبحار.



س: ما المراد بالفساد الذي ظهر في البرّ؟

ج: المراد - والله تعالى أعلم - : العقوبات التي عاقب الله بها العباد، والمصائب التي أحلّها الله ﷻ بهم وذلك؛ لأن الله قال في آية أخرى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠].

وقال هاهنا: (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ)، فلذا قلت: إن المراد بالفساد المصائب والعقوبات.

فيدخل في ذلك ما يلي:

* انقطاع الأمطار وهلاك المواشي والجوع والقحط والجذب الذي يُصاب به الخلق.

* ويدخل فيه الأمراض والأسقام والطواعين التي يُصاب بها الخلق.

* ويدخل في ذلك تسلط بعضهم على بعض بالقتل والتشريد وسلب الأموال والخطف والنهب والاعتصاب وقطع الطريق.

ويدخل في ذلك غلاء الأسعار والخسائر في التجارات وتلف المزروعات ونحو ذلك.

ويدخل في ذلك عقوق الأبناء للآباء والأمهات وكل ما من شأنه أن يكون مصيبة وعقوبة داخل في معنى الفساد في البر، والله أعلم.

* وقال بعض العلماء: إن المراد بالمصائب في البر الشرك والكفر والمعاصي والذنوب والكبائر.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

ومعنى قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ أي: بان النقص في الثمار والزرع بسبب المعاصي.

وأورد حديثاً^(١) في سنده ضعف، وهو «لَحْدٌ يَقَامُ فِي الْأَرْضِ أَحَبُّ إِلَى أَهْلِهَا مِنْ أَنْ يَمْطَرُوا أَرْبَعِينَ صَبَاحًا» وقال:

والسبب في هذا أن الحدود إذا أقيمت، انكف الناس -أو أكثرهم، أو كثير

(١) أخرجه أحمد (٢/٣٦٢).

منهم - عن تعاطي المحرمات، وإذا ارتكبت المعاصي كان سبباً في محاق البركات من السماء والأرض؛ ولهذا إذا نزل عيسى عليه السلام، في آخر الزمان فحكم بهذه الشريعة المطهرة في ذلك الوقت، من قتل الخنزير وكسر الصليب ووضع الجزية، - وهو تركها - فلا يقبل إلا الإسلام أو السيف، فإذا أهلك الله في زمانه الدجال وأتباعه ويأجوج ومأجوج، قيل للأرض: أخرجي بركاتك. فيأكل من الرمانة الفئام من الناس، ويستظلون بقحفها، ويكفي لبن اللقحة الجماعة من الناس. وما ذاك إلا ببركة تنفيذ شريعة رسول الله ﷺ، فكلما أقيم العدل كثرت البركات والخير.

وثبت في الصحيح: «إنَّ الفاجر إذا مات تستريح منه العباد والبلاد، والشجر والدواب»^(١).



س: ما المراد بالفساد في البحر؟

ج: من ذلك - والله أعلم - : العقوبات التي يُعاقب الله بها العباد في البحر، والمصائب التي تصيبهم فيه فيدخل في ذلك.

قلة الأسماك التي تصطاد.

ويدخل في ذلك قلة المستخرج من اللؤلؤ والمرجان.

وعموم ما ينتفع به العباد.

ويدخل في ذلك ما يحدث من تسلط قومٍ على قومٍ في البحر كما قال

تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩].

ويدخل في ذلك الغرق الذي يعتري بعض السفن، والأمواج العالية العنيفة

(١) البخاري (٦٥١٢).

المدمرة التي تغرق البر فضلاً عن البحر، فإن قال قائل كيف يُراد الغرق، والله يقول لعلهم يرجعون، فجوابه لعل الذي لم يغرق يعتبر ويتعظ بغرق الآخرين فيرجع عن غيّه وشرّه وفساده، فالمصائب تحلّ بقوم حتى يتعظ الآخرون، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَفْنَا آيَاتِنَا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٧] والله أعلم.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾.

ج: المعنى بما عمله الناس من المعاصي والشرك وبما اكتسبوه منها.



س: وضح المراد بقوله تعالى: ﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾؟

ج: المراد - والله تعالى أعلم - : ليصيبهم بعقوبات بعض أعمالهم، ليس بكلها.

قال الطبري رحمه الله:

فتأويل الكلام إذن إذ كان الأمر كما وصفت: ظهرت معاصي الله في كل مكان من برّ وبحر ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾: أي بذنوب الناس، وانتشر الظلم فيهما.

وقوله: ﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ يقول جل ثناؤه: ليصيبهم بعقوبة بعض أعمالهم التي عملوا، ومعصيتهم التي عصوا ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ يقول: كي ينيوا إلى الحق، ويرجعوا إلى التوبة، ويتركوا معاصي الله.



س: كثيراً ما يتلى العباد لإرجاعهم إلى طريق الله، دلّ على ذلك؟

ج: تقدمت الأدلة على ذلك مراراً، وأذكر هاهنا بعضها فمناها:

قوله تعالى: ﴿لِيَذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَنْضَعُونَ﴾.

[المؤمنون: ٧٦]

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ

يَذْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٠].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ

يَضُرَّعُونَ ..﴾ [الأعراف: ٩٤] إلى غير ذلك من الآيات والله أعلم.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم - : لعلمهم يرجعون عن عصيانهم إلى الطاعة

والاستقامة، ولعلمهم يرجعون إلى الله مستغفرين تائبين نادمين على ما فعلوه.

أخرج الطبري بسند حسن عن قتادة قال: لعل راجعاً أن يرجع، لعل تائباً

أن يتوب، لعل مستعتباً أن يستعتب.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

وقوله: ﴿لِيَذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: يبتليهم بنقص الأموال

والأنفس والثمرات، اختباراً منه، ومجازاة على صنيعهم، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي:

عن المعاصي، كما قال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

[الأعراف: ١٦٨].

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلَ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ (٤٢) فَأَقَمَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلُ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ، مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصْدَعُونَ ﴿٤٣﴾ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ، وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ ؕ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَنْ ءَايَنَاهُ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيَذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْأَفْلاكُ بِأَمْرِهِ، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنْفَقْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ؕ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ، مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ قَبْلِهِ لُمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَانْظُرْ إِلَى ءَاثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتِ وَلَا تَسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَوْ مَدَّيْنِ ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنَّ تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ﴿

س: وضح معنى ما يلي:

﴿عَقِبَةُ - فَأَقَمَ وَجْهَكَ - الْقَيْمِ - لَا مَرَدَّ لَهُ - يَصْدَعُونَ - يَمْهَدُونَ - وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ -
الْفَلَكَ - بِأَمْرِهِ - وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ - بِالْبَيِّنَاتِ - فَثِيْرٌ - فَيَبْسُطُهُ - كِسْفًا - الْوَدَقَ - مِنْ خِلَالِهِ -
أَصَابَ بِهِ - يَسْتَبْشِرُونَ - لِمُبَلِّسِينَ - فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا - الضَّمَّ - وَلَوْأَ مُدْبِرِينَ - يَهْدِي الْعَمَى -
ضَلَّلْنَاهُمْ﴾

ج:

الكلمة	معناها
﴿عَقِبَةُ﴾	مآل أمرهم - نهاية أمرهم
﴿فَأَقَمَ وَجْهَكَ﴾	أخلص نيتك وسدد عملك وأصلحه مبتغيًا وجه الله بذلك
﴿الْقَيْمِ﴾	المستقيم الذي لا اعوجاج فيه الذي لا قيام للخلق بدونه
﴿لَا مَرَدَّ لَهُ﴾	لا مانع له، ولا صارف له
﴿يَصْدَعُونَ﴾	ينقسمون قسمين
﴿يَمْهَدُونَ﴾	يصلحون الأماكن التي سيأوون إليها، والمراد يعملون أعمالاً صالحة كي يستريحوا في القبر ويستريحوا يوم القيامة، وفي جنات النعيم، كما تمهد الأم الفراش لطفلها
﴿وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾	لينزل عليكم المطر فيرحمكم به
﴿الْفَلَكَ﴾	السفن العظيمة

يأذنه	﴿يَأْمُرُ﴾
لتلتمسوا رزقه	﴿وَلْيَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾
بالحجج الواضحات النيرات الدالة على صدقهم	﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾
فتحرك وتنشر	﴿فَتُحَرِّكُ﴾
يمده ويجمعه	﴿فَيَبْسُطُهُ﴾
قطعا	﴿كَسَفًا﴾
المطر	﴿الْوَدَقَ﴾
من بينه (من بين السحاب)	﴿مِنْ خِلَالِهِ﴾
أنزله على من يشاء	﴿أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾
يفرحون - ييشر بعضهم بعضا يأملون رحمة الله ويرجونها	﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾
لقانطين - لايسين	﴿لَمْلَيْسِينَ﴾
فرأوا الزرع مصفرا بعد اخضراره	﴿فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾
الذين لا يسمعون	﴿الْأَصْمَاءَ﴾
انصرفوا معرضين	﴿وَلَوْ أُمْدِدِينَ﴾
بمرشد وموفق العميان الذين اختاروا طريق الباطل	﴿بِهَدْيِ الْعَمَى﴾
طريقتهم الخاطئة التي يسرون فيها	﴿ضَلَالَتِهِمْ﴾



الحث على النظر في سير المتقدمين للاعتبار بهم

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ (٤٢).

ج: المعنى - والله أعلم - : قل يا رسول الله لهؤلاء المكذبين المعاندين سيروا في الأرض فانظروا إلى العاقبة الوخيمة التي حلت بمن كانوا قبلكم فتلك آثارهم الدالة على انتقام الله منهم، ها هي ديار عادٍ وثمود ومدائن قوم لوط، بادية للناظرين، لقد أهلكهم الله بشركهم وبكفرهم وبتكذيبهم وعنادهم وعصيانهم، فاعتبروا يا أهل الشرك من مكة وغيرها أن يصيبكم مثل ما أصابهم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء المشركين بالله من قومك: سيروا في البلاد، فانظروا إلى مساكن الذين كفروا بالله من قبلكم، وكذبوا رسله، كيف كان آخر أمرهم، وعاقبة تكذيبهم رُسل الله وكفرهم، ألم نهلكهم بعذاب منا، ونجعلهم عبرة لمن بعدهم، ﴿كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ يقول: فعلنا ذلك بهم؛ لأن أكثرهم كانوا مشركين بالله مثلهم.



الحث على الإخلاص لله وتوحيده

س: وضح معنى هذه الآيات: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصْدَعُونَ﴾ (٤٣) ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ مِنْهُ يَمْهَدُونَ﴾ (٤٤) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ (٤٥).

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - : فتوجه بقلبك يا رسول الله مخلصاً لربك سبحانه وتعالى، توجه إلى هذا الدين دين الإسلام، واعمل بتعاليمه محسناً

النوايا فهذا هو الدين القيم الذي لا قوام للناس إلا به ولا صلاح لهم في دنياهم وآخرتهم إلا به، أقبل عليه من قبل أن يأتي يوم القيامة الذي لا دافع له ولا راد له، ولا مانع له من الإتيان، كما قال تعالى: ﴿أَفَتِ الْآزِفَةُ﴾ ٥٧ ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾، فعند مجيء يوم القيامة سينقسم الناس إلى قسمين، ويفترقون أهل الإيمان، وأهل الكفر، فقلوه: ﴿يَصْدَعُونَ﴾ أي: يفترقون، من قولهم: تصدع السقف إذا انفلق، وعندها من كفر في دنياه فعليه إثم كفره يوم القيامة، وهو - عيادًا بالله - نار الخلود.

ومن عمل صالحًا في دنياه، وكان مؤمنًا، فهذا الذي يُمهد لنفسه ويوطئ لنفسه، كي ينزلها منزلًا طيبًا تستريح فيه في قبرها، ويوم بعثها ونشورها، وفي جنات النعيم، فيوم القيامة آت لا محالة لمجازاة أهل الإيمان بصلاح أعمالهم مع إيمانهم، ولمجازاة المسيئين بصنيعهم إن الله ﷻ لا يحب أهل الكفر عيادًا بالله من الكفر.

وبنحو الذي ذكر قال أهل التأويل.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: فوجّه وجهك يا محمد، نحو الوجه الذي وجهك إليه ربك ﴿لِلَّذِينَ أَقْبَمُوا﴾ لطاعة ربك، والملة المستقيمة التي لا اعوجاج فيها عن الحق ﴿مَنْ قَبْلُ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ، مِنْ اللَّهِ﴾ يقول تعالى ذكره: من قبل مجيء يوم من أيام الله لا مردّ له لمجيئه؛ لأن الله قد قضى بمجيئه فهو لا محالة جاء (يَوْمَئِذٍ يَصْدَعُونَ) يقول: يوم يجيء ذلك اليوم يصدع الناس، يقول: يتفرق الناس فرقتين من قولهم: صدعت الغنم صدعتين: إذا فرقتهما فرقتين: فريق في الجنة، وفريق في السعير.

وأورد بإسناد حسن: عن قتادة قوله: ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ الإسلام ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَ لَهُ، مِنْ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصْدَعُونَ﴾ فريق في الجنة، وفريق في السعير.

وقال: في تأويل قوله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ، وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُمْ يَمْهَدُونَ﴾.

يقول تعالى ذكره: من كفر بالله فعليه أوزار كفره، وأثام جحوده نِعَمَ ربه، ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾: يقول: ومن أطاع الله، فعمل بما أمره به في الدنيا، وانتهى عما نهاه عنه فيها ﴿فَلَا نَفْسَ لَهُمْ يَمْهَدُونَ﴾ يقول: فلا أنفسهم يستعدون، ويسوون المضجع ليسلموا من عقاب ربهم، وينجوا من عذابه، كما قال الشاعر:

امْهَدْ لِنَفْسِكَ حَانَ السُّقْمُ وَالتَّلَفُ وَلَا تُضَيِّعَنَّ نَفْسًا مَالَهَا خَلَفُ

وقال: في تأويل قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ ۗ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾.

يقول تعالى ذكره: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدَعُونَ... لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالله ورسوله (وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) يقول: وعملوا بما أمرهم الله ﴿مِنْ فَضْلِهِ ۗ﴾ الذي وعد من أطاعه في الدنيا أن يجزيه يوم القيامة ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ يقول تعالى ذكره: إنما خص بجزائه من فضله الذين آمنوا وعملوا الصالحات دون من كفر بالله، إنه لا يحب أهل الكفر به. واستأنف الخبر بقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ وفيه المعنى الذي وصفت.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ قال الزجاج: أي أقم قصدك واجعل جهتك اتباع الدين القيم يعني الإسلام وقيل: المعنى أوضح الحق وبالغ في الإعذار واشتغل بما أنت فيه ولا تحزن عليهم ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَ لَهُ، مِنْ اللَّهِ ۗ﴾

أي لا يرده الله عنهم فإذا لم يرده لم يتهياً لأحد دفعه ويجوز عند غير سيويه لا مرد له وذلك عند سيويه بعيد إلا أن يكون في الكلام عطف والمراد يوم القيامة ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدَعُونَ﴾ قال ابن عباس : معناه يتفرون وقال الشاعر :

وكنّا كندمانى جذيمة حقبه من الدهر حتى قيل لن يتصدعا

أي لن يتفرقا نظيره قوله تعالى : ﴿يَوْمَئِذٍ يَنْفِرُ قَوْمٌ﴾ ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧] والأصل يتصدعون ويقال : تصدع القوم إذا تفرقوا ومنه اشتق الصداق لأنه يفرق شعب الرأس.

وقال في: قوله تعالى: (مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ) أي جزاء كفره ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسٍ يَمْلِكُ﴾ أي يوطئون لأنفسهم في الآخرة فراشا ومسكنا وقرارا بالعمل الصالح ومنه : مهد الصبي والمهاد الفراش وقد مهدت الفراش مهذا : بسطته ووطأته وتمهيد الأمور : تسويتها وإصلاحها وتمهيد العذر : بسطه وقبوله والتمهد : التمكن وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد: (فَلَا نَفْسٍ يَمْلِكُ) قال : في القبر.

وقال في قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي يمهدون لأنفسهم ليجزيهم الله من فضله وقيل: يصدعون ليجزيهم الله أي ليميز الكافر من المسلم ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

يقول تعالى آمراً عباده بالمبادرة إلى الاستقامة في طاعته، والمبادرة إلى الخيرات: ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ﴾ أي: يوم القيامة، إذا أراد كونه فلا رادَّ له ، ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدَعُونَ﴾ أي: يتفرون، وفريق في الجنة وفريق في السعير؛ ولهذا قال: ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسٍ يَمْلِكُ﴾

يَمَّهْدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ ﴿٤٥﴾ أي: يجازيهم مجازاة الفضل: الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلى ما يشاء الله، ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾، ومع هذا هو العادل فيهم، الذي لا يجور.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ آيَنِيهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَتٍ وَلِيَذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٤٦)؟

ج: المعنى - والله أعلم -: ومن حججه الدالة على وحدانيته وعلى قدرته على كل شيء إرساله ﷻ الرياح بين يدي المطر، وقبل نزول المطر مبشرات بنزوله ﴿وَلِيَذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾، أي: وينزل عليكم المطر الذي هو رحمة يرحمكم الله بها، فيحيي الله به البلاد والعباد فتنبت الأرض وتخرج ثمرتها وترعى الدواب وتأتي بالأنهار وتتكاثر وتتنامى، وكذا يرسل الرياح لتجري السفن العظيمة في البحر بأمر الله وتسيره لها، ولتلتمسوا فضل الله بالتجارات والأسفار التي تستجلبون بها رزق الله، ولتقدموا لله ﷻ شكرًا على نعمائه.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ومن أدلته على وحدانيته، وحججه عليكم، على أنه إله كل شيء ﴿أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَتٍ﴾ بالغيث والرحمة ﴿وَلِيَذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ يقول: ولينزل عليكم من رحمته، وهي الغيث الذي يحيي به البلاد، ولتجري السفن في البحار بها بأمره إياها ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ يقول: ولتلتمسوا من أرزاقه ومعاشكم التي قسمها بينكم ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ يقول: ولتشكروا ربكم على ذلك، أرسل هذه الرياح مبشرات.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

يذكر تعالى نعمه على خلقه، في إرساله الرياح مبشرات بين يدي رحمته، بمجيء الغيث عقيها؛ ولهذا قال: ﴿وَلِيُذِيقَكُمْ مِّن رَّحْمَتِهِ﴾ أي: المطر الذي ينزله فيحيي به العباد والبلاد، ﴿وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ﴾ أي: في البحر، وإنما سيرها بالريح، ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: في التجارات والمعاش، والسير من إقليم إلى إقليم، وقطر إلى قطر، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: تشكرون الله على ما أنعم به عليكم من النعم الظاهرة والباطنة، التي لا تعد ولا تحصى.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾ أي ومن أعلام كمال قدرته إرسال الرياح مبشرات أي بالمطر؛ لأنها تتقدمه وقد مضى في الحجر بيانه ﴿وَلِيُذِيقَكُمْ مِّن رَّحْمَتِهِ﴾ يعني الغيث والخصب ﴿وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ﴾ أي في البحر عند هبوبها وإنما زاد بأمره لأن الرياح قد تهب ولا تكون مواتية فلا بد من إرساء السفن والاحتياال بحبسها وربما عصفت فأغرقتها بأمره ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ يعني الرزق بالتجارة ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هذه النعم بالتوحيد والطاعة وقد مضى هذا كله مبيناً.



س: وضح المستفاد من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرُموهُمْ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

ج: المستفاد من ذلك مواساة النبي ﷺ وكذا مواساة أهل الإيمان، فإن كنت كُذِّبت يا رسول الله، فقد كُذِّب إخوانك المرسلون مع كونهم أتوا أممهم بالبينات والحجج على صدقهم ومع ذلك فقد كذبتهم أقوامهم كما كذبك قومك فصبروا فاصبر يا رسول الله كما صبر إخوانك، فإننا سننتقم من

المكذبين من قومك كما انتقمنا من أهل الإجرام الذين كذبوا رسلنا، فقد كان لأهل الإيمان علينا أن ننصرهم، حق لهم علينا أن ننصرهم، فهو حق وأوجه الله على نفسه تكرماً منه وفضلاً كما قال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، والله أعلم.

ثم هذه بعض أقوال العلماء في ذلك:

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره مسلماً نبيه □، فيما يلقي من قومه من الأذى فيه بما لقي من قبله من رسله من قومهم، ومعلمه سنته فيهم، وفي قومهم، وأنه سالك به وبقومه سنته فيهم، وفي أممهم: ولقد أرسلنا يا محمد من قبلك رسلاً إلى قومهم الكفرة، كما أرسلناك إلى قومك العابدي الأوثان من دون الله ﴿فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يعني: بالواضحات من الحجج على صدقهم، وأنهم لله رسل، كما جئت أنت قومك بالبينات فكذبوهم، كما كذبك قومك، وردوا عليهم ما جاءوهم به من عند الله، كما ردوا عليك ما جئتهم به من عند ربك، ﴿فَأَنقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرُمُوْا﴾ يقول: فانتقمنا من الذين أجزموا الآثام، واكتسبوا السيئات من قومهم، ونحن فاعلو ذلك كذلك بمجرمي قومك، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يقول: ونجينا الذين آمنوا بالله وصدقوا رسله، إذ جاءهم بأسنا، وكذلك نفعل بك وبمن آمن بك من قومك، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ على الكافرين، ونحن ناصروك ومن آمن بك على من كفر بك، ومظفروك.

٣٣٠

وقال ابن كثير رحمه الله:

ثم قال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرُمُوْا﴾ هذه تسليية من الله لعبده ورسوله محمد، صلوات الله وسلامه عليه، بأنه وإن

كذبه كثير من قومه ومن الناس، فقد كُذِّبَت الرسل المتقدمون مع ما جاءوا
أمرهم به من الدلائل الواضحات، ولكن الله انتقم ممن كذبهم وخالفهم،
وأنجى المؤمنين بهم، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾، هو حقٌّ أوجهه على نفسه
الكريمة، تكرمًا وتفضلاً كقوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾
[الأنعام: ٥٤].

وأورد ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ حديثاً ضعيفاً في هذا الصدد.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي:
المعجزات والحجج النيرات ﴿فَانْتَقَمْنَا﴾ أي فكفروا فانتقمنا ممن كفر (وَكَانَ
حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ) حقاً نصب على خبر كان ونصر اسمها وكان أبو بكر
يقف على حقاً أي وكان عقابنا حقاً ثم قال: (عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ) ابتداء وخبر
أي أخبر بأنه لا يخلف الميعاد ولا خلف في خبرنا.



س: وضح معنى هذه الآيات: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ
كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ
يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلَئِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَاَنْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ
اللَّهِ كَيْفَ يُخْرِجُ الْأَرْضَ بِعَدَمِ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا
رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - : الله سبحانه وتعالى هو الذي يرسل
الرياح فتنشئ سحاباً وتحركه وتجمعه ويمدُّه ويكثره في السماء على الوجه
الذي يُريد، ويجعله قطعاً وكذا يجعله متراكماً بعضه فوق بعض فتري قطرات
المطر تخرج من بينه فإذا أنزله على قوم يريد سبحانه وتعالى أن ينزل عليهم

إذا هم يفرحون ويبشر بعضهم بعضًا بنزوله، وإن كان من قبل نزوله عليهم
لآيسين قانطين من رحمة الله مكتئبين حزينين، فانظر يا عبد الله إلى آثار هذا
المطر الذي أنزله الله رحمة لعباده انظر إلى الأرض وكيف أصبحت
مخضرة!!

وانظر إليها وقد أنبتت من كل زوج بهيج من كل صنف جميل حسن، انظر
إليها وقد أخرجت ثمرتها وأنبتت غلتها!
وخرج منها الحب ذو العصف والريحان!
وخرج منها صنوف الفواكه والخضراوات!
وخرجت منها النخل الباسقات!
وكذا الجنات من النخيل والأعناب والزيتون والرمان وغير ذلك كثير
وكثير وكثير.

إن الذي فعل ذلك بالأرض، أحيائها بعد موتها لمحيي الموتى يوم القيامة
بعد موتهم التي ماتوها في الدنيا، وهو على كل شيء قدير.
* ثم بين الله ﷻ حال الإنسان، وأنه إذا تحولت عنه نعمة الله، بإرسال
ريح - مثلاً - فأتلفت الزروع والثمار لكفر بالله، وكفر نعم الله ﷻ وجحدها.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

وقال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ يقول: فتنشئ الرياح
سحابًا، وهي جمع سحابة، ﴿فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ يقول: فينشره الله،
ويجمعه في السماء كيف يشاء، وقال: ﴿فَيَبْسُطُهُ﴾ فوحد الهاء، وأخرج مخرج
كناية المذكر، والسحاب جمع كما وصفت، ردًا على لفظ السحاب، لا على

معناه، كما يقال: هذا تمر جيد.

وأورد بسند حسن عن قتادة: ﴿فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ ويجمعه.

وقوله: ﴿وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا﴾: يقول: ويجعل السحاب قطعاً متفرقة.

وأورد بسند حسن عن قتادة قال: ﴿وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا﴾: أي قطعاً.

قال: وقوله: ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ﴾ يعني: المطر (يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ) يعني: من بين

السحاب.

وقوله: ﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ يقول: فإذا صرف ذلك

الودق إلى أرض من أراد صرفه إلى أرضه من خلقه؛ رأيتهم يستبشرون؛ بأنه صرف ذلك إليهم ويفرحون.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِّنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ﴾.

يقول تعالى ذكره: وكان هؤلاء الذين أصابهم الله بهذا الغيث من عباده، من

قبل أن ينزل عليهم هذا الغيث، من قبل هذا الغيث ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾ يقول: لمكتئبين حزينين؛ باحتباسه عنهم.

وأورد بسند حسن عن قتادة: ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِّنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ﴾:

أي قانطين.

وقال: في تأويل قوله تعالى: ﴿فَانْظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ

بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

فتأويل الكلام إذا: فانظر يا محمد إلى آثار الغيث الذي ينزل الله من

السحاب، كيف يحيي به الأرض الميتة، فينبتها ويعشبها، من بعد موتها ودثورها، ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتِ﴾. يقول جلّ ذكره: إن الذي يحيي هذه

الأرض بعد موتها بهذا الغيث لمحيي الموتى من بعد موتهم، وهو على كل

شيء مع قدرته على إحياء الموتى قدير، لا يعزّ عليه شيء أَرادَه، ولا يمتنع عليه فعل شيء شاءه سبحانه.

وقال:

في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾.

يقول تعالى ذكره: ولئن أرسلنا ريحًا مفسدةً ما أنبتة الغيث الذي أنزلناه من السماء، فرأى هؤلاء الذين أصابهم الله بذلك الغيث الذي حيت به أرضوهم، وأعشبت ونبتت به زروعهم، ما أنبتته أرضوهم بذلك الغيث من الزرع مصفرًا، قد فسد بتلك الريح التي أرسلناها، فصار من بعد خضرته مصفرًا، لظلوا من بعد استبشارهم، وفرحتهم به يكفرون بربهم.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

يبين تعالى كيف يخلق السحاب التي ينزل منها الماء فقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾، إما من البحر على ما ذكره غير واحد، أو مما يشاء الله ﷻ. ﴿فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ أي: يمدّه فيكثّره ويُنمّيه، ويجعل من القليل كثيرًا، ينشئ سحابة فترى في رأي العين مثل الترس، ثم يبسطها حتى تملأ أرجاء الأفق. وتارة تأتي السحاب من نحو البحر ثقلاً مملوءة ماء، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقِنَتْهُ لِبَدٍ مِيتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧]، وكذلك قال هاهنا: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَجَعَلَهُ كِسْفًا﴾. قال مجاهد، وأبو عمرو بن العلاء، ومطر الوراق، وقتادة: يعني قطعًا.

وقال غيره: متراكمًا، قاله الضحاك.

وقال غيره: أسود من كثرة الماء، تراه مدلهماً ثقيلاً قريباً من الأرض.

وقوله: ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ أي: فترى المطر - وهو القطر - يخرج من بين ذلك السحاب، ﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي: لحاجتهم إليه يفرحون بنزوله عليهم ووصوله إليهم.

وقوله: ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ﴾، معنى الكلام: أن هؤلاء القوم الذين أصابهم هذا المطر كانوا أزلين قنطين من نزول المطر إليهم قبل ذلك، فلما جاءهم، جاءهم على فاقة، فوقع منهم موقعاً عظيماً.

وقد اختلف النحاة في قوله: ﴿مِنْ قَبْلُ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ﴾، فقال ابن جرير: هو تأكيد. وحكاه عن بعض أهل العربية.

وقال آخرون: وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم المطر، (مِنْ قَبْلِهِ) أي: الإنزال (لَمُبْلِسِينَ).

ويحتمل أن يكون ذلك من دلالة التأسيس، ويكون معنى الكلام: أنهم كانوا محتاجين إليه قبل نزوله، ومن قبله - أيضاً - قد فات عندهم نزوله وقتاً بعد وقت، فترقبوه في إبانته فتأخر، فمضت مدة فترقبوه فتأخر، ثم جاءهم بغتة بعد الإياس منه والقنوط، فبعد ما كانت أرضهم مقشعة هامدة أصبحت وقد اهتزت وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج؛ ولهذا قال: ﴿فَأَنْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ﴾ يعني: المطر ﴿كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾.

ثم نبه بذلك على إحياء الأجساد بعد موتها وتفرقها وتمزقها، فقال: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمَعْمُ الْمَوْتِ﴾ أي: إن الذي فعل ذلك لقادر على إحياء الأموات، ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَيْنَ آتَيْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾، يقول

(وَلَيْنَ أَرْسَلْنَا رِيحًا ﴿٦٢﴾ يَابِسَةً عَلَى الزَّرْعِ الَّذِي زَرَعُوهُ، وَنَبَتَ وَشَبَّ وَاسْتَوَى عَلَى سَوْقِهِ، فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا، أَي: قد اصفر وشرع في الفساد، لظلوا من بعده، أَي: بعد هذا الحال يكفرون، أَي: يجحدون ما تقدم إليهم من النعم، كما قال: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ ﴿٦٣﴾ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ؟ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُعْرِضُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مُحَرِّمُونَ ﴿٦٧﴾ ﴿الواقعة: ٦٣- ٦٧﴾.



س: هل الموتى يسمعون؟

ج: لأهل العلم في ذلك قولان أوضحتهما عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَن فِي الْقُبُورِ﴾ ﴿٢٢﴾ من سورة فاطر فارجع إليه إن شئت.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمِعُ الضُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ ﴿٥٤﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعَمَىٰ عَنْ ضَلَالِكُمْ إِن تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٥٥﴾؟

ج: المعنى - والله أعلم-: فإنك يا رسول الله إذا كلمت الموتى ما سمعوا كلامك، وكذلك إذا كان عندك أصم لا يسمع فانصرف عنك وأدبر وناديته لما انصرف ما سمع دعاءك ولا استجاب لك وكذلك إذا كان هناك أعمى سلك طريق الغواية والضلال فناديته كي يرجع إليك ما رجع إليك وما سلك طريق الهداية، وإنما أنت تهدي وتسمع ويتقبل منك من آمن بآياتنا التي أنزلناها إليك وصدق بها فهذا هو المسلم المنتفع.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ﴿فَإِنَّكَ﴾ يا محمد، ﴿لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ يقول: لا تجعل لهم

أسماعاً يفهمون بها عنك ما تقول لهم، وإنما هذا مثل معناه: فإنك لا تقدر أن تفهم هؤلاء المشركين الذين قد ختم الله على أسماعهم، فسلبهم فهم ما يُتلى عليهم من مواعظ تنزيله، كما لا تقدر أن تفهم الموتى الذين قد سلبهم الله أسماعهم بأن تجعل لهم أسماعاً.

وقوله: ﴿وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ﴾ يقول: وكما لا تقدر أن تسمع الصم الذين قد سلبوا السمع الدعاء إذا هم ولوا عنك مدبرين، كذلك لا تقدر أن توفق هؤلاء الذين قد سلبهم الله فهم آيات كتابه، لسماع ذلك وفهمه.

وأورد بسند حسن عن قتادة قوله: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾: هذا مثل ضربه الله للكافر، فكما لا يسمع الميت الدعاء، كذلك لا يسمع الكافر، ﴿وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ يقول: لو أن أصم ولى مدبراً ثم ناديته لم يسمع، كذلك الكافر لا يسمع، ولا ينتفع بما يسمع.

وقوله: (وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمِّيِّ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ) يقول تعالى ذكره: وما أنت يا محمد بمسدد من أعماه الله عن الاستقامة ومحجة الحق فلم يوفقه لإصابة الرشد فصارفه عن ضلالته التي هو عليها، وركوبه الجائر من الطرق إلى سبيل الرشاد، يقول: ليس ذلك بيدك ولا إليك، ولا يقدر على ذلك أحد غيري؛ لأنني القادر على كل شيء. وقيل: ﴿بِهَادٍ الْعُمِّيِّ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ﴾ ولم يقل: من ضلالتهم، لأن معنى الكلام ما وصفت من أنه: وما أنت بصارفهم عنه، فحمل على المعنى. ولو قيل: من ضلالتهم، كان صواباً. وكان معناه: ما أنت بمانعهم من ضلالتهم.

وقوله: ﴿إِنْ تُسْمِعْ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ يقول تعالى ذكره لنبيه: ما تسمع السماع الذي ينتفع به سامعه فيعقله إلا من يؤمن بآياتنا لأن الذي يؤمن بآياتنا إذا سمع

كتاب الله تدبره وفهمه وعقله، وعمل بما فيه، وانتهى إلى حدود الله الذي حدّ فيه، فهو الذي يسمع السماع النافع.

وقوله: ﴿فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ يقول: فهم خاضعون لله بطاعته، متذللون لمواعظ كتابه.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

يقول تعالى: كما أنك ليس في قدرتك أن تسمع الأموات في أجدائها، ولا تبلغ كلامك الصم الذين لا يسمعون، وهم مع ذلك مُدْبِرُونَ عنك، كذلك لا تقدر على هداية العميان عن الحق وردهم عن ضلالتهم، بل ذلك إلى الله تعالى، فإنه بقدرته يسمع الأموات أصوات الأحياء إذا شاء، ويهدي مَنْ يشاء، ويضل مَنْ يشاء، وليس ذلك لأحد سواه؛ ولهذا قال: ﴿إِنْ سَمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي: خاضعون مستجيبون مطيعون، فأولئك هم الذين يستمعون الحق ويتبعونه، وهذا حال المؤمنين، والأول مثل الكافرين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِمْ يُرْجَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦].

وقد استدلت أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا بهذه الآية: ﴿فَأَنْكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى﴾، على توهيم عبد الله بن عمر في روايته مخاطبة النبي ﷺ القتلى الذين ألقوا في قليب بدر، بعد ثلاثة أيام، ومعاتبته إياهم وتقريعه لهم، حتى قال له عمر: يا رسول الله، ما تخاطب من قوم قد جَيِّقُوا؟ فقال: «والذي نفسي بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكن لا يجيبون». وتأولته عائشة على أنه قال: «إنهم الآن ليعلمون أن ما كنت أقول لهم حق».

وقال قتادة: أحياهم الله له حتى سمعوا مقالته تفرغاً وتوبيحاً ونقمة.

والصحيح عند العلماء رواية ابن عمر، لما لها من الشواهد على صحتها

من وجوه كثيرة.



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ ٥٤ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَنَا بِسَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

[الروم: ٥٤-٦٠]

س: وضح معنى ما يلي:

﴿ضَعِفَ - وَشَيْبَةً - مَا لَيْثُوا - يُؤْفَكُونَ - يَوْمَ الْبَعْثِ - مَعَذَرْتُهُمْ - وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ - مُبْطِلُونَ - وَلَا يَسْتَخَفُّنَا - لَا يُوقُونَ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿ضَعِفَ﴾	شيء ضعيف، والمراد هنا قطرة المنى، وقيل: المراد في حال كونكم أطفالاً صغاراً ضعافاً
﴿وَشَيْبَةً﴾	كبر السن الذي معه يشيب الشعر
﴿مَا لَيْثُوا﴾	ما مكثوا (في دنياهم وفي قبورهم)
﴿يُؤْفَكُونَ﴾	يكذبون - يُصرفون عن الحق إلى الباطل
﴿يَوْمَ الْبَعْثِ﴾	يوم القيامة
﴿مَعَذَرْتُهُمْ﴾	اعتذارهم
﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾	لا يفتح لهم باب للمعاتبة - لا يقبل طلبهم الرجوع إلى الدنيا للعمل الصالح
﴿مُبْطِلُونَ﴾	متبعون الباطل
﴿وَلَا يَسْتَخَفُّنَا﴾	لا يستفزنك - لا يخرجك عن هدوئك وسكينتك
﴿لَا يُوقُونَ﴾	لا يصدقون - لا يؤمنون - لا يقرون بالبعث



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - : الله ﷻ الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له، هو الذي خلقكم يا بني آدم ﴿مِنْ ضَعْفٍ﴾ أي: من نطفة من منيٍّ يُمنى، نطفة من ماءٍ مهين، وكذا خلقكم يوم أن أخرجكم من بطون أمهاتكم ضعفاء، وكذا في طفولتكم عموماً ضعفاً ثم قوّاكم وجعلكم شباباً أقوياء ثم جعل من بعد هذه القوة شيخوخة بما تحمله الشيخوخة من ضعفٍ وخور، ومشيبٍ وتدهور، يفعل ذلك بخلقه ويخلق ما يشاء، وهو العليم بتصرف الأمور، القدير على كل شيء.

قال الطبري \$:

يقول تعالى ذكره لهؤلاء المكذّبين بالبعث من مشركي قريش، محتجاً عليهم بأنه القادر على ذلك، وعلى ما يشاء: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ أيها الناس (مِنْ ضَعْفٍ) يقول: من نطفة وماء مهين، فأنشأكم بشراً سوياً، ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ يقول: ثم جعل لكم قوّة على التصرّف، من بعد خلقه إياكم من ضعف، ومن بعد ضعفكم بالصغر والطفولة، ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ يقول: ثم أحدث لكم الضعف بالهرم والكبر عما كنتم عليه أقوياء في شبابكم، وشيئة.

وأورد بسندٍ حسن عن قتادة قوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ﴾ أي من نطفة ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا﴾ الهرم ﴿وَشَيْبَةً﴾ الشمط.

وقوله: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ يقول تعالى ذكر: يخلق ما يشاء من ضعف وقوّة

وشباب وشيب ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ﴾ بتدبير خلقه ﴿الْقَدِيرُ﴾ على ما يشاء، لا يمتنع عليه شيء أراده، فكما فعل هذه الأشياء، فكذلك يميت خلقه ويحييهم إذا شاء. يقول: واعلموا أن الذي فعل هذه الأفعال بقدرته يحيي الموتى إذا شاء.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

ينبه تعالى على تنقل الإنسان في أطوار الخلق حالاً بعد حال، فأصله من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقه، ثم من مضغة، ثم يصير عظاماً ثم يُكسَى لحماً، ويُنفَخ فيه الروح، ثم يخرج من بطن أمه ضعيفاً نحيفاً واهن القوى. ثم يشب قليلاً قليلاً حتى يكون صغيراً، ثم حَدَثًا، ثم مراهقاً، ثم شاباً. وهو القوة بعد الضعف، ثم يشرع في النقص فيكتهل، ثم يشيخ ثم يهرم وهو الضعف بعد القوة. فتضعف الهمة والحركة والبطش، وتشيب اللَّمَّة، وتتغير الصفات الظاهرة والباطنة؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي: يفعل ما يشاء ويتصرف في عبيده بما يريد، ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ﴾ ذكر استدلالاً آخر على قدرته قي نفس الإنسان ليعتبر ومعنى: من ضعف من نطفة ضعيفة وقيل: من ضعف أي في حال ضعف وهو ما كانوا عليه في الابتداء من الطفولة والصغر ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ يعني الشبيبة ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا﴾ يعني الهرم.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿وَشَيْبَةً﴾ مصدر كالشيب والمصدر يصلح للجمله وكذلك القول في الضعف والقوة ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ يعني من قوة وضعف ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ﴾ بتدبيره ﴿الْقَدِيرُ﴾ على إرادته وأجاز النحويون الكوفيون من ضعف بفتح العين وكذا

كل ما كان فيه حرف من حروف الحلق ثانياً أو ثالثاً.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - : أن الساعة - وهي يوم القيامة - إذا جاءت، وقامت القيامة، وقام الناس من قبورهم أحياء بعد موتهم يُقسم أهل الشرك أنهم ما لبثوا غير ساعة، وهم في الحقيقة قد مكثوا زمناً طويلاً، فكما أنهم حلفوا وكذبوا في يمينهم أنهم ما لبثوا غير ساعة، فكذلك كانوا في الدنيا يحلفون كاذبين.

ثم إن العلماء اختلفوا في تفسير قوله تعالى: ﴿مَا لَبِثُوا﴾ ما المراد به، فقال بعضهم: يقصد أهل الشرك أنهم ما لبثوا في قبورهم غير ساعة واحدة هذا هو الرأي الذي أختاره لما سيأتي من قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ﴾.

وقال آخرون من أهل العلم: إن مرادهم ما لبثوا في الدنيا غير ساعة واحدة، وهذه أقوال بعض أهل العلم في هذا الباب.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ويوم تجيء ساعة البعث، فيبعث الخلق من قبورهم، يقسم المجرمون، وهم الذين كانوا يكفرون بالله في الدنيا، ويكتسبون فيها الآثام، وإقسامهم: حلفهم بالله ﴿مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾. يقول: يقسمون بأنهم لم يلبثوا في قبورهم غير ساعة واحدة، يقول الله جلّ ثناؤه: كذلك في الدنيا كانوا يؤفكون: يقول: كذبوا في قيلهم وقسمهم ما لبثوا غير ساعة، كما كانوا في الدنيا

يكذبون ويحلفون على الكذب وهم يعلمون.

وأورد بإسناد حسن عن قتادة: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِرُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبَثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ أي: يكذبون في الدنيا.

قال الطبري: وإنما يعني بقوله: ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ عن الصدق، ويصدُّون عنه إلى الكذب.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

يخبر تعالى عن جهل الكفار في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا فعلوا ما فعلوا من عبادة الأوثان، وفي الآخرة يكون منهم جهل عظيم أيضاً، فمنه إقسامهم بالله أنهم ما لبثوا في الدنيا إلا ساعة واحدة، ومقصودهم بذلك عدم قيام الحجة عليهم، وأنهم لم يُنظَرُوا حتى يُعَذَّرَ إليهم. قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

وفي معنى: ﴿مَا لَبَثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ قولان: أحدهما: أنه لا بد من خدمة قبل يوم القيامة فعلى هذا قالوا: ما لبثنا غير ساعة والقول الآخر: أنهم يعنون في الدنيا لزوالها وانقطاعها كما قال تعالى: ﴿كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُرَوَّنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى﴾ [النازعات: ٤٦] كأن ﴿لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ﴾ وإن كانوا قد أقسموا على غيب وعلى غير ما يدرون قال الله ﷻ: ﴿كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ أي كانوا يكذبون في الدنيا يقال: أفك الرجل إذا صرف عن الصدق والخير وأرض مأفوك: ممنوعة من المطر وقد زعم جماعة من أهل النظر أن القيامة لا يجوز أن يكون فيها كذب لما هم فيه والقرآن يدل على غير ذلك قال الله ﷻ: ﴿كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ أي كما صرفوا عن الحق في قسمهم أنهم ما لبثوا غير ساعة كذلك

كانوا يصرفون عن الحق في الدنيا وقال جل وعز: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ إِلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٨] وقال: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ (٢٣) أَنْظَرَ كَيْفَ كَذَبُوا ﴿[الأنعام: ٢٣ - ٢٤].



س: هل في قولهم ما لبثوا غير ساعة ما يفيد نفيًا لعذاب القبر؟

ج: كلا بل عذاب القبر حق، أما عن توجيه كونهم قالوا: إنهم ما لبثوا غير ساعة فأقول، وبالله التوفيق: إن ذهبنا إلى أن قوله: ﴿مَا لَبِثُوا﴾ في الدنيا فلا إشكال، وإن حملنا قوله ﴿مَا لَبِثُوا﴾ على المكث في القبر فتوجيه قولهم بما حاصله أن عذاب الآخرة يُنسيهم ما كانوا فيه من عذاب القبر، والله أعلم.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ أي يحلف المشركون ﴿مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ ليس في هذا رد لعذاب القبر إذ كان قد صح عن النبي ﷺ من غير طريق أنه تعوذ منه وأمر أن يتعوذ منه فمن ذلك ما رواه عبد الله بن مسعود قال: سمع النبي ﷺ أم حبيبة وهي تقول: اللهم أمتعني بزواجي رسول الله وبأبي أبي سفيان وبأخي معاوية فقال لها النبي ﷺ: «لقد سألت الله لأجال مضروبة وأرزاق مقسومة ولكن سليه أن يعيدك من عذاب جهنم وعذاب القبر» في أحاديث مشهورة خرجها مسلم والبخاري وغيرهما وقد ذكرنا منها جملة في كتاب التذكرة.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾؟

ج: هذا ردُّ على أهل الكفر والإجرام الذين أقسموا بالله كاذبين أنهم ما لبثوا في قبورهم غير ساعة، وما لبثوا في الدنيا غير ساعة فعندئذٍ يردُّ عليهم أهل الإيمان بالله ﷻ ورسله، وأهل العلم بكتاب الله ﷻ وسنن المرسلين، لقد لبثتم يا أهل الإجرام في قبوركم، ليس ساعة واحدة كما تزعمون - ولكنكم لبثتم فيها إلى يوم القيامة، فهذا يوم القيامة ولكنكم كنتم لا تعلمون في الدنيا أنه آتٍ لا ريب فيه، بل كذبتهم به.

قال الطبري رحمه الله:

أورد الطبري بإسنادٍ حسن عن قتادة قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ قال: هذا من مقادير الكلام. وتأويلها: وقال الذين أوتوا الإيمان والعلم: لقد لبثتم في كتاب الله.

قال الطبري:

وقوله: ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ يقول: فيما كتب الله مما سبق في علمه أنكم تلبثونه ﴿فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ﴾ يقول: فهذا يوم يبعث الناس من قبورهم ﴿وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ يقول: ولكنكم كنتم لا تعلمون في الدنيا أنه يكون، وأنكم مبعوثون من بعد الموت، فلذلك كنتم تكذبون.

وقال ابن كثير رحمه الله:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ أي: فيرد عليهم المؤمنون العلماء في الآخرة، كما أقاموا عليهم حجة الله في الدنيا، فيقولون لهم حين يحلفون ما لبثوا غير ساعة: ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي: في كتاب

الأعمال، ﴿إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ أي: من يوم خلقتم إلى أن بعثتم، (وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ).

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ﴾
اختلف في الذين أوتوا العلم فقيل الملائكة وقيل الأنبياء وقيل علماء الأمم
وقيل مؤمنو هذه الأمة وقيل جميع المؤمنين أي يقول المؤمنون للكفار ردًّا
عليهم لقد لبثتم في قبوركم إلى يوم البعث والفاء في قوله: ﴿فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ﴾
جواب لشرط محذوف دل عليه الكلام مجازة: إن كنتم منكبين البعث فهذا
يوم البعث.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ:

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا
يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذكر جلَّ وعلا في هذه الآية الكريمة أن
الكفار إذا بعثوا يوم القيامة، وأقسموا أنهم ما لبثوا غير ساعة يقول لهم الذين
أوتوا العلم والإيمان، ويدخل فيهم الملائكة، والرسل، والأنبياء،
والصالحون: والله لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث، فهذا يوم البعث،
ولكنكم كنتم لا تعلمون.

وهذا المعنى الذي دلَّت عليه هذه الآية الكريمة جاء موضحةً في سورة
«يس» على أصحِّ التفسيرين، وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ
مَرْقَدِنَا﴾ [يس: ٥٢].

والتحقيق أن هذا قول الكفار عند البعث، والآية تدلُّ دلالة لا لبس فيها،
على أنهم ينامون نومة قبل البعث، كما قاله غير واحد، وعند بعثهم أحياء من

تلك النومة التي هي نومة موت يقول لهم الذين أوتوا العلم والإيمان: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾، أي: هذا البعث بعد الموت، الذي وعدكم الرحمن على ألسنة رسله، وصدق المرسلون في ذلك، كما شاهدتموه عياناً، فقولوه في «يس»: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾، قول الذين أوتوا العلم والإيمان، على التحقيق، وقد اختاره ابن جرير، وهو مطابق لمعنى قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِئْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ (الآية).

والتحقيق أن قوله هذا إشارة إلى ما وعد الرحمن وأنها من كلام المؤمنين، وليست إشارة إلى المرقد في قول الكفار: ﴿مَنْ بَعَثْنَا مِنْ مَرْقَدًا هَذَا﴾، وقوله: ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾، أي: فيما كتبه وقدره وقضاه. وقال بعض العلماء: أن قوله: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾ الآية، من قول الكفار، ويدل له قوله في «الصفات»: ﴿وَقَالُوا بَوَلَّيْنَا هَذَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ (٢٠) هَذَا يَوْمَ الْفَصْلِ ﴿الآية.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعَذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ (٥٧).

ج: المعنى - والله أعلم -: فيوم القيامة لا ينفع أهل الشرك اعتذارهم الذين يقدمونه عما بدر منهم وصدر في الدنيا، وكذلك إذا طلبوا أن يرجعوا إلى الدنيا فلن يرجعوا ولن يقبل طلبهم ذلك.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: فيوم يبعثون من قبورهم ﴿لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعَذِرَتُهُمْ﴾ يعني: المكذبين بالبعث في الدنيا ﴿مَعَذِرَتُهُمْ﴾، وهو قولهم: ما علمنا أنه

يكون، ولا أنا نُبعث ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ يقول: ولا هؤلاء الظلمة يُسترجعون يومئذٍ عما كانوا يكذبون به في الدنيا.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

قال الله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعَذِرَتُهُمْ﴾ أي: لا ينفعهم اعتذارهم عما فعلوا، ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي: ولا هم يرجعون إلى الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَأَن يَسْتَعْتَبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ [فصلت: ٢٤].

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعَذِرَتُهُمْ﴾ أي لا ينفعهم العلم بالقيامة ولا الاعتذار يومئذٍ وقيل: لما رد عليهم المؤمنون سألوا الرجوع إلى الدنيا واعتذروا فلم يعذروا ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي ولا حالهم حال من يستعتب ويرجع يقال: استعتبته فأعتبني أي استرضيته فأرضاني وذلك إذا كنت جانيًا عليه وحقيقة أعتبته: أزلت عتبه.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّا نَسُوا إِنَّمَا مَبْطُلُونَ﴾ (٥٨) كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٥٩) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ (٦٠)﴾.

ج: المعنى - والله أعلم-: ولقد سقنا في هذا الكتاب العزيز أمثلة كثيرة وضربناها للناس يستدلون بها على وحدانيتنا وعلى قدرتنا على كل شيء، وعلى البعث بعد الموت، ولكن مع ذلك كله لم يؤمنوا بها ولم يصدقوا ولم يعتبروا، ولئن جئتهم يا رسول الله بآية معجزة وآية خارقة للعادة سواء معجزة

سأولها أو لم يسألوها طلبوها أم لم يطلبوها، ما آمنوا ولا صدقوا بل وصفوكم بأنكم مبطلون، متبعون للباطل والسحر والشعوذة، فهكذا يختم الله ﷻ على قلوب أهل الكفر هؤلاء، فلا يصل إليها خيرٌ، ولا يصل إليها إيمان ولا هدى، فاصبر على قضاء الله وقدره في هؤلاء، واصبر على جهالات هؤلاء وتكذيبهم لك فإن وعد الله ﷻ الذي وعدك به حق، وكل وعوده حق، سواء الوعد الذي وعدك بنصرك عليهم، أو الوعد الذي وعدك بانتقامه منهم ولا يستفزنك هؤلاء، ولا يخرجونك عن حالك، لا تستنفر من قيل هؤلاء الذي لا يصدقون بوعدٍ ولا يقرون بشواب ولا بعقاب ولا بجنة ولا بنار، ولا يقرون لله ﷻ بالتوحيد.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ولقد مثلنا للناس في هذا القرآن من كل مثل احتجاجاً عليهم، وتنبيهاً لهم عن وحدانية الله. وقوله: ﴿وَلَيْنَ حِجَّتْهُمْ بَايَةَ﴾ يقول: ولئن جئت يا محمد هؤلاء القوم بآية، يقول: بدلالة على صدق ما تقول ﴿لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ يقول: ليقولن الذين جحدوا رسالتك، وأنكروا نبوتك، إن أنتم أيها المصدقون محمدا فيما أتاكم به إلا مبطلون فيما تجيئوننا به من هذه الأمور.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾

(٥٩).

يقول تعالى ذكره: كذلك يختم الله على قلوب الذين لا يعلمون حقيقة ما تأتيهم به يا محمد من عند الله من هذه العبر والعظات، والآيات البينات، فلا

يفقهون عن الله حُجة، ولا يفهمون عنه ما يتلو عليهم من آي كتابه، فهم لذلك في طغيانهم يتردّدون.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾.

يقول تعالى ذكره: فاصبر يا محمد لما ينالك من أذاهم، وبلغهم رسالة ربك، فإن وعد الله الذي وعدك من النصر عليهم، والظفر بهم، وتمكينك وتمكين أصحابك وتبائعك في الأرض حقٌّ ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ يقول: ولا يستخفنّ حلمك ورأيك هؤلاء المشركون بالله الذين لا يوقنون بالمعاد ولا يصدّقون بالبعث بعد الممات، فيشطوك عن أمر الله والنفوذ لما كلّفك من تبليغهم رسالته.

وأورد الطبري بإسناد حسن عن قتادة: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ قال: قال رجل من الخوارج خلف عليّ في صلاة الغداة: (وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَكَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) [الزمر: ٦٥] فأنصت له عليّ رضي الله عنه حتى فهم ما قال؛ فأجابه وهو في الصلاة: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾.

ولكنه منقطع بين قتادة وعليّ لكن له شاهد يُحسّن به أخرجه الطبري من وجهين عن علي بن ربيعة عن عليّ رضي الله عنه.

وقال ابن كثير رحمه الله:

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: قد بينا لهم الحق، ووضحناه لهم، وضربنا لهم فيه الأمثال ليتبينوا الحق ويتبعوه. ﴿وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ أي: لو رأوا أي آية كانت، سواء كانت باقتراحهم أو غيره، لا يؤمنون بها، ويعتقدون أنها سحر وباطل،

كما قالوا في انشقاق القمر ونحوه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٦ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿كَذَلِكَ يَطْعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٩١﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۝ أَي: اصبر على مخالفتهم وعنادهم، فإن الله تعالى منجز لك ما وعدك من نصره إياك، وجعل العاقبة لك ولمن اتبعك في الدنيا والآخرة، (وَلَا يَسْتَخَفَّنَكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ) ۝ أَي: بل اثبت على ما بعثك الله به، فإنه الحق الذي لا مرية فيه، ولا تعدل عنه وليس فيما سواه هدى يتبع، بل الحق كله منحصر فيه.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ ۝ أَي من كل مثل يدلهم على ما يحتاجون إليه وينبهم على التوحيد وصدق الرسل (وَلَيْنِ جَحْتَهُمْ بِثَايَةٍ) ۝ أَي معجزة كفلق البحر والعصا وغيرهما ﴿يَقُولُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ ۝ أَي تتبعون الباطل والسحر (كَذَلِكَ) ۝ أَي كما طبع الله على قلوبهم حتى لا يفهموا الآيات عن الله فكذلك ﴿يَطْعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ۝ أدلة التوحيد، ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ ۝ أَي: صبر على أذاهم فإن الله ينصرك ﴿وَلَا يَسْتَخَفَّنَكَ﴾ ۝ أَي لا يستغفرك عن دينك ﴿الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ ۝ قيل: هو النضر بن الحارث والخطاب للنبي ﷺ والمراد أمته يقال: استخف فلان فلاناً أي استجهله حتى حمله على اتباعه في الغي وهو في موضع جزم بالنهي أكد بالنون الثقيلة فبني على الفتح كما بينى الشيطان إذا ضم أحدهما إلى الآخر الذين لا يوقنون في موضع رفع ومن العرب من يقول: اللذون في موضع الرفع.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ:

﴿فَاصْبِرْ﴾ على ما أمرت به، وعلى دعوتهم إلى الله.
ولو رايت منهم إعراضاً، فلا يصدنك ذلك.
﴿إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ أي: لا شك فيه، وهذا مما يعين على الصبر، فإن العبد
إذا علم أن علمه غير ضائع، بل سيجده كاملاً، هان عليه ما يلقاه من المكاره،
وتيسر عليه كل عسير، واستقل من عمله كل كثير.
﴿وَلَا يَسْتَخَفَّنَا الَّذِينَ لَا يُؤْفِقُونَ﴾ أي: قد ضعف إيمانهم، وقل يقينهم،
فخفت لذلك أحلامهم، وقل صبرهم.
فإياك أن يستخفك هؤلاء، فإنك إن تجعلهم منك على بال، وتحذر منهم،
وإلا استخفوك وحملوك على عدم الثبات، على الأوامر والنواهي.
والنفس تساعدهم على هذا وتطلب التشبه والموافقة.
وهذا مما يدل على أن كل مؤمن موقن رزين العقل يسهل عليه الصبر.
وكل ضعيف اليقين ضعيف العقل خفيفه.
فالأول بمنزلة اللب، والآخر بمنزلة القشور فالله المستعان



تفسير سورة لقمان

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

﴿الْعَمَّ ١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾
الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَى
هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ
الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ
مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا نُتِلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ
وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ
النَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ
بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ
وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ
فَارُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ۚ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾

[لقمان: ١-١١].

س: اذكر معنى ما يلي:

﴿الْكُتُبِ﴾ - الْحَكِيمِ - هُدًى - الْمُحْسِنِينَ - يُوقِنُونَ - الْمُفْلِحُونَ - يَشْتَرِي - لَهُوَ الْحَدِيثُ - يُضِلُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ - هُزُؤًا - مُهِينٌ - وَلَّى مُسْتَكْبِرًا - وَقَرَأَ - رَوَى أَنْ تَمِيدَ - وَتَّ فِيهَا - كَرِيمٍ - ضَلَّالٍ مُبِينٍ ؟

ج:

معناها	الكلمة
القرآن	﴿الْكُتُبِ﴾
المحكم (لا خلل فيه ولا تناقض) الذي يدعو إلى كل خير وينهى عن كل شر - ذو الحكمة - الحاكم	﴿الْحَكِيمِ﴾
بيان ودلالة على طريق الحق - سبب توفيق	﴿هُدًى﴾
للذين أحسنوا في العمل، وهم أيضًا الذين يراقبون الله ويخشونه	﴿الْمُحْسِنِينَ﴾
يصدقون تمام التصديق	﴿يُوقِنُونَ﴾
الفائزون بالمطلوب والناجون من المرهوب	﴿الْمُفْلِحُونَ﴾
يشترى (من الشراء المعهود المعروف وكانوا يشترون المُغنيات) وقيل: يختار	﴿يَشْتَرِي﴾
الحديث المُلهى (عن ذكر الله)	﴿لَهُوَ الْحَدِيثُ﴾
ليصرف الناس عن طريق الله	﴿يُضِلُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾
استهزاءً وسخريةً	﴿هُزُؤًا﴾

﴿مُهَيِّنٌ﴾	مُذَلٌّ وَمُخَزٍ
﴿وَلَىٰ مُسْتَكْبِرًا﴾	انصرف مُعْرِضًا مُتَعَالِيًا
﴿وَقَرًّا﴾	صَمَمًا - ثَقَلًا
﴿رَوَّاسِي﴾	جبالًا لإرسائها
﴿أَن تَمِيدَ﴾	لئلا تميل
﴿وَبَثَّ فِيهَا﴾	فَرَّقَ وَنَشَرَ
﴿كَرِيمٍ﴾	حسن
﴿ضَلَّالٍ مُّبِينٍ﴾	ذهاب عن الحق ظاهر - ذهاب عن الحق في طريق مظهر لمن تأمله أن سالكه ضال



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الْحِكْمَ﴾ ١ هُدى
وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ ٢ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ٤ أُولَئِكَ عَلَى
هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ٥.

ج: المعنى إجمالاً- والله أعلم -: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الْحِكْمَ﴾ هذه التي ستلى عليك آيات
الكتاب الحكيم القرآن الداعي إلى كل خير، الناهي عن كل شر، المحكم
الذي لا تناقض فيه ولا خلل ولا اختلاف ولا تعارض، أنزلناها عليك يا
رسول الله هداية ودلالة على طريق الحق لمن أراد سلوكه من أهل الإحسان
أهل المراقبة والخشية، أهل العلم الصالح، أنزلناها عليك يا رسول الله رحمة
من الله بهم، بهؤلاء الذين يقيمون الصلاة ويؤدون الزكاة الذي يريد الله
منهم، وفي الوقت الذي أمرهم فيه بإقامتها، وكذلك يؤدون الزكوات التي
أوجبها الله عليهم طيبةً بذلك نفوسهم مطمئنةً بذلك قلوبهم، فهم أهل اليقين

والتصديق بوعد الله ووعيده وبلقائه وثوابه وعقابه، فهؤلاء على طريق الحق والهداية، طريق الجنة سائرون بتوفيق من الله لهم وإعانة على سلوك هذا الطريق، فأولئك هم الفائزون بالمطلوب، الناجون من المرهوب، وأعظم مطلوب لهم الجنة) وأعظم مرهوبٍ يرهبونه النار - والعياذ بالله.

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴾ يقول جل ثناؤه: هذه آيات الكتاب الحكيم بيانًا وتفصيلًا. وقوله: ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً ﴾ يقول: هذه آيات الكتاب بيانًا ورحمة من الله، رحم به من اتبعه، وعمل به من خلقه.

وقوله: ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ وهم الذين أحسنوا في العمل بما أنزل الله في هذا القرآن، يقول تعالى ذكره: هذا الكتاب الحكيم هدى ورحمة للذين أحسنوا، فعملوا بما فيه من أمر الله ونهيه ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ يقول: الذين يقيمون الصَّلَاةَ المفروضة بحدودها ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ مَنْ جعلها الله له المفروضة في أموالهم ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ يقول: يفعلون ذلك وهم بجزاء الله وثوابه لمن فعل ذلك في الآخرة يوقنون.

وقال رَحِمَهُ اللهُ:

يقول تعالى ذكره: هؤلاء الذين وصفت صفتهم على بيان من ربهم ونور (وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) يقول: وهؤلاء هم المنجحون المدركون ما رَجَوا وأملوا من ثواب ربهم يوم القيامة.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

تقدم في أول سورة «البقرة» عامة الكلام على ما يتعلق بصدر هذه السورة، وهو أنه تعالى جعل هذا القرآن هُدًى وشفاء ورحمة للمحسنين، وهم الذين

أحسنوا العمل في اتباع الشريعة، فأقاموا الصلاة المفروضة بحدودها وأوقاتها، وما يتبعها من نوافل راتبة وغير راتبة، وآتوا الزكاة المفروضة عليهم إلى مستحقيها، ووصلوا قرابتهم وأرحامهم، وأيقنوا بالجزاء في الدار الآخرة، فرغبوا إلى الله في ثواب ذلك، لم يراؤوا به ولا أرادوا جزاءً من الناس ولا شكورا، فَمَنْ فعل ذلك كذلك فهو من الذين قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي: على بصيرة وبينة ومنهج واضح وجلي، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: في الدنيا والآخرة.

قال الشنقيطي رحمه الله:

يشير تعالى إشارة دالة على التعظيم إلى ﴿ءَايَتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ أي: إن آياته محكمة، صدرت من حكيم خبير.

ومن أحكامها: أنها جاءت بأجل الألفاظ وأفصحها وأبينها، الدالة على أجل المعاني وأحسنها.

ومن أحكامها: أنها محفوظة من التغيير والتبديل، والزيادة والنقص، والتحريف.

ومن أحكامها: أن جميع ما فيها من الأخبار السابقة واللاحقة والأمر الغيبية كلها مطابقة للواقع، مطابق لها الواقع، لم يخالفها كتاب من الكتب الإلهية، ولم يخبر بخلافها نبي من الأنبياء، ولم يأت، ولن يأت علم محسوس ولا معقول صحيح يناقض ما دلت عليه.

ومن أحكامها: أنها ما أمرت بشيء، إلا هو خالص المصلحة، أو راجحها.

ولا نهت عن شيء، إلا وهو خالص المفسدة، أو راجحها. وكثيراً ما يجمع بين الأمر بالشيء، مع ذكر حكمته وفائدته، والنهي

عن الشيء، مع ذكر مضرتة.

ومن أحكامها: أنها جمعت بين الترغيب والترهيب، والوعظ البليغ الذي تعتدل به النفوس الخيرة وتحتكم فتعمل بالحزم.

ومن أحكامها: أنك تجد آياتها المتكررة، كالقصص والأحكام ونحوها قد اتفقت كلها وتواطأت، فليس فيها تناقض ولا اختلاف.

فكلما ازداد بها البصير تدبراً وأعمل فيها العقل تفكيراً انبهر عقله، وذهل لبه من التوافق والتواطؤ، وجزم جزماً لا يمتري فيه أنه تنزيل من حكيم حميد.

ولكن - مع أنه حكيم - يدعو إلى كل خلق كريم، وينهى عن كل خلق لئيم.



مبحث في الغناء

س: ما المراد بلهو الحديث؟

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها وأشهرها: أن المراد بلهو الحديث الغناء.

الثاني: أن المراد بلهو الحديث الطبل.

الثالث: أن المراد بلهو الحديث الشرك.

أما عن أقوال العلماء بشيء من التفصيل.

فقد ورد عند الطبري وغيره من طريق أبي الصهباء البكري^(١) أنه سمع عبد

الله بن مسعود وهو يسأل عن هذه الآية: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ

(١) لكن في إسناده أبو الصهباء البكري، وحديثه لا يرتقي للتحسين.

عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴿٢٩٣﴾ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: الْغَنَاءُ، وَالَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، يَرُدُّهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ.

وأخرج الطبري وغيره: من وجوه متعددة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ﴿وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهُوَ الْحَدِيثُ﴾ قال: الغناء. وهو صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وأخرج الطبري أيضًا من طريق: حدثنا الحسن بن عبد الرحيم، قال: ثنا عبيد الله بن موسى، قال: ثنا سفيان، عن قابوس بن أبي ظبيان، عن أبيه، عن جابر في قوله: ﴿وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهُوَ الْحَدِيثُ﴾ قال: هو الغناء والاستماع له. **وأورد الطبري أيضًا:** بأسانيد تصح عن مجاهد أنه قال: ﴿وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهُوَ الْحَدِيثُ﴾ قال: الغناء، وفي بعض الروايات عن مجاهد الغناء وكل لهو باطل أو الاستماع إليه.

وبأسانيد تصح عن عكرمة قال: الغناء.

وأورد الطبري بإسناد صحيح عن ابن زيد: في قوله: ﴿وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهُوَ الْحَدِيثُ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ قال: هؤلاء أهل الكفر، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَإِذَا نُتِلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ وَقْرًا﴾ فليس هكذا أهل الإسلام، قال: وناس يقولون: هي فيكم وليس كذلك، قال: وهو الحديث الباطل الذي كانوا يلغون فيه.

قال الطبري رحمه الله:

والصواب من القول في ذلك أن يقال: عني به كل ما كان من الحديث ملهياً عن سبيل الله مما نهى الله عن استماعه أو رسوله؛ لأن الله تعالى عم بقوله: ﴿لَهُوَ الْحَدِيثُ﴾ ولم يخصص بعضاً دون بعض، فذلك على عمومته حتى يأتي

ما يدلّ على خصوصه، والغناء والشرك من ذلك.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

لما ذكر تعالى حال السعداء، وهم الذين يهتدون بكتاب الله ويتفنون بسماعه، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ زَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَدِّهَا مَثَانِي نَفْسَعِرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٢٣)﴾ [الزمر: ٢٣]، عطف بذكر حال الأشقياء، الذين أعرضوا عن الانتفاع بسماع كلام الله، وأقبلوا على استماع المزامير والغناء بالألحان وآلات الطرب.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

قلت: هذه إحدى الآيات الثلاث التي استدل بها العلماء على كراهة الغناء والمنع منه .

والآية الثانية قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ سَمِيدُونَ﴾ [النجم: ٦١] قال ابن عباس: هو الغناء بالحميرية اسمدي لنا أي غني لنا.

والآية الثالثة قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَفْزِرُ مِنْ أَسْطَعَتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤].

وأخرج الطبري بإسناد صحيح عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَنْتُمْ سَمِيدُونَ﴾ قال:

هي يمانية: اسمد تغن لنا.



س: ما المراد بقوله تعالى: ﴿يَشْتَرِي لَهُوَ الْحَدِيثُ﴾؟

ج: لأهل العلم في ذلك قولان:

أولهما: يشتري المغنيات (الجواري) كي يغنين.

الثاني: يختار من الحديث ما هو لهو وباطل.

قلت: ويلتحق بالأول شراء آلات اللهو والطرب.

اختلف أهل التأويل، في تأويل قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ فقال بعضهم: من يشتري الشراء المعروف بالثمن، ورووا بذلك خبراً عن رسول الله ﷺ.

قلت: وأورد الطبري رحمه الله من طريق: عبید الله بن زحر، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا يَحِلُّ بَيْعُ الْمُغْنِيَّاتِ، وَلَا شِرَاؤُهُنَّ، وَلَا التَّجَارَةُ فِيهِنَّ، وَلَا أَثْمَانُهُنَّ، وَفِيهِنَّ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾».

قلت (مصطفى): وهذا سند ضعيف جداً.

وقال الطبري: وقال آخرون: بل معنى ذلك: من يختار لهو الحديث ويستحبه، وأورد بسند حسن عن قتادة قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ والله لعله أن لا ينفق فيه مالاً، ولكن اشتراؤه استحبابه، بحسب المرء من الضلالة أن يختار حديث الباطل على حديث الحق، وما يضر على ما ينفع.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾؟

ج: المعنى: ليصرف الناس عن طريق الله ﷻ تلك الطريق الموصِل إلى جنته ومرضاته.

وقيل: إن اللام هنا لام العاقبة، بمعنى أنه يشتري لهو الحديث فينصرف الناس عن طريق الله، فبصنيعه ينصرف الناس عن طريق الله.

قال الطبري رحمه الله:

وقوله: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يقول: ليصد ذلك الذي يشتري من لهو

الحديث عن دين الله وطاعته، وما يقرب إليه من قراءة قرآن وذكر الله.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

وقوله: ﴿يُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: إنما يصنع هذا للتخالف للإسلام وأهله. وعلى قراءة فتح الياء، تكون اللام لام العاقبة، أو تعليلًا للأمر القدري، أي: قُيُضُوا لذلك ليكونوا كذلك.



س: قوله تعالى: ﴿بَغْيٍ عَلِيمٍ﴾ بغير علم بماذا؟

ج: بغير علم بعقوبته التي سيعاقب بها.

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

وقوله: ﴿بَغْيٍ عَلِيمٍ﴾ يقول: فعل ما فعل من اشترائه لهو الحديث جهلاً منه بما له في العاقبة عند الله من وزر ذلك وإثمه.



س: قوله تعالى: ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ يتخذ ماذا؟

ج: قيل يتخذ طريق الله هزواً، أي: ويتخذ سبيل الله هزواً، أي: استهزاء وسخرية فإذا دعاه أحد إلى طريق الله سخر منه ومنها، وقيل: ويتخذ آيات الله هزواً.

وأورد الطبري بإسناد حسن عن قتادة: قال: بِحَسْبِ المرء من الضلالة أن يختار حديث الباطل على حديث الحق، وما يضّرّ على ما ينفع، ويتخذها هزواً يستهزئ بها ويكذب بها. وهما من أن يكونا من ذكر سبيل الله أشبه عندي لقربهما منها، وإن كان القول الآخر غير بعيد من الصواب، واتخاذ ذلك هزواً هو استهزؤه به.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

ج: هؤلاء الذين اشتروا لهو الحديث ليضلوا عن سبيل الله، واتخذوها هزواً لهم يوم القيامة عذاب مذلّ مخزٍ مهين.

قال الطبري رحمه الله:

وقوله: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ يقول تعالى ذكره: هؤلاء الذين وصفنا أنهم يشترون لهو الحديث ليضلوا عن سبيل الله لهم يوم القيامة عذاب مذلّ مخزٍ في نار جهنم.

وقال ابن كثير رحمه الله:

وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي: كما استهانوا بآيات الله وسبيله، أهينوا يوم القيامة في العذاب الدائم المستمر.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَىٰ مُسْتَكْبِرًا كَانَ لَبِّهِمْ أَسْمَعُهَا كَانَتْ فِي أذُنَيْهِ وَقَرَأَ فَنَبِيْرُهُ بَعْدَ الْبَرِّ﴾.

ج: المعنى -والله أعلم-: وإذا تتلى على هذا الذي اشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله، إذا تتلى عليه آياتنا أدبر متعالياً عليها رافضاً لها مستكبراً عن قبولها كأنه لم يسمع شيئاً، بل وكأن في أذنيه صمماً وثقلاً، فأخبر هذا المتولي المعرض بأنه قد أعد له أليم العذاب وشديد العقاب.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: وإذا تُلِي على هذا الذي اشترى لهو الحديث للإضلال عن سبيل الله آيات كتاب الله، فقرئت عليه ﴿وَلَىٰ مُسْتَكْبِرًا﴾ يقول: أدبر عنها، واستكبر استكباراً، وأعرض عن سماع الحق والإجابة عنه ﴿كَانَ لَبِّهِمْ أَسْمَعُهَا كَانَتْ فِي أذُنَيْهِ﴾

أُذِّنِيهِ وَقَرَأَ ﴿١﴾ يقول: ثقلاً فلا يطيق من أجله سماعه.

وقوله: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ يقول تعالى ذكره: فبشر هذا المعرض عن آيات الله إذا تليت عليه استكباراً بعذاب له من الله يوم القيامة مؤجّع، وذلك عذاب النار.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

قوله تعالى: (وَإِذَا نُتِلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا) يعني القرآن وَلَّى أي أعرض (مُسْتَكْبِرًا) ﴿٢﴾ نصب على الحال ﴿كَانَ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ ﴿٣﴾ ثقلاً وصمماً.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا نُتِلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنَّ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ أي: هذا المقبل على اللهو واللعب والطرب، إذا تليت عليه الآيات القرآنية، وَلَّى عنها وأعرض وأدبر وتَصَامَّ وما به من صَمَمٍ، كأنه ما يسمعها؛ لأنه يتأذى بسماعها؛ إذ لا انتفاع له بها، ولا أَرْبَ له فيها، ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ﴿٤﴾ أي: يوم القيامة يؤلمه، كما تألم بسماع كتاب الله وآياته.



بعض الوارد في الغناء والمعارف

س: هل المعارف حلال أم حرام؟

ج: الظاهر - والله تعالى أعلم - أن المعارف محرمة وذلك لما أخرجه البخاري^(١) في صحيحه إذ قال: وَقَالَ هِشَامُ بْنُ عَمَّارٍ^(٢): حَدَّثَنَا صَدَقَةُ بْنُ خَالِدٍ حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ يَزِيدَ بْنِ جَابِرٍ حَدَّثَنَا عَطِيَّةُ بْنُ قَيْسٍ الْكِلَابِيُّ حَدَّثَنَا

(١) البخاري (مع الفتح ١٠ / ٥١)، وهو معلق كما ترى.

(٢) صورته صورة المعلق، لكن أشار الحافظ ابن حجر إلى من وصله في «(الفتح» ١٠ / ٥٣)، وفي

«(تغليق التعليق» ٥ / ١٧)، فما بعدها، وفي «(هدي الساري» ص ٥٩).

عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ غَنَمٍ الْأَشْعَرِيُّ قَالَ : حَدَّثَنِي أَبُو عَامِرٍ - أَوْ أَبُو مَالِكٍ الْأَشْعَرِيُّ - وَاللَّهُ مَا كَذَّبَنِي سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ : «لَيَكُونَنَّ مِنْ أُمَّتِي أَقْوَامٌ يَسْتَحِلُّونَ^(١) الْحِرَّ^(٢)، وَالْحَرِيرَ، وَالْخَمَرُ، وَالْمَعَازِفَ^(٣)، وَلَيَنْزِلَنَّ أَقْوَامٌ إِلَى جَنْبِ عِلْمٍ^(٤) يَرْوُحُ عَلَيْهِمْ^(٥) بِسَارِحَةٍ^(٦) لَهُمْ، يَأْتِيهِمْ - يَعْنِي : الْفَقِيرَ - لِحَاجَةٍ فَيَقُولُوا : ازْجِعْ إِلَيْنَا غَدًا فَيُيَسِّرُهُمُ^(٧) اللَّهُ وَيَضَعُ^(٨) الْعِلْمَ، وَيَمْسَخُ آخِرِينَ قِرْدَةً وَخَنَازِيرَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ».



(١) قال الحافظ في «الفتح» ١٠/ ٥٥: قوله: «يستحلون» قال ابن العربي: يحتمل أن يكون المعنى:

يعتقدون ذلك حلالاً، ويحتمل أن يكون ذلك مجازاً على الاسترسال أي: يسترسلون في شربها كالاسترسال في الحلال، وقد سمعنا ورأينا من يفعل ذلك.

(٢) الحر: قال الحافظ: ضبطه ابن نصر بالحاء المهملة المكسورة والراء الخفيفة وهو الفرج، ثم نقل معنى ذلك فقال: والمعنى يستحلون الزنا.

(٣) قال الحافظ: والمعازف بالعين المهملة والزاي بعدها فاء جمع معزفة بفتح الزاي وهي آلات الملاهي، ونقل القرطبي عن الجوهرى أن المعازف: الغناء، والذي في «صحاحه» أنها آلات اللهو، وقيل: أصوات الملاهي، وفي «حواشي الدمياطي»: المعازف: الدفوف وغيرها مما يضرب به، ويطلق على الغناء عزف وعلى كل لعب عزف.

(٤) العلم: هو الجبل العالي، ومنه قول الله تعالى: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ [الرحمن: ٢٤]، وقيل: هو رأس الجبل وله وجه.

(٥) يروح عليهم: أي: الراعي.

(٦) السارحة هي: الماشية.

(٧) ييسرهم: أي: يهلكهم ليلاً، ومنه قول الله تعالى: (وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ) [الأعراف: ٤].

(٨) أي: يوقع الجبل عليهم.

شيء من التفصيل في شأن الغناء

س: هل الغناء كله حرام؟

ج: ليس الغناء بمحرم كله، بل منه المباح ومنه المكروه، ومنه المحرم، وغير ذلك.

فالمحرم منه ما كان فيه تحريض على الفاحشة والفسق والفجور، وما كان فيه معصية لله أو شرك به، وما كان فيه فسادٌ بصفة عامة؛ إذ الله قال: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥] أو ما كان مصحوبًا بمعازف.

أما المباح منه فما كان في مناسبات، وكانت كلماته تحمل معاني طيبة ولم يكن عادة.

أما المكروه منه فما كان لا يحمل شيئاً محرماً ولكن يشغل عما هو أفضل.

أما المستحب منه فما كان فيه تشجيع على عمل البر وعلى طرائق الإحسان، والله أعلم.

وينبغي أن يقيد بما لا يكون عادة، ولا يكثر منه حتى لا يطغى على كتاب الله ﷻ.



س: اذكر بعض الوارد في الغناء المباح؟

ج: من ذلك ما يلي:

ما أخرجه البخاري ومسلم^(١) من حديث:

عائشة رضي الله عنها قالت: دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَعِنْدِي جَارِيتَانِ تُغْنِيَانِ^(٢)

(١) البخاري (مع الفتح ٢/ ٤٤٠)، ومسلم (٨٩٢).

(٢) في بعض روايات البخاري (٢/ ٤٤٥)، ومسلم (٨٩٢) زيادة: وليستا بمغنيتين.

بِغَنَاءٍ بُعَاثٍ^(١)، فَاضْطَجَعَ عَلَى الْفِرَاشِ وَحَوْلَ وَجْهَهُ، وَدَخَلَ أَبُو بَكْرٍ فَاتَّهَرَنِي وَقَالَ: مِزْمَارَةُ الشَّيْطَانِ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «دَعُوهُمَا»، فَلَمَّا غَفَلَ غَمَزَتْهُمَا فَخَرَجَتَا، وَكَانَ يَوْمَ عِيدٍ يَلْعَبُ السُّودَانُ بِالْأَدْرِقِ وَالْحِرَابِ،

(١) قال النووي رحمه الله (٢/ ٥٤٤): وَقَوْلُهَا: (وَلَيْسَتْ بِمُغْنِيَّتَيْنِ) مَعْنَاهُ: لَيْسَ الْغِنَاءُ عَادَةً لَهُمَا، وَلَا هُمَا مَعْرُوفَتَانِ بِهِ. وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي الْغِنَاءِ فَأَبَاحَهُ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْحِجَازِ وَهِيَ رِوَايَةٌ عَنْ مَالِكٍ، وَحَرَّمَهُ أَبُو حَنِيفَةَ وَأَهْلُ الْعِرَاقِ، وَمَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ كَرَاهَتَهُ وَهُوَ الْمَشْهُورُ مِنْ مَذْهَبِ مَالِكٍ، وَاجْتَنَبَ الْمُجَوِّزُونَ بِهَذَا الْحَدِيثِ وَأَجَابَ الْآخَرُونَ بِأَنَّ هَذَا الْغِنَاءُ إِنَّمَا كَانَ فِي الشَّجَاعَةِ وَالْقَتْلِ وَالْحَدَقِ فِي الْقِتَالِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، مِمَّا لَا مَفْسَدَةَ فِيهِ، بِخِلَافِ الْغِنَاءِ الْمُشْتَمِلِ عَلَى مَا يَهِيجُ النُّفُوسَ عَلَى الشَّرِّ، وَيَحْمِلُهَا عَلَى الْبَطَالَةِ وَالْقَبِيحِ. قَالَ الْقَاضِي: إِنَّمَا كَانَ غِنَاؤُهُمَا بِمَا هُوَ مِنْ أَشْعَارِ الْحَرْبِ وَالْمُفَاخَرَةِ بِالشَّجَاعَةِ وَالظُّهُورِ وَالْغَلْبَةِ، وَهَذَا لَا يَهِيجُ الْجَوَارِي عَلَى شَرٍّ وَلَا يُنْشِدُ لِدَلَالَةٍ مِنَ الْغِنَاءِ الْمُخْتَلِفِ فِيهِ، وَإِنَّمَا هُوَ رَفْعُ الصَّوْتِ بِالْإِنْشَادِ، وَلِهَذَا قَالَتْ: وَلَيْسَتْ بِمُغْنِيَّتَيْنِ أَيُّ: لَيْسَتْ مِمَّنْ يَتَغَنَّى بِعَادَةِ الْمُغْنِيَّاتِ مِنَ التَّسْوِيقِ وَالْهَوَى وَالتَّعْرِيزِ بِالْفَوَاحِشِ وَالتَّشْيِيبِ بِأَهْلِ الْجَمَالِ وَمَا يُحَرِّكُ النُّفُوسَ وَيَبْعَثُ الْهَوَى وَالْغَزَلَ كَمَا قِيلَ: (الْغِنَاءُ رُفْيَةُ الزَّنَا) وَلَيْسَتْ أَيْضًا مِمَّنْ اسْتُهْرِجَ وَعُرِفَ بِإِحْسَانِ الْغِنَاءِ الَّذِي فِيهِ تَمْطِيطٌ وَتَكْسِيرٌ وَعَمَلٌ يُحَرِّكُ السَّاكِنَ وَيَبْعَثُ الْكَامِنَ، وَلَا مِمَّنْ اتَّخَذَ ذَلِكَ صَنْعَةً وَكَسْبًا، وَالْعَرَبُ تَسْمِي الْإِنْشَادَ غِنَاءً، وَلَيْسَ هُوَ مِنَ الْغِنَاءِ الْمُخْتَلِفِ فِيهِ بَلْ هُوَ مُبَاحٌ، وَقَدْ اسْتَجَارَتْ الصَّحَابَةُ غِنَاءَ الْعَرَبِ الَّذِي هُوَ مُجَرَّدُ الْإِنْشَادِ وَالتَّرْتُّمِ، وَأَجَازُوا الْحُدَاةَ وَقَعَلُوهُ بِحَضْرَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَفِي هَذَا كُلُّهُ إِبَاحَةٌ مِثْلُ هَذَا وَمَا فِي مَعْنَاهُ وَهَذَا وَمِثْلُهُ لَيْسَ بِحَرَامٍ وَلَا يَخْرُجُ الشَّاهِدُ.

وقال ابن القيم في «إغاثة اللفهان» (كما نقل عنه صاحب «العون» (١٣/ ٢٦٥) كلامًا قِيَمًا في شرح الحديث قال رحمه الله: فَلَمْ يُنْكَرْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى أَبِي بَكْرٍ تَسْمِيَةَ الْغِنَاءِ مِزْمَارَ الشَّيْطَانِ وَأَقْرَهُمَا لِأَنَّهُمَا جَارِيَتَانِ غَيْرُ مُكَلَّفَتَيْنِ تَغْنِيَانِ بِغِنَاءِ الْأَعْرَابِ الَّذِي قِيلَ فِي يَوْمِ حَرْبِ بُعَاثٍ مِنَ الشَّجَاعَةِ وَالْحَرْبِ، وَكَانَ الْيَوْمَ يَوْمَ عِيدِ قَتَوَسَعَ حَزْبُ الشَّيْطَانِ فِي ذَلِكَ إِلَى صَوْتِ امْرَأَةٍ أَجْنَبِيَّةٍ أَوْ صَبِيٍّ أَمْرَدَ صَوْتَهُ وَصَوْرَتَهُ فَنَنَّهُ يُغْنِي بِمَا يَدْعُو إِلَى الزَّنَا وَالْفُجُورِ وَشُرْبِ الْخُمُورِ مِنْ آلَاتِ اللَّهْوِ الَّتِي حَرَّمَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي عِدَّةِ أَحَادِيثٍ مَعَ التَّصْفِيقِ وَالرَّقْصِ وَتِلْكَ الْهَيْئَةُ الْمُنْكَرَةُ الَّتِي لَا يَسْتَحِلُّهَا أَحَدٌ، وَيَحْتَجُّونَ بِغِنَاءِ جُوزَيْتَيْنِ غَيْرِ مُكَلَّفَتَيْنِ بِغَيْرِ شَبَابَةٍ وَلَا دَفٍّ وَلَا رَقْصٍ وَلَا تَصْفِيقٍ وَيَدْعُونَ الْمُحْكَمَ الصَّرِيحَ لِهَذَا الْمُشْتَبَاهِ وَهَذَا شَأْنٌ كُلُّ مُبْطِلٍ. نَعَمْ لَا نُحَرِّمُ وَلَا نُكْرَهُ مِثْلَ مَا كَانَ فِي بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى ذَلِكَ الْوُجْهِ وَإِنَّمَا نُحَرِّمُ نَحْنُ وَأَهْلُ الْعِلْمِ السَّمَاعَ الْمُخَالَفَ لِذَلِكَ أَنْتَهَى.

يوم بعث: هو يوم مشهور من أيام العرب كانت فيه مقتلة عظيمة للأوس على الخزرج، قاله الخطابي، وغيره.

فَإِمَّا سَأَلَتِ النَّبِيَّ ﷺ وَإِمَّا قَالَ: «تَشْتَهِينَ تَنْظُرِينَ؟» ^(١) فَقُلْتُ: نَعَمْ، فَأَقَامَنِي وَرَاءَهُ: خَدِّي عَلَى خَدِّهِ وَهُوَ يَقُولُ: «دُونَكُمْ يَا بَنِي أَرْفَدَةَ» حَتَّى إِذَا مَلَّتْ قَالَ: «حَسْبُكَ؟» قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «فَاذْهَبِي».

ومن ذلك ما أخرجه ابن ماجه ^(٢) بسند حسن من حديث أنس بن مالك أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ بِبَعْضِ الْمَدِينَةِ فَإِذَا هُوَ بِجَوَارٍ يَضْرِبْنَ بِدِفْهِنَّ وَيَتَغَنَيْنَ وَيَقُلْنَ:

نَحْنُ جَوَارٍ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ يَا حَبَّذا مُحَمَّدٌ مِنْ جَارِ

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اللَّهُ يَعْلَمُ إِنِّي لِأَحِبُّنَّ».

ومن ذلك ما أخرجه ^(٣) البخاري من حديث الرُّبَيْعُ بِنْتُ مُعَوِّذِ بْنِ عَفْرَاءَ: جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَدَخَلَ حِينَ بُنِيَ عَلَيَّ فَجَلَسَ عَلَيَّ فِرَاشِي كَمَجْلِسِكَ مِنِّي ^(٤)

(١) عند النسائي في «السنن الكبرى» في عشرة النساء - كما عزاه إليه المزي - : «يا حميراء أنحبين أن تنظري إليهم؟» فقلت: نعم. قال الحافظ ابن حجر في («فتح الباري» ٢/ ٤٤٤): إسناده صحيح، ولم أر في حديث صحيح ذكر الحميراء إلا في هذا.

لفتة: قال الشافعي (كما نقل عنه البيهقي في «السنن الكبرى» ١٠/ ٢٢٣) في الرجل يغني فيتخذ الغناء صناعة يؤتى عليه ويأتي له ويكون منسوباً إليه مشهوراً به معروفاً أو المرأة: لا تجوز شهادة واحد منهما؛ وذلك أنه من اللهو المكروه الذي يشبه الباطل، فإن من صنع هذا كان منسوباً إلى السفه وسقطة المروءة، ومن رضي هذا لنفسه كان مستخفاً، وإن لم يكن محرماً بين التحريم. قلت: قوله: وإن لم يكن محرماً بين التحريم، محمول على ما لا يثير الكامن، ويحرك الساكن، ويدعو إلى الفحش والفجور والزنا، فإن ذلك محرم لا شك فيه، فالله لا يحب الفساد.

(٢) ابن ماجه (١٨٩٩).

(٣) البخاري (مع الفتح ٩/ ٢٠٢).

(٤) قال الحافظ في الفتح (٩/ ٢٠٣): قوله: (كمجلسك) بكسر اللام أي: مكانك. قال الكرمانى: هو محمول على أن ذلك كان من وراء حجاب، أو كان قبل نزول آية الحجاب، أو جاز النظر للحاجة، أو عند الأمن من الفتنة. اهـ. والأخير هو المعتمد، والذي وضح لنا بالأدلة القوية أن من خصائص النبي ﷺ جواز الخلوة بالأجنبية والنظر إليها، وهو الجواب الصحيح عن قصة أم حرام بنت ملحان في دخوله عليها ونومه عندها وتقليتها رأسه ولم يكن بينهما محرمة ولا زوجية. انتهى ما قاله الحافظ.

فَجَعَلْتُ جُورِيَّاتٍ لَنَا يَضْرِبْنَ بِالْدُّفِّ وَيَنْدُبْنَ مَنْ قُتِلَ مِنْ آبَائِي يَوْمَ بَدْرٍ؛ إِذْ قَالَتْ إِحْدَاهُنَّ: وَفِينَا نَبِيٌّ يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ. فَقَالَ: «دَعِي هَذِهِ وَقُولِي بِالَّذِي كُنْتَ تَقُولِينَ».

وأخرج البخاري^(١) من حديث عائشة أَنَّهَا زَفَّتِ امْرَأَةً إِلَى رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ: «يَا عَائِشَةُ مَا كَانَ مَعَكُمْ لَهُوَ فَإِنَّ الْأَنْصَارَ يُعْجِبُهُمُ اللَّهُ».



س: اذكر مزيداً من أقوال العلماء في الغناء.

ج: قال القرطبي رحمه الله:

وهو الغناء المعتاد عند المشتهرين به الذي يحرك النفوس ويبعثها على الهوى والغزل والمجون الذي يحرك الساكن ويبعث الكامن فهذا النوع إذا كان في شعر يشبب فيه بذكر النساء ووصف محاسنهن وذكر الخمر والمحرمات لا يختلف في تحريمه لأنه اللهو والغناء المذموم بالاتفاق فأما ما سلم من ذلك فيجوز القليل منه في أوقات الفرح كالعرس والعيد وعند التنشيط على الأعمال الشاقة كما كان في حفر الخندق وحدو أنجشة وسلمة ابن الأكوع فأما ما ابتدعه الصوفية اليوم من الإدمان على سماع المغاني بالآلات المطربة من الشبابات والطار والمعازف والأوتار فحرام. ابن العربي: فأما طبل الحرب فلا حرج فيه لأنه يُقيم النفوس ويرهب العدو وفي اليراعة تردد والدف مباح. الجوهري: وربما سموا قصبه الراعي التي يزمر بها هيرعة ويراعة. قال القشيري: ضرب بين يدي النبي ﷺ يوم دخل المدينة فهم أبو بكر بالزجر فقال رسول الله ﷺ: «دعهن يا أبا بكر حتى تعلم اليهود أن ديننا فسيح»

(١) (مع الفتح ٩/ ٢٢٥).

فكن يضربن ويقلن:

نحن بنات النجار حذا محمد من جار

وقد قيل: إن الطبل في النكاح كالدف وكذلك الآلات المشهورة للنكاح يجوز استعمالها فيه بما يحسن من الكلام ولمن يكن فيه رفث.

وقال رحمه الله:

قال القاضي أبو بكر بن العربي: أما سماع القنيات فيجوز للرجل أن يسمع غناء جاريته؛ إذ ليس شيء منها عليه حراماً لا من ظاهرها ولا من باطنها فكيف يمنع من التلذذ بصوتها، أما أنه لا يجوز انكشاف النساء للرجال ولا هتك الأستار ولا سماع الرفث فإذا خرج ذلك إلى ما يحل ولا يجوز منع من أوله واجتث من أصله. وقال أبو الطيب الطبري: أما سماع الغناء من المرأة التي ليست بمحرم فإن أصحاب الشافعي قالوا: لا يجوز سواء كانت حرة أو مملوكة قال: وقال الشافعي وصاحب الجارية إذا جمع الناس لسماعها فهو سفية تُردُّ شهادته ثم غلظ القول فيه فقال: فهي دياثة وإنما جعل صاحبها سفية؛ لأنه دعا الناس إلى الباطل ومن دعا الناس إلى الباطل كان سفيةً.

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله (٢/ ٤٤٥):

وَاسْتُدِلَّ بِهِ عَلَى جَوَازِ سَمَاعِ صَوْتِ الْجَارِيَةِ بِالْغِنَاءِ وَلَوْ لَمْ تَكُنْ مَمْلُوكَةً لِأَنَّهُ ﷺ لَمْ يُنْكِرْ عَلَى أَبِي بَكْرٍ سَمَاعَهُ بَلْ أَنْكَرَ إِنْكَارَهُ ، وَاسْتَمَرَّتَا إِلَى أَنْ أَشَارَتْ إِلَيْهِمَا عَائِشَةُ بِالْخُرُوجِ . وَلَا يَخْفَى أَنَّ مَحَلَّ الْجَوَازِ مَا إِذَا أُمِنَتِ الْفِتْنَةُ بِذَلِكَ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .



س: اذكر المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (٦) وَإِذَا نُتِلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ قُورًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٧).

ج: هذا -والله أعلم- بيان لحال أقوام كانوا في زمن رسول الله ﷺ وبيان لما كانوا يفعلون، فإنهم قوم كانوا يسعون جاهدين لصرف الناس عن الدين الحق، دين الإسلام، وذلك بشتى الطرق، ومنها أنهم يشترون لهو الحديث، يشترون المغنيات، الإماء، القيئات، آلات اللهو، كل ما يلهي من الحديث عن ذكر الله وعن طاعته وعن الإسلام، له يشترون المغنيات يُغنين حتى يصرفوا الناس عن القرآن، حتى يضلوا الناس عن طريق الحق والرشاد، وذلك جهلاً منهم بعاقبة العذاب المعد لهم يوم القيامة، وذلك أيضاً تعامياً منهم عن الحق، ثم إنه يتخذ سبيل الله والدعوة إليها مجالاً للاستهزاء والسخرية وكذا يتخذ آيات الله مجالاً للاستهزاء والسخرية فأولئك لهم يوم القيامة عذابٌ مُّذَلٌّ مخزٍ، ثم إنه من شأن هؤلاء أيضاً أنهم إذا تليت عليهم آيات الله أعرضوا عنها مستكبرين وانصرفوا عنها متعالين عليها كأنهم لم يسمعونها، كأن آذانهم فيها صمم وثقل شديدين فبشره بأن له يوم القيامة أليم العذاب. والله أعلم.

* فعلى هذا فليس مجرد الغناء هو المسبب للعذاب المهين، ولا للعذاب الأليم ولا الكفر إنما اتخذ أهل الكفر الغناء سبيلاً لصرف الناس عن الحق وعن الهدى وعن الإيمان، وإلا فالغناء في شأنه تفصيل ولا بد، والله أعلم.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ

﴿٨﴾ خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾؟

ج: المعنى - والله أعلم - : إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات ينعمون فيها لا يزول عنهم نعيمها بل هم في هذا النعيم مخلدون، وذلك تحقيقاً للوعد الذي وعدهم الله إياه في الدنيا، وهو سبحانه العزيز الذي لا يعجز عن شيء ولا عن تحقيق وعد الحكيم فيما يشرع وفيما يُدبر وفيما يجازى وفي كل شيء.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالله فوحدوه، وصدقوا رسوله واتبعوه ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يقول: فأتبعوا الله، فعملوا بما أمرهم في كتابه وعلى لسان رسوله، وانتهوا عما نهاهم عنه ﴿لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾ يقول: لهؤلاء بساتين النعيم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ يقول: ماكثين فيها إلى غير نهاية ﴿وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا﴾ يقول: وعدهم الله وعداً حقاً، لا شك فيه ولا خلف له ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ يقول: وهو الشديد في انتقامه من أهل الشرك به، والصادقين عن سبيله ﴿الْحَكِيمُ﴾ في تدبير خلقه.

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

هذا ذكر مآل الأبرار من السعداء في الدار الآخرة، الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين، وعملوا الأعمال الصالحة المتابعة لشريعة الله ﴿لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾ أي: يتنعمون فيها بأنواع الملاذ والمسار، من المآكل والمشارب، والملابس والمساكن، والمراكب والنساء، والنضرة والسماع الذي لم يخطر ببال أحد، وهم في ذلك مقيمون دائماً فيها، لا يظعنون، ولا ييغون عنها حولا. وقوله: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا﴾ أي: هذا كائن لا محالة؛ لأنه من وعد الله، والله لا

يخلف الميعاد؛ لأنه الكريم المنان، الفَعَّال لما يشاء، القادر على كل شيء، (وَهُوَ الْعَزِيزُ)، الذي قد قهر كل شيء، ودان له كل شيء، ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أقواله وأفعاله، الذي جعل القرآن هُدًى للمؤمنين ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي هَدَىٰ ءَمَنُوا هُدًى وَشَفَاءً ۚ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَادَانِهِمْ وَقَرُّ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ (فصلت: ٤٤)، ﴿وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شَفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ (الإسراء: ٨٢).

وقال القرطبي رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾ لما ذكر عذاب الكفار ذكر نعيم المؤمنين ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي دائمين ﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ أي: وعدهم الله هذا وعدًا حقًا لا خُلف فيه ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ تقدم أيضا.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۚ وَاللَّيْلِ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ (١٠)؟

ج: هذا - والله أعلم - بيانٌ لقدرة الله ﷻ فإنه سبحانه خلق هذه السموات الطباق السبع بغير أعمدة نراها مع هذا الاتساع العظيم، ولكن ليس لها أعمدة ترى، وهنا وجهان للعلماء:

أحدهما: هل هناك أعمدة ولكنها لا تُرى؟ أم أنه ليس هنالك أعمدة مطلقًا، وبكل قد قال فريق من العلماء.

أما قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ أي خلق الجبال في الأرض في مناطق متفرقة منها حتى لا تميل الأرض ولا تضطرب، وخلق كل أنواع الدواب وفرّقها ونشرها في الأرض، وأنزل من السماء ماءً (وهو المطر) فأثبت به في الأرض من كل صنف حسن بهيج وبنحو هذا قال العلماء.

قال الطبري رحمه الله:

بعد أن أورد آثارًا مفادها أن هناك عمداً لكن لا نراها، وآثاراً بأنها ليس لها

عمد، **قال:**

وقوله: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسِي أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ يقول: وجعل على ظهر الأرض رواسي، وهي ثوابت الجبال أن تميد بكم أن لا تميد بكم. يقول: أن لا تضطرب بكم، ولا تتحرك يُمنَةً ولا يُسرةً، ولكن تستقرّ بكم.

وأورد بإسناد حسن: عن قتادة: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسِي﴾: أي: جبلاً ﴿أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ أثبتها بالجبال، ولولا ذلك ما أقرت عليها خلقاً، وذلك كما قال الراجز:

والمُهرُّ يَأْبَى أَنْ يَزَالَ مُلْهَبَا

بمعنى: لا يزال.

ثم قال: وقوله: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾ يقول: وفرّق في الأرض من كل أنواع الدواب. وقيل: الدواب اسم لكل ما أكل وشرب، وهو عندي لكل ما دب على الأرض.

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ يقول تعالى ذكره: وأنزلنا من السماء مطراً، فأنبتنا بذلك المطر في الأرض من كل زوج، يعني: من كل نوع من النبات ﴿كَرِيمٍ﴾، وهو الحسن النبتة.

وأورد بإسناد حسن: عن قتادة: ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾: أي حسن.

قال ابن كثير رحمه الله:

يُبين سبحانه بهذا قدرته العظيمة على خلق السموات والأرض، وما فيهما وما بينهما، فقال: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾، قال الحسن وقتادة: ليس لها عمدة مرئية ولا غير مرئية.

وقال ابن عباس، وَعَكْرَمَة، ومجاهد: لها عمد لا ترونها. وقد تقدم تقرير هذه المسألة في أول سورة «الرعد» بما أغنى عن إعادته.

﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسِي﴾ يعني: الجبال أرسى الأرض وثقلتها لئلا تضطرب بأهلها على وجه الماء؛ ولهذا قال: ﴿أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ أي: لئلا تميد بكم. وقوله: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾ أي: وذرأ فيها من أصناف الحيوانات مما لا يعلم عدد أشكالها وألوانها إلا الذي خلقها.

ولما قرر أنه الخالق نبه على أنه الرازق بقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ أي: من كل زوج من النبات كريم، أي: حسن المنظر.

وقال الشعبي: والناس -أيضا- من نبات الأرض، فَمَنْ دَخَلَ الْجَنَّةَ فَهُوَ كَرِيمٌ، وَمَنْ دَخَلَ النَّارَ فَهُوَ لَيْئِمٌ.



س: وضح معنى قوله تعالى: (هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِۦٓ بَلِ

الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١١﴾)؟

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - هذا الذي ذكرته لكم من خلق السموات والأرض والجبال والدواب وسائر الخلق، هذا كله خلق الله، لم يخلقه أحدٌ سواه فأطلعوني على أي شيء خلقته آلهتكم التي تعبدونها، تلك الأوثان والأصنام، وغيرها، وقطعا فلن تأتوا بشيء أبداً خلقته آلهتكم التي عبدتموها مع الله، ولكن دوماً الظالمون أنفسهم بشركهم في بُعدٍ عن الحق ظاهر وواضح، في بُعدٍ موضح لمن تأمله أنهم ضلال والله أعلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: هذا الذي أعددت عليكم أيها الناس أني خلقته في هذه

الآية خلق الله الذي له ألوهة كل شيء، وعبادة كل خلق، الذي لا تصلح العبادة لغيره، ولا تنبغي لشيء سواه، فأروني أيها المشركون في عبادتكم إياه من دونه من الآلهة والأوثان، أي شيء خلق الذين من دونه من آلهتكم وأصنامكم، حتى استحققت عليكم العبادة فعبدتموها من دونه؟ كما استحق ذلك عليكم خالقكم، وخالق هذه الأشياء التي عدتها عليكم.

وأورد بإسناد حسن عن قتادة قوله: ﴿ هَذَا خَلَقُ اللَّهِ ﴾ ما ذكر من خلق السموات والأرض، وما بث من الدواب، وما أنبت من كل زوج كريم (فَأَرَوْنِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ) ﴿ الْأَصْنَامَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ.

قال: وقوله: ﴿بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ يقول تعالى ذكره: ما عبد هؤلاء المشركون الأوثان والأصنام من أجل أنها تخلق شيئاً، ولكنهم دعاهم إلى عبادتها ضلالهم، وذهابهم عن سبيل الحق، فهم في ضلال: يقول: فهم في جور عن الحق، وذهاب عن الاستقامة مبين: يقول: يبين لمن تأمله، ونظر فيه وفكر بعقل أنه ضلال لا هدى.

قال ابن كثير رحمه الله:

وقوله: ﴿ هَذَا خَلَقُ اللَّهِ ﴾ أي: هذا الذي ذكره تعالى من خلق السموات والأرض وما بينهما، صادر عن فعل الله وخلقه وتقديره، وحده لا شريك له في ذلك؛ ولهذا قال: ﴿فَأَرَوْنِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي: مما تعبدون وتدعون من الأصنام والأنداد، ﴿بَلِ الظَّالِمُونَ﴾ يعني: المشركين بالله العابدين معه غيره ﴿فِي ضَلَالٍ﴾ أي: جهل وعمى، ﴿مُبِينٍ﴾ أي: واضح ظاهر لا خفاء به.



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَنَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ١٣﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِبَنِّهِ ۖ وَهُوَ يَعِظُهُ ۖ يَبْنَىٰ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ١٤﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ ۖ وَهَنَّ عَلَىٰ وَهْنٍ ۖ وَفَصَّلَهُ ۖ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَلَدَيْكَ إِلَىٰ الْمَصِيرِ ١٥﴾ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ ۖ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَن أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ١٦﴾ يَبْنَىٰ إِنَّهَا إِن تَكُ مَثْقَلَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ١٧﴾ يَبْنَىٰ أَقِمِ الصَّلَاةَ ۖ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ ۖ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ ۖ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزَمِ الْأُمُورِ ١٨﴾ وَلَا تَصْعَرَ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ١٩﴾ وَأَقْصِدْ فِي مَسْيِكَ ۖ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۖ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ٢٠﴾

[لقمان: ١٢-١٩]

س: اذكر معاني هذه:

﴿ءَاٰتَيْنَا - حَمِيْدٌ - يَعْظُمُ - وَهْنًا عَلٰى وَهْنٍ - وَفَصَلَّهُ فِي عَامَيْنِ - جَهْدَاكَ - وَاتَّبِعْ سَبِيْلَ - اَنَابَ اِلَآى - فَاَنْبِئْكُمْ - مَثَقَالَ حَبَّةٍ - يَأْتِيْهَا اللّٰهُ - لَطِيْفٌ - اَقْرِ الصَّلَاةَ - عَزَمَ الْاُمُوْرَ - وَلَا تُصَغِّرْ خَدَكَ - مَرَمًا - مُخْنَالٍ - فَخُوْرٍ - وَاَقْصِدْ فِي مَشِيْكَ - وَاعْظُضْ - اَنْكَرَ الْاَصْوَاتِ ؟﴾

ج:

معناها	الكلمة
أعطينا - رزقنا - علّمنا	﴿ءَاٰتَيْنَا﴾
محمود على كل حال	﴿حَمِيْدٌ﴾
يُذَكِّرُهُ - يُخَوِّفُهُ	﴿يَعْظُمُ﴾
ضعفًا على ضعفٍ - جهدًا على جهدٍ - مشقة فوق مشقة	﴿وَهْنًا عَلٰى وَهْنٍ﴾
فطامه بعد عامين - تربيته - إرضاعه بعد وضعه	﴿وَفَصَلَّهُ فِي عَامَيْنِ﴾
حاربك - اجتهدا لإجبارك على فعل شيء	﴿جَهْدَاكَ﴾
اسلك طريق	﴿وَاتَّبِعْ سَبِيْلَ﴾
رجع إليّ - سلك طريقي - أقبل عليّ	﴿اَنَابَ اِلَآى﴾
فأخبركم	﴿فَاَنْبِئْكُمْ﴾
زنة حبة - وزن حبة	﴿مَثَقَالَ حَبَّةٍ﴾

يُحْضِرُهَا اللَّهُ ^(١) يَوْمَ الْقِيَامَةِ	﴿يَأْتِيَهَا اللَّهُ﴾
عَلِيمٌ بِالْأَشْيَاءِ وَإِنْ تَضَاءَلَتْ	﴿لَطِيفٌ﴾
حَافِظٌ وَدَاوِمٌ عَلَيْهَا	﴿أَقْبَرُ الصَّلَوَةِ﴾
الْأُمُورِ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِهَا وَأَكَّدَ عَلَى فَعْلِهَا	﴿عَزَمَ الْأُمُورِ﴾
لَا تُتَمَلَّ - لَا تُعْرَضُ	﴿وَلَا تُصَعَّرُ خَدَّكَ﴾
مُخْتَالًا - مُتَبَخَّرًا - مُتَجَبِّرًا	﴿مَرَحًا﴾
جَبَّارٌ - مُتَعَالٍ	﴿مُخْنَالٍ﴾
مُتَكَبِّرٌ عَلَى النَّاسِ	﴿فَخُورٍ﴾
تَوْسُطٌ فِي مَشْيِكَ	﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾
وَإِخْفُضْ	﴿وَأَغْضُضْ﴾
شَرَّ الْأَصْوَاتِ - أَقْبَحُ الْأَصْوَاتِ - أَشَدُّ الْأَصْوَاتِ	﴿أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ﴾



شيء عن لقمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

س: اذكر شيئاً عن لقمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ج: أما عن لقمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَحَمَلَهُ:

فلم أقف في كتاب الله عَلَيْهِ السَّلَام على شيء بخصوصه إلا في هذه السورة المباركة، وكذا لم أقف على شيء ثابت عنه في سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(١) كما قال سبحانه: (وَنَضَعُ الْمَوَزِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ) [الأنبياء: الآية ٤٧].

وقد قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

«هو: لقمان بن عنقاء بن سدون. واسم ابنه: ثاران في قول حكاة السهيلي». **وعن عمله:** فقد قيل: إنه كان خيَّاطًا، وقيل: كان نجارًا، وقيل: كان راعيًا، وقيل: كان قاضيًا، فالله رَحِمَهُ اللهُ أَعْلَى وأَعْلَم!!

ولقد ذكرت أوصافاً له كثيرة تدل على دمامته، فالله أعلم.

وقد قيل: إنه من الحبشة، وقيل: من السودان، والعلم عند الله.

وكلُّ هذا ليس بضائر، فالعبرة مأخوذة على كل حال، والحمد لله.

فهو رجل آتاه الله الحكمة، وذكرنا سبحانه بموعظته لولده، علَّنا ننتفع بها ونستفيد منها.

فمن ثمَّ لا تبذل جهدًا، ولا تضيع وقتًا وراء البحث عن نسبه وقبيلته وبلدته، فلنسكت عما ترك الله ذكره في كتاب الله رَحِمَهُ اللهُ، ولنسكت عما لم يذكره رسول الله رَحِمَهُ اللهُ حفظًا للجهد والوقت^(١).



س: هل لقمان رَحِمَهُ اللهُ نبي أم ليس بنبي؟

ج: أكثر أهل العلم^(٢): على أنه ليس بنبيٍّ، وإنما هو عبدٌ صالحٌ آتاه الله رَحِمَهُ اللهُ الحكمة، وعَلَّمَهُ إِيَّاهَا.

(١) ولا نرهق أنفسنا أيضًا في البحث عن اسم كلب أصحاب الكهف، وقبائلهم، ولا بلدة العزيز، ولا غير ذلك.

(٢) والقول بعدم نبوته هو قول جمهور العلماء، ذكره عنهم القرطبي، وابن كثير رحمهما الله وغيرهما من العلماء.

ومما استدل به على عدم نبوته ما ورد في بعض الآثار من أنه كان عبدًا حبشيًا، والرسول إنما تُبعث في أحساب قومها كما قال هرقل لأبي سفيان سائلًا إياه عن حسب رسول الله ﷺ، وقال أبو سفيان: هو فينا ذو نسب، فقال هرقل: وكذا الرسل تُبعث في أنساب قومها.

قال قتادة: «لم يكن نبياً، ولم يوح إليه».

وصحَّ عن مجاهد أنه قال: «كان لقمان رجلاً صالحاً ولم يكن نبياً»^(١).



س: اذكر فائدة الثناء على لقمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قبل موعظته لولده.

ج: هذا الثناء في هذا الموطن له فائدة عظيمة، فوصفه بالحكمة يقتضي الحثَّ على الاستماع إلى ما سيلقيه لقمان من الموعظة؛ وذلك لكونها مواعظاً صادرةً من حكيم، والذي وصفه بأنه أوتي الحكمة إنما هو الله ﷻ، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]، (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا) [النساء: ٨٧].

ثم إنها موعظةٌ ذكرها الله ﷻ في كتابه الكريم، فدلَّ ذلك على أنه يلزمنا الاعتناء بها وتدبرها، والتفكير فيها، والعلم بمقتضاها.



معنى الحكمة

س: اذكر شيئاً عن معنى الحكمة وفضل من يؤتاها.

ج: أما الحكمة فلها معانٍ كثيرة:

منها: الإصابة والسداد في القول والعمل.

ومنها: وضع الشيء في محله اللائق به، فلا يتكلم بكلمة في غير موضعها، فمثلاً إذا رأى المقام يحتاج إلى شدةٍ اشتدَّ، وإذا رآه يحتاج إلى إلانةٍ ألانَ الخطاب.

ومنها: الفهم الجيد الصحيح، والعلم النافع، وحسن التعبير والتأويل.

وصح عن قتادة أنه قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾: أي: الفقه في الإسلام.

ومنها: الصواب في المعتقد والفقه في الدين والعقل.

(١) انظر (الطبري / ٢٨٠٧٩) فما بعده.

ومن معانيها أيضًا: أنها العقل الراجح الذي يمنع صاحبه من سيئ التصرفات.

هذا؛ وأحياناً تطلق الحكمة ويُراد بها السُّنة.

هذا؛ وقد بين الله سبحانه وتعالى فضل الحكمة ومن يؤتاها:

فقال في كتابه الكريم: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

وبين سبحانه وتعالى منته على نبيه داود عليه السلام بقوله: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠].

وعلى نبيه عيسى عليه السلام إذ قال: ﴿وَإِذْ عَلَّمْنَا الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [المائدة: ١١٠].

وكذا منته على رسوله ﷺ بقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].



احتياج النعم إلى شكر كي تحفظ وتزداد

س: دائماً النعم تحتاج إلى شكر حتى تنمو وتزداد وكذا فإنه كثيراً ما يأتي الحث على شكر النعم بعد ذكرها دَلِّل على ذلك.

ج: من ذلك في هذا المقام أن الله ﷻ، بعد أن ذكر النعمة التي أنعمها على لقمان، ألا وهي إيتاؤه الحكمة، أمره أن يقدم لذلك شكراً لله على ما منَّ به عليه، واختصه به من بين أهل زمانه وأقرانه وخِلاله من الحكمة، فقال له: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِلَّهِ؟﴾، قدَّم شكراً لخالقك، وذلك إقرار بالفضل واعتراف بالنعم، ثم حتى تحفظ هذه النعمة وتزداد ولا تتحول ولا تُزال، فالذي رزقك الحكمة هو الله، فقدَّم له شكراً حتى يزيدك منها، ولا يحولها إلى غيرك.

فدائمًا شكر النعم سببٌ عظيمٌ من أسباب زيادتها ونمائها وحفظها، وكفران النعم سببٌ لزوالها وتحولها وصرفها:

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

أي: وإذا أخبر ربكم وأعلم ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم من نعمي، ومن فضلي عليكم، ولئن جحدتم نعمتي ولم تقدموا لها شكرًا فسيحل بكم العذاب الشديد؛ إما في الدنيا بزوالها، أو يجعلها نقمة، وإما في الآخرة. فجديرًا إذن بكل من أنعم الله عليه أن يقدم لهذه النعمة شكرًا، وكما ازدادت نعم الله عليك لزمك أن تقدم لها مزيدًا من الشكر.

فهذه مريمُ ؑ، أنعم الله ﷻ عليها:

فقال سبحانه: ﴿يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾.

[آل عمران: ٤٢]

وقال الله لها: ﴿يَمْرَيْمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣]. وهذا نبي الله موسى ؑ قال الله له - وقد أنعم عليه واصطفاه بالرسالة والتكليم -:

﴿يَمُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمَىٰ فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤].

ونبي الله داود وولده سليمان ؑ:

أنعم الله ﷻ عليهما بالذي أنعم، من تسبيح الجبال والطير مع داود، وإلانة الحديد له، والصوت الحسن الجميل، والحكمة وفصل الخطاب، وغير ذلك. وكذا ما أنعم به - سبحانه - على سليمان ؑ من تسخير الرياح والجن، وفهم لغة الطير، وإسالة عين القطر له.

قال الله سبحانه: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣].

وكذا قریش:

لما أنعم الله عليها بنعمة الأمن والأمان، والرزق الذي يأتيها من كل مكان، وكونهم يذهبون إلى اليمن والشام كل عام آمنين مطمئنين وغيرهم يتخطف.

قال تعالى: ﴿لَا يَلْفُ قُرَيْشٍ ۝١ إِلَّا لَيْفٌ فَرَيْشٍ ۝٢﴾ ١ لَيْفُهُمْ رِحْلَةُ الشَّتَاءِ وَالصَّيْفِ ٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ٣ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ [قریش: ١-٤].

ورسول الله ﷺ:

قال الله له: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١].

وقال له: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢].

فكما أننا أعطيناك الكوثر - وهو الخير الكثير الذي منه نهر في الجنة، ومنه الحوض - فقدّم لذلك شكراً ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢]. ونحوه: ﴿أَلَمْ تَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ ۝٢﴾ ١ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ٢ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ [الشرح: ١-٤].

ثم قال له: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ [الشرح: ٧] أي: فاجتهد في عبادة ربك، ﴿وإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح: ٨] في اللجوء إليه، ولتكن رغباً وُلْكاً إليه.

وكذا قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: ٦-٨]، ثم قوله: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ [الضحى: ٩].

كما أننا آويناك إذ كنت يتيمًا فلا تقهر الأيتام.

وكما أننا هديناك إذ كنت ضالًّا: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى: ١٠].

وكما أننا أغنياناك إذ كنت عائلاً تعول غيرك.

فحدث بنعمة الله عليك واشكرها ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١].

وهكذا كل من أنعم الله عليه يلزمه أن يقدم شكرًا لله حتى تُحفظ عليه نعم الله وتزداد.

هَذَا؛ وَلَأنَّ نِعْمَ الله عَلَيْنَا لَا تُحْصَى، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤].

فجديرٌ بنا أن نُكْثِرَ من الحمد، وأن نُكْثِرَ من الشُّكْرِ باليد وباللسان وبالقلب - أعاننا الله على ذكره وشكره وحُسن عبادته -.



شكر الشاكرين إنما هو لأنفسهم

س: الشاكر يعود ثواب شكره لنفسه دَلِّلْ على ذلك.

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ [لقمان: ١٢].

وقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ [فصلت: ٤٦].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: ٤٤].

وكما في الحديث القدسي الذي أخرجه مسلم^(١) في «صحيحه»: «لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتُمْ كَانُوا عَلَى أَتَقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا».

وَيُبَيِّنُ الله ﷻ غناه عن خَلْقِهِ وعن شكرهم له، فيقول تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ أي: ومن جحد النعم وكفرها ولم يؤد شكرها، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفِيٌّ حَمِيدٌ﴾ عنه وعن شكره. وقوله تعالى: ﴿حَمِيدٌ﴾ أي: محمود على كل حال، وإن كفر النعم الكافرون، وجحدها الجاحدون.

وكذلك فإن الله ﷻ يحمد صنائع المعروف التي يفعلها العباد ويتقربون

(١) مسلم (٢٥٧٧).

بها إليه، وذلك حتى لا يتسرب إلى شخص، سؤال حاصله: إذا كان الله غنياً
عناً وعن شكرنا، فلماذا نقدم هذا الشكر؟

فيكون جوابه: إن الله يحب منا صنائع المعروف.

قال تعالى: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾ [آل عمران: ١١٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٥٨].

قال الطبري رحمه الله:

وقوله: ﴿إِنْ أَشْكُرَ اللَّهُ﴾ يقول تعالى ذكره: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾، أن
أحمد الله على ما آتاك من فضله، وجعل قوله: ﴿إِنْ أَشْكُرَ﴾ ترجمة عن
الحكمة؛ لأن من الحكمة التي كان أوتيها، كان شكره الله على ما آتاه، وقوله:
﴿وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ يقول: ومن يشكر الله على نعمه عنده فإنما
يشكر لنفسه؛ لأن الله يجزل له على شكره إياه الثواب، وينقذه به من الهلكة
(وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ) يقول: ومن كفر نعمة الله عليه إلى نفسه أساء؛ لأن
الله معاقبه على كفرانه إياه، والله غني عن شكره إياه على نعمه، لا حاجة به
إليه؛ لأن شكره إياه لا يزيد في سلطانه، ولا ينقص كفرانه إياه من ملكه. ويعني
بقوله: ﴿حَمِيدٌ﴾: محمود على كل حال، له الحمد على نعمه، كفر العبد
نعمته أو شكره عليها، وهو مصروف من مفعول إلى فاعل. اهـ.



س: هذا شأن أهل الفضل مع أبنائهم أنهم يقدمون لهم المواعظ،
ويخوفونهم بالله، ويحذرونهم من عقابه، ويرشدونهم إلى ما يقربهم من ربهم
ولقائه، ويسألون الله لهم الهداية. دَلِّلْ على ذلك.

ج: من ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ﴾ [لقمان: ١٣]، أي: واذكر موعظة

لقمان لابنه.

كما قال الخليل إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾
[إبراهيم: ٤٠].

وكما في دعاء عباد الرحمن ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾
[الفرقان: ٧٤].

كما في الدعاء: ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ [الأحقاف: ١٥].



خطر الشرك

س: افتتحت هذه الموعظة العظيمة التي وعظ بها لقمان ولده بالتحذير من
هذا الخطر العظيم أكبر الكبائر وأعظم الذنوب ألا وهو الشرك بالله، اذكر بعض
ما يدل على خطورة الشرك وعظيم ضرره.

ج: نعم، فالشرك ظلم عظيم، كما قال الله تعالى.

إنه ذنب لا يُغفر، إذا مات عليه العبد:

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

إنه كذب وافتراء على الله:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

إنه ضلال بعيد:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦].

إنه يحبط الأعمال ويذهب بثوابها:

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَكَ لَيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ

مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

وقال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۚ﴾ [الأنعام: ١٥١].

إنه أكبر الكبائر:

قال رسول الله ﷺ: «أَلَا أُنبئُكُمْ بِأكْبَرِ الكبائرِ؟» قلنا: بلى، يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ....» الحديث (١).

إنه يُحرّم الجنة على مرتكبه:

قال تعالى: ﴿إِنَّهُ، مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

والآيات في هذا الباب كثيرة جدًا.

وروى مسلم (٢) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرْكِ، مَنْ عَمَلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي؛ تَرَكْتُهُ وَشُرْكَهُ».

وأخرج الإمام أحمد في «مسنده» (٣) بإسناد صحيح عَنْ مَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشُّرْكَ الْأَصْغَرُ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الشُّرْكَ الْأَصْغَرُ؟ قَالَ: «الرِّيَاءُ، يَقُولُ اللَّهُ ﷻ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ - إِذَا جُزِيَ النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ - : اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاءُونَ فِي الدُّنْيَا، فَاَنْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَهُمْ جَزَاءً».

وأخرج البخاري ومسلم (٤) من حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ:

(١) البخاري (٢٦٥٤)، ومسلم (٨٧).

(٢) مسلم حديث (٢٩٨٥).

(٣) أحمد (٤٢٨/٥).

(٤) البخاري (٦٥٥٧)، ومسلم (٢٨٠٥).

«يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِأَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: لَوْ أَنَّ لَكَ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ أَكُنْتَ تَفْتَدِي بِهِ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ. فَيَقُولُ: أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ هَذَا وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا فَأَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تُشْرِكَ بِي».



س: هذه الآية الكريمة ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (١٣) مفسرة لآية في سورة الأنعام، وضح ذلك.

ج: نعم، هذه الآية الكريمة مفسرة لآية في سورة الأنعام، ألا وهي:
قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾
[الأنعام: ٨٢].

فلما نزلت شقَّ نزولها على أصحاب رسول الله ﷺ، فقالوا: أيُّنا لم يظلم نفسه يا رسول الله؟ فقال ﷺ: «ألم تقرأوا قول لقمان: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾».

وها هو الحديث بذلك:

أخرج البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] شَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ وَقَالُوا: أَيُّنَا لَمْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَيْسَ كَمَا تَظُنُّونَ إِنَّمَا هُوَ كَمَا قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ: ﴿يَبْنَىٰ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾» [لقمان: ١٣] ^(١).

وفي بعض الروايات: «فأنزل الله: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾» [لقمان: ١٣].



(١) البخاري (٣٤٢٩)، ومسلم (١٢٤)، واللفظ له.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (١٣).

ج: قوله: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] أي: لبخس عظيم للنفس، فالمشرك بخس نفسه حقها وظلم نفسه ظلماً شديداً، فلنفسه عليه حق، من حقها عليه أن يبحث لها عن أسباب سلامتها، وأسباب نجاتها، وأسباب سعادتها، ويفعل ما يجلب لها به السعادة والسلامة والنجاة، أما كونه يهلكها ويُرديها ويتسبب لها في عذاب لا يزول، ولا يتحول، ويتسبب لها في دخول الجحيم خالداً مخلداً فيها أبداً، فقد بخسها حقها بلا شك، وأي بخس أعظم من هذا البخس؟!؟

وأيُّ ظلم أعظم من هذا الظلم؟!؟

عياداً بالله من الظلم والظلمات!!

ثم إن أعظم حقٍّ لله علينا: أن نعبده ونوحده لا نشرك به شيئاً، فمن لم يؤد هذا الحق فقد ارتكب أعظم الظلم.

وصدق الله إذ قال: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].



س: لماذا لم تجر الوصية بالوالدين على لسان لقمان صريحة فلم يقل:

(واستوصي بوالديك خيراً) مثلاً، بل قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾؟

ج: قال بعض العلماء: إن ذلك حتى لا يظن المنصوح أن الناصح إنما ينصح من أجل نفسه، وكذا لا يظن من قدّم له الموعدة أن الواعظ إنما يعظ لحظ نفسه، بل جعلت الوصية بالوالدين من الله ﷻ، فحصل تحول في الخطاب.

قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصْلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ

أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ﴾ [لقمان: ١٤].



الأمر بالإحسان إلى الوالدين

س: لقد تكرر التذكير بحق الوالدين في عدة آيات بعد الأمر بعبادة الله ﷻ،
وضح السبب في ذلك، واذكر بعض هذه الآيات؟

ج: أما سبب ذلك فهو أن حق الوالدين أعظم حق بعد حق الله ورسوله،
فالتذكير بهذا الحق لبيان عظيم منزلته.
ودللت على هذا أدلة كثيرة من الكتاب والسنة.

فمن ذلك ما يلي:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا﴾
[النساء: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَن تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا
وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا﴾ [الأنعام: ١٥١].

وقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبِّيَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

وقد أخذ الله الميثاق على بني إسرائيل أن يحسنوا إلى الوالدين:

فقال سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾
[البقرة: ٨٣].

فانظر إلى هذه النصوص، وكيف أن الأمر بعبادة الله ﷻ وحده لا شريك
له جاء ويُعقبه الأمر بالإحسان إلى الوالدين؟ فترى على ماذا يدل هذا؟!

**ثم انظر أيضًا إلى حديث النبي ﷺ الذي يُبين منزلة برِّ الوالدين من بين سائر
الأعمال:**

وذلك فيما أخرجه البخاري ومسلم^(١) من حديث عبد الله بن مسعود قَالَ:
سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ: «الصَّلَاةُ عَلَى وَفَّيْهَا» قَالَ: ثُمَّ

(١) البخاري (٥٩٧٠)، ومسلم (٨٥).

أَيُّ؟ قَالَ: «ثُمَّ بَرُّ الْوَالِدَيْنِ» قَالَ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» قَالَ: حَدَّثَنِي بِهِنَّ وَلَوْ اسْتَرَدَّتْهُ لَزَادَنِي.

وأخرج الإمام أحمد^(١) بسند صحيح عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نِمْتُ فَرَأَيْتُنِي فِي الْجَنَّةِ فَسَمِعْتُ صَوْتَ قَارِيٍّ يَقْرَأُ فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: هَذَا حَارِثَةُ بْنُ النُّعْمَانِ» فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَذَاكَ الْبِرُّ كَذَاكَ الْبِرُّ» وَكَانَ أَكْبَرَ النَّاسِ بِأُمِّهِ.

وحديث الثلاثة^(٢) أصحاب الغار، وتوسل واحد منهم ببرّه بأبويه مشهور صحيح ومعروف، وفيه: أن الله فرّج بسبب ذلك شيئاً مما هم فيه.

وفي الصحيحين^(٣) من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قَالَ: «أُمُّكَ»، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ أُمُّكَ» قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ أُمُّكَ» قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ أَبُوكَ».

(١) المسند (٦/ ١٥١-١٥٢).

(٢) انظره في البخاري (٥٩٧٤)، ومسلم (٢٧٤٣).

(٣) البخاري مع «الفتح» حديث (٥٩٧١)، ومسلم مع النووي (٤١٠/٥).

قال النووي رحمته الله: وَفِيهِ الْحَثُّ عَلَى بَرِّ الْأَقْرَابِ، وَأَنَّ الْأُمَّ أَحَقُّهُمْ بِذَلِكَ، ثُمَّ بَعْدَهَا الْأَبُ، ثُمَّ الْأَقْرَبُ فَلَا اقْرَبَ.

قَالَ الْعُلَمَاءُ: وَسَبَبُ تَقْدِيمِ الْأُمِّ كَثْرَةُ تَعَبِهَا عَلَيْهِ، وَشَفَقَتُهَا، وَخِدْمَتُهَا، وَمُعَانَاةُ الْمَسَاقِ فِي حَمْلِهِ، ثُمَّ وَضْعُهُ، ثُمَّ إِضْصَاعُهُ، ثُمَّ تَرْبِيَتُهُ وَخِدْمَتُهُ وَتَمْريضُهُ، وَغَيْرَ ذَلِكَ.

وَنَقَلَ الْحَارِثُ الْمُحَاسِبِيُّ إِجْمَاعَ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّ الْأُمَّ تُفْضَلُ فِي الْبَرِّ عَلَى الْأَبِ، وَحَكَى الْقَاضِي عِيَّاضٌ خِلَافاً فِي ذَلِكَ، فَقَالَ الْجُمْهُورُ بِتَفْضِيلِهَا.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: يَكُونُ بَرُّهُمَا سَوَاءً. قَالَ: وَنَسَبَ بَعْضُهُمْ هَذَا إِلَى مَالِكٍ، وَالصَّوَابُ الْأَوَّلُ لِصَرِيحِ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ فِي الْمَعْنَى الْمَذْكُورِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وعند البخاري في «الأدب المفرد»^(١) بإسناد حسن من طريق بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قلت: مَنْ أَبْرُ؟ قَالَ: «أُمُّكَ»، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «أُمُّكَ» قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «أَبَاكَ» قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «الْأَدْنَى فَلِأَدْنَى».

وهذه وصية بالأم أيضاً

وَعَنِ الْمَقْدَامِ بْنِ مَعْدٍ يَكْرِبُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يُوصِيكُمْ بِأُمَّهَاتِكُمْ - ثَلَاثًا - إِنَّ اللَّهَ يُوصِيكُمْ بِأَبَائِكُمْ، إِنَّ اللَّهَ يُوصِيكُمْ بِالْأَقْرَبِ فَالْأَقْرَبُ»^(٢).

وهذا يدل على فضل برّ الأم:

فكما هو معلوم من منهج ابن عباس وطريقته في الفتيا في أبواب الكفارات أنه يفتي - إذا لم يكن في تحديد الكفارة نصٌ - بكفارة توازي الذنب المرتكب

(١) البخاري في «الأدب المفرد» (٣ ج ١ ص ٤٤).

وقال فضل الله الجيلاني رحمه الله تعالى في تعليقه على هذا الحديث من «الأدب المفرد»: الأم مقدمة في الإجماع في البرّ على الأب، وأن يكون للأم ثلاثة أمثال ما للأب من البر، وذلك لتحمل المشاق في الحمل والوضع حتى تكاد تموت، ولا أقل أن تذوقه في كل وضع إذا ضربها الطلق، ثم المحنة زمن الرضاع إلى أن يكبر الولد ويستغني عن خدمتها، فهذه تنفرد بها الأم وتشقى بها ثم تشارك الأب في الإنفاق والتربية وأنواع من المؤنة والخدمة ماداماً حيي (كذا ذكره السيوطي) أخذ ذلك من تكرار حق الأم، والأظهر أن يكون تأكيداً ومبالغة في رعاية حق الأم، وذلك لتهاون أكثر الناس في حق الأم بالنسبة إلى الأب؛ لأن أمر الأم كلّهُ في البيت تحت الستور ولا يطلع عليه الناس، فيجتري الناس على عقوقها أكثر من عقوق الوالد حياءً من الناس، وكذا قوته تزجر عن الجراءة عليه، وضعفها يحمل الدين على الإساءة إليها، ولا يبعد أن الشريعة بالغت في البرّ بها أكثر من البرّ بالأب مواساة لها ومراعاة لضعف قلوب النساء وشفقة على الولد، مع أن الأب ليس أنقص حقاً من حقوقها؛ لأن الأم للين طبعها وضعف بنيتها لا تستطيع أحياناً أن تتحمل إباءه وسوء خلقه فتعجل أن تغضب فتسرع بالدعاء عليه، والمذكور في كتب الفقه أن حق الوالد أعظم من حق الوالدة، وبرّها أوجب، كذا في شرعة الإسلام. [إنجاح الحاجة، بزيادة].

(٢) صحيح لشواهد: أخرجه ابن ماجه (٣٦٦١).

أو تفوقه حتى يمحي أثره ويُزَالُ، كفتياه في إتيان الحائض، وفتياه في من ترك واجباً من واجبات الحج وغير ذلك.

وها هو هنا يفتي بفتوى فاقراها وأمعن النظر لترى كيف منزلة برّ الأم مع الكفارات:

أخرج البخاري ^(١) في «الأدب المفرد» بإسناد صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه أتاه رجل فقال: إني خطبت امرأة فأبّت أن تنكحني، وخطبها غيري فأحبّت أن تنكحه، فغرّْتُ عليها فقتلتها، فهل لي من توبة؟ قال: أمّك حية؟ قال: لا، قال: تب إلى الله ^{هـ} وتقرّب إليه ما استطعت، فذهبت فسألت ابن عباس لم سألته عن حياة أمه؟ فقال: إني لا أعلم عملاً أقرب إلى الله ^{هـ} من بر الوالدة.

وهذا أثر أيضاً: بإسناد صحيح عن ابن عمر، فعند البخاري في «الأدب المفرد» ^(٢) من طريق طَيْسَلَةَ بن مَيَّاس قال: كنت مع النجدات ^(٣) فأصبت ذنباً لا أراها إلا من الكبائر فذكرت ذلك لابن عمر قال: ما هي؟ قلت: كذا وكذا، قال: ليست هذه من الكبائر، هن تسع: الإشرak بالله، وقتل نسمة، والفرار من الزحف، وقذف المحصنة، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، وإلحاد في المسجد، والذي يستسخر، وبكاء الوالدين من العقوق.

قال لي ابن عمر: أتفرق من النار، وتحب أن تدخل الجنة؟ قلت: إى والله! قال: أحى والدك؟ قلت: عندي أمى قال: فوالله لو ألّنت لها الكلام وأطعمتها الطعام لتدخلن الجنة ما اجتنب الكبائر.

(١) «الأدب المفرد» (أثر ٤ ج ١) ص (٤٥).

(٢) «الأدب المفرد» (أثر ٨ ج ١) ص (٥٢).

(٣) النجدات: أصحاب نجدة بن عامر الخارجي، قاله فضل الله الجيلاني.

هذا؛ وقوله: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ، وَهَنَا عَلَى وَهْنٍ﴾ بيان لسبب الوصية بالوالدين، وتذكير بإحسانهما المتقدم، وبحق الأم خاصة.

فإن سأل سائل عن سبب الوصية بالوالدين، وسبب الاعتناء بالأم؟

فلذلك أسباب منها:

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ﴾ في بطنها ﴿وَهَنَا عَلَى وَهْنٍ﴾ أي: ضعفاً على ضعف.

فالمرأة بجبلتها ضعيفة، ثم الحمل يضعفها أكثر وأكثر، ويجهدا أشد وأشد.

وأيضاً من أسباب الوصية بها: كونها أرضعته وقامت على تربيته وخدمته بعد إرضاعه، وذلك مدة الرضاعة التي بها يستغني عن سائر المطعومات، ألا وهي عامان.

قال تعالى: ﴿وَفَصَّلْهُ فِي عَامَيْنِ﴾، أي: تربيته وإرضاعه بعد وضعه في عامين. ثم أمر الله ﷻ بتقديم الشكر له سبحانه، فله النعمة، وله الفضل، وله الشاء الحسن أولاً وآخرًا.

وأمر أيضاً بتقديم الشكر للوالدين، وعهد إليه بذلك.

فقال: ﴿إِنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَلَدِكَ﴾ تذكيراً بحق الوالدين وحثاً على إكرامهما والإحسان إليهما والدعاء لهما كما قال: ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤].

أما قوله تعالى: ﴿إِلَى الْمَصِيرِ﴾، فتذكير بأن المرجع والمآب والمراد إلى الله ﷻ يوم القيامة.

فيجازي كلَّ عامل بعمله، وكل شاكر على شكره أفضل الجزاء وأتمه وأوفره.

قال الطبري رحمه الله:

وقوله: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَايَكَ﴾ يقول: وعهدنا إليه أن اشكر لي على نعمي عليك، ولوالديك تربيتهما إياك، وعلاجهما فيك ما عالجا من المشقة حتى استحکم قواك.

وقوله: ﴿إِلَى الْمَصِيرِ﴾ يقول: إلى الله مصيرك أيها الإنسان، وهو سائلك عما كان من شكرك له على نعمه عليك، وعما كان من شكرك لوالديك، وبرك بهما على ما لقيا منك من العناء والمشقة في حال طفولتك وصباك، وما اصطنعا إليك في برهما بك، وتحننهما عليك.



س: فيمن نزل قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ﴾؟

ج: هذه الآيات الكريمات نزلت في سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه:

أخرج مسلم ^(١) في «صحيحه» من حديث مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ نَزَلَتْ فِيهِ آيَاتُ مِنَ الْقُرْآنِ قَالَ: حَلَفْتُ أُمُّ سَعْدٍ أَنْ لَا تُكَلِّمَهُ أَبَدًا حَتَّى يَكْفُرَ بِدِينِهِ، وَلَا تَأْكُلَ وَلَا تَشْرَبَ، قَالَتْ: زَعَمْتَ أَنَّ اللَّهَ وَصَّاكَ بِوَالِدَيْكَ - وَأَنَا أُمُّكَ - وَأَنَا أَمْرُكَ بِهَذَا.

قَالَ: مَكَثْتُ ثَلَاثًا حَتَّى غَشِيَ عَلَيْهَا مِنَ الْجَهْدِ، فَقَامَ ابْنُ لَهَا يُقَالُ لَهُ: عُمَارَةُ فَسَقَاهَا، فَجَعَلَتْ تَدْعُو عَلَى سَعْدٍ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ فِي الْقُرْآنِ هَذِهِ الْآيَةَ:

(وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصْلُہُ فِي عَمَيْنِ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَايَكَ إِلَى الْمَصِيرِ ﴿١٤﴾) وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴿١٥﴾ [لقمان: ١٤، ١٥] ... فذكر الحديث.

(١) مسلم (١٧٤٨).

وفي رواية عند الطبري^(١):

عن سعد بن مالك - وهو سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه - قال: نزلت في
 (وَلِنْ جَهْدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطْعِمَهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا
 مَعْرُوفًا) قال: لما أسلمت، حلفت أُمي لا تأكل طعامًا ولا تشرب شرابًا، قال:
 فناشدتها أول يوم، فأبت وصبرت، فلما كان اليوم الثاني ناشدتها، فأبت، فلما
 كان اليوم الثالث ناشدتها فأبت، فقلت: والله، لو كانت لك مائة نفس لخرجت
 قبل أن أدع ديني هذا، فلما رأت ذلك، وعرفت أني لست فاعلا أكلت.

وفي رواية أخرى عنه:

قال: قالت أم سعد لسعد: أليس الله قد أمرك بالبرّ، فوالله، لا أطعم طعامًا
 ولا أشرب شرابًا حتى أموت أو تكفر، قال: فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها
 شجروا فاهًا بعصا، ثم أوجروها، فنزلت هذه الآية ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾.

[العنكبوت: ٨]



س: هل طاعة الوالدين مُطلقة في كل ما يأمران به ومع إيضاح قوله: ﴿وَلِنْ جَهْدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطْعِمَهُمَا﴾؟

ج: كلا بل هي في المعروف؛ لقول النبي ﷺ: «إنما الطاعة في المعروف»
 وقال تعالى: ﴿وَلِنْ جَهْدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطْعِمَهُمَا﴾ أي: وإن
 حرصا كلّ الحرص واجتهدا كل الاجتهاد، وضغطا بكل أنواع الضغوط عليك
 كي تترك دينك وتتابعهما على دينهما دين المشركين فلا تطعهما ولا
 توافقهما، ومع هذا الرفض رفض الدخول في دينها، ومع حرصهما على أن
 تتابعهما ورفضك لذلك، صاحبهما في الدنيا معروفًا، أي أحسن إليهما بصور

(١) الطبري (٢٨٠٩٨).

الإحسان التي تستطيعهما دون أن يتأثر بذلك دينك، واتبع سبيل أهل الإيمان، واسلك طريقهم، واقتفِ آثارهم، فهذا قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ يعني: واسلك سبيل المؤمنين المطيعين لي الذين سلكوا طريقي، واستقاموا على أمري.

هذا؛ وقد قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

يقول تعالى ذكره: وإن جاهدك أيها الإنسان والداك على أن تشرك بي في عبادتك إياي معي غيري، مما لا تعلم أنه لي شريك، ولا شريك له تعالى ذكره علواً كبيراً، فلا تطعهما فيما أراداك عليه من الشرك بي، ﴿وَصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ يقول: وصاحبهما في الدنيا بالطاعة لهما فيما لا تبعة عليك فيه، فيما بينك وبين ربك ولا إثم.

وقوله: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ يقول: واسلك طريق من تاب من شركه، ورجع إلى الإسلام، واتبع محمداً ﷺ.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١٥)؟

ج: قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ أيضاً:

وقوله: ﴿إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فإن إليّ مصيركم ومعادكم بعد مماتكم، فأخبركم بجميع ما كنتم في الدنيا تعملون من خير وشر، ثم أجازيكم على أعمالكم، المحسن منكم بإحسانه والمسيء بإساءته.

فإن قال لنا قائل: ما وجه اعتراض هذا الكلام بين الخبر عن وصيتي لقمان

ابنه؟ قيل: ذلك أيضاً وإن كان خبراً من الله تعالى ذكره عن وصيته عباده به، وأنه إنما أوصى به لقمان ابنه، فكان معنى الكلام: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنَىٰ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ ولا تطع في الشرك به والدك

(وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا) فَإِنَّ اللَّهَ وَصَّى بِهِمَا، فاستؤنف الكلام على وجه الخبر من الله، وفيه هذا المعنى، فذلك وجه اعتراض ذلك بين الخبرين عن وصيته.



تعليم الابن مراقبة الله ﷻ

س: وضح معنى قول لقمان لابنه: ﴿يَبْنُىْ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمٰوٰتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾.

ج: أما المراد بقوله: ﴿إِنَّهَا﴾.

فقد قال بعض أهل العلم: إن المراد بقوله: ﴿إِنَّهَا﴾ أي: الخطيئة أو المعصية.

وقول ثانٍ: إن المراد الشيء المعمول خيراً كان أو شراً.

وقول ثالث: إن المراد الرزق المقدر.

والمراد بالصخرة في قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ﴾:

قال بعض أهل العلم: إن المراد بالصخرة، صخرة تحمل عليها الأرض كلها، وهذا القول قال به عدد من العلماء، لكن لا أعلم عليه دليلاً من الكتاب ولا من السنة الصحيحة.

ومن ثم قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

وقد زعم بعضهم أن المراد بقوله: ﴿فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ﴾ أنها صخرة تحت الأرضين السبع.

ثم قال:

وهذا - والله أعلم - كأنه متلقى من الإسرائيليات التي لا تصدق، ولا تكذب، والظاهر - والله أعلم - أن المراد: أن هذه الحبة في حقارتها لو كانت داخل صخرة، فإن الله سيبيدها ويظهرها بلطف علمه.

فيوصي لقمان ولده ويعلمه ويذكره بمراقبة الله ﷻ قائلاً:

يا بني إن ما تعمله من خير أو شرٍّ مهما كان صغيراً، وإن كان صغيراً في وزن حبة الخردل، وكذلك إن كنت أسررت، وعملت في مكان خفي، وبالغت في إخفائه، فسواء عملته وأنت في صخرة قد أحاطت بك من جميع جوانبها، فلم يرك أحدٌ من الخلق، أو عملتها في أي مكان في السماوات أو في أي مكان في الأرض، يأت بها الله يوم القيامة، وتوزن لك في ميزان حسناتك، إن كانت حسنة، أو في كفة السيئات إن كانت سيئة، كما قال الله تعالى: ﴿وَنُضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وكما قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

وكما قال سبحانه: ﴿وَوَضَعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوبِلُنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

وفي هذا تعليم الوالد ولده مراقبة الله ﷻ، وتذكيره بأن الله يراه حتى يعمل صالحاً.

هذا؛ وهناك قول آخر في الآية الكريمة:

حاصله أن قوله: ﴿إِنَّهَا﴾ المراد به الرزق، فيكون المعنى: يا بني إن الرزق الذي كتب لك سيأتيك في أي مكان من أي مكان مادام قد قُدر لك، وهذا وإن

كان صحيحًا، إلا أن القول الأول عليه أكثر العلماء في تفسير الآية الكريمة، والله تعالى أعلم.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

هذه وصايا نافعة قد حكاها الله تعالى عن لقمان الحكيم؛ ليمثلها الناس ويقتدوا بها، فقال: ﴿يَبْنَىٰ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ أي: إن المظلمة أو الخطيئة لو كانت مثقال حبة خردل. وجوز بعضهم أن يكون الضمير في قوله: ﴿إِنَّهَا﴾ ضمير الشأن والقصة. وجوز على هذا رفع ﴿مِثْقَالَ﴾ والأول أولى.

وقوله: ﴿يَأْتِيهَا اللَّهُ﴾ أي: أحضرها الله يوم القيامة حين يضع الموازين القسط، وجازى عليها إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر. كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ٧ ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، ولو كانت تلك الذرة محصنة محجبة في داخل صخرة صماء، أو غائبة ذاهبة في أرجاء السموات أو الأرض فإن الله يأتي بها؛ لأنه لا تخفى عليه خافية، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ أي: لطيف العلم، فلا تخفى عليه الأشياء وإن دقت ولطفت وتضاءلت ﴿خَبِيرٌ﴾ بدبيب النمل في الليل البهيم.

وقال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

وعني بقوله: ﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ﴾: زنة حبة. فتأويل الكلام إذن: إن الأمر إن تك زنة حبة من خردل من خير أو شر عملته، فتكن في صخرة، أو في السموات، أو في الأرض، يأت بها الله يوم القيامة، حتى يوفيك جزاءه.



الأمر بالصلاة وبيان فضلها والحث عليها

س: وضع معنى قول لقمان لولده: ﴿يَبْنُ أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ مع ذكر شيء من أهمية الصلاة والحث عليها.

ج: قوله: ﴿يَبْنُ أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ أي: حافظ عليها وداوم على فعلها وأدائها في أوقاتها وأحسن قيامها وركوعها وسجودها وسائر أركانها. وحق ما قاله لقمان لولده، فإن الصلاة عماد الدين وركن الإسلام العظيم – بعد الشهادتين-.

قال رسول الله ﷺ: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ...»^(١).

وإنها أول ما يُحاسب عليه العبد يوم القيامة:

قال ﷺ: «أَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢).

إنها تمحو – بإذن الله – الخطايا والذنوب:

قال ﷺ: «الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ يَمْحُو اللَّهُ بِهِنَّ الْخَطَايَا»^(٣).

لقد كانت ولا تزال وستزال شعارًا للصالحين:

لقد قال الخليل إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾

[إبراهيم: ٤٠].

لقد قال الله ﷻ لموسى عليه السلام: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤].

وقال له ولأخيه هارون عليه السلام: ﴿وَأَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾

[يونس: ٨٧].

(١) البخاري حديث (٨)، ومسلم (١٦).

(٢) صحيح لشواهد: أخرجه أحمد (١٠٣/٤) وغيره.

(٣) البخاري (٥٢٨)، ومسلم (٦٦٧).

وقال قوم شعيب لشعيب عليه السلام: ﴿أَصْلَوْنَا أَنْ تَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشْتَوُا﴾ [هود: ٨٧].

قال عيسى عليه السلام: ﴿وَأَوْصِنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١].
وطائفة من الأنبياء ذكرهم الله في كتابه وقال: ﴿إِذَا نُنَالِي عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرَوْا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨].

وأصحاب رسولنا الكريم - عليهم رضوان الله -: ﴿تَرَبَّيْتُمْ زُكَّاءً سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩].
وفي الجملة: فضائل الصلاة لا تُحصى والأوامر بها لا تكاد تنتهي، والوصية بها تكاثرت وتعددت وتنوعت، والتحذير من تركها توارد من عدة وجوه.

فمن ثم أوصى لقمان ولده بها، وأكد عليها غاية التأكيد، ولا عذر لمسلم بالغ في تركها مادام عاقلاً أو كانت المرأة حائضاً أو نفساء.
لا تترك الصلاة في سفر ولا في حضر، ولا في صحة ولا في مرض، ولا في شدة ولا في رخاء.



شيء من الوارد في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
س: وضح معنى قول لقمان لولده ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ مع ذكر بعض الوارد في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ج: هذا يشمل كل معروف وكل منكر، ولا يبتعد الشخص إذ قال: إن الرسل - عليهم صلوات الله وسلامه - بُعثوا لذلك، فقد بُعثت الرسل أمرة بتوحيد الله تعالى، ناهية عن الشرك به، وأعظم معروف بلا شك هو توحيد الله تعالى، وأقبح المنكرات على الإطلاق هو الشرك بالله تعالى.

ولقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

ولقد نالت أمة محمد ﷺ الفلاح وكتبت لها الخيرية على سائر الأمم، لإيمانها بالله ﷻ، وأمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

إن النهي عن المنكر سبب من أسباب السلامة والنجاة:

قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ [هود: ١١٦].

ولقد ذكر الله سبحانه وتعالى القرية التي كانت حاضرة البحر، تلك التي اعتدى أهلها في السبت، وبين الله سبحانه وتعالى أن الذين نجوا هم الناهون عن المنكر.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا دُسُوا مَا دُكِّرُوا بِهِۦُ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٥].

وفي الحديث ^(١) عن رسول الله ﷺ: «مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ

الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَىٰ مَنْ فَوْقَهُمْ فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيْبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرَكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَىٰ أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَّوْا جَمِيعًا».

إنه سبيل أهل الصلاح المنيين إلى الله تعالى:

قال الله سبحانه: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٣، ١١٤].

وسبيل أهل الإيمان:

قال الله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [التوبة: ٧١].

وسبيل الذين باعوا أنفسهم لله ﷻ:

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِآتٍ لَهُمْ الْجَنَّةُ﴾ [التوبة: ١١١] إلى قوله تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَمِيدُونَ الْحَمِيدُونَ الْمُكْسِبُونَ الرَّاكِعُونَ السَّجِدُونَ الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢].

ثم إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كفارة للذنوب والخطايا:

قال ﷺ: «فِتْنَةُ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ وَجَارِهِ تَكْفُرُهَا الصَّلَاةُ وَالصَّوْمُ وَالصَّدَقَةُ وَالْأَمْرُ وَالنَّهْيُ»^(١).

وكذلك فإنه صدقة على البدن:

فقد ذكر النبي ﷺ الصدقات التي على ابن آدم، وقال: «وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ

(١) البخاري (مع الفتحة / ٢ / ٥٢٥)، ومسلم (١٤٤).

صَدَقَهُ وَنَهَى عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَهُ»^(١).

ولقد حثَّ النبي ﷺ على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:
فقال: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ
يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»^(٢).

ويزداد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تأكيداً على أهل العلم:

قال تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْآثِمَ وَالْكَلِمَ السُّخْتِ لَيَسَّ مَا
كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ٦٣].



**س: ما وجه اتباع قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ بقوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا
أَصَابَكَ﴾؟**

ج: وجه هذا، والله أعلم أن العادة قد جرت بأن الأمر بالمعروف والنهي
عن المنكر كثيراً ما يتعرض لأذى من أهل الشر والفساد، وذلك لكونه ينهاهم
عن غيِّهم، ويمنعهم من المحرمات التي يريدون موانعها، ومن الشهوات
التي يريدون قضاءها، ومن أكل أموال الناس بالباطل، وغير ذلك من
المحرمات التي ركبوها ودأبوا على فعلها، فمن ثم لا يرضيهم صنيع
المعارض لهم، ولا صنيع من يأمرهم وينهاهم فيقدمون له صنوف الأذى حتى
يتركهم ويخلي بينهم وبين ما يريدون من صور الإفساد في الأرض، فحينئذٍ
يثبت الله ﷻ أقواماً على طاعته وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،
وآخرون يتركون ذلك خوفاً من الناس ومن بطشهم.

فيوصي لقمان ولده بالصبر على الأذى وتحمل البلاء والمضي قدماً في

(١) مسلم بنحوه (١٠٠٦، ١٠٠٧).

(٢) مسلم حديث (٤٩).

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والاستمرار في ذلك.

ومثل هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَالصَّبْرُ ۝١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ ۝.

فالتواصي بالحق أحياناً يتبعه بلاء، فمن ثمَّ لزم التواصي بالصبر. هذا؛ ولا يمنع أن يكون قوله: ﴿وَصَبْرٌ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾ عامًّا في كل ما يتعرض له الشخص من البلاء، بلاءً كان في الجسد أو في المال أو في الولد، أو غير ذلك من صور الابتلاءات التي تستلزم صبراً وتقتضيه.



شيء من فضل الصبر

س: النصوص الواردة في فضل الصبر والحث عليه وبيان ما أعد لأهله من الأجر كثيرة جداً اذكر بعضها.

ج: اجتزأ منها بالآتي:

قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

[يوسف: ٩٠]

ولقد ذكر الله سبحانه وتعالى أن الإمامة تُنال بالصبر واليقين، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

وبَيَّن - سبحانه - أنه أعد للصابرين الغرف وهي في أعالي الجنان:

قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا نَحْوَةً وَسَلَامًا

﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٧٥، ٧٦].

وقال - سبحانه - مُبيناً فضيلة من صبر:

﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

ويُن - سبحانه - أنه يحب الصابرين:

فقال: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

ووردت الأوامر بالصبر والحث عليه:

في قوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

وقال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧].

وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ١٥٣].

وقال سبحانه: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣].

وقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد: ١٧].

وفي «الصحيحين»^(١) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: «أَنَّ أَنَسًا مِنَ الْأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَلَمْ يَسْأَلْهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَّا أَعْطَاهُ حَتَّى نَفَدَ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ لَهُمْ حِينَ نَفَدَ كُلُّ شَيْءٍ أَنْفَقَ بِيَدَيْهِ: «مَا يَكُنْ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ لَا أَذْخِرُهُ عَنْكُمْ، وَإِنَّهُ مَنْ يَسْتَعِفَّ يُعَفِّهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ، وَلَنْ تُعْطُوا عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ».

وصحَّ عن النبي ﷺ أنه قال: «وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ»^(٢).

ووردت نصوص كثيرة في فضل الصبر على الأذى والصبر في الجهاد، والصبر على المرض، وعلى فقدان البصر، وعلى جهالات الناس وحقاقتهم، والصبر على أمراء الجور، والصبر عند الصدمة الأولى، وغير ذلك.

فنسأل الله أن يُصبرنا وأن يحفظ علينا إيماننا.



(١) البخاري (٦٤٧٠)، ومسلم (١٠٥٣).

(٢) مسلم (٢٢٣).

س: وضح معنى قوله: ﴿إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (١٧).

ج: المعنى - والله أعلم - : أن ذلك من الأمور التي أمر الله ﷻ بها وأكد على فعلها.



س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿يَبْنِيْ أَقْرِبَ الصَّلَاةِ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (١٧).

ج: قال الطبري رحمه الله في تفسير الآيات إجمالاً:

يقول تعالى ذكره مخبراً عن قيل لقمان لابنه: ﴿يَبْنِيْ أَقْرِبَ الصَّلَاةِ﴾ بحدودها ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ يقول: وأمر الناس بطاعة الله، واتباع أمره ﴿وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ يقول: وانه الناس عن معاصي الله ومواقعة محارمه ﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾ يقول: واصبر على ما أصابك من الناس في ذات الله، إذا أنت أمرتهم بالمعروف، ونهيتهم عن المنكر، ولا يصدنك عن ذلك ما نالك منهم ﴿إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ يقول: إن ذلك مما أمر الله به من الأمور عزمًا منه.

وقال ابن كثير رحمه الله:

ثم قال: ﴿يَبْنِيْ أَقْرِبَ الصَّلَاةِ﴾ أي: بحدودها وفروضها وأوقاتها، ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ أي: بحسب طاقتك وجهدك، ﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾، اعلم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا بد أن يناله من الناس أذى، فأمره بالصبر.

وقوله: ﴿إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أي: إن الصبر على أذى الناس لمن عزم الأمور.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

قوله تعالى: ﴿يَبْتَئِ أَقَمِ الصَّلَاةَ﴾ وَصَّى ابْنَهُ بِعَظَمِ الطَّاعَاتِ وَهِيَ الصَّلَاةُ وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَهَذَا إِنَّمَا يَرِيدُ بِهِ بَعْدَ أَنْ يُمَثِّلَ ذَلِكَ هُوَ فِي نَفْسِهِ وَيَزْدَجِرُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَهَنَا هِيَ الطَّاعَاتُ وَالْفَضَائِلُ أَجْمَعُ وَلَقَدْ أَحْسَنَ مِنْ قَالَ:

وابدأ بنفسك فانتهها عن غيرها فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾ يَقْتَضِي عَلَى تَغْيِيرِ الْمُنْكَرِ وَإِنْ نَالَكَ ضَرَرٌ فَهُوَ إِشْعَارٌ بِأَنَّ الْمَغِيرَ يُوْذِي أَحْيَانًا وَهَذَا الْقَدْرُ عَلَى جِهَةِ النَّدْبِ وَالْقُوَّةِ فِي ذَاتِ اللَّهِ وَأَمَّا عَلَى الزُّوْمِ فَلَا وَقَدْ مَضَى الْكَلَامُ فِي هَذَا مُسْتَوْفَى فِي آلِ عِمْرَانَ وَالْمَائِدَةِ وَقِيلَ: أَمْرُهُ بِالصَّبْرِ عَلَى شِدَائِدِ الدُّنْيَا كَالْأَمْرَاضِ وَغَيْرِهَا وَأَلَّا يَخْرُجَ مِنَ الْجَزَعِ إِلَى الْمَعْصِيَةِ اللَّهُ ٥ وَهَذَا قَوْلٌ حَسَنٌ لِأَنَّهُ يَعْمُ.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مِنْ حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ الصَّبْرُ عَلَى الْمَكَارِهِ وَقِيلَ: إِنْ إِقَامَةَ الصَّلَاةِ وَالْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ أَيِّ مِمَّا عَزَمَهُ اللَّهُ وَأَمْرٌ بِهِ قَالَهُ ابْنُ جَرِيرٍ: وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَرِيدَ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَعِزَائِمِ أَهْلِ الْحَزْمِ السَّالِكِينَ طَرِيقَ النِّجَاةِ وَقَوْلُ ابْنِ جَرِيرٍ أَصُوبٌ.

وقال القاسمي رَحِمَهُ اللهُ:

﴿يَبْتَئِ أَقَمِ الصَّلَاةَ﴾ أَيُّ: بِحُدُودِهَا وَفُرُوضِهَا وَأَوْقَاتِهَا، لِتَكْمِيلِ نَفْسِكَ بِعِبَادَةِ رَبِّكَ: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ لِتَكْمِيلِ غَيْرِكَ: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾ أَيُّ: مِنَ الْمُحَنِّ وَالْبَلَايَا، أَوْ فِيمَا أَمَرْتَ بِهِ مِنَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ؛ لِأَنَّ الدَّاعِيَ إِلَى الْحَقِّ مَعْرُضٌ لِإِيصَالِ الْأَذَى إِلَيْهِ، وَهُوَ

أظهر . ويطابقه آية : ﴿وَوَاصُوا بِالْحَقِّ وَوَاصُوا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣] ، ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الصبر ، أو إلى كل ما أمر به : ﴿مَنْ عَزَمَ الْأُمُورَ﴾ أي : مما عزمه الله من الأمور ، أي : قطعه قطع إيجاب .



الحث على التواضع

س : وضح معنى قوله تعالى : ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (١٨) .

ج : يواصل لقمان عليه السلام نصحه وتذكيره لولده ، ويُعلِّمه طرائق التعامل والتحدث مع الناس ، ويؤدِّبه بجملة من الآداب :

فيقول له : ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ أي : لا تُعرض بوجهك عن الناس وهم يحدثونك ، بل أقبل عليهم وابتسم في وجوههم ، ولا تلو عنقك عنهم ، فإن هذا من شيم المتكبرين وأخلاقهم .

كما قال تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ (٨) ثافي عطفه ليُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴿[الحج: ٨، ٩] أي : لاوي عنقه تكبراً على الناس وتعالياً عليهم ، وكبراً وازدراءً .

ويقول له كذلك : ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ ينهاه عن المشي في الأرض باختيال وتكبر وتجبر ؛ وذلك لأن الله عز وجل لا يحب المختال في مشيته الفخور على الناس المتكبر عليهم .

قال تعالى : (إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ) [لقمان: ١٨] .

قال الحافظ ابن كثير رحمته الله :

وقوله : ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ يقول : لا تُعرض بوجهك عن الناس إذا كلمتهم أو كلموك ، احتقاراً منك لهم ، واستكباراً عليهم ولكن ألن جانبك ،

وابسط وجهك إليهم، كما جاء في الحديث: «ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه مُنْبَسِط، وإياك وإسبال الإزار فإنها من المَخِيلَة، والمَخِيلَة لا يحبها الله».

وقوله: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي: جذا لا متكبراً جباراً عنيداً، لا تفعل ذلك يبغيضك الله؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أي: مختال معجب في نفسه، فخور: أي على غيره، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخَرَّقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧]، وقد تقدم الكلام على ذلك في موضعه.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

معنى الآية: ولا تمل خدك للناس كبراً عليهم وإعجاباً واحتقاراً لهم وهذا تأويل ابن عباس وجماعة وقيل: هو أن تلوي شديقك إذا ذكر عندك كأنك تحتقره فالمعنى: أقبل عليهم متواضعاً مؤنساً مستأنساً وإذا حدثك أصغرهم فاصغ إليه حتى يكتمل حديثه وكذلك كان النبي ﷺ يفعل.

قلت (القرطبي): ومن هذا المعنى ما رواه مالك عن ابن شهاب عن أنس ابن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام» فالتدابير: الإعراض وترك الكلام والسلام ونحوه وإنما قيل للإعراض تدابر لأن من أبغضته أعرضت عنه ووليته دبرك وكذلك يصنع هو بك ومن أحببته أقبلت عليه بوجهك وواجهته لتسرّه ويسرُّك فمعنى التدابر موجود فيمن صعرَّ خده وبه فسر مجاهد الآية وقال ابن خويز منداد: قوله: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ كأنه نهى أن يذل الإنسان نفسه من غير حاجة.

وقال القرطبي أيضاً:

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي متبخترًا متكبرًا مصدر في موضع الحال وقد مضى في سبحان وهو النشاط والمشى فرحًا في غير شغل وفي غير حاجة وأهل هذا الخلق ملازمون للفخر والخيلاء فالمرح مختال في مشيته.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ:

قوله تعالى : ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ .

معناه: لا تتكبر على الناس. ففي الآية نهي عن التكبر على الناس، والصعر الميل، والمتكبر يميل وجهه عن الناس، متكبراً عليهم، معرضاً عنهم، والصعر الميل وأصله: داء يصيب البعير يلوي منه عنقه، ويُطلق على المتكبر يلوي عنقه، ويميل خده عن الناس تكبراً عليهم، ومنه قول عمرو بن حُنيّ التغلبي: **وكنّا إذا الجبار صعرّ خده أقمناله من ميله فتقومّا**

وقول أبي طالب :

وكنّا قديمًا لا نفر ظلامّة إذا ما ثنوا صعر الرؤوس نقيمها

ومن إطلاق الصعر على الميل قول النمر بن تولب العلكي :

إنّا أتيناك وقد طال السفر نقود خيالاً ضمراً فيها صعر

وإذا علمت أن معنى قوله: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ لا تتكبر عليهم .

فاعلم أنا قدمنا في سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى : ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٣] الآيات القرآنية الدالة على التحذير من الكبر المبينة لكثرة عواقبه السيئة ، وأوضحنا ذلك مع بعض الآيات الدالة على حسن التواضع ، وثناء الله على المتواضعين.



بعض الوارد في الحث على التواضع

س: قد وردت في الحث على التواضع والأمر به نصوص كثيرة اذكر بعضها.

ج: من هذه النصوص ما يلي:

ما ثبت عند مسلم^(١) من حديث عِيَّاضِ بْنِ حِمَارٍ رضي الله عنه أَنَّهُ قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ خَطِيئًا فَقَالَ: «وَإِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ وَلَا يَبْتَغِ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ».

ولقد صحَّ عن رسول الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ»^(٢).

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُنْقِذِينَ﴾ [القصص: ٨٣].



ذمُّ الكبر والاختيال

س: وردت عدة نصوص في ذم الكبر والاختيال اذكر بعضها.

ج: من ذلك ما يلي:

قول الله تبارك وتعالى: ﴿سَاءَ صِرْفٌ عَنْ إِيَّائِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾

[الأعراف: ١٤٦].

وأخرج مسلم^(٣) في «صحيحه» من حديث عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ» قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً، قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ

(١) مسلم (٢١٩٨).

هذا؛ وقد اجتزأت باليسير الذي ذكر، وإلا فالباب واسع جدًا، والنصوص فيه كثيرة متعددة.

(٢) مسلم (٢٥٨٨).

(٣) مسلم (٩١).

الْجَمَالَ، الْكَبِيرُ بَطَرُ الْحَقِّ ^(١) وَغَمَطُ النَّاسِ ^(٢).

وصحَّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَى مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خِيَلَاءً» ^(٣).
وصحَّ عنه أيضًا أنه قال: «بَيْنَا رَجُلٌ يَجُرُّ إِزَارَهُ إِذْ خُسِفَ بِهِ فَهُوَ يَتَجَلَّلُ فِي الْأَرْضِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» ^(٤).

وصحَّ عنه أيضًا أنه قال: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي فِي حُلَّةٍ تُعْجِبُهُ نَفْسُهُ مَرَجَلٌ جُمَّتْهُ؛ إِذْ خُسِفَ اللَّهُ بِهِ؛ فَهُوَ يَتَجَلَّلُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» ^(٥).



من أدب المشي

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾.

ج: المعنى -والله أعلم-: تواضع في مشيك إذا مشيت وفي مسيرك إذا سرت، ولا تستكبر ولا تستعجل، ولا تسرع، بل اقتصد في المشي؛ ليكون المشي معتدلًا بين الإسراع والتباطؤ، لا مسرعًا تمشي فتختل، ولا متباطئًا كمشية المريض أو المتمارض.

وهذا كما قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان:

٦٣].

قال الطبري رحمه الله:

يقول: وتواضع في مشيك إذا مشيت ولا تستكبر ولا تستعجل ولكن اتئد. وأورد عن قتادة بسند حسن قال: «نهاه عن الخيلاء».

(١) بطر الحق: هو ردُّ الحق ودفعه وإنكاره كبرًا وتعاليًا وترفعًا وتجبرًا.

(٢) غمط الناس: المراد به: احتقارهم وازدراؤهم.

(٣) أخرجه البخاري (٥٧٨٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا.

(٤) أخرجه البخاري (٥٧٩٠).

(٥) البخاري (٥٧٨٩)، ومسلم (٢٠٨٨).

من أدب الحديث

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ (١٩).

ج: يعلم لقمان عليه السلام ولده طريقة التخاطب مع الناس فيأمره قائلاً: (وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ) أي: واخفض صوتك فاجعله وسطاً أيضاً.

وعلّل ذلك بقوله: ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ أي: فلو كان في رفع الصوت مطلقاً (في كل وقت) خيراً لما اختصت به الحمير، بل الحمير صوتها أنكر الأصوات وأشر الأصوات وأقبح الأصوات، وليس لأهل الفضل والصلاح والخلق الكريم أن يتشبهوا بالحمير - عياداً بالله -.

وأورد عن ابن زيد قال: «اخفض من صوتك».

وأورد عن قتادة كذلك بسند حسن: ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ أي: أقبح الأصوات لصوت الحمير أوله زفير وآخره شهيق، أمره بالاعتصام في صوته.



بعض الفوائد المستنبطة من موعظة لقمان لولده

س: اذكر بعض الفوائد المستنبطة من موعظة لقمان لولده.

ج: هذه طائفة من الفوائد المستنبطة من هذه الموعظة:

الأولى: بيان أن الله ﷻ هو صاحب الفضل، وأن كل ما بنا من نعم فمنه سبحانه وتعالى، فله النعمة، وله الفضل، وله الثناء الحسن.

فالحكيم حكمته من الله ﷻ، والعالم علمه من الله ﷻ، وذلك مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ [لقمان: ١٢].

وكذلك ثم آيات أخر يستدل بها في هذا الباب كقوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٦٩]، وكقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣].

وكقول موسى ﷺ للخضر: ﴿هَلْ أَتَيْكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦].

فعلى كل عالم أن يدرك ذلك، وعلى كل عاقل وحكيم أن يدرك ذلك، عليه أن يدرك أن ما به من نعمة فمن الله.

كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

الثانية: وجوب شكر الله على نعمه وآلائه وفضله وإحسانه.

الثالثة: الثناء على الشخص الذي يُراد قبول قوله، وذلك حتى يلقي قوله قبولاً، وذلك مأخوذ من الثناء على لقمان قبل ذكر موعظته لولده بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ [لقمان: ١٢].

الرابعة: استحباب وعظ الوالد لولده؛ وذلك من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ﴾ [لقمان: ١٣] وعلى ذلك أدلة كثيرة أخر:

منها: قول نوح ﷺ لولده: ﴿يَبْنِي أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ [هود: ٤٢].

وكذا قول يعقوب عليه السلام لبنيه: ﴿يَبْنِي إِيَّاهُ اللَّهُ أَصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

وكذا وصية رسول الله ﷺ لابنته فاطمة رضي الله عنها لما استشعر عليه الصلاة والسلام الموت:

أخرج البخاري ومسلم من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: «إِنَّا كُنَّا أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ عِنْدَهُ جَمِيعًا لَمْ تُغَادِرْ مِنَّا وَاحِدَةٌ، فَأَقْبَلَتْ فَاطِمَةُ عليها السلام تَمْشِي لَا وَاللَّهِ مَا تَخْفَى مِشْيَتُهَا مِنْ مِشْيَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا رَأَاهَا رَحَبَ قَالَ: «مَرْحَبًا بِابْنَتِي» ثُمَّ أَجْلَسَهَا عَنْ يَمِينِهِ - أَوْ عَنْ شِمَالِهِ - ثُمَّ سَارَّهَا فَبَكَتْ بُكَاءً شَدِيدًا، فَلَمَّا رَأَى حُزْنَهَا سَارَّهَا الثَّانِيَةَ فَإِذَا هِيَ تَضْحَكُ، فَقُلْتُ لَهَا أَنَا مِنْ بَيْنِ نِسَائِهِ: خَصَّكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالسَّرِّ مِنْ بَيْنِنَا، ثُمَّ أَنْتِ تَبْكِينَ فَلَمَّا قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَأَلْتُهَا عَمَّا سَارَّكَ، قَالَتْ: مَا كُنْتُ لِأُفْشِيَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سِرَّهُ، فَلَمَّا تُوفِّي قُلْتُ لَهَا: عَزَمْتُ عَلَيْكَ بِمَا لِي عَلَيْكَ مِنَ الْحَقِّ لَمَّا أَخْبَرْتَنِي؟ قَالَتْ: أَمَّا الْآنَ فَنَعَمْ، فَأَخْبَرْتَنِي قَالَتْ: أَمَّا حِينَ سَارَّني فِي الْأَمْرِ الْأَوَّلِ فَإِنَّهُ أَخْبَرَنِي أَنَّ جَبْرِيلَ كَانَ يُعَارِضُهُ بِالْقُرْآنِ كُلَّ سَنَةٍ مَرَّةً وَإِنَّهُ قَدْ عَارَضَنِي بِهِ الْعَامَ مَرَّتَيْنِ، وَلَا أَرَى الْأَجَلَ إِلَّا قَدْ اقْتَرَبَ، فَاتَّقِي اللَّهَ وَاصْبِرِي، فَإِنِّي نِعَمَ السَّلَفُ أَنَا لَكَ، قَالَتْ: فَبَكَيتُ بُكَائِي الَّذِي رَأَيْتِ، فَلَمَّا رَأَى جَزَعِي سَارَّني الثَّانِيَةَ. قَالَ: «يَا فَاطِمَةُ أَلَا تَرْضَيْنَ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ أَوْ سَيِّدَةَ نِسَاءِ هَذِهِ الْأُمَّةِ»^(١).

الخامسة: بيان خطر الشرك، وأنه ظلمٌ عظيمٌ.

(١) البخاري (مع الفتح ٧٩/١١)، ومسلم (مع النووي ٥/١٦).

قال القرطبي رحمته الله:

وقوله: (يَبْنِي) ليس هو على حقيقة التصغير، وإن كان على لفظه، إنما هو على التريق كما يُقال للرجل: يَا أَخِي، وللصبي هو (كويس).

السادسة: الوصية بالوالدين والتنصيب على الأم بذكر فضلها، وما بذلته من جهد لرعاية ولدها، وتقديم الشكر لهما.

وقد دلت على ذلك أدلة كثيرة من كتاب الله ﷻ، ومن سنة رسول الله ﷺ: قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدِي وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي بُنْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥].

وقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّتُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٨]. وقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصْلُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَلَدِكَ إِلَىٰ الْوَصِيرِ﴾ [لقمان: ١٤].

فيأمر الله ﷻ في هذه الآية الكريمة بشكره وشكر الوالدين. وفي معرض الشناء على الأنبياء ومدحهم يأتي الشناء عليهم لبرهم بالديهم: قال الله - سبحانه - في شأن نبيه يحيى بن زكريا ﷺ: ﴿وَبَرًّا بِوَلَدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ [مريم: ١٤].

وهذا نبي الله عيسى ﷺ يتكلم في المهد فيقول: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۖ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۖ وَبَرًّا بِوَلَدَيْ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا سَفِيًّا﴾ [مريم: ٣٠-٣٢].

السابعة: بيان مدة الرضاعة، وأنها ستان، وبعد الستين فالرضاعة لا تحرم.

هذا؛ وقد استنبط بعض العلماء من قوله تعالى: ﴿وَفِصْلُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ [لقمان:

[١٤].

وقوله: ﴿وَحَمْلُهُ، وَفِصْلُهُ، ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥] أن أقل مدة للحمل ستة أشهر، والله أعلم.

هذا؛ ومما يؤكد أن الرضاعة المحرمة إنما هي الرضاعة في الصغر والغلام دون الحولين ما يلي:

قول الله سبحانه: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْمِيَ الرِّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

قال القرطبي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

انتزع مالك - رحمه الله تعالى - ومن تابعه وجماعة من العلماء من هذه الآية أن الرضاعة الجارية مجرى النسب إنما هي ما كان في الحولين؛ لأنه بانقضاء الحولين تمت الرضاعة ولا رضاعة بعد الحولين معتبرة، هذا قوله في «موطئه»^(١).

وعن عائشة رضي الله عنها^(٢) أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَيْهَا وَعِنْدَهَا رَجُلٌ، فَكَأَنَّهُ تَغَيَّرَ وَجْهُهُ، كَأَنَّهُ كَرِهَ ذَلِكَ فَقَالَتْ: إِنَّهُ أَخِي، فَقَالَ: «انْظُرْنَ مَنْ إِخْوَانُكُنَّ»^(٣) فَإِنَّمَا

(١) لفظ مالك في «الموطأ» (ص ٦٠٤) في النسخة التي بين أيدينا: الرضاعة قليلها وكثيرها تُحرَّم، فأما ما كان بعد الحولين فإن قليله وكثيره لا يُحرَّم شيئاً، وإنما هو بمنزلة الطعام.

(٢) البخاري (٥١٠٢)، ومسلم (١٤٥٥).

(٣) قال الحافظ في «الفتح» (١٤٨/٩):

تَأْمَلَنَّ مَا وَقَعَ مِنْ ذَلِكَ هَلْ هُوَ رَضَاعٌ صَحِيحٌ بِشَرْطِهِ: مِنْ وَقُوعِهِ فِي زَمَنِ الرِّضَاعَةِ، وَمُقَدَّارِ الْإِرْتِضَاعِ فَإِنَّ الْحُكْمَ الَّذِي يَنْشَأُ مِنَ الرِّضَاعِ إِنَّمَا يَكُونُ إِذَا وَقَعَ الرِّضَاعُ الْمُشْتَرِطُ. قَالَ الْمُتَهَبُّ: مَعْنَاهُ انْظُرْنَ مَا سَبَبَ هَذِهِ الْأُخُوَّةَ، فَإِنَّ حُرْمَةَ الرِّضَاعِ إِنَّمَا هِيَ فِي الصَّغَرِ حَتَّى تَسُدَّ الرِّضَاعَةَ الْمَجَاعَةَ.

وَقَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: مَعْنَاهُ أَنَّ الَّذِي جَاعَ كَانَ طَعَامُهُ الَّذِي يُشْبِعُهُ اللَّبَنُ مِنَ الرِّضَاعِ لَا حَيْثُ يَكُونُ الْغِذَاءُ = بِغَيْرِ الرِّضَاعِ.

الرَّضَاعَةُ مِنَ الْمَجَاعَةِ».

وأخرج الترمذي بسندٍ صحيحٍ من حديث أمِّ سلمة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا يُحَرِّمُ مِنَ الرِّضَاعَةِ إِلَّا مَا فَتَقَ الْأُمْعَاءُ فِي الثَّدي وَكَانَ قَبْلَ الْفِطَامِ»^(١).

وأخرج عبد الرزاق بسندٍ صحيحٍ عن أبي عطية الوادعي قال: جاء رجل إلى ابن مسعود فقال: إنها كانت معي امرأتى فحُصر لبنها في ثديها، فجعلت أمصه ثم أمجّه، فأتيت أبا موسى الأشعري فسألته فقال: حرمت عليك، قال: فقام وقمنا معه حتى انتهى إلى أبي موسى، فقال: ما أفيت هذا؟ فأخبره بالذي أفناه. فقال ابن مسعود، وأخذ بيد الرجل: أرضيعاً ترى هذا؟ إنما الرضاع ما أنبت اللحم والدم، فقال أبو موسى: لا تسألوني عن شيء ما كان هذا الحبر

قوله: (فَإِنَّمَا الرِّضَاعَةُ مِنَ الْمَجَاعَةِ) فِيهِ تَعْلِيلُ الْبَاعِثِ عَلَى إِمْعَانِ النَّظَرِ وَالْفِكْرِ؛ لِأَنَّ الرِّضَاعَةَ تُثَبِّتُ النَّسَبَ وَتَجْعَلُ الرِّضِيعَ مُحَرَّمًا.

وقوله «مِنَ الْمَجَاعَةِ» أَي الرِّضَاعَةُ الَّتِي تُثَبِّتُ بِهَا الْحُرْمَةُ وَتَحِلُّ بِهَا الْخُلُوةُ هِيَ حَيْثُ يَكُونُ الرِّضِيعُ طِفْلًا لِسَدِّ اللَّبَنِ جُوعَتِهِ؛ لِأَنَّ مَعْدَتَهُ ضَعِيفَةٌ يَكْفِيهَا اللَّبَنُ وَيَنْبُتُ بِذَلِكَ لَحْمُهُ فَيَصِيرُ كَجُزءٍ مِنَ الْمُرْضِعَةِ فَيَشْتَرِكُ فِي الْحُرْمَةِ مَعَ أَوْلَادِهَا، فَكَأَنَّهُ قَالَ: لَا رِضَاعَةٌ مُعْتَبَرَةٌ إِلَّا الْمَغْنِيَّةُ عَنِ الْمَجَاعَةِ أَوْ الْمُطْعِمَةُ مِنَ الْمَجَاعَةِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ﴾.

وَمِنْ شَوَاهِدِهِ: حَدِيثُ ابْنِ مَسْعُودٍ: «لَا رِضَاعَ إِلَّا مَا شَدَّ الْعَظْمَ، وَأَنْبَتَ اللَّحْمَ» [أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ مَرْفُوعًا وَمَوْقُوفًا].

وَحَدِيثُ أُمِّ سَلَمَةَ: «لَا يُحَرِّمُ مِنَ الرِّضَاعِ إِلَّا مَا فَتَقَ الْأُمْعَاءُ» [أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ] قَالَهُ الْحَافِظُ فِي «الْفَتْحِ».

(١) الترمذي ١١٦٢ مع التحفة).

وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، وَالْعَمَلُ عَلَى هَذَا عِنْدَ أَكْثَرِ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ وَغَيْرِهِمْ، أَنَّ الرِّضَاعَةَ لَا تُحَرِّمُ إِلَّا مَا كَانَ دُونَ الْحَوْلَيْنِ، وَمَا كَانَ بَعْدَ الْحَوْلَيْنِ الْكَامِلَيْنِ فَإِنَّهُ لَا يُحَرِّمُ شَيْئًا.

بين أظهركم^(١).

وأخرج سعيد بن منصور بسند صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لا رضاع إلا ما كان في الحولين»^(٢).

وأخرج مالك^(٣) بسند صحيح عن عبد الله بن دينار أنه قال: جاء رجل إلى عبد الله بن عمر وأنا معه عند دار القضاء، يسأله عن رخصة الكبير؟ فقال عبد الله بن عمر: جاء رجل إلى عمر بن الخطاب فقال: إنني كنت لي وليدة^(٤)، وكنت أطؤها، فعمدت امرأتي إليها فأرضعتها فدخلت عليها، فقالت: ذونك فقد والله أرضعتها، فقال عمر: أوجعها^(٥) وائت جاريته^(٦) فإنما الرضاعة رضاعة الصغير.

الثامنة: الإحسان إلى الوالدين الكافرين أيضاً، ومصاحبتها بالمعروف في الدنيا، وإن كانا مشركين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِنْ جَهْدَاكَ عَلَى أَنْ تَشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥].

فمع عدم الطاعة فيما يدعوان إليه من الشرك هناك مصاحبة بالمعروف. قال الله ﷻ: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْتُلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُواكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (٨) إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُواكُمْ مِنْ دِينِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿[الممتحنة: ٨، ٩].

(١) «المصنف» (٤٦٣/٧).

(٢) سعيد بن منصور في «السنن» (٩٨٠).

(٣) «الموطأ» (ص ٦٠٦).

(٤) المراد بالوليدة: الأمة.

(٥) أوجعها: أي: اضربها ضرباً موجعاً.

(٦) وائت جاريته: أي جامعها.

وأخرج البخاري ومسلم^(١) من حديث أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَدِمَتْ أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ قُرَيْشٍ^(٢) إِذْ عَاهَدُوا النَّبِيَّ ﷺ مَعَ ابْنِهَا فَاسْتَفْتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقُلْتُ: إِنَّ أُمِّي قَدِمَتْ وَهِيَ رَاغِبَةٌ^(٣) أَفَأَصِلُهَا؟ قَالَ: «نَعَمْ صِلِي أُمَّكَ».

التاسعة: بيان أن الطاعة إنما تكون في المعروف، ولا طاعة لأحد يأمر بمعصية الله أو بالشرك به، وعلى ذلك بعض الأدلة.

أخرج البخاري ومسلم^(٤) من حديث عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ جَيْشًا، وَأَمَرَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا فَأَوْقَدَ نَارًا وَقَالَ: ادْخُلُوهَا فَأَرَادُوا أَنْ يَدْخُلُوهَا. وَقَالَ آخَرُونَ: إِنَّمَا فَرَرْنَا مِنْهَا، فَذَكَّرُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ لِلَّذِينَ أَرَادُوا أَنْ يَدْخُلُوهَا: «لَوْ دَخَلُوهَا، لَمْ يَزَالُوا فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ». وَقَالَ لِلآخَرِينَ: «لَا طَاعَةَ فِي مَعْصِيَةِ إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ»^(٥).

وأخرج أحمد^(٦) بإسناد صحيح عَنْ حَنْظَلَةَ بْنِ خُوَيْلِدٍ الْعَنْبَرِيِّ قَالَ: بَيْنَمَا أَنَا عِنْدَ مُعَاوِيَةَ إِذْ جَاءَهُ رَجُلَانِ يَخْتَصِمَانِ فِي رَأْسِ عَمَّارٍ، يَقُولُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا: أَنَا قَتَلْتُهُ. فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمَّارٍ: لِيَطْبُ بِهِ أَحَدُكُمَا نَفْسًا لِصَاحِبِهِ، فَإِنِّي

(١) البخاري مع «الفتح» (٢٣٣/٥)، ومسلم (٤١/٣).

(٢) عند البخاري مع «الفتح» (٢٨١/٦)، في عهد قريش؛ إذ عاهدوا رسول الله ﷺ ومُذَّتْهُمْ، قال الحافظ «الفتح» (٢٣٤/٥): وأراد بذلك ما بين الحديبية والفتح.

(٣) في قوله: (راغبة): أقوال، والذي عليه الجمهور - كما نقله الحافظ في «الفتح» - أنها قدمت طالبة في برٍّ ابتتها لها خائفة من ردّها إيّاها خائبة.

(٤) البخاري مع «الفتح» (٢٣٣/١٣)، ومسلم (١٨٤٠).

(٥) وصح عن النبي ﷺ كما في البخاري (١٢١/١٣) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «السمع والطاعة على على المرء المسلم فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة». وقال الله ﷻ: (وَلَا تُطِيعُوا مَنْ أَغْفَلْنَا قُلُوبَهُ، عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا) [الكهف: ٢٨].

(٦) أحمد في «المسند» (١٦٤/٢، ١٦٥).

سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «تَقْتُلُهُ الْفِتْنَةُ الْبَاغِيَّةُ».

قَالَ مُعَاوِيَةُ: فَمَا بِأَلِكَ مَعَنَا. قَالَ: إِنَّ أَبِي شَكَانِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «أَطْعَ أَبَاكَ مَا دَامَ حَيًّا وَلَا تَعْصِهِ» فَأَنَا مَعَكُمْ وَلَسْتُ أَقَاتِلُ.

فَعَبَدَ اللَّهُ بَنَ عُمَرُو (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا)، وَإِنْ أَطَاعَ أَبَاهُ لَكُنَ النَّبِيُّ ﷺ أَوْصَاهُ بِذَلِكَ فَقَالَ: «أَطْعَ أَبَاكَ مَا دَامَ حَيًّا وَلَا تَعْصِهِ»، إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يِقَاتِلِ الْمُسْلِمِينَ، وَلَمْ يَرْفَعْ سِيفَهُ عَلَيْهِمْ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ -.

وهذا مزيد من الأدلة في النهي عن تقليد الآباء فيما هم عليه من كفر وعصيان وبدعة ومنكر وضلال:

حيث إن هذا التقليد الأعمى سبيل أهل الكفر والضلال.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَفْوَءُ آبَاءِهِمْ ضَالِّينَ ۖ﴾ ﴿١٦﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿١٧﴾ [الصافات:

٦٩، ٧٠].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ۖ﴾ [البقرة: ١٧٠].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ۖ﴾ [لقمان: ٢١].

وقال تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُمْ كِتَابَنَا مِنْ قَبْلِهِ ۖ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ۖ﴾ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُهُتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ [الزخرف: ٢١-٢٣].

العاشرة: الحث على سلوك سبيل أهل الفضل والصلاح.

الحادية عشرة: التذكير بالآخرة وبالمرجع والمآب، وذلك من قوله تعالى:

﴿إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ﴾.

الثانية عشرة: تعليم الأبناء مراقبة الله ﷻ، وأنه يراهم ويطلع عليهم، وعلى أعمالهم، وأنه سيوافيهم بها يوم القيامة.

الثالثة عشرة: بيان عظم شأن الصلاة، وعظم شأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر عن الأذى.

الرابعة عشرة: التأدب عند مخاطبة الناس وعدم الإعراض بالوجه عنهم، والتأدب في المشي والنهي عن الاختيال والفخر.

الخامسة عشرة: في الآيات إثبات صفة المحبة لله ﷻ، وذلك من المفهوم المخالف في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخَالٍ فَخُورٍ﴾.

وفي الباب أدلة كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

السادسة عشرة: بيان أدب السير في الطرقات.

السابعة عشرة: بيان أدب التخاطب والتحدث مع الناس، وفضيلة خفض الصوت بالقدر الذي يسمع من تحادثه.

الثامنة عشرة: جواز ضرب الأمثال بالحُمُر ونحوها للتنفير من خصالها، وبيان أنكر الأصوات، وقد قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ لَنَا مِثْلُ السَّوْءِ».

التاسعة عشرة: مشروعية التذكير بقصص ومواعظ السابقين للاستفادة منها.

العشرون: بيان فضيلة لقمان رَحِمَهُ اللَّهُ ورضي عنه.

الحادية والعشرون: ذكر طائفة من أسماء الله الحسنى كالمغني، والحميد، واللطيف، والخير.

فهذه بعض الفوائد، وثَمَّ فوائدٌ أُخر يضيق المقام بذكرها.

وهذا كله من فضل الله ﷻ، ثم من بركة هذا الكتاب العزيز فهو كتاب مبارك، كما وصفه الله تعالى؛ إذ قال: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ [الأنبياء: ٥٠]، وكما قال: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص: ٢٩].

فنسأل الله أن ينفعنا، وأن يرفعنا بهذا الكتاب العزيز. وأن يجعله شاهداً لنا لا علينا. وأن يشفعه فينا يوم نلقاه.

كما أسأله سبحانه وتعالى أن يدخلنا برحمته في عباده الصالحين، وأن يجعلنا مع الذي أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً.



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ
ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ
مُنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا
أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾ وَمَن يُسَلِّمْ
وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ
الْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ ۖ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا
إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمْنِعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ
غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ قُلِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّ اللَّهَ
هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ
مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَا
خَلَقُكُمْ وَلَا بِعَثْكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾

[لقمان: ٢٠-٢٨].

س: وَضَّحْ معنى ما يلي:

﴿سَخَّرَ-وَأَسْبَغَ-نِعْمَهُ-ظَاهِرَةً-وَبَاطِنَةً-يُجَدِّدُ فِي اللَّهِ-يُسَلِّمُ وَجْهَهُ-مُحْسِنٌ-
بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى-عَقِبَةُ الْأُمُورِ-بِذَاتِ الصُّدُورِ-نَضَطَّرُهُمْ-أَقْلَمٌ-نَفَذَتْ-كَلِمَتُ اللَّهِ﴾؟

ج:

الكلمة	معناها
﴿سَخَّرَ﴾	ذَلَّلَ
﴿وَأَسْبَغَ﴾	أَتَمَّ وَأَكْمَلَ
﴿نِعْمَهُ﴾	عموم النعم التي أنعم الله بها على العباد، ومنها نعمة الإسلام وقول لا إله إلا الله
﴿ظَاهِرَةً﴾	ظاهرة للأعين، تُرى وتُحس
﴿وَبَاطِنَةً﴾	لا تراها الأعين
﴿يُجَدِّدُ فِي اللَّهِ﴾	يُخَاصِمُ فِي وَحْدَانِيَةِ اللَّهِ - يقول: إن الله ليس وحده بل له شريك يُعْبَدُ معه
﴿يُسَلِّمُ وَجْهَهُ﴾	يُسْتَسْلِمُ وَيُنْقَادُ - يَخْلَصُ عَمَلُهُ لِلَّهِ وَلَا يُرَآي
﴿مُحْسِنٌ﴾	مُوَافِقٌ فِي عَمَلِهِ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ
﴿بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾	الحلقة التي تقود من تمسك بها إلى الجنة، ولا تنكسر ولا تنثني حتى يأخذ بيده من تمسك بها إلى الجنة. وقيل عهدٌ وميثاق وعد الله به من أسلم وأحسن في إسلامه
﴿عَقِبَةُ الْأُمُورِ﴾	مرجع الأمور - مردها يوم القيامة

﴿يَذَاتِ الصُّدُورِ﴾	دواخل النفوس وأسرارها وما يُفكر الشخص به في عبادة ربّه ﷻ
﴿نَضَطْرُهُمْ﴾	نلجؤهم - نوردهم رغماً عنهم
﴿أَقْلَمُ﴾	جمع قلم (الأقلام المعروفة)
﴿فَنَدَّتْ﴾	انتهت
﴿كَلِمَتُ اللَّهِ﴾	أوامر الله ونواهيهِ وعموم ما يتكلم به



س: في قوله تعالى: ﴿نِعْمَةٌ﴾ قراءتان وضحهما مع بيان معنيهما.

ج: القراءة الأولى: ﴿نِعْمَةٌ﴾ بالجمع، والمراد بها عموم النعم التي أنعم الله بها على الخلق.

والثانية: (نعمة)، وقال عدد من أهل العلم إن المراد به نعمة الإسلام.

قال الطبري رحمه الله:

واختلفت القرّاء في قراءة ذلك، فقرأه بعض المكيين وعامة الكوفيين: (وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَةً) على الواحدة، ووجهوا معناها إلى أنه الإسلام، أو إلى أنها شهادة أن لا إله إلا الله. وقرأته عامة قرّاء المدينة والبصرة: ﴿نِعْمَةٌ﴾ على الجماع، ووجهوا معنى ذلك، إلى أنها النعم التي سخرها الله للعباد مما في السموات والأرض، واستشهدوا لصحة قراءتهم ذلك كذلك بقوله: (شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ) [الأنعام: ١٢١] قالوا: فهذا جمع النعم.

والصواب من القول في ذلك عندنا أنهما قراءتان مشهورتان في قرّاء الأمصار، متقاربتا المعنى، وذلك أن النعمة قد تكون بمعنى الواحدة، ومعنى الجماع، وقد يدخل في الجماع الواحدة. وقد قال جلّ ثناؤه: ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ

اللَّهُ لَا تُخْصُوهُا ۖ [إبراهيم: ٣٤] فمعلوم أنه لم يعن بذلك نعمة واحدة. وقال في موضع آخر: ﴿وَلَوْ يَكُنِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝١٢٠ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ﴾ [النحل: ١٢٠، ١٢١]، فجمعها، فبأي القراءتين قرأ القارئ ذلك فمصيب.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم -: ألم تروا يا بني آدم أن الله ﷻ سخر لكم وذلّل لكم ما في السموات من شمس وقمر ونجوم وسحاب ورياح وغير ذلك، وكذا ما في الأرض من بحارٍ وجبال وأشجار وغير ذلك، وكل ذلك سخره لمنافعكم وراحتكم، وأتم عليكم نعمه وأكملها تلك النعم التي ترون بعضها ويخفى عليكم غيرها، ومع ذلك كله فمنكم من يجادل ويخاصم في وحدانية الله ويزعم أنه له شريك، وذلك منه بجهلٍ وبدون برهان ولا كتاب مضيء، أنزله الله.

وبنحو هذا قال العلماء.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أيها الناس ﴿أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ﴾ من شمس وقمر ونجم وسحاب ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ من دابة وشجر وماء وبحر وفلك، وغير ذلك من المنافع، يجري ذلك كله لمنافعكم ومصالحكم، لغذائكم وأقواتكم وأرزاقكم وملاذكم، تتمتعون ببعض ذلك كله، وتتفنون بجميعه، ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾.

وقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى﴾ يقول تعالى ذكره: ومن الناس من يخاصم في توحيد الله، وإخلاص الطاعة والعبادة له ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ عنده بما يخاصم، ﴿وَلَا هُدًى﴾: يقول: ولا بيان يبين به صحة ما يقول ﴿وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ يقول: ولا بتنزيل من الله جاء بما يدعي، يُبين حقيقة دعواه.

وأورد بسند حسن عن قتادة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ ليس معه من الله برهان ولا كتاب.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى منبهاً خلقه على نعمه عليهم في الدنيا والآخرة، بأنه سخر لهم ما في السموات من نجوم يستضيئون بها في ليلهم ونهارهم، وما يخلق فيها من سحب وأمطار وثلج وبرد، وجعله إياها لهم سقفاً محفوظاً، وما خلق لهم في الأرض من قرار وأنهار وأشجار وزروع وثمار. وأسبغ عليهم نعمه الظاهرة والباطنة من إرسال الرسل وإنزال الكتب، وإزاحة الشبه والعلل، ثم مع هذا كله ما آمن الناس كلهم، بل منهم من يجادل في الله، أي: في توحيده وإرسال الرسل. ومجادلته في ذلك بغير علم، ولا مستند من حجة صحيحة، ولا كتاب مأثور صحيح؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ أي: مبین مضیء.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ذكر نعمه على بني آدم وأنه سخر لهم ما في السموات من شمس وقمر ونجوم وملائكة تحوطهم وتجري إليهم منافعهم وما في الأرض عاماً في الجبال والأشجار والثمار وما لا يحصى ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ﴾ أي: أكملها وأتمها وقرأ ابن عباس ويحيى

ابن عمارة : وأصبغ بالصاد على بدلها من السين لأن حروف الاستعلاء تجتذب السين من سُفلها إلى علوها فتردها صاءً والنعم : مع نعمة كسدره وسدر بفتح الدال وهي قراءة نافع و أبي عمرو و حفص الباقون : نعمة على الأفراد والإفراد يدل على الكثرة كقوله تعالى : ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم : ٣٤] وهي قراءة ابن عباس من وجوه صحاح وقيل : إن معناها الإسلام قال النبي ﷺ لابن عباس وقد سأله عن هذه الآية : «الظاهرة الإسلام وما حسن من خُلقك والباطنة ما ستر عليك من سيئ عملك» النحاس : وشرح هذا أن سعيد بن جبير قال في قول الله ٥ : ﴿يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُثَبِّتَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة : ٦] قال : يدخلكم الجنة وتمام نعمة الله ٥ على العبد أن يدخله الجنة فكذا لما كان الإسلام يؤول أمره إلى الجنة سُمِّي نعمة وقيل : الظاهرة الصحة وكمال الخلق والباطنة المعرفة والعقل وقال المحاسبي : الظاهرة نعم الدنيا والباطنة نعم العقبي وقيل : الظاهرة ما يُرى بالأبصار من المال والجاه والجمال في الناس وتوفيق الطاعات والباطنة ما يجده المرء في نفسه من العلم بالله وحسن اليقين وما يدفع الله تعالى عن العبد من الآفات وقد سرد الماوردي في هذا أقوالاً تسعة كلها ترجع إلى هذا.

وقال رحمه الله :

﴿يُجَدِّدُ﴾ يخاصم ﴿بَغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي : بغير حُجة ﴿وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ أي نير بين إلا الشيطان فما يلقي إليهم ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَدِّدُوا لَهُمْ﴾ [الأنعام : ١٢١] وإلا تقليد الأسلاف كما في الآية بعد ﴿أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ يتبعونه.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَئِكَ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ (١١).

ج: المعنى - والله تعالى أعلم -: وإذا قيل لأهل الشرك والكفر، وعبداء الأوثان والأصنام، اتبعوا القرآن الذي أنزل الله على نبيه محمد ﷺ ذلكم الذي يدعوكم الله فيه إلى عبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه، الذي يدعو إلى كل خير وينهى عن كل شر ويخبر بكل صدق، قالوا: بل نتبع ما وجدنا عليه آبائنا فإنهم كانوا على حقٍّ وهدى، فقل لهؤلاء: أولو كان آبائكم على الباطل، وكان الشيطان يدعوهم بتزيينه الكفر والمعاصي لهم إلى عذاب النار المستعرة، أكنتم أيضاً تتبعونهم؟!!

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: وإذا قيل لهؤلاء الذين يجادلون في توحيد الله جهلاً منهم بعظمة الله اتبعوا أيها القوم ما أنزل الله على رسوله، وصدّقوا به، فإنه يفرق بين المحقّ منا والمبطل، ويفصل بين الضالّ والمهتدي، فقالوا: بل نتبع ما وجدنا عليه آبائنا من الأديان، فإنهم كانوا أهل حقٍّ، قال الله تعالى ذكره: (أُولَئِكَ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ) بتزيينه لهم سوء أعمالهم، واتباعهم إياه على ضلالّتهم، وكفرهم بالله، وتركهم اتباع ما أنزل الله من كتابه على نبيه ﷺ إلى عَذَابِ السَّعِيرِ يعني: عذاب النار التي تتسعر وتلتهب.

وقال ابن كثير رحمه الله:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ أي: لهؤلاء المجادلين في توحيد الله: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ أي: على رسوله من الشرائع المطهرة، ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ أي: لم يكن لهم حجة إلا اتباع الآباء الأقدمين، قال الله: ﴿أُولَئِكَ كَانُوا ابْءَاهُمْ لَا

يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿البقرة: ١٧٠﴾ أي: فما ظنكم أيها المحتجون بصنيع آبائهم، أنهم كانوا على ضلالة وأنتم خلف لهم فيما كانوا فيه؛ ولهذا قال: (أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ) .



س: وضع معنى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (٢٣)؟

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - : ومن يخلص نيته لله ويقبل على الله ممتثلًا أمره، مجتنبًا نهيه، عاملاً بما أمر، تاركًا ما عنه نهى، فقد تمسك بحلقة متينة يُقاد بها إلى الجنة، لا تنكسر تلك الحلقة ولا تنشئ حتى تدخله الجنة، وكذا فإن له عهدًا موثقًا من الله أن يدخله الجنة وإلى الله مرجع الأمور ومردّها، وسيسأل كل عبد عما صنع ويُجازي كل عامل بما عمل.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ومن يُعَبِّد وجهه متذللًا بالعبودة، مقرًّا له بالألوهة ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ يقول: وهو مطيع لله في أمره ونهيه، ﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ يقول: فقد تمسك بالطرف الأوثق الذي لا يخاف انقطاعه من تمسك به، وهذا مثل، وإنما يعني بذلك: أنه قد تمسك من رضا الله بإسلامه وجهه إليه وهو محسن، ما لا يخاف معه عذاب الله يوم القيامة.

وقوله: ﴿وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ يقول: وإلى الله مرجع عاقبة كل أمر خيره وشره، وهو المسائل أهله عنه، ومجازيهم عليه.

وقال ابن كثير رحمه الله:

يقول تعالى مخبراً عمن أسلم وجهه لله، أي: أخلص له العمل وانقاد

لأمره واتبع شرعه؛ ولهذا قال: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: في عمله، باتباع ما به أمر، وترك ما عنه زجر، ﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ أي: فقد أخذ موثقاً من الله متيناً أنه لا يعذبه، ﴿وَالِإِلَهِ عَقِبَةُ الْأُمُورِ﴾.



س: كيف يفهم قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنُكَ كُفْرُهُ﴾ والنفس مجبولة على أنها تحب من أسلم وتسعد لإسلامه وتحزن إذا ارتد مرتد واستمر الكافر على كفره؟

ج: المراد - والله تعالى أعلم -: فلا تحزن حزناً شديداً يهلكك، وذلك كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ﴾ [فاطر: ٨]، وكما قال: ﴿لَعَلَّكَ بَئِخٌ نَّفْسَكَ لَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]. والله أعلم.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنُكَ كُفْرُهُ﴾ إِنَّا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٣٤﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم -: ومن استمر على كفره بعد مجيء البينات إليه وإقامة الحجة عليه، وكذا من ارتد عن الإسلام بعد دخوله فيه فلا تحزن على هذا، ولا على ذلك، لا تذهب نفسك عليهم حسرات، لا تنقطع عليهم نفسك ولا تهلكها من أجلهم فإلينا مرجعهم يوم القيامة وما بهم فنجدهم بأعمالهم ثم نجازيهم عليها، وكذا نجازيهم على ما أضمرته صدورهم ونفوسهم فالله عليم بدواخلهم وبما يدور في قلوبهم هذا، وإن كانوا مُمتعين في الدنيا، فإننا قد متعنهم بهذا المتاع الزائل القليل الفاني ثم نلجؤهم بعده إلى عذاب النار، ذلكم العذاب الشديد الغليظ. وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ومن كفر بالله فلا يحزنك كفره، ولا تذهب نفسك عليهم حسرة، فإن مرجعهم ومصيرهم يوم القيامة إلينا، ونحن نخبرهم بأعمالهم الخبيثة التي عملوها في الدنيا، ثم نُجازيهم عليها جزاءهم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ يقول: إن الله ذو علم بما تكنه صدورهم من الكفر بالله، وإيثار طاعة الشيطان. وقوله: ﴿نُمْنِعُهُمْ قَلِيلًا﴾ يقول: نمهلهم في هذه الدنيا مهلاً قليلاً يتمتعون فيها ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ يقول: ثم نوردهم على كره منهم عذاباً غليظاً، وذلك عذاب النار، نعوذ بالله منها، ومن عمل يقرب منها.

وقال ابن كثير رحمه الله:

﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنكَ كُفْرُهُ﴾ أي: لا تحزن يا محمد عليهم في كفرهم بالله وبما جئت به؛ فإن قدر الله نافذ فيهم، وإلى الله مرجعهم فينبئهم بما عملوا، أي: فيجزئهم عليه، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ، فلا تخفى عليه خافية. ثم قال: ﴿نُمْنِعُهُمْ قَلِيلًا﴾ أي: في الدنيا، ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ﴾ أي: نلجئهم ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ أي: فظيع صعب شاق على النفوس، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ ﴿٦٩﴾ مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿[يونس: ٦٩، ٧٠].﴾



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٥﴾.

ج: المعنى - والله أعلم - : ولئن سألت أهل الشرك هؤلاء يا رسول الله من

خلق السموات والأرض ليقولن الله الذي خلقهن، فقل لهم: الحمد لله على إقراركم واعترافكم بأن خالقها هو الله، فكيف تدعون إذن أن الله معه آلهة أخرى فحقاً إن أكثرهم قومٌ لا يعلمون ما يضرهم وما ينفعهم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

يقول تعالى ذكره: ولئن سألت يا محمد هؤلاء المشركين بالله من قومك ﴿مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ يقول تعالى ذكره لنبيه محمد، فإذا قالوا ذلك، فقل لهم: الحمد لله الذي خلق ذلك، لا لمن لا يخلق شيئاً وهم يُخلِقون، ثم قال تعالى ذكره: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يقول: بل أكثر هؤلاء المشركون لا يعلمون من الذي له الحمد، وأين موضع الشكر.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

يقول تعالى مخبراً عن هؤلاء المشركين به: إنهم يعرفون أن الله خالق السموات والأرض، وحده لا شريك له، ومع هذا يعبدون معه شركاء يعترفون أنها خلقت له وملك له؛ ولهذا قال: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [أي: إذ قامت عليكم الحجة باعترافكم]، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾ أي: هم يعترفون أن الله خالقهن فلم يعبدوا غيره ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: على ما هدانا له من دينه وليس الحمد لغيره ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: ينظرون ولا يتدبرون.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾

﴿٣٦﴾

ج: المعنى - والله تعالى أعلم -: لله ملك السموات والأرض يفعل فيهما ما يشاء ويتصرف فيهما كيفما يريد أن الله هو الغني عن خلقه، فكل شيء ملك له، وهو المحمود على نعمه التي يُنعم بها على خلقه.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يقول تعالى ذكره: لله كل ما في السموات والأرض من شيء ملكاً كائناً ما كان ذلك الشيء من وثن وصنم وغير ذلك، مما يعبد أو لا يعبد ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ يقول: إن الله هو الغني عن عباده هؤلاء المشركين به الأوثان والأنداد، وغير ذلك منهم ومن جميع خلقه؛ لأنهم ملكه وله، وبهم الحاجة إليه، الحميد: يعني: المحمود على نعمه التي أنعمها على خلقه.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

ثم قال: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: هو خلقه وملكه، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ أي: الغني عما سواه، وكل شيء فقير إليه، الحميد في جميع ما خلق، له الحمد في السموات والأرض على ما خلق وشرع، وهو المحمود في الأمور كلها.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي ملكاً وخلقاً ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ أي الغني عن خلقه وعن عبادتهم وإنما أمرهم لينفعهم ﴿الْحَمِيدُ﴾ أي: المحمود على صنعه.



س: **وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٣٧).**

ج: المعنى -والله تعالى أعلم-: ولو أن أشجار الأرض كلها جعلت أقلاماً وتحولت إلى أقلام، وكان البحر كله مداداً (أي حبراً) تملأ به تلك الأقلام كي تكتب، وأضيف إلى البحر سبعة أبحُرٍ أخرى تكون مداداً أيضاً (أي تكون حبراً) لنفد المداد كله، لنفدت الأبحر كلها ولم تنته كلمات ربي التي هي أقواله وأوامره ونواهيهِ وتذكيره والآية في معناها قوله تعالى: ﴿فَلَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَنفِدَ كَلِمَاتِ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩]، وبنحو ما ذكرت قال أهل التأويل .

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ولو أن شجر الأرض كلها بُرِيت أقلاماً ﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ﴾ يقول: والبحر له مداد، والهاء في قوله: (يُمُدُّه) عائدة على البحر. وقوله: (مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ) وفي هذا الكلام محذوف استغنى بدلالة الظاهر عليه منه، وهو يكتب كلام الله بتلك الأقلام وبذلك المداد، لتكسرت تلك الأقلام، ولنفد ذلك المداد، ولم تنفد كلمات الله.

وأورد بإسناد صحيح: عن أبي رجاء، قال: سألت الحسن عن هذه الآية: (وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ) قال: لو جعل شجر الأرض أقلاماً، وجعل البحور مداداً، وقال الله: إن من أمري كذا، ومن أمري كذا، لنفد ماء البحور، وتكسرت الأقلام.

وأورد بإسناد حسن: عن قتادة قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ قال: قال المشركون^(١): إنما هذا

(١) وليس هذا بسبب نزول مسند إنما هو تفسير من قتادة للآية.

كلام يوشك أن ينفد، قال: لو كان شجر البرّ أقلامًا، ومع البحر سبعة أبحر ما كان لتنفد عجائب ربي وحكمته وخلقه وعلمه.

وأورد الطبري سبب نزول للآية الكريمة لكن بإسنادٍ ضعيف.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

يقول تعالى مخبراً عن عظمته وكبريائه وجلاله، وأسمائه الحسنی وصفاته العلا وكلماته التامة التي لا يحيط بها أحد، ولا اطلاع لبشر على كنهها وإحصائها، كما قال سيد البشر وخاتم الرسل: «لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ [أي: ولو أن جميع أشجار الأرض جُعِلَتْ أَقْلَامًا، وجعل البحر مدادًا ومدّه سبعة أبحر] معه، فكتبت بها كلمات الله الدالة على عظمته وصفاته وجلاله لتكسرت الأقلام، ونفد ماء البحر، ولو جاء أمثالها مددًا.

وإنما ذكرت «السبعة» على وجه المبالغة، ولم يرد الحصر ولا [أن] ثم سبعة أبحر موجودة تحيط بالعالم، كما يقوله من تلقاه من كلام الإسرائيليين التي لا تصدق ولا تكذب، بل كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَنفِدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩]، فليس المراد بقوله: ﴿بِمِثْلِهِ﴾ آخر فقط، بل بمثله ثم بمثله ثم بمثله، ثم هلم جرا؛ لأنه لا حصر لآيات الله وكلماته.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [أي: عزيز قد عز كل شيء وقهره وغلبه، فلا مانع لما أراد ولا مخالف ولا معقب لحكمه، ﴿حَكِيمٌ﴾ في خلقه وأمره، وأقواله وأفعاله، وشرعه وجميع شؤونه.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿مَا خَلَقُكُمْ وَلَا بَعَثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (١٨).

ج: المعنى - والله أعلم - : ما خلقكم يا بني آدم ولا بعثكم يوم القيامة إلا كخلق نفس واحدة وبعث نفس واحدة، وكل ذلك سهلٌ وهينٌ على الله ﷻ، وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون إن الله سميع لأقوال بني آدم، وسميع لكل شيء وبصير بكل شيء.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ما خلقكم أيها الناس ولا بعثكم على الله إلا كخلق نفس واحدة وبعتها، وذلك أن الله لا يتعذر عليه شيء أراده، ولا يمتنع منه شيء شاءه ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] فسواء خلق واحد وبعته، وخلق الجميع وبعثهم.

وأورد بإسناد حسن: عن قتادة قوله: ﴿مَا خَلَقُكُمْ وَلَا بَعَثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ قال: يقول: إنما خلق الله الناس كلهم وبعثهم كخلق نفس واحدة وبعتها.

ثم قال رحمه الله:

وإنما صلح أن يقال: إلا كنفس واحدة، والمعنى: إلا كخلق نفس واحدة؛ لأن المحذوف فعل يدل عليه قوله: ﴿مَا خَلَقُكُمْ وَلَا بَعَثُكُمْ﴾ والعرب تفعل ذلك في المصادر، ومنه قول الله: ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ [الأحزاب: ١٩] والمعنى: كدوران عين الذي يغشى عليه من الموت، فلم يذكر الدوران والعين لما وصفت.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ يقول تعالى ذكره: إن الله سميع لما يقول هؤلاء المشركون ويفترونه على ربهم، من ادّعائهم له الشركاء والأنداد وغير

ذلك من كلامهم وكلام غيرهم، بصير بما يعملونه وغيرهم من الأعمال، وهو مجازيهم على ذلك جزاءهم.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

وقوله: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةً﴾ أي: ما خلق جميع الناس وبعثهم يوم المعاد بالنسبة إلى قدرته إلا كنسبة [خلق] نفس واحدة، الجميع هين عليه و﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، (وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ) [القمر: ٥٠] أي: لا يأمر بالشيء إلا مرة واحدة، فيكون ذلك الشيء لا يحتاج إلى تكرره وتوكده. ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ (١٣) فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴿[النازعات: ١٣، ١٤].

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ أي: كما هو سميع لأقوالهم بصير بأفعالهم كسمعه وبصره بالنسبة إلى نفس واحدة كذلك قدرته عليهم كقدرته على نفس واحدة؛ ولهذا قال: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾.



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (٢٩) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَّجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْنَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ يَتَأْتِيَ النَّاسُ أَتَقْوَارِبَكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾ [لقمان: ٢٩-٣٤].

س: اذكر معنى ما يلي:

﴿يُولِجُ﴾ - ﴿أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ - ﴿الْبَاطِلُ﴾ - ﴿الْفُلُوكَ﴾ - ﴿بِنِعْمَتِ اللَّهِ﴾ - ﴿ءَايَاتِهِ﴾ - ﴿صَبَّارٍ﴾ - ﴿شَكُورٍ﴾ -
 ﴿غَشِيَهُمْ﴾ - ﴿كَالظَّلِيلِ﴾ - ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ - ﴿مُقَنِّصِدٌ﴾ - ﴿يَجْحَدُ﴾ - ﴿خَسَارٍ﴾ - ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ - ﴿فَلَا
 تَغُرَّنَّكُمْ﴾ - ﴿الْفُرُورُ﴾؟

ج:

الكلمة	معناها
﴿يُولِجُ﴾	يُدخل
﴿أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾	زمن محدد معلوم
﴿الْبَاطِلُ﴾	الذاهب الذي لا بقاء له ولا حقيقة له
﴿الْفُلُوكَ﴾	السفن العظيمة الهائلة
﴿بِنِعْمَتِ اللَّهِ﴾	تيسير الله - بفضل من الله
﴿ءَايَاتِهِ﴾	من أدلته التي يسوقها لبيان قدرته
﴿صَبَّارٍ﴾	كثير الصبر (في الضراء)
﴿شَكُورٍ﴾	كثير الشكر والرضا والحمد (في السراء)
﴿غَشِيَهُمْ﴾	حلَّ بهم ونزل بهم وخرج بهم عن الذي هم فيه
﴿كَالظَّلِيلِ﴾	كالسحاب الذي يُظل
﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾	مفردين له العبودية والدعاء، لا تدعون معه غيره
﴿مُقَنِّصِدٌ﴾	متوسط (في الشكر) - غير شاكر
﴿يَجْحَدُ﴾	يكفر

غَدَار	(خَتَارٍ)
اجعلوا بينكم وبين عذابه وقاية	(انْقُورِبْكُمْ)
فلا تخذعنكم ولا تصرفنكم	(فَلَا تَغْرَبْكُمْ)
الشیطان	(الْغُرُورُ)



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾؟

ج: المعنى - والله تعالى أعلم -: يدخل الليل في النهار فتطول ساعات الليل وتقصّر ساعات النهار ويدخل النهار في الليل فتطول ساعات النهار وسخر الشمس والقمر، كلٌّ يجري إلى أجل قدّره الله ﷻ، وحدّده، وأن الله بما تعملون خبير، خبيرٌ بما يصنعه العباد من خير أو شرّ.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمد بعينك ﴿أَنَّ اللَّهَ يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ يقول: يزيد من نقصان ساعات الليل في ساعات النهار ﴿وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ يقول: يزيد ما نقص من ساعات النهار في ساعات الليل.

وأورد بإسناد حسن: عن قتادة قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ نقصان الليل في زيادة النهار ﴿وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ نقصان النهار في زيادة الليل. وقوله: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يقول تعالى ذكر: وسخر الشمس والقمر لمصالح خلقه ومنافعهم، ﴿كُلٌّ يَجْرِي﴾ يقول: كل ذلك يجري بأمره إلى وقت معلوم، وأجل محدود إذا بلغه كوّرت الشمس والقمر.

وأورد بإسناد حسن: عن قتادة قوله: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يقول: لذلك كله وقت وحد معلوم، لا يجاوزه ولا يعدوه.

وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ يقول: وإن الله بأعمالكم أيها الناس من خير أو شر ذو خبرة وعلم، لا يخفى عليه منها شيء، وهو مجازيكم على جميع ذلك، وخرج هذا الكلام خطاباً لرسول الله ﷺ، والمعني به المشركون، وذلك أنه تعالى ذكره: نبه بقوله: ﴿أَنَّ اللَّهَ يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ على موضع حجته من جهل عظمته، وأشرك في عبادته معه غيره، يدل على ذلك قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَطْلُ﴾.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَطْلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم - : ذلك الذي ذكره الله لكم من إيلاج الليل في النهار، وإيلاج النهار في الليل كي تستدلوا على وحدانية الله ولتعلموا أن الله ﷻ إله واحد حقاً، وأن ما سواه من الآلهة، آلهة باطلة لا تملك لنفسها فضلاً عن غيرها ضرراً ولا نفعاً، وأن الله هو العلي الكبير.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: هذا الذي أخبرتك يا محمد أن الله فعله من إيلاجه الليل في النهار، والنهار في الليل، وغير ذلك من عظيم قدرته، إنما فعله بأنه الله حقاً، دون ما يدعو هؤلاء المشركون به، وأنه لا يقدر على فعل ذلك سواه، ولا تصلح الألوهة إلا لمن فعل ذلك بقدرته.

وقوله: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَطْلُ﴾ يقول تعالى ذكره: وبأن الذي يعبد

هؤلاء المشركون من دون الله الباطل الذي يضمحل، فيبید ويفنى ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ يقول تعالى ذكره: وبأن الله هو العليُّ، يقول: ذو العلوِّ على كل شيء، وكل ما دونه فله متدلل منقاد، الكبير الذي كل شيء دونه، فله متصاغر.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يخبر تعالى أنه ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ بمعنى: يأخذ منه في النهار، فيطول ذلك ويقصر هذا، وهذا يكون زمن الصيف يطول النهار إلى الغاية، ثم يسرع في النقص فيطول الليل ويقصر النهار، وهذا يكون في الشتاء، ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قيل: إلى غاية محدودة. وقيل: إلى يوم القيامة. وكلا المعنيين صحيح، ويستشهد للقول الأول بحديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا ذر! أتدري أين تذهب هذه الشمس؟». قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنها تذهب فتسجد تحت العرش، ثم تستأذن ربها فيوشك أن يقال لها: ارجعي من حيث جئت»^(١).

وقال:

وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ ، كقوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحج: ٧٠]. ومعنى هذا: أنه تعالى الخالق العالم بجميع الأشياء، كقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِنَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢].

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾ أي: إنما يظهر لكم آياته لتستدلوا بها على أنه الحق، أي: الموجود الحق، الإله الحق، وأن كل ما

(١) البخاري (٣١٩٩)، ومسلم (١٥٩).

سواه باطل فإنه الغني عما سواه، وكل شيء فقير إليه؛ لأن كل ما في السموات والأرض الجميع خلقه وعبيده، لا يقدر أحد منهم على تحريك ذرة إلا بإذنه، ولو اجتمع كل أهل الأرض على أن يخلقوا ذباباً لعجزوا عن ذلك؛ ولهذا قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَطْلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ أي: العلي: الذي لا أعلى منه، الكبير: الذي هو أكبر من كل شيء، فكل شيء خاضع حقير بالنسبة إليه.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم -: ألم تر وتستدل برؤيتك على وحدانية الله، ألم تر أن هذه السفن الهائلة العظيمة تجري في البحر بتيسير الله ﷻ لها، إن في جريانها في البحر وتسييرها لدلالات على وحدانية الله يستدل بها كل صبار كثير الصبر على طاعة الله والاستقامة على أمره، شكور كثير الشكر لله على نعمائه.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ألم تر يا محمد أن السفن تجري في البحر نعمة من الله على خلقه ﴿لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ﴾ يقول: ليرىكم من عبره وحُججه عليكم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ يقول: إن في جري الفلك في البحر دلالة على أن الله الذي أجراها هو الحق، وأن ما يدعون من دونه الباطل ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ يقول: لكل من صبر نفسه عن محارم الله، وشكره على نعمه فلم يكفره.

إن قال قائل: وكيف خص هذه الدلالة بأنها دلالة للصبار الشكور دون

سائر الخلق؟ قيل: لأن الصبر والشكر من أفعال ذوي الحِجى والعقول، فأخبر أن في ذلك آيات لكل ذي عقل؛ لأن الآيات جعلها الله عبراً لذوي العقول والتمييز.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

يخبر تعالى أنه هو الذي سَخَّرَ البحر لتجري فيه الفلك بأمره، أي: بلطفه وتسخيره؛ فإنه لولا ما جعل في الماء من قوة يحمل بها السفن لما جرت؛ ولهذا قال: ﴿لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ﴾ أي: من قدرته، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: صبار في الضراء، شكور في الرخاء.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظَّلِيلِ دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا بَلَغَهُمُ الْإِلَهَ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - : وإذا حلَّ بهؤلاء المشركين، وهم على الفلك في البحر موجٌ كالسحاب الأسود المخيف من كثرته دعوا الله مفردين إياه بالدعاء والعبادة، ولم يسألوا أحداً سواه، دعوه لينجيهم مما هم فيه فلما أنجاهم مما هم فيه وسلمهم وحفظهم فمنهم مقتصد، وقد قيل في المقتصد: إنه المقتصد (يعني: المتوسط) في تأدية ما عليه من شكر النعم، أنه لم يؤد شكر النعم حق الأداء بل كان متوسطاً في ذلك، ومن العلماء من قال: إن المقتصد هو الكافر، ومعنى مقتصد هاهنا: أنه مقتصد في توحيد ربِّه ليس بموحدٍ خالص التوحيد إنما قد شاب توحيدَه شركٌ بالله، وما يجحد بآيات الله وقدرته إلا كل غدار كثير الغدر وعدم الوفاء جحود لنعم الله عليه منكرٌ لها وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

يقول تعالى ذكره: وإذا غشى هؤلاء الذين يدعون من دون الله الآلهة والأوثان في البحر - إذا ركبوا في الفلك - موج كالظلل، وهي جمع ظُلَّة، شبه بها الموج في شدة سواد كثرة الماء، قال نابغة بني جعدة في صفة بحر:

يُمَاشِيهِنَّ أَخْضَرُ ذُو ظَلَالٍ عَلَى حَافَاتِهِ فَلَاقَ الدَّنَانِ

وشبه الموج وهو واحد بالظل، وهي جماع؛ لأن الموج يأتي شيء منه بعد شيء، ويركب بعضه بعضًا كهيئة الظل. وقوله: ﴿دَعَاُ اللهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ يقول تعالى ذكره: وإذا غشى هؤلاء موج كالظل، فخافوا الغرق، فزعدوا إلى الله بالدعاء مخلصين له الطاعة، لا يشركون به هنالك شيئًا، ولا يدعون معه أحدًا سواه، ولا يستغيثون غيره. قوله: ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ﴾ مما كانوا يخافونه في البحر من الغرق والهلاك إلى البر. ﴿فَمِنْهُمْ مُقْنَصِدٌ﴾ يقول: فمنهم مقتصد في قوله وإقراره بربه، وهو مع ذلك مضمير الكفر به.

وأورد بإسناد صحيح عن ابن زيد: في قوله: ﴿فَمِنْهُمْ مُقْنَصِدٌ﴾ قال: المقتصد الذي على صلاح من الأمر.

وقوله: ﴿وَمَا يَحْدُبَايُنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ يقول تعالى ذكره: وما يكفر بأدلتنا وحُججنا إلا كلُّ غَدَّارٍ بعهدده، والختر عند العرب: أقبح الغدر، ومنه قول عمرو بن معد يكرب:

وَإِنَّكَ لَوَ رَأَيْتَ أَبَا عُمَيْرٍ مَلَأَتْ يَدَيْكَ مِنْ غَدْرِ وَخْتَرٍ

وقوله: ﴿كَفُورٍ﴾ يعني: جحودًا للنعم، غير شاكر ما أسدى إليه من نعمة.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

ثم قال: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظَّلِيلِ﴾ أي: كالجبال والغمام، ﴿دَعَاُ اللهُ مُخْلِصِينَ

لَهُ الدِّينَ ﴿٦٧﴾ ، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَآهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفَلَكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

ثم قال: ﴿فَلَمَّا بَخَّسَهُمُ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ﴾ قال مجاهد: أي كافر. كأنه فسر المقتصد هاهنا بالجاحد، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَخَّسَهُمُ إِلَى الْبَرِّ إِذَاهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

وقال ابن زيد: هو المتوسط في العمل.

وهذا الذي قاله ابن زيد هو المراد في قوله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ [فاطر: ٣٢]، فالمقتصد هاهنا هو: المتوسط في العمل. ويحتمل أن يكون مرادًا هنا أيضًا، ويكون من باب الإنكار على من شاهد تلك الأحوال والأمور العظام والآيات الباهرات في البحر، ثم بعدما أنعم عليه من الخلاص، كان ينبغي أن يقابل ذلك بالعمل التام، والدؤوب في العبادة، والمبادرة إلى الخيرات. فمن اقتصد بعد ذلك كان مقصرًا والحالة هذه، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ : فالختار: هو الغدَّار. قاله مجاهد، والحسن، وقتادة، ومالك عن زيد بن أسلم، وهو الذي كلما عاهد نقض عهده، والختَر: أتم الغدر وأبلغه، قال عمرو بن معد يكرب:

وَأَنَّكَ لَوِ رَأَيْتَ أَبَا عَمِيرٍ مَلَأْتَ يَدَيْكَ مِنْ غَدْرٍ وَخْتَرٍ

وقوله: ﴿كَفُورٍ﴾ أي: جحود للنعم لا يشكرها، بل يتناساها ولا يذكرها.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ انْقِبَاءً رَبِّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَلَدِهِ شَيْئًا إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تَعْرَتُكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَعْرَتُكُمْ بِاللَّهِ الْعُرُورُ﴾.

ج: المراد - والله تعالى أعلم - : أن الله ﷻ يحذر عباده يومًا يفرد كل بعمله ولا يحمل أحدٌ فيه ذنوب غيره - إلا من أضل قومًا فإنه يحمل أيضًا إثم إضلالهم من غير أن ينقص من آثامهم شيئًا، فلا يغني والدٌ عن ولده، ولا مولود عن والده شيئًا فيقول تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ﴾ لمسلمهم وكافرهم، (انْقِبَاءً رَبِّكُمْ) اجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية وتلك الوقاية أعظمها توحيدكم وإفراد ربكم بعبادتكم وثم وقايات أخر كالصلاة والصيام والصدقة وغير ذلك من سائر الوقايات ﴿وَأَخْشَوْا يَوْمًا﴾ واحذروا يوم القيامة وما فيه من العذاب والأهوال، واعلموا في هذا اليوم لا يغني والد عن ولده، ولا مولود عن والده بل كل يحمل ذنوب نفسه كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمَلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ ثم يذكر ربنا بأنه وعده متحقق لا ريب فيه ولا شك فيقول: ﴿إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ ﴿فَلَا تَعْرَتُكُمْ﴾ فلا تخدعنكم الحياة الدنيا بزيتها وبهجتها وزخرفها ولا يخدعنكم بالله الشيطان، فيحملكم على ارتكاب المحرمات، ويسوف لكم في التوبة ويمنعكم منها ويؤخركم عنها.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: أيها المشركون من قريش، اتقوا الله، وخافوا أن يحل بكم سخطه في يوم لا يغني والد عن ولده، ولا مولود هو مغني عن والده شيئًا؛ لأن الأمر يصير هنالك بيد من لا يغالب، ولا تنفع عنده الشفاعة والوسائل،

إلا وسيلة من صالح الأعمال التي أسلفها في الدنيا. وقوله: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ يقول: اعلّموا أن مجيء هذا اليوم حقٌّ، وذلك أن الله قد وعد عباده ولا خلف لوعده ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ يقول: فلا تخدعنكم زينة الحياة الدنيا ولذاتها، فتميلوا إليها، وتدعوا الاستعداد لما فيه خلاصكم من عقاب الله ذلك اليوم. وقوله: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ يقول: ولا يخدعنكم بالله خادع. والغرور بفتح الغين: هو ما غرّ الإنسان من شيء كائنًا ما كان شيطانًا كان أو إنسانًا، أو دنيا، وأما الغرور بضم الغين: فهو مصدر من قول القائل: غررتة غُرورًا.

وأورد الطبري آثارًا عن عدد من التابعين مفادها أن الغرور هو الشيطان.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى منذرًا للناس يوم المعاد، وأمراً لهم بتقواه والخوف منه، والخشية من يوم القيامة حيث ﴿لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ﴾ أي: لو أراد أن يفديه بنفسه لما قبل منه. وكذلك الولد لو أراد فداء والده بنفسه لم يتقبل منه. ثم عاد بالموعظة عليهم بقوله: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [أي: لا تلهينكم بالطمأنينة فيها عن الدار الآخرة]. ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ يعني: الشيطان. قاله ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة. فإنه يغر ابن آدم ويَعِدُهُ وَيُؤْمِنُهُ، وليس من ذلك شيء بل كما قال تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُؤْمِنِيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠].

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ أَتَقُورَ رَبَّكُمْ﴾ يعني: الكافر والمؤمن أي: خافوه ووحده ﴿وَآخِشُوا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ تقدم

معنى يجزي في البقرة وغيرهما فإن قيل : قال النبي ﷺ : «من مات له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث لم تمسه النار إلا تحلة القسم» وقال : «من ابتلي بشيء من هذه البنات فأحسن إليهن كن له حجاً من النار».

وقيل له : المعنى بهذه الآية: أنه لا يحمل والد ذنب ولده ولا مولود ذنب والده ولا يؤخذ أحدهما عن الآخر والمعني بالأخبار أن ثواب الصبر على الموت والإحسان إلى البنات يحجب العبد عن النار ويكون الولد سابقاً له إلى الجنة ﴿إِنَّكَ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ أي: البعث ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمْ﴾ أي: تخدعنكم ﴿الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ بزيتها وما تدعو إليه فتاكلوا عليها وتركنوا إليها وتركوا العمل للآخرة ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ قراءة العامة هنا وفي سورة الملائكة والحديد بفتح الغين وهو الشيطان في قول مجاهد وغيره وهو الذي يغر الخلق ويؤمنهم الدنيا ويؤليههم عن الآخرة وفي سورة النساء : ﴿يَعِدُّهُمْ وَيُؤْمِنُهُمُ﴾ [النساء : ١٢٠].



س: كيف يفهم قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ...﴾ مع ما اكتشف الآن من إمكانية معرفة الجنين بعد نفخ الروح فيه هل هو ذكر أم أنثى؟

ج: ليس معنى كون البشر علموا ما في الأرحام هل هو ذكر أم أنثى أنهم أحاطوا بمعرفة كل ما في الأرحام بل هناك أشياء وأحوال في الأرحام لا يعلمها إلا الله، والله أعلم.



استنثار الله ﷻ بعلم الغيب

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم -: مرتبط بما قبله ففي الآية التي قبله حذر الله سبحانه وتعالى من يوم القيامة، وهنا بين سبحانه وتعالى أنه لا يعلم حتى مجيء هذا اليوم إلا الله سبحانه وتعالى حتى يجد المجدون في العمل ويحذر الحذرون، فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي: العلم بيوم القيامة متى يكون؟ فقد استأثر الله بعلم ذلك، وكذا فلا يعلم متى ينزل الغيث إلا الله، ويعلم ما في الأرحام بعمومه وتفصيله وكل جزئياته، ويعلم ما سيكون في غدٍ، وماذا ستكسب الأنفس في غدٍ، وفي المستقبل عمومًا، وكذلك يعلم أين تموت الأنفس وأين تُقبض، قد علم ربي كل ذلك واستأثر بعلمه فلا يعلم أحد شيئًا من هذه الخمس، وبنحو ذلك قال العلماء.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ أَتْفَؤَارَكُمْ وَخَشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ هو آتيكم؛ علم إتيانه إياكم عند ربكم، لا يعلم أحد متى هو جائئكم، لا يأتاكم إلا بغته، فاتقوه أن يفجأكم بغته، وأنتم على ضلالكم لم تنبؤوا منها، فتصبروا من عذاب الله وعقابه إلى ما لا قبل لكم به. وابتدأ تعالى ذكره الخبر عن علمه بمجيء الساعة. والمعنى: ما ذكرت لدلالة الكلام على المراد منه، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ التي تقوم فيها القيامة، لا يعلم ذلك أحد غيره ﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ من السماء، لا يقدر على ذلك أحد

غيره، ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ أرحام الإناث ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ يقول: وما تعلم نفس حيي ماذا تعمل في غد، ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ يقول: وما تعلم نفس حيي بأي أرض تكون منيتها ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ يقول: إن الذي يعلم ذلك كله هو الله دون كل أحد سواه، إنه ذو علم بكل شيء، لا يخفى عليه شيء، خير بما هو كائن، وما قد كان.

وأورد الطبري بإسناد حسن: عن قتادة ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ...﴾ الآية، أشياء من الغيب، استأثر الله بهن، فلم يطلع عليهن ملكاً مقرباً، ولا نبياً مرسلًا ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ فلا يدري أحد من الناس متى تقوم الساعة، في أي سنة، أو في أي شهر، أو ليل، أو نهار ﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ فلا يعلم أحد متى ينزل الغيث، ليلاً أو نهاراً ينزل؟ ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ فلا يعلم أحد ما في الأرحام، أذكر أو أنثى، أحمر أو أسود، أو ما هو؟ ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ خير أم شر، ولا تدري يا ابن آدم متى تموت؟ لعلك الميت غداً، لعلك المصاب غداً ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ ليس أحد من الناس يدري أين مضجعه من الأرض في بحر أو بر أو سهل أو جبل، تعالى وتبارك.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

هذه مفاتيح الغيب التي استأثر الله تعالى بعلمها، فلا يعلمها أحد إلا بعد إعلامه تعالى بها؛ فعِلْمُ وقت الساعة لا يعلمه نبي مرسل ولا ملك مقرب، ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَفِيهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وكذلك إنزال الغيث لا يعلمه إلا الله، ولكن إذا أمر به علمته الملائكة الموكلون بذلك ومن شاء الله من خلقه. وكذلك لا يعلم ما في الأرحام مما يريد أن يخلقه [الله] تعالى سواه، ولكن إذا أمر بكونه ذكراً أو أنثى، أو شقيماً أو سعيداً علم الملائكة الموكلون بذلك، ومن شاء الله

من خلقه. وكذلك لا تدري نفس ماذا تكسب غداً في دنياها وأخرها، ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ في بلدها أو غيره من أي بلاد الله كان، لا علم لأحد بذلك. وهذه شبهة بقوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ الآية [الأنعام: ٥٩]. وقد وردت السنة بتسمية هذه الخمس: مفاتيح الغيب.

وأورد رحمه الله تعالى جملة من الأحاديث في هذا الصدد منها ما أخرجه الإمام أحمد بسند صحيح^(١) عن بريدة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خمس لا يعلمهن إلا الله ٥: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ».

وما أخرجه أحمد والبخاري^(٢) من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ».

وأورد أيضاً ما أخرجه البخاري^(٣) عند تفسير هذه الآية من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يوماً بارزاً للناس؛ إذ أتاه رجل يمشي، فقال: يا رسول الله! ما الإيمان؟ قال: «الإيمان: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه، وتؤمن بالبعث الآخر». قال: يا رسول الله ما الإسلام؟ قال: «الإسلام: أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان». فقال: يا رسول الله! ما الإحسان؟ قال: «الإحسان: أن تعبد الله كأنك

(١) المسند (٥/٣٥٣).

(٢) أحمد (٢/٢٤)، والبخاري (١٠٣٩).

(٣) البخاري (٤٧٧٧)، ومسلم (حديث ٩).

تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك». قال: يا رسول الله، متى الساعة؟ قال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل، ولكن سأحدثك عن أشراطها: إذا ولدت الأمة ربّتها، فذاك من أشراطها. وإذا كان الحفاة العُراة رؤوس الناس، فذاك من أشراطها، في خمس لا يعلمهن إلا الله. ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾، ثم انصرف الرجل فقال: «رُدُّوهُ عَلَيَّ». فأخذوا ليردوه، فلم يروا شيئاً، فقال: «هذا جبريل، جاء ليُعلم الناس دينهم». وأورد رحمه الله عدة أحاديث في هذا الصدد.



تفسير سورة السجدة

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾)

(الْم ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ
افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ
يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ
ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدِيرُ
الْأُمُورَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا
تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَلِكَ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي أَحْسَنَ
كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ
مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ
وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ
أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ يَتُوفَّكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ
الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ [السجدة: ١-١١].

س: وضح معنى ما يلي:

﴿الْمَ - لَا رَيْبَ فِيهِ - الْعَالَمِينَ - أَفْتَرْتَهُ - نَذِيرٌ - يَهْتَدُونَ - يَعْرُجُ - عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ - الْعَزِيزُ - أَحْسَنَ - الْإِنْسَنِ - سَلَّمَ - سُلَّالَةٍ - مَهِينٍ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿الْمَ﴾	أحرف مقطعة لا يعلم معناها إلا الله
﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾	لا شك فيه
﴿الْعَالَمِينَ﴾	السموات والأرض وما بينهما - الإنس والجن
﴿أَفْتَرْتَهُ﴾	اختلقه من عند نفسه
﴿نَذِيرٌ﴾	رسول ينذرهم
﴿يَهْتَدُونَ﴾	يوفقون للخير - يسلكون طريق الهداية
﴿يَعْرُجُ﴾	يصعد
﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾	عالم ما غاب وما ظهر
﴿الْعَزِيزُ﴾	الذي لا يغلب
﴿أَحْسَنَ﴾	أتقن
﴿الْإِنْسَنِ﴾	المراد به هنا آدم ﷺ
﴿سَلَّمَ﴾	ذريته
﴿سُلَّالَةٍ﴾	ماء (منياً) منسللاً خارجاً
﴿مَهِينٍ﴾	حقير - ضعيف



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَارَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم - : تنزيل القرآن الذي أنزل عليك إنما هو من رب العالمين، لا كما يقول المبطلون أنه أساطير الأولين، وليس كما يقولون: إن هذا إلا سحر يؤثر. أما العالمين فالمراد السموات والأرض وما بينهما ويدخل في ذلك الإنس والجن.

قال الطبري رحمه الله:

وقوله: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَارَيْبَ فِيهِ﴾ يقول تعالى ذكره: تنزيل الكتاب الذي نزل على محمد ﷺ، لا شك فيه (من ربِّ الْعَالَمِينَ) : يقول: من رب الثقلين: الجن والإنس.

وأورد بإسناد حسن عن قتادة: قال: ﴿الَّذِي﴾ تنزيل الكتاب لارَيْبَ فِيهِ (لا شك فيه.

قال الطبري:

وإنما معنى الكلام: أن هذا القرآن الذي أنزل على محمد لا شك فيه أنه من عند الله، وليس بشعر ولا سجع كاهن، ولا هو مما تخرصه محمد ﷺ، وإنما كذب جل ثناؤه بذلك قول الذين: ﴿وَقَالُوا أَأَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أكتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً (الفرقان: ٥) وقول الذين قالوا: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ (الفرقان: ٤).

وقال القرطبي رحمه الله:

ومعنى ﴿لَارَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: لا شك فيه أنه من عند الله فليس بسحر ولا شعر ولا كهانة ولا أساطير الأولين.

س: كان رسول الله ﷺ يقرأ في صلاة الفجر يوم الجمعة بسورتي السجدة و«هل أتى» الإنسان اذكر ما يدل على ذلك.

ج: أخرج البخاري ومسلم^(١) من حديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يقرأ في الفجر يوم الجمعة: ﴿الْعَزَّوَجَلَّ (١) تَبٰرَكَ السَّجْدَةُ﴾ و«هل أتى على الإنسان».



س: وضح معنى قوله تعالى: (أَفَرَأَيْتَ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِّنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٢﴾).

ج: المعنى - والله أعلم - : يقولون عن رسول الله ﷺ أنه اختلق هذا القرآن وتقول من عند نفسه، فكذبهم الله ﷻ في قيلهم هذا، وقال: بل هو الحق قد نزل من عند الله ﷻ عليك لتنذر قوماً وهم أهل مكة ما أتاهم من نذير أي من رسول من قبلك لعلهم يوفقوا لطاعة الله ﷻ وسلوكوا طريقه.

قال الطبري رحمه الله:

وقوله: (أَمْرِي قَوْلُكَ أَفَرَأَيْتَ) يقول تعالى ذكره: يقول المشركون بالله: اختلق هذا الكتاب محمد من قبل نفسه، وتكذبه، و(أم) هذه تقرير، وقد بينا في غير موضع من كتابنا، أن العرب إذا اعترضت بالاستفهام في أضعاف كلام قد تقدم بعضه أنه يستفهم بأم. وقد زعم بعضهم أن معنى ذلك: ويقولون. وقال: أم بمعنى الواو، بمعنى بل في مثل هذا الموضع، ثم أكذبهم تعالى ذكره فقال: ما هو كما تزعمون وتقولون من أن محمداً افتراه، بل هو الحق والصدق من عند ربك يا محمد، أنزله إليك؛ لتنذر قوماً بأس الله وسطوته، أن يحل بهم على

(١) البخاري (٨٩١)، ومسلم (٨٨٠).

كفرهم به (مَا أَنْتَهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ) يقول: لم يأت هؤلاء القوم الذين أرسلك ربك يا محمد إليهم، وهم قومه من قريش، نذير ينذرهم بأس الله على كفرهم قبلك. وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ يقول: ليتبينوا سبيل الحق فيعرفوه ويؤمنوا به.

وأورد الطبري بإسناد حسن عن قتادة: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَنتَهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ قال: كانوا أمة أمية، لم يأتهم نذير قبل محمد ﷺ.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾.

ج: هذا تذكير من الله ﷻ لعباده بأنه سبحانه وتعالى وحده لا شريك له هو الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام (قل من أيام الدنيا) ثم استوى (قل في اليوم السابع) على العرش ما لكم غير الله من وليٍّ يتولاكم وينصركم ويحفظكم ولا شفيع يشفع لكم إلا بإذنه أفلا تتعظون وتعتبرون.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: المعبود الذي لا تصلح العبادة إلا له أيها الناس ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من خلق ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ ثم استوى على عرشه في اليوم السابع بعد خلقه السموات والأرض وما بينهما.

وأورد بإسناد حسن عن قتادة: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ في اليوم السابع. يقول: ما لكم أيها الناس إله إلا من فعل هذا الفعل، وخلق هذا الخلق العجيب في ستة أيام.

وقوله: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ يقول: ما لكم أيها الناس دونه وليٍّ

يلي أمركم وينصركم منه إن أراد بكم ضرّاً، ولا شفيع يشفع لكم عنده إن هو عاقبكم على معصيتكم إياه، يقول: فيأيه فاتخذوا وليّاً، وبه وبطاعته فاستعينوا على أموركم؛ فإنه يمنعكم إذا أراد منعكم ممن أرادكم بسوء، ولا يقدر أحد على دفعه عما أراد بكم هو؛ لأنه لا يقهره قاهر، ولا يغلبه غالب ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: أفلا تعتبرون وتتفكرون أيها الناس، فتعلموا أنه ليس لكم دونه ولي ولا شفيع، فتفردوا له الألوهة، وتخلصوا له العبادة، وتخلعوا ما دونه من الأنداد والآلهة.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

يخبر تعالى أنه الخالق للأشياء، فخلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام، ثم استوى على العرش. وقد تقدم الكلام على ذلك. ﴿مَالِكُمْ مِّنْ دُونِهِ مِّنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ أي: بل هو المالك لأزمة الأمور، الخالق لكل شيء، المدبر لكل شيء، القاهر على كل شيء، فلا ولي لخلقه سواه، ولا شفيع إلا من بعد إذنه. ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ يعني: أيها العابدون غيره، المتوكلون على من عداه - تعالى وتقدس وتنزه أن يكون له نظير أو شريك أو نديد، أو وزير أو عديل، لا إله إلا هو ولا رب سواه.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

وليست ثم للترتيب وإنما هي بمعنى الواو ﴿مَالِكُمْ مِّنْ دُونِهِ مِّنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ أي: ما للكافرين من ولي يمنع من عذابهم ولا شفيع ويجوز الرفع على الموضع ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ في قدرته ومخلوقاته.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الْأُمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾.

ج: الظاهر لي من أقوال أهل العلم فيها - والله أعلم بالصواب - ما يلي:
يُدبر الله ﷻ أمر الخلائق وهو على عرشه وتتنزل الملائكة بهذا الأمر إلى الأرض وإلى الخلق ثم تصعد الملائكة بأعمال العباد إلى ربها ﷻ، كل ذلك (وقت التنزل ووقت الصعود في زمن يسير جداً لو قُدِّرَ بأزمنتكم لكان يعدل ألف سنة من السنين التي تحتسبونها في حياتكم، وبهذا جاءت أقوال عدد من أهل العلم).

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: الله هو الذي يدبر الأمر من أمر خلقه من السماء إلى الأرض، ثم يعرج إليه.

واختلف أهل التأويل في المعنى بقوله: ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ فقال بعضهم: معناه: أن الأمر ينزل من السماء إلى الأرض، ويصعد من الأرض إلى السماء في يوم واحد، وقُدِّرَ ذلك ألف سنة مما تعدون من أيام الدنيا؛ لأن ما بين الأرض إلى السماء خمسمائة عام، وما بين السماء إلى الأرض مثل ذلك، فذلك ألف سنة.

وأورد بإسناد حسن عن قتادة: ﴿يُدَبِّرُ الْأُمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ﴾ من أيامكم ﴿كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ يقول: مقدار مسيره في ذلك اليوم ألف سنة مما تعدون من أيامكم من أيام الدنيا خمسمائة سنة نزوله، وخمسمائة صعوده فذلك ألف سنة.

وأورد أقوالاً آخر ثم قال: وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب قول من

قال: معناه: يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ذلك اليوم في عروج ذلك الأمر إليه، ونزوله إلى الأرض ألف سنة مما تعدون من أيامكم، خمسمائة في النزول، وخمسمائة في الصعود؛ لأن ذلك أظهر معانيه، وأشبهها بظاهر التنزيل.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

وقوله: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ أي: يتنزل أمره من أعلى السموات إلى أقصى تخوم الأرض السابعة، كما قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (١٢). [الطلاق: ١٢].

وترفع الأعمال إلى ديوانها فوق سماء الدنيا، ومسافة ما بينها وبين الأرض مسيرة خمسمائة سنة، وسُمك السماء خمسمائة سنة.

وقال مجاهد، وقتادة، والضحاك: النزول من الملك في مسيرة خمسمائة عام، وصعوده في مسيرة خمسمائة عام، ولكنه يقطعها في طرفة عين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾.



س: قوله تعالى: (ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ) من الذي يعرج إليه؟

ج: قيل الملك الذي نزل بالأمر كما قال تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤] والله أعلم.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (٦).

ج: المعنى - والله أعلم - أن الذي يدبر الأمر من السماء والأرض هو

الله ﷻ العالم بكل شيء، عالم بالظواهر والبواطن عالم ما غاب وما ظهر، وما أُخفي وما أعلن العزيز الذي لا يُغلب، الرحيم بعباده.

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

يقول تعالى ذكره: هذا الذي يفعل ما وصفت لكم في هذه الآيات، هو ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ﴾، يعني عالم ما يغيب عن أبصاركم أيها الناس، فلا تبصرونه مما تكنه الصدور وتخفيه النفوس، وما لم يكن بعد مما هو كائن، ﴿وَالشَّهَدَةِ﴾ يعني: ما شاهده الأَبصار فأبصرته وعايته وما هو موجود ﴿الْعَزِيزُ﴾ يقول: الشديد في انتقامه ممن كفر به، وأشرك معه غيره، وكذَّب رسله ﴿الرَّحِيمُ﴾ بمن تاب من ضلَّالته، ورجع إلى الإيمان به وبرسوله، والعمل بطاعته، أن يعذِّبه بعد التوبة.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

﴿ذَلِكَ عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَدَةِ﴾ أي: المدبر لهذه الأمور الذي هو شهيد على أعمال عباده، يرفع إليه جليلها وحقيرها، وصغيرها وكبيرها - هو ﴿الْعَزِيزُ﴾ الذي قد عَزَّ كُلَّ شيءٍ فقهره وغلبه، ودانت له العباد والرقاب، ﴿الرَّحِيمُ﴾ بعباده المؤمنين. فهو عزيز في رحمته، رحيم في عزته.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَدَةِ﴾ أي علم ما غاب عن الخلق وما حضرهم وذلك بمعنى أنا حسبما تقدم بيانه في أول البقرة وفي الكلام معنى التهديد والوعيد أي: أخلصوا أفعالكم وأقوالكم فإني أجازي عليها.



س: في قوله: ﴿خَلَقَهُ﴾ قراءتان وضحهما مع بيان معنيهما.

ج: أما القراءة الأولى فهي ﴿خَلَقَهُ﴾ بفتح اللام على أنها فعل ماضٍ.
وقوله: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ معناها - والله أعلم -: الذي أحسن الأشياء ولما خلقها أي الذي خلقها حسنة، وقيل: الذي أتقن كل شيء وأحكمه.

أما القراءة الثانية فهي ﴿خَلَقَهُ﴾ بتسكين اللام والمعنى الذي ألهم كل شيء خلقه والذي أعلم كل شيء خلقه.

قال الطبري رحمه الله:

وقوله: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ اختلفت القراء في قراءة ذلك، فقرأه بعض قراء مكة والمدينة والبصرة ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ بسكون اللام. وقرأه بعض المدنيين وعامة الكوفيين ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ بفتح اللام.

والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إنهما قراءتان مشهورتان، قد قرأ بكل واحدة منهما علماء من القراء صحيحتا المعنى، وذلك أن الله أحكم خلقه، وأحكم كل شيء خلقه، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب.
واختلف أهل التأويل في معنى ذلك، فقال بعضهم: معناه: أتقن كل شيء وأحكمه.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: الذي حسن خلق كل شيء.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: أعلم كل شيء خلقه، كأنهم وجهوا تأويل الكلام إلى أنه ألهم خلقه ما يحتاجون إليه، وأن قوله: ﴿أَحْسَنَ﴾ إنما هو من قول القائل: فلان يحسن كذا، إذا كان يعلمه.

قال الطبري رحمه الله:

وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب على قراءة من قرأه: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ بفتح اللام قول من قال: معناه أحكم وأتقن؛ لأنه لا معنى لذلك إذ قرئ كذلك إلا أحد وجهين: إما هذا الذي قلنا من معنى الإحكام والإتقان، أو معنى التحسين الذي هو في معنى الجمال والحسن، فلما كان في خلقه ما لا يشك في قبحه وسماجته، علم أنه لم يعن به أنه أحسن كل ما خلق، ولكن معناه أنه أحكمه وأتقن صنعته، وأما على القراءة الأخرى التي هي بتسكين اللام، فإن أولى تأويلاته به قول من قال: معنى ذلك: أعلم وألهم كل شيء خلقه، هو أحسنهم، كما قال: ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠]؛ لأن ذلك أظهر معانيه.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ، وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾
 ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوْحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ
 وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ ؟

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - : أن الله ﷻ هو الذي أحسن خلق كل شيء وبدأ خلق الإنسان الذي هو آدم ﷺ من طين ثم جعل ذريته من ماءٍ ضعيف (وهو المنى) ينسل انسلالاً فيخرج من آدم ﷺ فينصب في رحم حواء ﷺ وهكذا سائر ذرية آدم الذكور والإناث خُلِقُوا من ماءٍ مهين.
 أما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ﴾ فهو عائد على قوله وبدأ خلق الإنسان من طين ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ﴾ أي: وبعد أن خلق آدم ﷺ من طين سواه، أي جعله سويًا معتدلًا ونفخ فيه من روحه، وجعل لكم (يا بني آدم) السمع والأبصار والأفئدة، وقلّ منكم من يشكر، وإن شكرتم فشكركم قليل.

قال الطبري رحمه الله:

وقوله: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِن طِينٍ﴾ يقول تعالى ذكره: وبدأ خلق آدم من طين ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ﴾ يعني: ذريته ﴿مِّن سُلَالَةٍ﴾، يقول: من الماء الذي انسل فخرج منه. وإنما يعني من إراقة من مائه، كما قال الشاعر:

فجاءت به عَضْبُ الأديمِ غَضَنَفًا سُلَالَةً فَرَجٍ كَانَ غَيْرَ حَصِينٍ

وقوله: ﴿مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ يقول: من نطفة ضعيفة رقيقة.

وأورد بإسناد حسن عن قتادة: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِن طِينٍ﴾ وهو خلق آدم، ثم جعل نسله: أي ذريته من سلالة من ماء مهين، والسلالة هي: الماء المهين الضعيف.

وقال:

في تأويل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِيٍّ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ ١.

يقول تعالى ذكره: ثم سَوَّى الإنسان الذي بدأ خلقه من طين خلقًا سويًا معتدلًا ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِيٍّ﴾ فصار حيًّا ناطقًا ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ يقول: وأنعم عليكم أيها الناس ربكم بأن أعطاكم السمع تسمعون به الأصوات، والأبصار تبصرون بها الأشخاص والأفئدة، تعقلون بها الخير من السوء، لتشكروه على ما وهب لكم من ذلك. وقوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ يقول: وأنتم تشكرون قليلًا من الشكر ربكم على ما أنعم عليكم.

وقال ابن كثير رحمه الله:

يقول تعالى: إنه الذي أحسن خلق الأشياء وأتقنها وأحكمها.

وقال مالك، عن زيد بن أسلم: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ قال: أحسن خلق كل شيء. كأنه جعله من المقدم والمؤخر.

ثم لما ذكر خلق السموات والأرض، شرع في ذكر خلق الإنسان فقال: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِن طِينٍ﴾ يعني: خلق أبا البشر آدم من طين.

﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ أي: يتناسلون كذلك من نطفة تخرج من بين صلب الرجل وترائب المرأة.

﴿ثُمَّ سَوَّاهُ﴾ يعني: آدم، لما خلقه من تراب خلقه سويًا مستقيمًا، ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ﴾ وجعل لكم السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ، يعني: العقول، ﴿فَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي: بهذه القوى التي رزقكموها الله ﷻ، فالسعيد من استعملها في طاعة ربه عز وجل.

وقال القرطبي رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِن طِينٍ﴾ يعني: آدم ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ تقدم في (المؤمنون) وغيرها. وقال الزجاج: من ماء مهين ضعيف وقال غيره: مهين لا خطر له عند الناس. ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ﴾ رجع إلى آدم أي: سوى خلقه ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ﴾ ثم رجع إلى ذريته فقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ وقيل: ثم جعل ذلك الماء المهين خلقًا معتدلًا وركب فيه الروح وأضافه إلى نفسه تشريفًا وأيضًا فإنه من فعله وخلقه كما أضاف العبد إليه بقوله: عبدي وعبر عنه بالنفخ؛ لأن الروح في جنس الريح وقد مضى هذا مبيّنًا في النساء وغيرها ﴿فَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي: ثم أنتم لا تشكرون بل تكفرون.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَفِرُونَ﴾ (١٠)؟

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - أن أهل الكفر قالوا مُستنكرين البعث مُنكرين الحساب: أئنذا متنا وصرنا تراباً وتفرقت أجسادنا هاهنا وهاهنا واختلطت هل سنبعث مرةً ثانية، أحياء بعد الموت، فنعم سيبعثون، ولكنهم جاحدون البعث منكرون الثواب والعقاب منكرون للقاء الله ﷻ.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: وقال المشركون بالله، المُكذِّبون بالبعث: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: صارت لحومنا وعظامنا تراباً في الأرض وفيها لغتان: ضَلَلْنَا، وَضَلَلْنَا. بفتح اللام وكسرهما، والقراءة على فتحها وهي الجوداء، وبها نقرأ. وذكر عن الحسن أنه كان يقرأ: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا﴾ بالصاد، بمعنى: أئتنا، من قولنا: صُلَّ اللحم وأصل إذا أئتن. وإنما عنى هؤلاء المشركون بقولهم: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: إذا هلكت أجسادنا في الأرض؛ لأن كل شيء غلب عليه غيره حتى خفي فيما غلب، فإنه قد ضلَّ فيه، تقول العرب: قد ضلَّ الماء في اللبن: إذا غلب عليه حتى لا يتبين فيه، ومنه قول الأخطل لجبرير:

كُنْتُ الْقَدَى فِي مَوْجِ أَكْثَرِ مُزْبِدٍ قَذَفَ الْأَثِيَّ بِهِ فَضَلَ ضَلالاً

وأورد الطبري بإسناد حسن عن قتادة: ﴿وَقَالُوا أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ قال: ﴿وَقَالُوا أَءِذَا كُنَّا عِظَمًا وَرُفْنًا أَإِنَّا لَبَعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ (٤٩) [الإسراء: ٤٩].

وقوله: ﴿بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَفِرُونَ﴾ (١٠) يقول تعالى ذكره: ما بهؤلاء المشركين جحود قدرة الله على ما يشاء، بل هم بلقاء ربهم كافرون؛ حذرا لعقابه، وخوف مجازاته إياهم على معصيتهم إياه، فهم من أجل ذلك يجحدون لقاء ربهم في المعاد.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

يقول تعالى مخبراً عن المشركين في استبعادهم المعاد حيث قالوا: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: تمزقت أجسامنا وتفرقت في أجزاء الأرض وذهبت، ﴿أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾؟ أي: أئنا لنعودُ بعد تلك الحال؟! يستبعدون ذلك، وهذا إنما هو بعيد بالنسبة إلى قُدْرَتِهِم العاجزة، لا بالنسبة إلى قُدْرَةِ الذي بدأهم وخلقهم من العدم، الذي إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون؛ ولهذا قال: ﴿بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَفِرُونَ﴾.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

﴿بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَفِرُونَ﴾ أي ليس لهم جحود قدرة الله تعالى عن الإعادة لأنهم يعترفون بقدرته ولكنهم اعتقدوا أن لا حساب عليهم وأنهم لا يلقون الله تعالى.



س: هل ملك الموت له أعوان أم لا؟

ج: نعم له أعوان، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ﴾ [الأنعام: ٦١] وقال تعالى: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْاقًا﴾ [النازعات: ١-٢].

قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ:

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتُوفَّكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾. ظاهر هذه الآية الكريمة أن الذي يقبض أرواح الناس ملك واحد معين، وهذا هو المشهور، وقد جاء في بعض الآثار أن اسمه عزرائيل. وقد بينَّ تعالى في آيات أخر أن الناس تتوفاهم ملائكة لا ملك واحد؛

كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [النساء: ٩٧]، وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَصْرِيحُونَ وَجُوهُهُمْ وَأَذْبَرَهُمْ﴾ [محمد: ٢٧]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ الآية [الأنعام: ٩٣]، وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ﴾ ﴿١١﴾ [الأنعام: ٦١] إلى غير ذلك من الآيات.

وإيضاح هذا عند أهل العلم: أن الموكل بقبض الأرواح ملك واحد، هو المذكور هنا، ولكن له أعوان يعملون بأمره ينتزعون الروح إلى الحلقوم، فيأخذها ملك الموت، أو يعينونه إعانة غير ذلك.

وقد جاء في حديث البراء بن عازب الطويل المشهور: أن النبي ﷺ ذكر فيه: «أن ملك الموت إذا أخذ روح الميت أخذها من يده بسرعة ملائكة فصعدوا بها إلى السماء»، وقد بين فيه ﷺ ما تعامل به روح المؤمن وروح الكافر بعد أخذ الملائكة له من ملك الموت حين يأخذها من البدن، وحديث البراء المذكور صححه غير واحد، وأوضح ابن القيم في كتاب «الروح»، بطلان تضعيف ابن حزم له.

والحاصل: أن حديث البراء المذكور، دلَّ على أن مع ملك الموت ملائكة آخرين يأخذون من يده الروح، حين يأخذها من بدن الميت. وأمَّا قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]، فلا إشكال فيه؛ لأن الملائكة لا يقدر أن يتوفوا أحداً إلا بمشيئته جلَّ وعلا: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَتَبْنَا مُوَجَلًّا﴾ [آل عمران: ١٤٥].

فتحصل: أن إسناد التوفي إلى ملك الموت في قوله هنا: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكٌ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾، لأنه هو المأمور بقبض الأرواح، وأن إسناده للملائكة في

قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ الآية، ونحوها من الآيات؛ لأن لملك الموت أعواناً يعملون بأمره، وأن إسناده إلى الله في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾، لأن كل شيء كائن ما كان لا يكون إلا بقضاء الله وقدره، والعلم عند الله تعالى.



س: وضع معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّنَا مَلِكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم - قل يا رسول الله لهؤلاء المنكرين للبعث المنكرين للقاء الله ﷻ يقبض أرواحكم ملك الموت عند انقضاء آجالكم، فقد وُكِّلَ ملك الموت بذلك وكل يقبض الأرواح عند انقضاء الآجال، وقد قيل إن ملك الموت اسمه عزرائيل، ولم يثبت بذلك خبرٌ عن النبي ﷺ، هذا، ولملك الموت أعوان كما قال تعالى: ﴿حَقَّ إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾.

هذا، وبعد أن يقبض ملك الموت أرواحكم وتموتوا وتقوم قيامتكم ترجعون إلى ربكم ﷻ فيجازى المحسن بإحسانه ويجازى المسيء بإساءته.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: قل يا محمد لهؤلاء المشركين بالله: ﴿يَتَوَفَّنَا مَلِكُ الْمَوْتِ﴾، يقول: يستوفي عددكم يقبض أرواحكم ملك الموت الذي وكل يقبض أرواحكم، ومنه قول الراجز:

إِنَّ بَنِي الْأَدْرَمِ لَيْسُوا مِنْ أَحَدٍ وَلَا تَوَفَّاهُمْ قُرَيْشٌ فِي الْعَدَدِ

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ يقول: من بعد قبض ملك الموت أرواحكم إلى

ربكم يوم القيامة، تردون أحياء كهيتتكم قبل وفاتكم فيجازي المحسن منكم بإحسانه، والمسيء بإساءته.

وأورد بإسناد حسن عن قتادة: ﴿قُلْ يَتُوفَّكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ قال: ملك الموت يتوفاكم، ومعه أعوان من الملائكة.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

ثم قال: ﴿قُلْ يَتُوفَّكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ ، الظاهر من هذه الآية أن ملك الموت شخص معين من الملائكة، كما هو المتبادر من حديث البراء المتقدم ذكره في سورة «إبراهيم»، وقد سمي في بعض الآثار بعزرائيل، وهو المشهور، قاله قتادة وغير واحد، وله أعوان. وهكذا ورد في الحديث أن أعوانه ينتزعون الأرواح من سائر الجسد، حتى إذا بلغت الحلقوم تناولها ملك الموت.

وقال: وقوله ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ أي: يوم معادكم وقيامكم عن قبوركم لجزائكم.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

قال ابن عطية بعد ذكره الحديث: وكذلك الأمر في بني آدم إلا أنه نوع شرف بتصرف ملك وملائكة معه في قبض أرواحهم فخلق الله تعالى ملك الموت وخلق على يديه قبض الأرواح واستلها من الأجسام وإخراجها منها وخلق الله تعالى جندا يكونون معه يعلمون عمله بأمره فقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ﴾ [الأنفال: ٥٠] وقال تعالى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: ٦١] وقد مضى هذا المعنى في الأنعام والبارئ خالق الكل الفاعل حقيقة لكل فعل قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي

مَنَامَهَا ﴿[الزمر: ٤٢]﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ ﴿[الملئك: ٢]﴾ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴿[الأعراف: ١٥٨]﴾ فملك الموت يقبض والأعوان يعالجون والله تعالى يزهدق الروح وهذا هو الجمع بين الآي والحديث لكنه لما كان ملك الموت متولي ذلك بالوساطة والمباشرة أضيف التوفي إليه كما أضيف الخلق للملك.



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًىهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْيَتِيمَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ نَتَجَاوَىٰ جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوِيهِمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ ﴾

[السجدة: ١٢-٢٠]

س: وضح معنى ما يلي:

(تَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ - أَبْصَرْنَا - وَسَمِعْنَا - مُوقِنُونَ - هُدًىهَا - حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي - نَسِيتُمْ - نَسِيتَكُمْ - خَرُّوا سُجَّدًا - تَتَجَافَى - أَلْمَضَاجِعَ - خَوْفًا - وَطَمَعًا - قُرَّةَ أَعْيُنٍ - فَاسِقًا - جَنَّاتٍ الْمَأْوَى - فَمَا وَهُمْ) ﴿١﴾

ج:

الكلمة	معناها
(تَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ) ﴿١﴾	خافضوا رؤوسهم (خجلاً وحياءً وحُزناً)
(أَبْصَرْنَا) ﴿٢﴾	رأينا الحق
(وَسَمِعْنَا) ﴿٣﴾	سمعنا الحق
(مُوقِنُونَ) ﴿٤﴾	متيقنون - قد أيقنا
(هُدًىهَا) ﴿٥﴾	إيمانها - توفيقها للخير والإيمان
(حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي) ﴿٦﴾	وجب قولي (على الكفار) وتحقق فيهم مرادي
(نَسِيتُمْ) ﴿٧﴾	تركتم العمل
(نَسِيتَكُمْ) ﴿٨﴾	تركناكم في العذاب
(خَرُّوا سُجَّدًا) ﴿٩﴾	نزلوا من القيام للسجود (وهووا إليه)
(تَتَجَافَى) ﴿١٠﴾	تتنحى - تبتعد - أماكن النوم
(خَوْفًا) ﴿١١﴾	خوفاً من غضبه وناره
(وَطَمَعًا) ﴿١٢﴾	طمعاً في رضاه وجنته
(قُرَّةَ أَعْيُنٍ) ﴿١٣﴾	ما تستقر به الأعين فلا تنظر إلى شيء آخر

خارجًا على الطاعة - كافرًا (وهو المراد هنا)	(فَاسِقًا) ﴿١٠﴾
جنات الإقامة الدائمة التي يأوون إليها	(جَنَّاتُ الْمَأْوَى) ﴿١١﴾
فمصيرهم الذي يصيرون إليه	(فَمَا وَهُمْ) ﴿١٢﴾



س: وضح معنى قوله تعالى: (وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ) ﴿١٢﴾ .

ج: المعنى - والله أعلم - ولو ترى يا رسول الله، وكذا ولو ترى يا ابن آدم أهل الإجمام الذين كانوا في الدنيا أهل إجرام، وما آل إليه أمرهم يوم القيامة لرأيت منظرًا عجيبًا ولرأيت أحوالًا مهولة تراهم خافضوا رؤوسهم حياءً وخجلًا من الله ﷻ يقولون: يا ربنا قد أبصرنا الحق الذي كنا في الدنيا لا نراه وسمعناه كذلك فيا ربنا ردنا إلى الحياة الدنيا كي نعمل أعمالًا صالحة تنجيننا من عذابك فقد أيقنا أن قولك الحق ووعدك الحق.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره لنبه محمد ﷺ: لو ترى يا محمد هؤلاء القائلين: ﴿إِنَّا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَتَا لَنِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ إذ هم ناكسوا رؤوسهم عند ربهم حياء من ربهم. للذي سلف منهم من معاصيه في الدنيا، يقولون: يا ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا﴾ ما كنا نكذب به من عقابك أهل معاصيك ﴿وَسَمِعْنَا﴾ منك تصديق ما كانت رسلك تأمرنا به في الدنيا ﴿فَارْجِعْنَا﴾ يقول: فارددنا إلى الدنيا نعمل فيها بطاعتك، وذلك العمل الصالح ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ يقول: إنا قد أيقنا الآن ما كنا به في الدنيا جهالًا من وحدانيتك وأنه لا يصلح أن يُعبد سواك، ولا ينبغي أن يكون رب سواك، وأنك تحيي وتميت، وتبعث من في القبور بعد الممات والفناء وتفعل

ما تشاء.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

يخبر تعالى عن حال المشركين يوم القيامة، وحالهم حين عاينوا البعث، وقاموا بين يدي الله حقيرين ذليلين، ناكسي رؤوسهم، أي: من الحياء والخجل، يقولون: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ أي: نحن الآن نسمع قولك ونطيع أمرك، كما قال تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨]. وكذلك يعودون على أنفسهم بالملامة إذا دخلوا النار بقولهم: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]. وهكذا هؤلاء يقولون: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا﴾ أي: إلى الدار الدنيا، ﴿نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ أي: قد أيقنا وتحققنا أن وعدك حق ولقاءك حق، وقد علم الرب تعالى منهم أنه لو أعادهم إلى الدار الدنيا لكانوا كما كانوا فيها كفارًا يكذبون آيات الله ويخالفون رسله، كما قال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْلَيْنَا نُرَدُّ وَلَا تُكَذِّبُ بَيَّاتٍ رَبَّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢٧) بَلْ بَدَاهُمْ مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا هُمْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨) وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٢٩) [الأنعام: ٢٧-٢٩].

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ ابتداء وخبر قال الزجاج: والمخاطبة للنبي ﷺ مخاطبة لأمتة والمعنى: ولو ترى يا محمد منكري البعث يوم القيامة لرأيت العجب، ومذهب أبي العباس غير هذا وأن يكون المعنى: يا محمد قل للمجرم ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم لندمت على ما كان منك. ناكسو رؤوسهم أي: من الندم والخزي والحزن والذل والغم عند ربهم أي: عند محاسبة ربهم وجزاء أعمالهم ربنا

أي: يقولون ربنا (أَبْصَرْنَا) أي: أبصرنا ما كنا نكذب وسمعنا ما كنا ننكر وقيل: أبصرنا صدق وعيدك وسمعنا تصديق رسلك أبصروا حين لا ينفعهم البصر وسمعوا حين لا ينفعهم السمع فأرجعنا أي: إلى الدنيا ﴿نَعْمَلْ صَلِيحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ أي: مصدقون بالبعث قاله النقاش وقيل: مصدقون بالذي جاء به محمد ﷺ أنه حق قاله يحيى بن سلام قال سفيان الثوري: فأكذبهم الله تعالى فقال: ﴿وَلَوْ رُدُّوْا لَعَادُوْا لِمَا نُهُوْا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨] وقيل: معنى إنا موقنون أي: قد زالت عنا الشكوك الآن وكانوا يسمعون ويبصرون في الدنيا ولكن لم يكونوا يتدبرون وكانوا كمن لا يبصر ولا يسمع فلما تنبهوا في الآخرة صاروا حينئذ كأنهم سمعوا وأبصروا وقيل: أي ربنا لك الحجة فقد أبصرنا رسلك وعجائب خلقك في الدنيا وسمعنا كلامهم فلا حجة لنا فهذا اعتراف منهم ثم طلبوا أن يردوا إلى الدنيا ليؤمنوا.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

ج: المعنى -والله أعلم- ولو شئنا لجعلنا الخلق كلهم مؤمنين أهل إيمانٍ ولأعطينا كل نفس تقواها كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩]، وكما قال تعالى: ﴿لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١]، ولكن حق القول مني، ذلكم القول الذي قلته والقضاء الذي قضيته قبل أن أخلق الخلق ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾ يا محمد ﴿لَآتَيْنَا﴾ هؤلاء المشركين بالله

من قومك وغيرهم من أهل الكفر بالله ﴿هُدًى﴾ يعني: رشدتها وتوفيقها للإيمان بالله ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ يقول: وجب العذاب مني لهم، وقوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ يعني: من أهل المعاصي والكفر بالله منهم.

وأورد بإسناد حسن عن قتادة: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى﴾ قال: لو شاء الله لهدى الناس جميعاً، لو شاء الله لأنزل عليهم من السماء آية، فظلت أعناقهم لها خاضعين، ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ حق القول عليهم.

وقال ابن كثير رحمه الله:

وقال هاهنا: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى﴾ ، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩].

﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أي: من الصنفين، فدارهم النار لا محيد لهم عنها ولا محيص لهم منها، نعوذ بالله وكلماته التامة من ذلك.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِيتُكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١٤).

ج: المعنى - والله أعلم - فذوقوا العذاب بما تركتم العمل ليومكم هذا، فإننا تركناكم في العذاب وأهملناكم كما أهملتم أنفسكم وتركتم تقويمها في الدنيا أو تركتم آياتي، فالجزاء من جنس العمل كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ أَنْتَكَ إِيتُنَا فَنَسِيْنَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْشِئُ﴾ [طه: ١٢٦].

هذا قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ حاصل معناه:

وذوقوا عذاب النار التي تخلدون فيها جزاءً على سيئ أعمالكم التي عملتموها في دنياكم والتي منها شرككم بالله ﷻ.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: يقال لهؤلاء المشركين بالله إذا هم دخلوا النار: ذوقوا عذاب الله بما نسيتم لقاء يومكم هذا في الدنيا، ﴿إِنَّا نَسِيتَكُمْ﴾ يقول: إنا تركناكم اليوم في النار.

وقوله: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ يقول: يقال لهم أيضاً: ذوقوا عذاباً تخلدون فيه إلى غير نهاية ﴿يَمَا كُنْتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَعْمَلُونَ﴾ من معاصي الله. **وأورد بإسناد حسن عن قتادة:** ﴿فَذُوقُوا يَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِيتَكُمْ﴾ قال: نسوا من كل خير، وأما الشر فلم ينسوا منه.

وقال ابن كثير رحمه الله:

﴿فَذُوقُوا يَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ أي: يقال لأهل النار على سبيل التقرير والتوبيخ: ذوقوا العذاب بسبب تكذيبكم به، واستبعادكم وقوعه، وتناسيكم له؛ إذ عاملتموه معاملة من هو ناس له، ﴿إِنَّا نَسِيتَكُمْ﴾ أي: سنعاملكم معاملة الناسي؛ لأنه تعالى لا ينسى شيئاً ولا يضل عنه شيء، بل من باب المقابلة، كما قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَنسَنُكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [البجائية: ٣٤].

وقوله: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ يَمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: بسبب كفركم وتكذيبكم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ (٢٤) ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَاقًا﴾ (٢٥) ﴿جَزَاءً وَفَاقًا﴾ (٢٦) ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ (٢٧) ﴿وَكَذَبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا﴾ (٢٨) ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ (٣٠) [النبا: ٢٤-٣٠].



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ ﴿٥٥﴾ .

ج: المعنى - والله أعلم - إنما يُصدق بآياتنا تمام التصديق الذين إذا ذُكِّروا بهذه الآيات خروا سجداً لربهم ﷻ مسبحين بحمده قد نزّهوه عن كل ما لا يليق، ومزجوا ذلك بالحمد، يفعلون ذلك متواضعين لله متذللين له ﷻ.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ما يصدق بحججنا وآيات كتابنا إلا القوم الذين إذا ذكروا بها ووعظوا ﴿ خَرُّوا ﴾ لله ﴿ سُجَّدًا ﴾ لوجوههم، تذللوا له، واستكانة لعظمته، وإقراراً له بالعبودية ﴿ وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ يقول: وسبحوا الله في سجودهم بحمده، فيبرئونه مما يصفه أهل الكفر به، ويضيفون إليه من الصاحبة والأولاد والشركاء والأنداد ﴿ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ يقول: يفعلون ذلك، وهم لا يستكبرون عن السجود له والتسبيح، لا يستنكفون عن التذلل له والاستكانة.

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

يقول تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا ﴾ أي: إنما يصدق بها ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا ﴾ أي: استمعوا لها وأطاعوها قولاً وفعلاً ﴿ وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ عن اتباعها والانقياد لها، كما يفعله الجهلة من الكفرة الفجرة، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ .

[غافر: ٦٠]

وقال القرطبي رحمه الله:

﴿ وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ أي: خلطوا التسبيح بالحمد أي: نزّهوه وحمده فقالوا في سجودهم: سبحان الله وبحمده سبحان ربي الأعلى وبحمده أي:

تنزيهاً لله تعالى عن قول المشركين وقال سفيان : وسبحوا بحمد ربهم أي : صلوا حمداً لربهم ﴿ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ عن عبادته قاله يحيى بن سلام النقاش : لا يستكبرون كما استكبر أهل مكة عن السجود .



س : هل في هذه الآية : (إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا ﴾ سجود

تلاوة؟

ج : ليعلم أولاً أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في الجمعة في صلاة الفجر ألم تنزيل السجدة، وهل أتى على الإنسان ^(١) .

ولكن هل كان النبي ﷺ يسجد عند قراءتها في فجر الجمعة أم لا؟ لم أقف على جزء ثابت في ذلك لكن قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى ^(٢) : قال ابن بطال : أجمعوا على السجود فيها، وإنما اختلفوا في السجود بها في الصلاة .

وقال أيضاً في كتاب الجمعة ^(٣) .

(فائدتان) الأولى : لَمْ أَرْ فِي شَيْءٍ مِنَ الطُّرُقِ التَّصْرِيحَ بِأَنَّهُ ﷺ سَجَدَ لَمَّا قَرَأَ سُورَةَ تَنْزِيلِ السَّجْدَةِ فِي هَذَا الْمَحَلِّ إِلَّا فِي كِتَابِ الشَّرِيعَةِ لِابْنِ أَبِي دَاوُدَ مِنْ طَرِيقِ أُخْرَى عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : «عَدَوْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ فَقَرَأَ سُورَةَ فِيهَا سَجْدَةٌ فَسَجَدَ» الْحَدِيثُ، وَفِي إِسْنَادِهِ مَنْ يُنْظَرُ فِي حَالِهِ . وَلِلطَّبْرَانِيِّ فِي الصَّغِيرِ مِنْ حَدِيثِ عَلِيٍّ «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَجَدَ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ فِي تَنْزِيلِ السَّجْدَةِ» لَكِنْ فِي إِسْنَادِهِ ضَعْفٌ ^(٤) .

(١) البخاري (٨٩١) .

(٢) فتح الباري (٢/٦٤٢) .

(٣) فتح (٢/٤٤٠) .

(٤) أخرجه الطبراني في الصغير (١/١٧٠)، وفي سنده ضعف ولفظه عن علي رضي الله عنه أن النبي ﷺ سجد

الثانية: قِيلَ الْحِكْمَةُ فِي إختِصَاصِ يَوْمِ الْجُمُعَةِ بِقِرَاءَةِ سُورَةِ السَّجْدَةِ قَصْدُ السُّجُودِ الزَّائِدِ حَتَّى أَنَّهُ يُسْتَحَبُّ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ هَذِهِ السُّورَةَ بِعَيْنِهَا أَنْ يَقْرَأَ سُورَةَ غَيْرَهَا فِيهَا سَجْدَةٌ، وَقَدْ عَابَ ذَلِكَ عَلَى فَاعِلِهِ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ، وَنَسَبَهُمْ صَاحِبُ الْهَدْيِ إِلَى قَلَّةِ الْعِلْمِ وَنَقْصِ الْمَعْرِفَةِ، لَكِنْ عِنْدَ ابْنِ أَبِي شَيْبَةَ بِإِسْنَادٍ قَوِيٍّ عَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ أَنَّهُ قَالَ: يُسْتَحَبُّ أَنْ يَقْرَأَ فِي الصُّبْحِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ بِسُورَةٍ فِيهَا سَجْدَةٌ. وَعِنْدَهُ مِنْ طَرِيقِهِ أَيْضًا أَنَّهُ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَرَأَ سُورَةَ مَرْيَمَ. وَمِنْ طَرِيقِ ابْنِ عَوْنٍ قَالَ: كَانُوا يَقْرَأُونَ فِي الصُّبْحِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ بِسُورَةٍ فِيهَا سَجْدَةٌ. وَعِنْدَهُ مِنْ طَرِيقِهِ أَيْضًا قَالَ: وَسَأَلْتُ مُحَمَّدًا - يَعْنِي ابْنَ سِيرِينَ - عَنْهُ فَقَالَ لَا أَعْلَمُ بِهِ بَأْسًا. اهـ.

فَهَذَا قَدْ ثَبَتَ عَنْ بَعْضِ عُلَمَاءِ الْكُوفَةِ وَالْبَصْرَةِ فَلَا يَنْبَغِي الْقَطْعُ بِتَرْيِيفِهِ. وَقَدْ ذَكَرَ النَّوَوِيُّ فِي زِيَادَاتِ الرُّوضَةِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ وَقَالَ: لَمْ أَرُ فِيهَا كَلَامًا لِأَصْحَابِنَا، ثُمَّ قَالَ: وَقِيَاسٌ مَذْهَبُنَا أَنَّهُ يُكْرَهُ فِي الصَّلَاةِ إِذَا قَصَدَهُ اهـ. وَقَدْ أَفْتَى ابْنُ عَبْدِ السَّلَامِ قَبْلَهُ بِالْمَنْعِ وَبِبُطْلَانِ الصَّلَاةِ بِقَصْدِ ذَلِكَ، قَالَ صَاحِبُ الْمُهَمَّاتِ: مُقْتَضَى كَلَامِ الْقَاضِي حُسَيْنِ الْجَوَازِ. وَقَالَ الْفَارِقِيُّ فِي فَوَائِدِ الْمُهَدَّبِ: لَا تُسْتَحَبُّ قِرَاءَةُ سَجْدَةٍ غَيْرِ تَنْزِيلٍ، فَإِنْ ضَاقَ الْوَقْتُ عَنْ قِرَاءَتِهَا قَرَأَ بِمَا أُمِّكْنَ مِنْهَا وَلَوْ بِآيَةِ السَّجْدَةِ مِنْهَا، وَوَافَقَهُ ابْنُ أَبِي عَصْرُونَ فِي كِتَابِ الْإِنْتِصَارِ وَفِيهِ نَظَرٌ.



= وهناك حديث عن ابن عمر أن النبي ﷺ سجد في صلاة الظهر ثم قام فركع فأرأنا أنه قرأ تنزيل السجدة. أخرجه أبو داود (٨٠٧)، وأحمد (٨٣/٢)، وغيرهما وفي سنده انقطاع أو جهالة راو يُقال له أُمِيَّة.

مباحث في السجود فضل السجود

س: اذكر بعض الوارد في فضل السجود.

ج: من ذلك ما يلي:

حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا قَرَأَ ابْنُ آدَمَ السَّجْدَةَ فَسَجَدَ؛ اعْتَزَلَ الشَّيْطَانُ يَبْكِي يَقُولُ: يَا وَيْلَهُ أَمَر ابْنُ آدَمَ بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ فَلَهُ الْجَنَّةُ، وَأُمِرْتُ بِالسُّجُودِ فَأَبَيْتُ فَلِيَ النَّارُ»^(١).

وعنه أيضًا: أَنَّ نَاسًا قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟... وفيه: «حَتَّى إِذَا أَرَادَ اللَّهُ رَحْمَةً مَن أَرَادَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، أَمَرَ اللَّهُ الْمَلَائِكَةَ أَنْ يُخْرِجُوا مَن كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ، فَيُخْرِجُونَهُمْ وَيَعْرِفُونَهُمْ بِأَثَارِ السُّجُودِ، وَحَرَّمَ اللَّهُ عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ أَثَرَ السُّجُودِ فَيُخْرِجُونَ مِنَ النَّارِ، فَكُلُّ ابْنِ آدَمَ تَأْكُلُهُ النَّارُ إِلَّا أَثَرَ السُّجُودِ»^(٢).

حديث ثوبان وأبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: عَنْ مَعْدَانَ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ الْيَعْمَرِيِّ قَالَ: لَقِيتُ ثَوْبَانَ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ: أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ أَعْمَلُهُ يَدْخِلُنِي اللَّهُ بِهِ الْجَنَّةَ. أَوْ قَالَ: قُلْتُ: بِأَحَبِّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ. فَسَكَتَ، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَسَكَتَ، ثُمَّ سَأَلْتُهُ الثَّالِثَةَ فَقَالَ: سَأَلْتُ عَنْ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «عَلَيْكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ لِلَّهِ؛ فَإِنَّكَ لَا تَسْجُدُ لِلَّهِ سَجْدَةً إِلَّا رَفَعَكَ اللَّهُ بِهَا دَرَجَةً وَحَطَّ عَنْكَ بِهَا خَطِيئَةٌ». قَالَ مَعْدَانُ: ثُمَّ لَقِيتُ أَبَا الدَّرْدَاءِ فَسَأَلْتُهُ فَقَالَ لِي مِثْلَ مَا قَالَ لِي ثَوْبَانُ^(٣).

عَنْ رِبِيعَةَ بْنِ كَعْبٍ الْأَسْلَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ أَبِيتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

(١) مسلم (٨١).

(٢) البخاري (٨٠٦)، ومسلم (١٨٢).

(٣) مسلم (٤٨٨).

فَأَتَيْنَاهُ بِوُضُوئِهِ وَحَاجَّتِهِ فَقَالَ لِي: «سَلْ». فَقُلْتُ: أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ. قَالَ: «أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ؟» قُلْتُ: هُوَ ذَاكَ. قَالَ: «فَاعْنِي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ»^(١).

وَعَنْهُ رَوَاهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ»^(٢).



حكم سجود التلاوة

س: هل سجود التلاوة مستحب أو واجب؟

ج: سجود التلاوة مستحب عند جمهور العلماء.

ومن الأدلة على ذلك ما يلي:

أولاً: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سجد عند قراءة السجدة من سورة النجم فسجد، وقرأ الآية في موطن آخر فلم يسجد.

أما كونه سجد فيها ففي الصحيحين^(٣) من حديث ابن مسعود رَوَاهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَرَأَ سُورَةَ النَّجْمِ فَسَجَدَ بِهَا فَمَا بَقِيَ أَحَدٌ مِنَ الْقَوْمِ إِلَّا سَجَدَ فَأَخَذَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ كَفًّا مِنْ حَصَى أَوْ تَرَابٍ فَرَفَعَهُ إِلَى وَجْهِهِ وَقَالَ: يَكْفِينِي هَذَا قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: «فَلَقَدْ رَأَيْتَهُ بَعْدَ قَتْلِ كَافِرًا».

وأخرج البخاري^(٤) من حديث ابن عباس رَوَاهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَجَدَ بِالنَّجْمِ وَسَجَدَ مَعَهُ الْمُسْلِمُونَ وَالْمَشْرُكُونَ وَالْجِنُّ وَالْإِنْسُ.

(١) أخرجه مسلم (٤٨٩).

(٢) أخرجه مسلم (٤٨٢).

(٣) أخرجه البخاري (١٠٧٠)، ومسلم (٥٧٦).

(٤) البخاري (١٠٧١).

أما كونه لم يسجد فيها ففي الصحيحين^(١) من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: قرأت على النبي ﷺ (والنجم) فلم يسجد فيها.

أما الدليل الثاني على عدم وجوب سجود التلاوة فما أخرجه البخاري^(٢) من طريق ربيعة بن عبد الله بن الهدير التيمي - قال أبو بكر (ابن أبي مليكة) وكان ربيعة من خيار الناس - عما حضر ربيعة من عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأ يوم الجمعة على المنبر بسورة النحل، حتى إذا جاء السجدة نزل فسجد وسجد الناس، حتى إذا كانت الجمعة القابلة قرأ بها حتى إذا جاء السجدة نزل فسجد وسجد الناس، قال: يا أيها الناس، إننا نمُرُّ بالسجود فمن سجد فقد أصاب، ومن لم يسجد فلا إثم عليه. ولم يسجد عمر رضي الله عنه، وزاد نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما: إن الله لم يفرض علينا السجود إلا أن نشاء.

أما الدليل الثالث على عدم وجوب سجدة التلاوة فهو قول رسول الله ﷺ للأعرابي لما سألته عن الصلوات المفروضة فقال: «خمس صلوات في اليوم واليلة» قال: هل عليّ غيرهن، قال: «لا إلا أن تطوع»^(٣).

هذا، وبلاستحباب قال جمهور العلماء كما نقله عنهم النووي في التبيان في آداب حملة القرآن هذا، وقد ذهب بعض أهل العلم إلى الوجوب كالأحناف حيث نقله عنهم الطحاوي في شرح معاني الآثار^(٤).

واستدلوا بالعمومات كقوله تعالى: ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ ﴿النجم: ٦٢﴾، وكقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ ﴿الانشقاق: ٢١﴾.

(١) البخاري (١٠٧٣)، ومسلم (٥٧٧).

(٢) البخاري (١٠٧٧).

(٣) البخاري (١٠٧٣)، ومسلم (٥٧٧).

(٤) (٣٥٥/١).

وبحديث أبي هريرة الوارد في فضل السجود، وقد تقدم عند مسلم وفيه قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا قَرَأَ ابْنُ آدَمَ السَّجْدَةَ فَسَجَدَ؛ اغْتَرَلَ الشَّيْطَانُ يَبْكِي يَقُولُ: يَا وَيْلَهُ أُمِرَ ابْنُ آدَمَ بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ فَلَهُ الْجَنَّةُ، وَأُمِرْتُ بِالسُّجُودِ فَأَبَيْتُ فَلِيَ النَّارُ».

وأجيب على الآيات بأن المراد بقوله: ﴿فَأَسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ ﴿١﴾ يتحقق بسجود الصلاة المفروضة وكذا سائر الأوامر والله أعلم.

السجود والطهارة

س: هل تشترط الطهارة لسجود التلاوة؟

ج: ذهب جمهور أهل العلم إلى اشتراط الطهارة لسجود التلاوة قياساً على الصلاة، بل وادعى بعضهم أن الإجماع منعقد على ذلك.

قال ابن عبد البر^(١): إجماع من الفقهاء أنه لا يسجد أحد سجدة التلاوة إلا على طهارة.

ونفى ابن قدامة والقرطبي الخلاف في أن سجود القرآن يحتاج إلى ما تحتاج إليه الصلاة من طهارة حدث ونجس ونية واستقبال قبله ووقت.

هذا، والإجماع المنقول فيه نظر، فقد ذهب ابن حزم وابن تيمية والصنعاني والشوكاني وآخرون إلى أنه لا يلزم الوضوء لسجود التلاوة، واستدلوا بأدلة منها أن النبي ﷺ لما قرأ سورة النجم وبلغ قوله تعالى: ﴿فَأَسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ ﴿١﴾، سجد وسجد جميع من كانوا معه من المسلمين والمشركين والجن... الحديث، وقد تقدم.

قالوا: ويبعد أن يكون الجميع على وضوء وأجيب على هذا بأن الوضوء

(١) الاستذكار (٨/ ١١٠).

لم يكن فرض آنذاك.

واستدلوا أيضًا بحديث صلاة الليل مثنى مثنى، والسجدة ليست كذلك فليست بداخلة في أحكام الصلاة، وثم استدلالات آخر.

قال ابن حزم رَحِمَهُ اللهُ^(١):

وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ وَالسُّجُودُ فِيهِ وَمَسُّ الْمُصْحَفِ وَذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى جَائِزٌ، كُلُّ ذَلِكَ بِوُضُوءٍ وَبِغَيْرِ وُضُوءٍ وَلِلْجَنَبِ وَالْحَائِضِ.

بُرْهَانُ ذَلِكَ أَنَّ قِرَاءَةَ الْقُرْآنِ وَالسُّجُودَ فِيهِ وَمَسُّ الْمُصْحَفِ وَذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى أَفْعَالٌ خَيْرٌ مَندُوبٌ إِلَيْهَا مَا جُوزَ فَاعِلُهَا، فَمَنْ ادَّعَى الْمَنَعَ فِيهَا فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ كُلَّفَ أَنْ يَأْتِيَ بِالْبُرْهَانِ. وَأَمَّا سُجُودُ الْقُرْآنِ فَإِنَّهُ لَيْسَ صَلَاةً أَصْلًا.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ:

وعلى هذا «أي: سجدة التلاوة» فليست صلاة فلا تشترط لها شروط الصلاة بل تجوز على غير طهارة، كما كان ابن عمر يسجد على غير طهارة لَكِنْ هِيَ بِشُرُوطِ الصَّلَاةِ أَفْضَلُ وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُخْلَ بِذَلِكَ إِلَّا لِعُذْرٍ. فَالْسُّجُودُ بِلا طَهَارَةٍ خَيْرٌ مِنَ الْإِخْلَالِ بِهِ وَعَلَى هَذَا تَرْجَمَ الْبُخَارِيُّ فَقَالَ: (بَابُ سَجْدَةِ الْمُسْلِمِينَ مَعَ الْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكُ نَجِسٌ لَيْسَ لَهُ وَضُوءٌ...). وذكر أثر ابن عمر وحديث ابن مسعود.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ جِنْسَ الْعِبَادَةِ لَا تُشْتَرَطُ لَهُ الطَّهَارَةُ بَلْ إِنَّمَا تُشْتَرَطُ لِلصَّلَاةِ. فَكَذَلِكَ جِنْسُ السُّجُودِ يُشْتَرَطُ لِبَعْضِهِ وَهُوَ السُّجُودُ الَّذِي لِلَّهِ كَسُّجُودِ الصَّلَاةِ وَسَجَدَتْنِي السَّهْوِ بِخِلَافِ سُجُودِ التَّلَاوَةِ وَسُجُودِ الشُّكْرِ وَسُجُودِ الْآيَاتِ.

(١) المحلي (١/٧٩).

وَمِمَّا يُدُلُّ عَلَى ذَلِكَ: أَنَّ اللَّهَ أَخْبَرَ عَنْ سُجُودِ السَّحَرَةِ لَمَّا آمَنُوا بِمُوسَى عَلَى وَجْهِ الرِّضَا بِذَلِكَ السُّجُودِ وَلَا رَيْبَ أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا مُتَوَضِّعِينَ وَلَا يَعْرِفُونَ الْوُضُوءَ . فَعُلِمَ أَنَّ السُّجُودَ الْمُجَرَّدَ لِلَّهِ مِمَّا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ صَاحِبُهُ مُتَوَضِّعًا وَشَرَعَ مَنْ قَبْلُنَا شَرْعٌ لَنَا مَا لَمْ يَرِدْ شَرْعُنَا بِخِلَافِهِ .

وَهَذَا سُجُودُ إِيْمَانٍ وَنَظِيرُهُ «الَّذِينَ أَسْلَمُوا فَأَعْتَصَمُوا بِالسُّجُودِ...» وَمِمَّا يُدُلُّ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ أَمَرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَيَقُولُوا : حِطَّةٌ . وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَمْ يَأْمُرْهُمْ بِوُضُوءٍ وَلَا كَانَ الْوُضُوءُ مَشْرُوعًا لَهُمْ . بَلْ هُوَ مِنْ خَصَائِصِ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ وَسَوَاءٌ أَرِيدَ السُّجُودُ بِالْأَرْضِ أَوْ الرُّكُوعُ

وَأَيْضًا: فَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ بِالسُّجُودِ الْمُجَرَّدِ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ﴾ [مريم: ٥٨] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ وَلَمْ يَكُونُوا مَأْمُورِينَ بِالْوُضُوءِ . اهـ .

وقال الصنعاني^(١):

واختلفوا أيضًا هل يشترط فيها ما يشترط في الصلاة من الطهارة وغيرها فاشترط ذلك جماعة وقال قوم لا يشترط... **ثم قال:** والأصل أنه لا يشترط الطهارة إلا بدليل وأدلة وجوب الطهارة وردت للصلاة والسجدة لا تسمى صلاة فالدليل على من شرط ذلك.

وقال الشوكاني^(٢):

ليس في أحاديث سجود التلاوة ما يدل على اعتبار أن يكون الساجد متوضئًا وقد كان يسجد معه ﷺ من حضر تلاوته ولم ينقل أنه أمر أحدًا منهم

(١) سبل السلام (١/ ٣٥٤).

(٢) نيل الأوطار (٥/ ٣٤٧).

بالوضوء ويبعد أن يكونوا جميعاً متوضئين، وأيضاً قد كان يسجد معه المشركون كما تقدم وهم أنجاس لا يصح وضوؤهم.

قلت: فالحاصل أن أكثر العلماء على إيجاب الوضوء لسجود التلاوة قياساً على الصلاة والقائلون بعدم اعتبار القياس، أو القائلون بأن القياس هنا لا يتم قالوا بجواز السجود بلا وضوء.

وليس في المسألة دليل واضح يدل على إيجاب الوضوء لسجود التلاوة، والله أعلم.



س: هل للحائض أن تسجد للتلاوة؟

ج: ذهب الجمهور من أهل العلم إلى أن الحائض لا تسجد سجدة التلاوة قياساً منهم للسجود على الصلاة، واشترطهم للسجود ما يشترط للصلاة على ما قد تقدم.

بينما ذهب بعض أهل العلم إلى جواز ذلك لها وقد بينا بعض أدلتهم فيما سبق كسجود من سجد مع رسول الله ﷺ لما قرأ آية النجم ﴿فَأَسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ ويبعد أن يكون الجميع على وضوء، وكذا فقد ورد عن الزهري وقتادة القول بأنها: تسجد^(١).



(١) انظر مصنف عبد الرزاق (١/ ٣٢١).

المستمع وسجود التلاوة

س: هل يشرع للمستمع أن يسجد للتلاوة؟

ج: نعم يشرع له أن يسجد للتلاوة لأثر ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ علينا السورة فيها السجدة فيسجد ونسجد حتى ما يجد أحدنا موضع جبهته ^(١).

التكبير لسجود التلاوة

س: هل يُكبر الشخص عند الهوي لسجود التلاوة؟

ج: ذهب جمهور أهل العلم إلى مشروعية التكبير لسجود التلاوة مستدلين بحديث ابن عمر قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ علينا القرآن، فإذا مرَّ بالسجدة كبر وسجد وسجدنا إلا أن هذا الحديث ضعيف الإسناد ^(٢).
واستدلوا أيضًا بالقياس على الصلاة المعتادة فالشخص فيها يكبر عند كل خفض ورفع والله أعلم.

س: هل يشرع للشخص أن يقرأ سورة فيها سجدة تلاوة في الصلاة السرية؟

ج: إذا كان المصلي يصلي صلاة سرية منفردًا فلا بأس.
أما إذا كان إمامًا فيرى جمهور العلماء أن ذلك يكره له لما يُحدثه هذا الصنيع من التباس عند المصلين.
بينما ذهب بعض أهل العلم ^(٣) إلى جواز ذلك بلا كراهة؛ منهم الإمام الشافعي رحمته الله، ومن أدلتهم حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم سجد في صلاة

(١) البخاري (١٠٧٥).

(٢) أخرجه أبو داود (١٤١٣)، وفي إسناده عبد الله بن عمر العمري (مكبر الاسم مصغر في الرواية).

(٣) انظر فتح الباري (٢/٦٥١)، وابن قدامة في المغني (٢/٣٧١).

الظهر، ثم قام فركع، فرأينا أنه قرأ تنزيل السجدة إلا أن الحديث ضعيف^(١).

العاجز عن سجدة التلاوة

س: ماذا يفعل من قرأ آية السجدة أو استمعها ولم يستطع السجود لكونه كان ماشياً أو راكباً ولم يستطع السجود؟

ج: الذي يظهر لي - والله تعالى أعلم - أنه يومئ برأسه، فالنبي ﷺ كان يصلي النافلة على الراحلة في السفر أينما توجهت يومئ^(٢).
فالسجود من باب أولى.

ثم إن الله ﷻ قال: ﴿لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].



س: إذا قرأ الشخص آية فيها سجدة وهو جالس هل يقوم كي يسجد للتلاوة من قيام أم أنه يسجد من جلوسه؟

ج: الظاهر - والله أعلم - أنه يسجد من جلوسه، إذ لا يوجد دليل مُلزم بأن يسجد من قيام، ثم إن رسول الله ﷺ لما سجد عند قراءة آية النجم ﴿فَاتَّخِذُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ وسجد مَنْ كانوا معه لم يرد أنهم قاموا للسجود، وكذا عمر لما نزل من على المنبر فسجد بالناس (الذي يستمعون الخطبة) لم يرد أنهم قاموا وسجدوا فالأظهر والله أعلم أن الأمر في ذلك واسع والأقرب أن يسجد من جلوسٍ ولا يُلزم بقيام والله أعلم.

هل لسجود التلاوة ذكر مخصوص؟

س: هل هناك ذكرٌ معين يُقال في سجود التلاوة؟

(١) أخرجه أبو داود (٨٠٧)، وفي سنده ضعف أشرت إليه قريباً.

(٢) أخرجه البخاري (١٠٩٦)، ومسلم (٧٠٠).

ج: لا أعلم خبراً صحيحاً عن رسول الله ﷺ في ذلك؛ وإنما هي سجدة كسائر السجرات يُقال فيها ما يُقال في سائر السجرات.

هذا، وقد وردت في هذا الصدد أحاديث في أسانيدھا ضعف، منها حديث عائشة رضي الله عنها قالت: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ فِي سُجُودِ الْقُرْآنِ بِاللَّيْلِ يَقُولُ فِي السَّجْدَةِ مَرَّارًا: «سَجَدَ وَجْهِي لِلَّذِي خَلَقَهُ وَشَقَّ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ»^(١).

وفي رواية ابن خزيمة: يقول ذلك ثلاث مرات. وفي رواية الحاكم: «فبارك الله أحسن الخالقين».

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي رَأَيْتُنِي اللَّيْلَةَ وَأَنَا نَائِمٌ كَأَنِّي أَصْلِي خَلْفَ شَجَرَةٍ، فَسَجَدْتُ فَسَجَدَتِ الشَّجَرَةُ لِسُجُودِي فَسَمِعَتْهَا وَهِيَ تَقُولُ: اللَّهُمَّ اكْتُبْ لِي بِهَا عِنْدَكَ أَجْرًا، وَضَعْ عَنِّي بِهَا وَزْرًا، وَاجْعَلْهَا لِي عِنْدَكَ ذُخْرًا، وَتَقَبَّلْهَا مِنِّي كَمَا تَقَبَّلْتَهَا مِنْ عَبْدِكَ دَاوُدَ.

قَالَ الْحَسَنُ: قَالَ لِي ابْنُ جُرَيْجٍ: قَالَ لِي جَدُّكَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَقَرَأَ النَّبِيُّ ﷺ سَجْدَةً ثُمَّ سَجَدَ. قَالَ: فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما فَسَمِعْتُهُ وَهُوَ يَقُولُ مِثْلَ مَا أَخْبَرَهُ الرَّجُلُ عَنْ قَوْلِ الشَّجَرَةِ^(٢).

وهناك قول لبعض أهل العلم أنه يتلو قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ١٠٨].

هل يُسَلَّم من سجود التلاوة؟

س: هل هناك تسليم إذا قام الشخص من سجود التلاوة؟

(١) أحمد (٣١/٦)، وأبو داود (١٤١٤)، وابن خزيمة (٥٦٥)، والبيهقي (٣٢٥/٢)، وهو معلول، وانظر العلل للدارقطني (٣٩٥/١٤).

(٢) أخرجه الترمذي (٥٧٩)، وابن خزيمة وغيره (٥٦٣)، وفي سنده حسن بن محمد وهو مجهول العين.

ج: لا أحفظ عن رسول الله ﷺ دليلاً على التسليم من سجود التلاوة، ومن ثم فقد ذهب كثير من العلماء إلى أنه ليس في سجود التلاوة تسليم؛ إذ لم يرد أن النبي ﷺ سلم من سجود التلاوة، ونُقِلَ هذا عن أبي حنيفة ومالك وقول عن الشافعي وأحمد^(١).

هذا، وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أنه يشرع التسليم عقب سجود التلاوة قياساً على الصلاة فالنبي ﷺ قال: «..وتحريمها التكبير وتحليلها التسليم»، وهو الصحيح عن الشافعي^(٢) وأحمد وإسحاق وغيرهم.



السجود في أوقات الكراهة

س: هل يسجد الشخص للتلاوة في أوقات الكراهة؟

ج: لا أعلم نصاً محفوظاً في ذلك عن النبي ﷺ بخصوص سجود التلاوة لا منعاً ولا إباحة إلا أن كثيراً من العلماء قاسوا ذلك على الصلاة فالذين منعوا من الصلاة بعد العصر حتى تغرب الشمس وبعد الصبح حتى تطلع الشمس وعندما يقوم قائم الظهيرة منعوا كذلك من السجود، والذين أباحوا الصلاة (خاصة ذوات الأسباب) أباح كثير منهم سجود التلاوة في أوقات الكراهة، أما النواهي عن الصلاة في الأوقات المذكورة فمنها حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: نهى رسول الله ﷺ عن الصلاة بعد الفجر حتى تطلع الشمس، وبعد العصر حتى تغرب الشمس^(٣).

(١) انظر التبيان في آداب حملة القرآن للنووي، وكذا التمهيد لابن عبد البر (١٩/ ١٣٤).

(٢) انظر التبيان للنووي والإنصاف للمرداوي (٢/ ١٩٨).

(٣) البخاري (٥٨١)، ومسلم (٨٢٦).

ولهذا الحديث عدة طرق عن رسول الله ﷺ (١).

ومنها حديث عمرو بن عَبَسَةَ أنه سأل النبي ﷺ قال: أَخْبِرْنِي عَنِ الصَّلَاةِ؟ قَالَ: «صَلِّ صَلَاةَ الصُّبْحِ ثُمَّ أَقْصِرْ عَنِ الصَّلَاةِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ حَتَّى تَرْتَفِعَ؛ فَإِنَّهَا تَطْلُعُ حِينَ تَطْلُعُ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ وَحِينَئِذٍ يَسْجُدُ لَهَا الْكُفَّارُ، ثُمَّ صَلِّ فَإِنَّ الصَّلَاةَ مَشْهُودَةٌ مَحْضُورَةٌ حَتَّى يَسْتَقِلَّ الظِّلُّ بِالرُّمَحِ، ثُمَّ أَقْصِرْ عَنِ الصَّلَاةِ فَإِنَّ حِينَئِذٍ تُسَجَّرُ جَهَنَّمُ، فَإِذَا أَقْبَلَ الْفَيْءُ فَصَلِّ فَإِنَّ الصَّلَاةَ مَشْهُودَةٌ مَحْضُورَةٌ حَتَّى تُصَلِّيَ الْعَصْرَ، ثُمَّ أَقْصِرْ عَنِ الصَّلَاةِ حَتَّى تَغْرُبَ الشَّمْسُ فَإِنَّهَا تَغْرُبُ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ وَحِينَئِذٍ يَسْجُدُ لَهَا الْكُفَّارُ» (٢).

وَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ الْجُهَنِيِّ قَالَ: «ثَلَاثُ سَاعَاتٍ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَنْهَانَا أَنْ نُصَلِّيَ فِيهِنَّ أَوْ أَنْ نَقْبِرَ فِيهِنَّ مَوْتَانَا: حِينَ تَطْلُعُ الشَّمْسُ بَارِغَةً حَتَّى تَرْتَفِعَ، وَحِينَ يَقُومُ قَائِمُ الظَّهِيرَةِ حَتَّى تَمِيلَ الشَّمْسُ، وَحِينَ تَضَيِّفُ الشَّمْسُ لِلْغُرُوبِ حَتَّى تَغْرُبَ» (٣).

أما الذين جَوَّزُوا الصَّلَاةَ بَعْدَ الْعَصْرِ (ذَوَاتِ الْأَسْبَابِ) فَمِنْ أَدْلَتِهِمْ: حَدِيثُ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَنْهَى عَنْهَا «أَي: الرُّكْعَتَيْنِ بَعْدَ الْعَصْرِ» ثُمَّ رَأَيْتُهُ يُصَلِّيهِمَا حِينَ صَلَّى الْعَصْرَ... قَالَ: يَا بِنْتُ أَبِي أُمَيَّةَ سَأَلْتِ عَنِ الرُّكْعَتَيْنِ بَعْدَ الْعَصْرِ، وَإِنَّهُ أَتَانِي نَاسٌ مِنْ عَبْدِ الْقَيْسِ فَشَعَلُونِي عَنِ الرُّكْعَتَيْنِ اللَّتَيْنِ بَعْدَ الظُّهْرِ فَهُمَا هَاتَانِ (٤).

(١) انظر البخاري (٥٨٦)، ومسلم (٨٢٧).

(٢) مسلم (٨٣٢).

(٣) مسلم (٨٣١).

(٤) البخاري (١٢٣٣)، ومسلم (٨٣٤).

س: إذا لم يستطع الإمام أن يقرأ سورة السجدة كاملة يوم الجمعة (في فجر الجمعة) فهل يجوز له أن يقرأ بعض الآيات فيها آية السجدة كي يسجد أم أنه لا يفعل ذلك؟

ج: الظاهر لي من أقوال أهل العلم أن هذا يجوز؛ وذلك لأن الله تبارك وتعالى قال: ﴿فَأَنقُضْ اللَّهُ مَا أَسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وقال: ﴿فَاقْرَءُوا مَا يَسَّرَ مِنْهُ﴾ [المزمل: ٢٠]، وبهذا قال عدد من العلماء^(١)، وإن كان منهم من كره ذلك، لكن ما قدمته من الأدلة يشهد لقول القائلين بالجواز، والله أعلم.



س: هل صح لقوله تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ سبب نزول؟

ج: أخرج الترمذي^(٢) بسند صحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ نزلت في انتظار الصلاة التي تدعى العتمة.



س: لماذا تتجافى جنوبهم عن المضاجع؟

ج: ذكر العلماء أسباباً لذلك:

أحدها: أنها تتجافى عن المضاجع كي يقوموا ويذكروا الله.

الثاني: أنها تتجافى عن المضاجع كي يقوموا للصلاة.

ثم اختلف هل ذلك لصلاة الفريضة أم لصلاة النافلة، فقال بعض العلماء: إن ذلك انتظاراً لصلاة العشاء.

وقال آخرون: إن ذلك لقيام الليل أي: لصلاة النافلة من الليل.

والأظهر أن ذلك لقيام الليل:

(١) قال بذلك أبو حنيفة والشافعي وغيرهم، وانظر التبيان وانظر الإشراف لابن المنذر كذلك.

(٢) أخرجه الترمذي (٣١٩٦)، وقال: هذا حديث صحيح غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

قال الطبري رحمه الله:

واختلف أهل التأويل في الصلاة التي وصفهم جل ثناؤه أن جنوبيهم تتجافى لها عن المضطجع، فقال بعضهم: هي الصلاة بين المغرب والعشاء، وقال: نزلت هذه الآية في قوم كانوا يصلون في ذلك الوقت.

وأورد بإسناد صحيح عن أنس: في قوله: ﴿تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ قال: يصلون ما بين هاتين الصلاتين.

وبإسناد صحيح عن قتادة قال أنس في قوله: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ [الذاريات: ١٧] قال: كانوا يتنقلون فيما بين المغرب والعشاء، وكذلك تتجافى جنوبيهم.

قال الطبري: وقال آخرون: عني بها صلاة المغرب.

وقال آخرون: لانتظار صلاة العتمة.

وقال آخرون: عني بها قيام الليل.

وأورد الطبري بإسناد حسن عن الحسن قال: ﴿تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ قال: قيام الليل.

وبإسناد صحيح عن ابن زيد قال: هؤلاء المتهجدون لصلاة الليل.

وقال آخرون: إنما هذه صفة قوم، لا تخلو ألسنتهم من ذكر الله.

واختار الطبري رحمه الله: أن المراد بذلك هو قيام الليل، وهذا القول هو القول الذي اختاره، وذلك لورود الحديث بذلك عن رسول الله ﷺ، ألا وهو حديث معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ أنه قال له (لمعاذ): «... أَلَا أَدُلُّكَ عَلَىٰ أَبْوَابِ الْخَيْرِ: الصَّوْمُ جَنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُكْفِّرُ الْخَطِيئَةَ، وَقِيَامُ الْعَبْدِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ» وتلا هذه الآية: ﴿تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ

يُنْفِقُونَ ﴿٤٣٦﴾.

وهو حديث صحيح^(١) بمجموع طرقه، وقد أورد الطبري له طرقاً، وقد خرجته في عدة مواطن.

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله وصف هؤلاء القوم بأن جنوبهم تنبو عن مضاجعهم، شغلاً منهم بدعاء ربهم وعبادته خوفاً وطمعاً، وذلك نبو جنوبهم عن المضاجع ليلاً؛ لأن المعروف من وصف الواصف رجلاً بأن جنبه نبا عن مضجعه، إنما هو وصف منه له بأنه جفا عن النوم في وقت منام الناس المعروف، وذلك الليل دون النهار، وكذلك تصف العرب الرجل إذا وصفته بذلك، يدلّ على ذلك قول عبد الله بن رواحة الأنصاري رَحِمَهُ اللهُ في صفة نبي الله ﷺ:

يَبْتَئُجُفَا فِي جَنْبِهِ عَنْ فِرَاشِهِ إِذَا اسْتَقَلَّتْ بِالْمُشْرِكِينَ الْمَضَاجِعُ

فإذا كان ذلك كذلك، وكان الله تعالى ذكره لم يخصص في وصفه هؤلاء القوم بالذي وصفهم به من جفاء جنوبهم عن مضاجعهم من أحوال الليل وأوقاته حالاً ووقتاً دون حال ووقت، كان واجباً أن يكون ذلك على كلّ آناء الليل وأوقاته. وإذا كان كذلك كان من صلى ما بين المغرب والعشاء، أو انتظر العشاء الآخرة، أو قام الليل أو بعضه، أو ذكر الله في ساعات الليل، أو صلى العتمة ممن دخل في ظاهر قوله: ﴿تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ لأن جنبه قد جفا عن مضجعه في الحال التي قام فيها للصلاة قائماً صلى أو ذكر الله، أو قاعداً بعد أن لا يكون مضطجعا، وهو على القيام أو القعود قادر، غير أن

(١) هو عند الطبري (٢٨٢٣٧) فما بعدها، وأخرجه عبد بن حميد في المنتخب بتحقيقي (١١٢)، وأحمد (٥/ ٢٣٠) وقد خرجته هنالك.

الأمر وإن كان كذلك، فإن توجيه الكلام إلى أنه معني به قيام الليل أعجب إليّ؛ لأن ذلك أظهر معانيه، والأغلب على ظاهر الكلام، وبه جاء الخبر عن رسول الله ﷺ.



س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿ نَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (١٦).

ج: هذا - والله أعلم -: ثناء على أهل الإيمان وكذا ترغيب لهم في قيام الليل، قال تعالى: ﴿ نَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ أي: تبتعد جنوبهم عن مواضع نومهم وتنحى عنها فيقومون من فراشهم للصلاة والذكر والدعاء فيدعون ربهم ﷻ خوفًا من عذابه وعقابه، وطمعًا في رحمته وثوابه، وفضلاً عن ذلك فإن نفعهم متعدّد وخيرهم واصل للعباد فإنهم ينفقون مما رزقهم الله وأعطاهم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: تتنحّى جنوب هؤلاء الذين يؤمنون بأيات الله، الذين وصفت صفتهم، وترتفع من مضاجعهم التي يضطجعون لنامهم، ولا ينامون ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ في عفوه عنهم، وتفضّله عليهم برحمته ومغفرته ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ في سبيل الله، ويؤدّون منه حقوق الله التي أوجبها عليهم فيه. وتتجافى: تتفاعل من الجفاء.

وأورد الطبري رحمه الله أثراً بإسناد حسن عن قتادة ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ قال: خوفًا من عذاب الله، وطمعًا في رحمة الله، ومما رزقناهم ينفقون في طاعة الله وفي سبيله.

وقال ابن كثير رحمه الله:

﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي: خوفًا من وبال عقابه، وطمعًا في جزيل

ثوابه، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ، فيجمعون بين فعل القربات اللازمة والمتعدية.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٧).

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - : فلا تعلم نفس ما أعدَّ الله ﷻ لهؤلاء الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع ويدعون ربهم خوفاً وطمعاً من النعيم الذي تستقر به الأعين ولا تنظر إلى شيء سواه، جزاء لهم على صالح أعمالهم التي عملوها في الدنيا.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: فلا تعلم نفس ذي نفس ما أخفى الله لهؤلاء الذين وصف جل ثناؤه صفتهم في هاتين الآيتين، مما تقرّ به أعينهم في جنانه يوم القيامة ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يقول: ثواباً لهم على أعمالهم التي كانوا في الدنيا يعملون.

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

وقوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: فلا يعلم أحد عظمة ما أخفى الله لهم في الجنات من النعيم المقيم، واللذات التي لم يطلع على مثلها أحد، كمّا أخفوا أعمالهم أخفى الله لهم من الثواب، جزاء وفاقاً؛ فإن الجزاء من جنس العمل.

قال الحسن: أخفى قوم عملهم فأخفى الله لهم ما لم تر عين، ولم يخطر على قلب بشر. رواه ابن أبي حاتم.



س: اذكر بعض الأحاديث الواردة في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾؟

ج: من ذلك ما يلي:

ما أخرجه البخاري ومسلم^(١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «قال الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر». قال أبو هريرة: فاقروا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾.

هكذا روى قوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ...﴾ ثم كلام أبي هريرة موقوفاً عليه، وقد وردت طرق تقوي احتمالية الرفع إلى رسول الله ﷺ.

وأخرج مسلم^(٢) من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: شهدت من رسول الله ﷺ مجلساً وصف فيه الجنة حتى انتهى. ثم قال ﷺ في آخر حديثه: «فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» ثم اقترأ هذه الآية: ﴿نَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (١٦) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧).

وأخرج مسلم^(٣) في صحيحه من حديث المغيرة بن شعبه يرفعه إلى النبي ﷺ قال: «سأل موسى عليه السلام ربه ﷻ: ما أدنى أهل الجنة منزلة؟ قال: هو رجلٌ يحيى بعد ما أدخل أهل الجنة الجنة، فيقال له: ادخل الجنة. فيقول: أي رب كيف وقد نزل الناس منازلهم، وأخذوا أخذاتهم؟ فيقال له: أترضى أن يكون لك

(١) البخاري (٤٧٧٩)، ومسلم (٢٨٢٤).

(٢) مسلم (٢٨٢٥).

(٣) مسلم (حديث ١٨٩) والظاهر أن الوقف في هذا الحديث على المغيرة بن شعبه هو الأصح، وراجع إن شئت العلل.

مِثْلُ مُلْكٍ مُلْكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا؟ فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبًّا. فَيَقُولُ: لَكَ ذَلِكَ، وَمِثْلُهُ، وَمِثْلُهُ، وَمِثْلُهُ، فَقَالَ فِي الْخَامِسَةِ: رَضِيتُ رَبًّا. فَيَقُولُ: هَذَا لَكَ وَعَشْرَةٌ أَمْثَالِهِ، وَلَكَ مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ، وَلَذَّتْ عَيْنُكَ. فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبًّا. قَالَ: رَبِّ، فَأَعْلَاهُمْ مَنْزِلَةً؟ قَالَ: أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ، غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدِي، وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ، وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٌ، قَالَ: وَمِصْدَاقُهُ فِي كِتَابِ اللَّهِ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾. وقد أُعِلَّ هذا الحديث بالوقف.



لا يستوي المؤمن مع الفاسق

س: اذكر بعض الآيات الدالة على أن المسلم لا يستوي مع الفاسق؟

ج: من هذه الآيات ما يلي:

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ﴾ [فاطر:

١٩-٢٠].

وقوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ [القلم: ٣٥].

إلى غير ذلك من الآيات.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾ (١٨).

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - : لا يستوي المصدق بوعده الله المطيع لأمره المصدق للقرآن مع الخارج عن الطاعة، والمتجه إلى التكذيب أي: لا

يستوي المؤمن مع الكافر.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: أفهذا الكافر المكذب بوعد الله ووعيده، المخالف أمر الله ونهيه، كهذا المؤمن بالله، والمصدق بوعد الله ووعيده، المطيع له في أمره ونهيه، كلا لا يستوون عند الله يقول: لا يعتدل الكفار بالله، والمؤمنون به عنده، فيما هو فاعل بهم يوم القيامة. وقال: ﴿لَا يَسْتَوُونَ﴾ فجمع، وإنما ذكر قبل ذلك اثنين: مؤمناً وفاسقاً؛ لأنه لم يرد بالمؤمن: مؤمناً واحداً، وبالفاسق: فاسقاً واحداً، وإنما أريد به جميع الفساق، وجميع المؤمنين بالله. فإذا كان الاثنان غير مصمود لهما ذهبت بهما العرب مذهب الجمع.

وقال ابن كثير رحمه الله:

يخبر تعالى عن عدله أنه لا يساوي في حكمه يوم القيامة من كان مؤمناً بآياته متبعاً لرسله، بمن كان فاسقاً، أي: خارجاً عن طاعة ربه مكذباً لرسله إليه.



س: هل صحَّ لهذه الآية الكريمة ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا﴾ سبب

نزول؟

ج: لم أقف لها على سبب نزول صحيح.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا يَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٩) وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوِيهِمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ﴾ (٢٠).

ج: بعد أن ذكر الله ﷻ أن المؤمن لا يستوي مع الكافر بين حال هؤلاء

وأولئك، فقال تعالى: ﴿أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ صدقوا المرسلين وأيقنوا بالله ورضوا به ربًّا وبالإسلام دينًا، فلهم الجنات التي يأوون إليها ويستقرون فيها ﴿نَزْلًا﴾ ضيافة وإكرامًا من الله ﷻ لهم على طاعتهم وصالح عملهم وأما الذين كفروا وخرجوا عن طاعة ربهم ﷻ وامتنعوا من الإقرار له بالوحدانية فمأواهم الذي يأوون إليه هو النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها، وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون، وكنتم له تنكرون.

قال الطبري رحمه الله:

وقوله: ﴿أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى﴾ يقول تعالى ذكره: أما الذين صدّقوا الله ورسوله، وعملوا بما أمرهم الله ورسوله، فلهم جنات المأوى: يعني بساتين المساكن التي يسكنونها في الآخرة ويأوون إليها. وقوله: ﴿نَزْلًا يَمَآكُنَاؤُا يَعْمَلُونَ﴾ يقول: نزلًا بما أنزلهموها جزاء منه لهم بما كانوا يعملون في الدنيا بطاعته. وقوله: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ يقول تعالى ذكره: وأما الذين كفروا بالله، وفارقوا طاعته ﴿فَمَأْوِيَهُمُ النَّارُ﴾ يقول: فمساكنهم التي يأوون إليها في الآخرة النار ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهِ﴾ في الدنيا ﴿تُكَذِّبُونَ﴾ أن الله أعدّها لأهل الشرك به.

وقال ابن كثير رحمه الله:

﴿أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: صدقت قلوبهم بآيات الله وعملوا بمقتضاها، وهي الصالحات ﴿فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى﴾ أي: التي فيها المساكن والدُّور والغرف العالية ﴿نَزْلًا﴾ أي: ضيافة وكرامة ﴿يَمَآكُنَاؤُا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ أي: خرجوا عن الطاعة، ﴿فَمَأْوِيَهُمُ النَّارُ﴾ ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ كقوله: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ الآية [الحج: ٢٢].

قال الفضيل بن عياض: والله إن الأيدي لموثقة، وإن الأرجل لمقيدة، وإن اللهب ليرفعهم والملائكة تقمعهم.

﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ﴾ أي: يقال لهم ذلك تقريراً وتوبيخاً.

وقال القرطبي رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى﴾ أخبر عن مقر الفريقين غداً فللمؤمنين جنات المأوى أي: يأوون إلى الجنات فأضاف الجنات إلى المأوى؛ لأن ذلك الموضع يتضمن جنات ﴿نَزْلاً﴾ أي: ضيافة والنزل: ما يُهيأ للنازل والضيف وقد مضى في آخر آل عمران وهو نصب على الحال من الجنات أي: لهم الجنات معدة ويجوز أن يكون مفعولاً له ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ أي: خرجوا عن الإيمان إلى الكفر ﴿فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ أي: مقامهم فيها ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ أي: إذا دفعهم لهب النار إلى أعلاها رُدُّوا إلى موضعهم فيها؛ لأنهم يطمعون في الخروج منها وقد مضى هذا في الحج ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ أي: يقول لهم خزنة جهنم أو يقول الله لهم: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ﴾ والذوق يستعمل محسوساً ومعنى وقد مضى في هذه السورة بيانه.

باب: فسق دون فسق

س: ذكر العلماء أن هناك فسقاً دون فسق وضح ذلك ودل عليه.

ج: إيضاحه أن الفسق منه ما هو بمعنى الكفر ومنه ما هو بمعنى المعصية أو الكبيرة، فليس كل فسق يُعدُّ كفراً، وذلك كقول النبي ﷺ: «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر» فالفسوق هنا ليس بالكفر.

وكذا: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٤] فالفسق هنا ليس بكفر.
 أما الفسق في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوِيهِمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ فالفسق هنا بمعنى الكفر، وذلك للخلود الذي يخلدون في النار، وهذا محمول على الكفر بلا شك، وكذا قوله تعالى في شأن قوم فرعون: ﴿فَاسْتَحَفَّ قَوْمُهُ، فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤] فالفسق هنا هو المكفر، والله أعلم.



س: هذه الآية الكريمة إحدى الأدلة على عدم فناء النار، وضح ذلك.

ج: إيضاحه من قوله تعالى في شأن أهل الفسق والإجرام: ﴿فَمَأْوِيهِمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ ففيه دليل على أن القوم لن يُخرجوا من النار وهناك أدلة أخر كقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَفِخَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]، وقوله تعالى: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٩]، وقوله ﷺ: «يُنَادِي مُنَادٍ... يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت». والله أعلم.



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾
(٢١) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ
مُنْتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَائِهِ
وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا
صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ
فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ
الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ
يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ
وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنْتُمْ
صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ
﴿٢٩﴾ فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَانظُرْ إِلَيْهِمْ مُنْتَظِرُونَ﴾

س: وضح معنى ما يلي:

﴿الْعَذَابِ الْأَدْنَى - مَرِيَّةٍ مِّنْ لِّقَائِهِ - أَيْمَةً - يُوقِنُونَ - يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ - يَهْدِيَهُمْ - الْأَرْضِ - الْجُرُزِ - الْفَتْحُ - يُنْظَرُونَ﴾؟

ج:

معناها	الكلمة
العذاب الأقرب الذي هو في الدنيا (وقيل: المراد المصائب في الأموال والأنفس والثمرات)	(الْعَذَابِ الْأَدْنَى) ﴿
شك من التقاءك به	(مَرِيَّةٍ مِّنْ لِّقَائِهِ) ﴿
دعاة للخير وقادة في ذلك ورؤساء في الحق	(أَيْمَةً) ﴿
يصدقون تمام التصديق	(يُوقِنُونَ) ﴿
يقضي بينهم - يحكم بينهم - يجعل هؤلاء على حدة، وأولئك على حدة	(يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ) ﴿
نبين لهم	(يَهْدِيَهُمْ) ﴿
الأرض اليابسة الغليظة التي لا نبات فيها وقد علاه التراب	(الْأَرْضِ الْجُرُزِ) ﴿
القضاء	(الْفَتْحُ) ﴿
يؤخرون - يمهلون	(يُنْظَرُونَ) ﴿



س: ما المراد بالعذاب الأدنى وما المراد بالعذاب الأكبر؟

ج: أقوى الأقوال في ذلك، والله أعلم، المصائب التي تحلُّ بالعباد في الدنيا سواء كانت في الأنفس أو في الأموال أو في الثمرات.

وإن كانت هناك أقوالٌ آخرٌ في ذلك كقول من قال إن المراد بها الحدود.

وكقول من قال: إنها ما حلَّ بالمشرّكين يوم بدر من القتل.

وكقول من قال: إنها المجاعات التي أصابتهم.

وكلُّ هذه الأقوال داخلة في القول الأول إلا أنه ينبغي التفطن إلى أمر، وهو أنهم ابتلوا بذلك قبل موتهم وقبل قتلهم، وإلا لما كان لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ كبير معنى، فهو إن قال قائل: إن ذلك ما حلَّ بهم من القتل يوم بدر فمراده -والله أعلم- ما حلَّ ببعضهم ليكون عبرة لهم وتذكرة لهم، والله أعلم. هذا، وهناك قولٌ آخر في هذا الباب أراه ضعيفاً، وهو قول من قال: إن المراد بذلك عذاب القبر، وهذا قول بعيد يتنافى مع قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: يرجعون إلى الله ويتوبون، وذلك أن التوبة لا تتأتى لأحدٍ بعد موته، والله أعلم.

* أما عن العذاب الأكبر، فالمراد به عذاب يوم القيامة - أعاذنا الله والمسلمين منه.

هذا وقد قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

وأولى الأقوال في ذلك أن يقال: إن الله وعد هؤلاء الفسقة المكذّبين بوعيده في الدنيا العذاب الأدنى، أن يذيقهموه دون العذاب الأكبر، والعذاب هو ما كان في الدنيا من بلاء أصابهم، إما شدة من مجاعة، أو قتل، أو مصائب يصابون بها، فكل ذلك من العذاب الأدنى، ولم يخصص الله تعالى ذكره، إذ وعدهم ذلك أن يعذبهم بنوع من ذلك دون نوع، وقد عذبهم بكل ذلك في الدنيا بالقتل والجوع والشدائد والمصائب في الأموال، فأوفى لهم بما وعدهم.

وقوله: ﴿دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ يقول: قيل العذاب الأكبر، وذلك عذاب يوم القيامة.

وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ يقول: كي يرجعوا ويتوبوا بتعذيبهم العذاب الأدنى.

هذا، وقد أخرج مسلم^(١) في صحيحه من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه قال: في قوله عجل: ﴿وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ قال: مصائب الدنيا والرؤوم والبطشة أو الدخان.

وقد أخرجه الطبري ولكن بلفظ مصيبات الدنيا واللزوم (بدلاً من الرؤوم، وهو الأصح، والمراد الآية الكريمة: ﴿لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ [طه: ١٢٩]).

قال الطبري:

والبطشة أو الدخان شك شعبة في البطشة أو الدخان.

وأورد الطبري من وجوه متعددة: ما مفاده أن العذاب الأكبر هو العذاب يوم القيامة والله أعلم.



الابتلاءات لإرجاع الناس إلى الله

س: كثيراً ما يُبتلى العباد لإرجاعهم إلى طريقة الله دَلَل على ذلك.

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَبَلَوْنَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ

(١) مسلم (٢٧٩٩).

يَذْكُرُونَ ﴿[الأعراف: ١٣٠].

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٤].

والأدلة على ذلك كثيرة. والله أعلم.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَمَن أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم -: ليس هناك أحدٌ أظلم من شخص ذُكر بآيات الله فأعرض عنها ونفر منها فإننا من أهل الإجماع وأهل الإعراض منتقمون.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: وأيّ الناس أظلم لنفسه ممن وعظه الله بحججه، وآي كتابه، ورسله، ثم أعرض عن ذلك كله، فلم يتعظ بمواعظه، ولكنه استكبر عنها.

وقوله: ﴿ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ يقول: إنا من الذين اكتسبوا الآثام، واجتروا السيئات منتقمون.

قال ابن كثير رحمه الله:

وقوله: ﴿ وَمَن أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ أي: لا أظلم ممن ذُكره الله بآياته وبينها له ووضحها، ثم بعد ذلك تركها وجحدها وأعرض عنها وتناساها، كأنه لا يعرفها.

قال قتادة رحمه الله: إياكم والإعراض عن ذكر الله، فإن من أعرض عن ذكره

فقد اغتر أكبر الغرّة، وأعوز أشدّ العوز، وعظم من أعظم الذنوب.
ولهذا قال تعالى متهدداً لمن فعل ذلك: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقِمُونَ﴾ أي:
سأنتقم ممن فعل ذلك أشدّ الانتقام.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أي لا أحد أظلم لنفسه ﴿مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾
أي بحججه وعلاماته ﴿ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ بترك القبول ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ
مُنْقِمُونَ﴾ لتكذيبهم وإعراضهم.



جمع "بين آيات

س: ما الجمع بين قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾
وبين قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا﴾ والآيات
التي على هذا النحو والصدد؟

ج: لأهل العلم في ذلك اتجاهان:

أحدهما: أن يكون الجميع في الظلم سواء.

الثاني: أن يكون ذلك منزلاً على الاختصاص بمعنى: ليس من المعرضين
أعظم ظلماً من المعرض عن آيات الله بعد أن ذُكر بها.
وليس من المانعين أظلم ممن منع مساجد الله أن يُذكر فيها اسمه، والله
أعلم.



س: ما الكتاب الذي آناه الله موسى ﷺ؟

ج: الكتاب هو التوراة.

س: قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ﴾ لقاء من؟

ج: المعنى - والله أعلم - : فلا تكن يا رسول الله في شكٍّ من لقاءك بموسى عليه السلام الذي كان ليلة المعراج.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ولقد آتينا موسى التوراة، كما آتيناك الفرقان يا محمد ﴿فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ﴾ يقول: فلا تكن في شكٍّ من لقاءه، فكان قتادة يقول: معنى ذلك: فلا تكن في شكٍّ من أنك لقيته، أو تلقاه ليلة أسري بك، وبذلك جاء الأثر عن رسول الله ﷺ.

وأورد بسند حسن عن قتادة^(١) عن أبي العالية الرياحي، قال: حدثنا ابن عمّ نبيكم - يعني: ابن عباس - قال: قال نبي الله ﷺ: «أُرِيتُ لَيْلَةَ أُسْرِي بِي مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ رَجُلًا آدَمَ طَوَالًا جَعْدًا، كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنْوَةَ، وَرَأَيْتُ عِيسَى رَجُلًا مَرْبُوعَ الْخَلْقِ إِلَى الْحُمْرَةِ وَالْبَيَاضِ، سَبَطَ الرَّأْسِ وَرَأَيْتُ مَالِكًا خَازِنَ النَّارِ، وَالدَّجَالَ» فِي آيَاتٍ أَرَاهَنَ اللَّهُ إِيَّاهُ، ﴿فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ﴾ أنه قد رأى موسى، ولقى موسى ليلة أسري به.

إلا أن ابن كثير رحمه الله أورد هذا الأثر من طريق قتادة^(٢) أيضًا عن أبي العالية عن ابن عباس، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾، قال: جُعِلَ موسى هُدى لبني إسرائيل، وفي قوله: ﴿فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ﴾ قال: من لقاء موسى ربه ﷻ.

فبين هذين الأثرين بعض الاختلاف والأظهر، والله أعلم أن قوله: ﴿فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ﴾ أي: لقاءك يا رسول الله بموسى عليه السلام ويشهد له ما سيأتي

(١) السند الأول من طريق يزيد عن سعيد عن قتادة، والثاني من طريق روح بن عبادة عن سعيد عن قتادة.

(٢) مسلم (٢٧٩٩).

من آثار عن قتادة رحمته الله.

وقد أورد القرطبي رحمته الله وجوهاً آخر في ذلك فقال -بعد أن أورد نحوًا مما ذكرنا-:

وقيل: فلا تكن في شك في لقاء موسى في القيامة، وستلقاه فيها. وقيل: فلا تكن في شك من لقاء موسى الكتاب بالقبول قاله مجاهد و الزجاج وعن الحسن أنه قال في معناه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ فأوذي وكذب فلا تكن في شك من أنه سيلقاك ما لقيه من التكذيب والأذى فالفاء عائدة على محذوف والمعنى من لقاء ما لاقى. النحاس: وهذا قول غريب إلا أنه من رواية عمرو بن عبيد وقيل في الكلام تقديم وتأخير والمعنى: قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم فلا تكن في مرية من لقائه فجاء معترضاً بين ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ وبين ﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾.



س: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ (٢٢) ﴿جعلنا من؟

ج: قيل: جعلنا الكتاب الذي آتيناه موسى عليه السلام، وهو التوراة هدى لبني إسرائيل يهتدون بها ويسترشدون قال تعالى: ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٢]، وبهذا القول قال ابن كثير قال: قوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُ﴾ أي: الكتاب الذي آتيناه موسى عليه السلام.

والقول الثاني: أن قوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُ﴾ عائدٌ على موسى عليه السلام، ويشهد له الخبر المتقدم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من طريق قتادة عن أبي العالية عن ابن عباس. والله أعلم.

وهذا الأخير اختيار الطبري إذ قال:

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ يقول تعالى ذكره: وجعلنا موسى هدى لبني إسرائيل، يعنى: رشاداً لهم يرشدون باتباعه، ويصيرون الحق بالافتداء به، والائتمام بقوله.

وأورد بإسناد حسن عن قتادة: ﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ قال: جعل الله موسى هدى لبني إسرائيل.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ **وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوْقِنُونَ** ﴿٢٤﴾.

ج: المعنى - والله أعلم - **:** وجعلنا من بني إسرائيل قادة في الخير يهدون الناس إلى الحق والخير بإذننا لهم بذلك، وذلك أنهم لما صبروا على طاعتنا وامتنعوا عن معصيتنا، وصبروا على أقدارنا وقضائنا، وكانوا من أهل اليقين والتصديق لآياتنا، كل ذلك كان سبباً في أن جعلناهم أئمة.

فالإمامة تُنال بالصبر واليقين كما قال عددٌ من العلماء، ويشهد له قول الله ﷻ عن الخليل إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذْ أَبْنَىٰ إِبْرَاهِيمُ، بِكَامَتٍ فَاتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤] فلما قام بأوامر الله وانتهى عن نواهيه قال الله له إني جاعلك للناس إماماً.

وبنحو هذا قال العلماء.

قال الطبري رحمه الله:

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً﴾.

يقول تعالى ذكره: وجعلنا من بني إسرائيل أئمة، وهي جمع إمام، الإمام الذي يؤتم به في خير أو شر، وأريد بذلك في هذا الموضع أنه جعل منهم قادة

في الخير، يؤتم بهم ويهتدى بهديهم.

وأورد بإسناد حسن عن قتادة: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ قال: رؤساء في الخير. وقوله: ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ يقول تعالى ذكره: يهدون أتباعهم وأهل القبول منهم بإذننا لهم بذلك، وتقويتنا إياهم عليه.

قال الطبري:

وقوله: ﴿وَكَاؤُوا بِأَيْدِنَا يُؤْقِنُونَ﴾ يقول: وكانوا أهل يقين بما دلتهم عليه حججنا، وأهل تصديق بما تبين لهم من الحق، وإيمان برسلنا، وآيات كتابنا وتنزيلنا.

وقال ابن كثير رحمه الله:

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِأَيْدِنَا يُؤْقِنُونَ﴾، أي: لما كانوا صابرين على أوامر الله وترك نواهيهم وزواجره وتصديق رسله واتباعهم فيما جاؤوهم به، كان منهم أئمة يهدون إلى الحق بأمر الله، ويدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر. ثم لما بدلوا وحرفوا وأولوا، سلبوا ذلك المقام، وصارت قلوبهم قاسية، يحرفون الكلم عن مواضعه، فلا عمل صالحاً، ولا اعتقاد صحيحاً؛ ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ قال قتادة وسفيان: لما صبروا عن الدنيا. وكذلك قال الحسن بن صالح.

قال سفيان: هكذا كان هؤلاء، ولا ينبغي للرجل أن يكون إماماً يُقتدى به حتى يتحامى عن الدنيا.

قال وكيع: قال سفيان: لا بد للدين من العلم، كما لا بد للجسد من الخبز. وقال ابن بنت الشافعي: قرأ أبي على عمي -أو: عمي على أبي- سئل

سفيان عن قول علي رضي الله عنه: الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ألم تسمع قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ ، قال: لما أخذوا برأس الأمر صاروا رؤوسًا.



س: من هؤلاء الأئمة الإسرائيليون الذين عناهم الله بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً﴾ ؟

ج: قال بعض أهل العلم: إنهم أنبياء بني إسرائيل.
وقال آخرون: إنهم العلماء والفقهاء العاملون من بني إسرائيل، والله أعلم.



س: في قوله تعالى: ﴿لَمَّا صَبَرُوا﴾ قراءتان وضحهما؟

ج: القراءتان هما (لَمَّا)، و(لِما).

قال الطبري رحمه الله:

وقوله: ﴿لَمَّا صَبَرُوا﴾ اختلفت القراء في قراءة ذلك، فقرأته عامة قراء المدينة والبصرة، وبعض أهل الكوفة (لَمَّا صَبَرُوا) بفتح اللام وتشديد الميم، بمعنى: إذ صبروا، وحين صبروا، وقرأ ذلك عامة قراء الكوفة (لِما) بكسر اللام وتخفيف الميم بمعنى: لصبرهم عن الدنيا وشهواتها، واجتهادهم في طاعتنا، والعمل بأمرنا، وذكر أن ذلك في قراءة ابن مسعود (بِمَا صَبَرُوا) وما إذا كسرت اللام من (لِما) في موضع خفض، وإذا فتحت اللام وشددت الميم، فلا موضع لها؛ لأنها حينئذ أداة.

والقول عندي في ذلك أنهما قراءتان مشهورتان متقاربتا المعنى، قد قرأ بكل واحدة منهما عامة من القراء فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب. وتأويل

الكلام إذا قرئ ذلك بفتح اللام وتشديد الميم، وجعلنا منهم أئمة يهدون
أتباعهم بإذننا إياهم، وتقويتنا إياهم على الهداية، إذ صبروا على طاعتنا،
وعزفوا أنفسهم عن لذات الدنيا وشهواتها. وإذا قرئ بكسر اللام على ما قد
وصفنا.



س: وضع معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (٥٥).

ج: المعنى -والله تعالى أعلم-: أن الرسل وأئمة الخير والهدى لما دعوا
بني إسرائيل إلى طريق الحق والرشاد والهدى والإيمان اختلفوا فمنهم من
اتبع الهدى ومنهم من ضل عنه وحاد، فأخبر الله ﷻ أنه يفصل بينهم يوم
القيامة، ويقضى بينهم فيما اختلفوا فيه في الدنيا من أمور الاعتقادات
والأعمال، كما قال تعالى: ﴿وَأَتَيْنَاهُم بِبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِّنْ بَعْدِ مَا
جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ [البجائية: ١٧].

قال الطبري رحمه الله:

**يقول تعالى ذكره: (إِنَّ رَبَّكَ) يا محمد (هُوَ) يبين جميع خلقه يوم القيامة (فِيمَا كَانُوا فِيهِ) في الدنيا (يَخْتَلِفُونَ) من أمور الدين والبعث والثواب والعقاب،
وغير ذلك من أسباب دينهم، فيفرق بينهم بقضاء فاصل بإيجابه لأهل الحق
الجنة، ولأهل الباطل النار.**

وقال القرطبي رحمه الله:

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي يقضي ويحكم بين المؤمنين
والكفار فيجازي كلا بما يستحق وقيل: يقضي بين الأنبياء وبين قومهم حكاة

النقاش.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ (١٦).

ج: المعنى - والله أعلم - : أولم نبين لهؤلاء المكذبين القرون الكثيرة التي أهلكناها قبلهم وأبقينا آثارهم فإنهم - أي: الذين هم أحياء - يرون آثار المتقدمين الذين أنفاهم الله ﷻ وأبادهم كما قال تعالى: ﴿وَأَنكُرُوا لَنُرَوْنَ عَلَيْهِمْ مُّصْهِحِينَ﴾ (١٧) وَيَأْتِلْ أَفَلًا تَعْقِلُونَ ﴿[الصفات: ١٣٧-١٣٨]، وكما قال تعالى في شأن ديارٍ أهلكها وأنفاها - (وَأَنهَا لَبَسِيلٌ مُّقِيمٌ) ، أي بطريق يراها المارة أثناء سفرهم وعودهم.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

يقول تعالى: أولم يهد لهؤلاء المكذبين بالرسل ما أهلك الله قبلهم من الأمم الماضية، بتكذيبهم بالرسل ومخالفتهم إياهم فيما جاؤوهم به من قويم السبل، فلم يبق منهم باقية ولا عين ولا أثر؟ ﴿هَلْ تُحِشُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم: ٩٨] ؛ ولهذا قال: ﴿يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ﴾ أي: وهؤلاء المكذبون يمشون في مساكن أولئك المكذبين فلا يرون فيها أحدا ممن كان يسكنها ويعمرها، ذهبوا منها، ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ [الأعراف: ٩٢] ، كما قال: ﴿فَإِنَّكَ بَيُّوتُهُمْ حَاوِيَةٌ يُعَاظِمُونَهَا﴾ [النمل: ٥٢] ، وقال: ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا حَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْرِىءُ مُعْطَلَةٌ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾ (٤٥) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿[الحج: ٤٥، ٤٦] ؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ أي: إن في

ذهاب أولئك القوم ودمارهم وما حل بهم بسبب تكذيبهم الرسل، ونجاة من آمن بهم، لآيات وعبراً ومواعظ ودلائل متظاهرة.

﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ أي: أخبار من تقدم، كيف كان أمرهم؟

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

﴿يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ﴾ يحتمل الضمير في يمشون أن يعود على الماشين في مساكن المهلكين أي وهؤلاء يمشون ولا يعتبرون ويحتمل أن يعود على المهلكين فيكون حالاً والمعنى: أهلكناهم ماشين في مساكنهم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ آيات الله وعظاته فيتعظون.

وقال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

أولم يبين لهم إهلاكنا القرون الخالية من قبلهم، سنتنا فيمن سلك سبيلهم من الكفر بآياتنا، فيتعظوا وينزجروا. وقوله: ﴿كَمْ﴾ إذا قرئ ﴿يَهْدُ﴾ بالياء، في موضع رفع بيهد. وأما إذا قرئ ذلك بالنون (أَوَّلَمْ نَهْدُ) فإن موضع ﴿كَمْ﴾ وما بعدها نصب.

وقال رَحِمَهُ اللهُ:

وقوله: ﴿يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ﴾ أولم يبين لهم كثرة إهلاكنا القرون الماضية من قبلهم يمشون في بلادهم وأرضهم، كعاد وثمرود.

وأورد بإسناد حسن عن قتادة: ﴿أَوَّلَمْ يَهْدِهِمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ﴾ عاد وثمرود، وأنهم إليهم لا يرجعون.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ يقول تعالى ذكره: إن في خلاء مساكن القرون الذين أهلكناهم من قبل هؤلاء المكذبين بآيات الله من قريش من أهلها الذين كانوا سكانها وعمّارها بإهلاكنا إياهم لما كذبوا رسلنا، وجحدوا بآياتنا،

وعبدوا من دون الله آلهة غيره التي يمرّون بها فيعابنونها، لآيات لهم وعظات يتعظون بها، لو كانوا أولي حجا وعقول، يقول الله: ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ عظات الله وتذكيره إياهم آياته، وتعريفهم مواضع حججه؟



س: وضح معنى قوله تعالى: (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾).

ج: المعنى - والله أعلم - : أولم ير هؤلاء المكذبون بالبعث المنكرون للحساب أننا نسوق الماء إلى الأرض اليابسة الغليظة التي لا نبات عليها، والتي علاها الغبار فنخرج به زرعاً يأكلون من ثمره وتأكل منه أنعامهم أفلا يرون ذلك واضحاً جلياً أمامهم فيستدلون بذلك على قدرتنا على البعث. وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: أولم ير هؤلاء المكذبون بالبعث بعد الموت، والنشر بعد الفناء، أننا بقدرتنا نسوق الماء إلى الأرض اليابسة الغليظة التي لا نبات فيها، وأصله من قولهم: ناقة جرز: إذا كانت تأكل كلّ شيء، وكذلك الأرض الجروز: التي لا يبقى على ظهرها شيء إلا أفسدته، نظير أكل الناقة الجراز كلّ ما وجدته، ومنه قولهم للإنسان الأكلول: جَرُوز، كما قال الراجز:

خَبَبَ جَرُوزٌ وَإِذَا وَيَأْكُلُ التمر ولا يلقى النوى

ومنه قيل للسيف إذا كان لا يبقى شيئاً إلا قطعه سيف جراز، فيه لغات أربع: أرض جُرْز، وجَرْز، وجِرْز وجُرْز، والفتح لبني تميم فيما بلغني. وأورد بسند صحيح عن عمرو بن دينار، عن ابن عباس ﴿الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾

أرض باليمن.

وبإسناد حسن عن قتادة: ﴿الْأَرْضِ الْجُرْزِ﴾ المغبرة.

وبإسناد صحيح عن ابن زيد: في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرْزِ﴾ قال: الأرض الجرز: التي ليس فيها شيء، ليس فيها نبات، وفي قوله: ﴿صَعِيدًا جُرْزًا﴾ [الكهف: ٨] قال: ليس عليها شيء، وليس فيها نبات ولا شيء.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ﴾ يقول تعالى ذكره: فنخرج بذلك الماء الذي نسوقه إليها على يبسها وغلظها وطول عهدها بالماء زرعًا خضرًا، تأكل منه مواشيهم، وتغذى به أبدانهم وأجسامهم فيعيشون به ﴿أَفَلَا يَبْصُرُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: أفلا يرون ذلك بأعينهم فيعلموا برؤيتهموه أن القدرة التي بها فعلت ذلك لا يتعذر علي أن أحیی بها الأموات، وأنشرهم من قبورهم، وأعيدهم بهيئاتهم التي كانوا بها قبل وفاتهم.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرْزِ﴾ أي أولم يعلموا كمال قدرتنا بسوقنا الماء إلى الأرض اليابسة التي لا نبات فيها لنحييها. الزمخشري: الجرز الأرض التي جرز نباتها أي قطع إما لعدم الماء وإما لأنه رعي وأزيل ويقال للتي لا تنبت كالسباخ جرز ويدل عليه قوله تعالى: ﴿فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا﴾.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿فَنُخْرِجُ بِهِ﴾ أي بالماء ﴿زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ﴾ من الكلاب والحشيش ﴿وَأَنْفُسُهُمْ﴾ من الحب والخضر والفواكه ﴿أَفَلَا يَبْصُرُونَ﴾ هذا فيعلمون أننا نقدر

على إعادتهم.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ : يبين تعالى لطفه بخلقه، وإحسانه إليهم في إرساله الماء إما من السماء أو من السبح، وهو: ما تحمله الأنهار وينحدر من الجبال إلى الأراضي المحتاجة إليه في أوقاته؛ ولهذا قال: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ ، وهي التي لا نبات فيها، كما قال تعالى: ﴿وَأِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ [الكهف: ٨]، أي: يَسَا لا تنبت شيئاً وليس المراد من قوله: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ أرض مصر فقط، بل هي بعض المقصود، وإن مثل بها كثير من المفسرين فليست المقصودة وحدها، ولكنها مرادة قطعاً من هذه الآية، فإنها في نفسها أرض رخوة غليظة تحتاج من الماء ما لو نزل عليها مطراً لتهدمت أبنيتها، فيسوق الله إليها النيل بما يتحمله من الزيادة الحاصلة من أمطار بلاد الحبشة، وفيه طين أحمر، فيغشى أرض مصر، وهي أرض سبخة مرملة محتاجة إلى ذلك الماء، وذلك الطين أيضاً لينبت الزرع فيه، فيستغلون كل سنة على ماء جديد ممطور في غير بلادهم، وطين جديد من غير أرضهم، فسبحان الحكيم الكريم المنان المحمود ابتداء.

وقال ابن كثير أيضاً:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنَخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ ، كما قال تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ (٢٤) أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَبْيْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعَبْنَا وَقَضًا (٢٨) وَزَيَّنَّا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَّيْنِ غُلًّا (٣٠) وَفَكَهْهَ وَأَبًّا (٣١) مَتَّعًا لَكُمْ وَلَآئِعِيكُمْ (٣٢) [عبس: ٢٤-٣٢]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ .

وقال:

قلت: وهذا كقوله: ﴿وَأَيُّهُمْ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ (٣٢) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ (٣٥) [يس: ٣٣-٣٥].



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٨) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ (٢٩) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانظُرْ إِلَهُهُمْ مُنْتَظَرُونَ﴾ (٣٠).

ج: المعنى - والله أعلم -: ويقول هؤلاء المكذبون بالبعث المنكرون للثواب والعقاب الجاحدون وحدانية الله المستبعدون لوقوع يوم القيامة، يقولون على سبيل السخرية والاستهزاء والتكذيب، متى هذا اليوم الذي يحصل فيه القضاء بيننا وبينكم يا أهل الإيمان؟ متى هذا القضاء والفصل، اثبتونا به، عجلوا به، فيأتي جواب ذلك من الله لنبيه ﷺ ولأهل الإيمان، قل يوم القيامة، الذي هو يوم الفصل إذا جاء وإذا حلّ ووقع لا ينفع الذين كفروا إيمانهم إذا آمنوا عند حلوله، وإذا لم يؤمنوا قبل موتهم، وكذا فإنهم لا يؤخرون عن العذاب.

فأعرض عنهم يا رسول الله في دنيالك إذ قالوا لك ﴿مَتَىٰ هَذَا الْفَتْحُ..﴾ وانتظر يا رسول الله ماذا سيحل بهم من العقاب من جراء كلامهم هذا الذي تكلموا به، وانتظر هلاكهم فإنهم يتربصون بك وينتظرون هلاكك، قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠]، والله أعلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ﴿وَقُولُوا﴾ هؤلاء المشركون بالله يا محمد، لك: ﴿مَتَى هَذَا الْفَتْحُ﴾ واختلف في معنى ذلك، فقال بعضهم: معناه: متى يجيء هذا الحكم بيننا وبينكم، ومتى يكون هذا الثواب والعقاب.

وأورد بإسناد حسن عن قتادة: في قوله: ﴿وَقُولُوا مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ قال: قال أصحاب نبي الله ﷺ: إن لنا يوماً أو شاك أن نستريح فيه وننعم فيه. فقال المشركون: ﴿مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

قال الطبري رحمه الله:

وقال آخرون: بل عنى بذلك فتح مكة.

والصواب من القول في ذلك قول من قال: معناه: ويقولون متى يجيء هذا الحكم بيننا وبينكم، يعنون العذاب، يدل على أن ذلك معناه قوله: ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ ولا شك أن الكفار قد كان جعل الله لهم التوبة قبل فتح مكة وبعده، ولو كان معنى قوله: ﴿مَتَى هَذَا الْفَتْحُ﴾ على ما قاله من قال: يعني به فتح مكة، لكان لا توبة لمن أسلم من المشركين بعد فتح مكة، ولا شك أن الله قد تاب على بشر كثير من المشركين بعد فتح مكة، ونفعهم بالإيمان به وبرسوله، فمعلوم بذلك صحة ما قلنا من التأويل، وفساد ما خالفه. وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ يعنى: إن كنتم صادقين في الذي تقولون، من أنا معاقبون على تكذيبنا محمداً ﷺ، وعبادتنا الآلهة والأوثان.

وقوله: (قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ) يقول لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لهم يوم الحكم، ومجيء العذاب: لا ينفع من كفر بالله وبآياته إيمانهم الذي يحدثونه في ذلك الوقت.

وأورد بإسناد صحيح، عن ابن زيد قال: في قوله: ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ

كَفَرُوا إِيْمَنُهُمْ ﴿٨٣﴾ قال: يوم الفتح إذا جاء العذاب.

قال الطبري:

وقوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ يقول: ولا هم يؤخرون للتوبة والمراجعة. وقوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ وَأَنْتَظِرُ إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ ﴿٨٣﴾ يقول لنبيه محمد ﷺ: فأعرض يا محمد عن هؤلاء المشركين بالله، القائلين لك: متى هذا الفتح المستعجل لك بالعذاب، وانتظر ما الله صانع بهم، إنهم منتظرون ما تعدهم من العذاب ومجيء الساعة.

وأورد بإسناد حسن عن قتادة قال: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ وَأَنْتَظِرُ إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ ﴿٨٣﴾ يعني يوم القيامة.

وقال ابن كثير رحمه الله:

يقول تعالى مخبراً عن استعجال الكفار وقوع بأس الله بهم، وحلول غضبه ونقمته عليهم، استبعاداً وتكذيباً وعناداً: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ﴾ ؟ أي: متى تنصر علينا يا محمد؟ كما تزعم أن لك وقتاً تدال علينا، ويُنتقم لك منا، فمتى يكون هذا؟ ما نراك أنت وأصحابك إلا مختفين خائفين ذليلين!

قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ﴾ أي: إذا حلَّ بكم بأس الله وسخطه وغضبه في الدنيا وفي الأخرى، ﴿لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ ، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَافَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٨٣) ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بِأَسَنًا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ (٨٤) ﴿فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بِأَسَنًا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ٨٣-٨٥] ، ومن زعم أن المراد من هذا الفتح فتح مكة فقد أبعد النجعة، وأخطأ فأفحش، فإن يوم الفتح قد قبل رسول الله ﷺ إسلام

الطلاق، وقد كانوا قريباً من ألفين، ولو كان المراد فتح مكة لما قبل إسلامهم؛ لقوله: ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ ، وإنما المراد الفتح الذي هو القضاء والفصل، كقوله تعالى: ﴿فَأَفْنَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١١٨] ، وكقوله: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ [سبأ: ٢٦] ، وقال تعالى: ﴿وَأَسْتَفْتِحُوا وَحَابَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٥] ، وقال: ﴿وَكَاوُأُ مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة: ٨٩] ، وقال: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ [الأنفال: ١٩] .

ثم قال: ﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَضِرُونَ﴾ أي: أعرض عن هؤلاء المشركين وبلغ ما أنزل إليك من ربك، كقوله: ﴿اتَّبِعْ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٠٦] ، وانتظر فإن الله سينجز لك ما وعده، وسينصرك على من خالفك، إنه لا يخلف الميعاد.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ﴾ أي: أنت منتظر، وهم منتظرون، ويتربصون بكم الدوائر، ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَبُّنَا مَنْوِنٌ﴾ [الطور: ٣٠] ، وسترى أنت عاقبة صبرك عليهم وعلى أداء رسالة الله، في نصرتك وتأيدك، وسيجدون غم ما ينتظرونه فيك وفي أصحابك، من وبيل عقاب الله لهم، وحلول عذابه بهم، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

قال الشنقيطي رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٨) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ .

أظهر أقوال أهل العلم عندي هو أن الفتح في هذه الآية الكريمة هو الحكم والقضاء، وقد قدمنا أن الفتاح: القاضي، وهي لغة حميرية قديمة، والفتاحة:

الحكم والقضاء، ومنه قوله:

ألا من مبلغ عمرًا رسولا بأني عن فتاحتكم غني

وقد جاءت آيات تدلّ على أن الفتح الحكم؛ كقوله تعالى عن نبيّه شعيب: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩]، أي: احكم بيننا بالحق، وأنت خير الحاكمين.

وقوله تعالى عن نبيّه نوح: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾ (١١٧) فَأَفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتَحًا ﴿[الشعراء: ١١٧-١١٨]، أي: احكم بيني وبينهم حكماً. وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ [سبأ: ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ [الأنفال: ١٩]، أي: إن تطلبوا الحكم بهلاك الظالم منكم، ومن النبي ﷺ فقد جاءكم الفتح، أي: الحكم بهلاك الظالم وهو هلاكهم يوم بدر؛ كما قاله غير واحد. وقد ذكروا أنهم لما أرادوا الخروج إلى بدر، جاء أبو جهل، وتعلّق بأستار الكعبة، وقال: اللَّهُمَّ إنا قطان بيتك نسقي الحجيح، ونفعل ونفعل، وإن محمّداً قطع الرحم وفرّق الجماعة، وعاب الدّين، وشتّم الآلهة، وسفّه أحلام الآباء، اللهم أهلك الظالم منّا ومنه، فطلب الحكم على الظالم، فجاءهم الحكم على الظالم فقتلوا بيدر، وصاروا إلى الخلود في النار، إلى غير ذلك من الآيات.

وعلى قول من قال من أهل العلم: إن المراد بالفتح في الآية الحكم والقضاء

بينهم يوم القيامة، فلا إشكال في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَتُهُمْ﴾، وعلى القول بأن المراد بالفتح في الآية الحكم بينهم في الدنيا بهلاك الكفار، كما وقع يوم بدر. فالظاهر أن معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَتُهُمْ﴾، أي: إذا عاينوا الموت وشاهدوا القتل، بدليل قوله تعالى:

﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بُاسَنَا قَالُوا ءَأَمَّنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ، وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴾ (٨٤) فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بُاسَنَا سُنَّتَ اللّٰهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿ [غافر: ٨٤-٨٥]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْفَنَ ﴾ [النساء: ١٨]، وقوله تعالى في فرعون: ﴿ حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرْفُ قَالَ ءَأَمَّنْتُ أَنَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَّنْتُ بِهِ، بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (٩٠) ءَالْفَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿ [يونس: ٩٠-٩١]. ولا يخفى أن قول من قال من أهل العلم: إن الفتح في هذه الآية فتح مكة أنه غير صواب، بدليل قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ ﴾ ومعلوم أن فتح مكة لا يمنع انتفاع المؤمن في وقته بإيمانه، كما لا يخفى.

وقال القرطبي رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿ فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ ﴾ قيل: معناه فأعرض عن سفسهم ولا تجبهم إلا بما أمرت به ﴿ وَأَنْتَظِرُ إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ ﴾ أي انتظر يوم الفتح يوم يحكم الله لك عليهم ابن عباس: فأعرض عنهم أي عن مشركي قريش مكة وأن هذا منسوخ بالسيف في براءة في قوله: ﴿ فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾ [التوبة: ٥] وانتظر أي موعدي لك قيل: يعني يوم بدر ﴿ إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ ﴾ أي ينتظرون بكم حوادث الزمان وقيل: الآية غير منسوخة إذ قد يقع الإعراض مع الأمر بالقتال كالهذنة وغيرها وقيل: أعرض عنه بعد ما بلغت الحجة وانتظر إنهم منتظرون إن قيل: كيف ينتظرون القيامة وهم لا يؤمنون؟ ففي هذا جوابان: أحدهما: أن يكون المعنى إنهم منتظرون الموت وهو من أسباب القيامة فيكون هذا مجازا والآخر: أن فيهم من يشك وفيهم من يؤمن بالقيامة فيكون هذا جوابا لهذين الصنفين والله أعلم وقرأ ابن السميع: (إنهم

منتظرون) بفتح الظاء ورويت عن مجاهد و ابن محيصن قال الفراء : لا يصح هذا إلا بإضمام مجازه : إنهم منتظرون بهم قال أبو حاتم : الصحيح الكسر أي انتظر عذابهم إنهم منتظرون هلاكك وقد قيل : إن قراءة ابن السميعة بفتح الظاء معناها : وانتظر هلاكهم فإنهم أحقأ بأن ينتظر هلاكهم يعني أنهم هالكون لا محالة وانتظر ذلك فإن الملائكة في السماء ينتظرونه؛ ذكره الزمخشري وهو معنى قول الفراء والله أعلم .

